

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



تجليد صالح الدقر
٧٢٩٧٧ تلخون

824. 63
L21842
822.33
S527EEA
بجته التأليف والترجمة والنشر

قَصَصٌ مِنْ شِكْسِير

كتبها

تشارلس لام ، ميري لام

وترجمها

محمد بن زرك

مدير إدارة الترجمة بوزارة المعارف

وصدرها بمقدمة في شيكسبير وشعره

67738

العدد الحادي عشر

عَيُونُ الْأَدَبِ الْفَرَبِيِّ

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

القاهرة

طبعة المؤلف والنشر

١٩٤٣

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

٨٤٢٢٢

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة



بعد انتقال غابة برنم إلى دنسین
مکبث ومکدف یقتلان

T
mi
w
mu
ds
Tw
me
C
k
Ma
al
Co
mea
Twe
Ti
R
ha
a
p
s

king Henry VI = ki
Julius = ju

الفهرس

صفحة

١ ... مقدمة الترجمة : شيكسبير وشعره

١ ... تمهيد

٤ ... Tempest ... العاصفة

١٦ ... A midsummer night's dream ... حلم ليلة في منتصف الصيف

٢١ ... the winter's Tale ... قصة الشتاء

٤٠ ... Much ado about nothing ... جعجعة بلا طحن

٥٣ ... As you like it ... كما تحب

٦٩ ... the two gentlemen of Verona ... سيدان من أهل فيرونا

٨٢ ... The merchant of Venice ... تاجر البندقية

٩٥ ... Cymbeline ... سيمبلين

١٠٩ ... King Lear ... الملك لير

١٢٣ ... Macbeth ... مكبث

١٣٤ ... All's well that end's well ... إن الأمور بخواتيمها

١٤٦ تذييل السايطة

١٥٧ ... Comedy of errors ... ملهاة الأخطاء

١٧١ ... Measure for measure ... دقة بدقة

١٨٦ ... Twelfth night ... الليلة الثانية عشرة

٢٠١ ... Timon of Athens ... تيمون الأثيني

٢١٤ ... Romeo and Juliet ... روميو وجوليت

٢٣١ ... Hamlet ... هملت أمير دنمرك

٢٤٦ ... Othello ... عطيل

٢٦٠ ... Pericles, Prince of Tyre ... پركليز أمير صور

Page 2

صفت

... 1

... 1

... 3

... 10

... 17

... 3

... 10

... 17

... 10

... 17

... 10

... 17

... 10

... 17

... 10

... 17

... 10

... 17

... 10

... 17

... 10

... 17

... 10

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الترجمة

شيكسبير وشعره

في الثالث والعشرين من شهر إبريل من عام ١٥٦٤ كان حياة شيكسبير طفل ينام في مهد من الخشب ، في بيت ليس بالعظيم ولا بالحقير ، في مدينة استرتفرد - على - الإيفن Stratford-on-Avon . وما من شك في أن أباه وأمه كانا يظنانه طفلا مدهشا ، وما من شك أيضا في أن منشأ هذا الظن أنهما أبواه ، أما الجيران والأصحاب الذين جاءوا ليهنئوا بهذا المولود الجديد فلم يروه يفترق في شيء عن سائر الأطفال . على أنه مهما يكن من إعجاب الأبوين بطفلهما ، فلو أنهما قد نبئا في ذلك الوقت أن وليم William الصغير سيدكر اسمه بالإجلال ما بقيت اللغة الإنجليزية ينطق بها إنسان ، وأن مسرحياته ستقرأ وتمثل في بلاد العالم كله ، لو أنهما قد نبئا ذلك لما كان أحد أكثر منهما دهشة .

ولما بلغ وليم الخامسة من عمره كان له إخوة يلعبون معه ، وجاءت في هذا الوقت فرقتان متنقلتان من الممثلين إلى مدينة استرتفرد ، وأذن لهما أبوه - وكان رئيس البلدية - بتمثيل بعض المسرحيات في بلده ؛ وكانت إحدى الفرقتين مشمولة برعاية الملكة اليبابات وتسمى « خدم الملكة » ، والأخرى مشمولة برعاية أحد النبلاء الإنجليز . وأكبر الظن أن الممثلين جاءوا إلى بيت شيكسبير ليرتبوا فيه أعمالهم ، ولعل وليم قد أخذ مع أحد أبويه لمشاهدة التمثيل ، نقول لعل وأكبر الظن لأن ما نعرفه عن حياة وليم شيكسبير جد ضئيل ، ولأن معظمه مستمد من إشارات غامضة يلقها عرضا بين ثنايا السطور في رواياته .

ولا بد أن ولیم قد ذهب إلى مدرسة بلده كما يذهب سائر الأطفال ، وتعلم فيها القراءة والكتابة وقليلًا من اللغتين اللاتينية واليونانية ، فاستطاع بذلك أن يقرأ بعض الكتب اللاتينية لشعراء النهضة بلغتها الأصلية ، وأن يقرأ أيضا بعضها مترجما في الكتب التي كان يعيره إياها مدرسوّه حين رأوا أنه يعنى بقراءتها أكثر من غيرهم من التلاميذ .

وكان في ساعات فراغه وفي أيام العطلة المدرسية يسير في المزارع والغابات حول مدينة استرتفرد ، يشاهد الأزهار والطيور والحيوان التي ذكر عنها في رواياته الشيء الكثير ، مستمدا بعضه من مشاهداته وكثيرا منه من الخرافات والأوهام التي كان يسمعاها من عامة الشعب ويزين بها هذه الروايات على أنها حقائق لا يتطرق إليها الشك ، لأن معرفته بعلم الأحياء كانت جد ضئيلة .

ولم يكن ولیم يقضى كل فراغه وحده بين المزارع والغابات ، فقد كان يغشى المجتمعات في بلده ، ويشاهد القصص التي تمثل في أيام الأسواق ، ويصغى إلى أحاديث الناس ويتحدث إليهم ، ويستمع إلى ما يقصه كبير من أهل القرية عن الأعوام الماضية وعن حوادث حرب الوردتين . ومرت الأيام والسنون وتورط أبوه في الدين ، واضطرته أحواله إلى منع ولده وهو في الثالثة عشرة من عمره عن إتمام تعليمه المدرسى ليعينه على كسب معاشه .

ولسنا نعلم شيئا عن حياة شيكسبير في الخمس السنين التالية ، ولكننا نراه في الثامنة عشرة من عمره ، أى في عام ١٥٨٢ ، رجلا متزوجا بأن هثواى Anne Hathaway التي كانت تكبره بثمان سنين ، ويلوح أنه لم يكن موقفا في هذا الزواج ، ولكن ثمرته كانت بنتين وولدا . وبعد ثلاث سنين من زواجه غادر موطنه وسافر إلى لندن لبحث فيها عن عمل ، ولعل سفره من استرتفرد كان عقب متاعب نشأت له من جراء سرقة بعض الغزلان من مراعى أحد النبلاء . واشتغل في لندن بالتمثيل ، ثم أصبح شريكا في عدد من دوره . وفي عام ١٥٩٤ نشر أول أعماله وهو قصيدة « الزُّهره وأدنيس Venus and Adonis » ، وكان قبل ذلك قد اقتبس بعض مسرحيات من روايات قديمة وأنشأ مسرحيات أخرى جديدة ، أدت عليه المال

وقربته من الملكة اليصابات ثم من جيمس الأول ، وجعلته صديقا لكثير من أدباء العصر وعظمائه . وفي عام ١٥٩٧ اشترى بيتا وأرضا في استرترد ، وذاعت شهرته وأقرله مواطنوه بأنه أعظم من كتب المآسى والملاهي من الإنجليز . وفي أواخر حكم اليصابات عانى شيكسبير بعض المتاعب الخاصة ، منها موت ولده الوحيد ، وموت أبيه ، وسقوط صديقه ونصيره إيرل سوتمبتن Earl of Southampton . وكان هذا هو الوقت الذي كتب فيه ما سيه الأخيرة . وعاد شيكسبير إلى مسقط رأسه بعد جلوس جيمس الأول على عرش إنجلترا في عام ١٦٠٣ ، وعاش هناك في هدوء حتى وافاه أجله في عام ١٦١٦ .

لسنا نعرف بالضبط متى كتب شيكسبير كل رواية من مسرحيات شيكسبير رواياته ، ذلك أنه هو نفسه لم ينشرها ، وأن طبعها الأولى لم تصدر إلا بعد سبع سنين من وفاته ، لكن السنين العشرين التي كتب فيها هذه الروايات يمكن أن تقسم أربعة أقسام لكل قسم منها صفاته الخاصة :

فالقسم الأول يشمل الفترة الواقعة بين سنتي ١٥٩٠ ، ١٥٩٦ وهو دور التجارب ، وأهم ما كتب فيه من الروايات التي تشملها المجموعة التي بين أيدينا هي رواية « حلم ليلة في منتصف الصيف » ورواية « ريميو وجوليت » ومن الروايات التاريخية رواية هنري السادس بأجزائها الثلاثة ورواية ريتشارد الثالث .

ويشمل الدور الثاني الفترة الواقعة بين ١٥٩٦ ، ١٦٠١ ، وهو دور الروايات التاريخية وملاهي الحب المسلية . ومما كتب في هذا الدور من الروايات التاريخية ريتشارد الثاني وهنري الرابع وهنري الخامس ، ومن الملاهي رواية تاجر البندقية وهي أنضج وأرق من الملاهي التي كتبت قبلها ، وتدل على براعة في تصوير الأشخاص ، كما يتبين القارئ من صورة شيلك وصورة پورشيا ، ومنها أيضا ملهاة « الليلة الثانية عشرة » .

ويشمل الدور الثالث ما بين سنتي ١٦٠١ ، ١٦٠٨ وهو دور الملاهي الجدية والمآسى العظمى . وفيه كتب ملهاة « إن الأمور بخواتيمها » ومآسى يليوس قيصر

وهملت وعطيل ومكبث والملك لير وكريلينس Coriolanus ، وتدل كلها على تفكير ناضج ودراسة عميقة لأخلاق الناس .

ويقع الدور الرابع والأخير بين عامي ١٦٠٨ ، ١٦١٣ ، وهو دور روايات الحب الهادئة الرزينة ، وقد كتب فيه رواية العاصفة وقصة الشتاء .

ولشيكسبير غير الروايات قصيدة الزهرة وأدنبس Venus شعر شيكسبير and Adonis وقصيدة Lucrece ، وهما جياشتان بالعاطفة ،

وفيهما قطع وصفية جميلة في الحب والصيد وغيرهما .

وله فوق ذلك عدة أغان يبلغ عددها مائة وأربعا وخمسين أغنية ، نشرت في مجموعة واحدة حوالي عام ١٦٠٩ ، وأكبر الظن أنها تصف أحوال الشاعر نفسه وكلها قوية العاطفة رائعة الجمال .

تلك كلمة صغيرة عن حياة شيكسبير تكاد تشمل كل ما يعرفه عظمة شيكسبير العالم عنه . أما عبقريته فقد أقر بها العالم كله وأقر بها مواطنوه في أيام حياته ، فهو من العبقرين الأفاضل الذين لا يختص بهم عصر واحد ، بل هو رجل جميع العصور على السواء . وترجع عظمته إلى عدة أسباب أهمها : جمال شعره القوي الذي يلائم العصور جميعها والناس على اختلاف أنواعهم ، وفكاهته العذبة ، وخياله الواسع الذي جعل من شخصيات رواياته الخيالية رجالا ونساء حقيقيين ، وبراعته في وصف المآسى براعة لا يضارعه فيها إلا كبار الروائيين اليونانيين الأقدمين ، وعظفه على الإنسانية في جميع أشكالها ودرجاتها ، ونقائصها وفضائلها ، لا يأخذ الناس بجريرة ارتكبوها أو خطأ وقعوا فيه ، وحرصه على معرفة أسباب فضائلهم وورذائلهم على السواء .

وقد يسأل الإنسان عن المصادر التي استمد منها شيكسبير روايات شيكسبير قصصه وأشخاص رواياته . ومن حسن الحظ أن هذه المصادر قد عرفت كلها ودرست ، وأن في وسعنا أن نذكر عددا كبيرا من الكتب التي قرأها أو رجع إليها . ويجدر بنا أن نقول من بادى الأمر إن شيكسبير كان قارئاً نهما ، وإن لم يكن عميق الدرس لما يقرأ . وقد قرأ في مدرسة

استترفد لكثير من شعراء النهضة اللاتينيين ، لأنه هو نفسه كان وليد النهضة ،
ولما ذهب إلى لندن قرأ كثيرا من الكتب التي ظهرت في عصره ، ومنها التراجم
الإنجليزية للكتب اللاتينية واليونانية القديمة ، والقصائد والروايات والقصص التي
كتبها خريجو الجامعات الإنجليزية وغيرهم من معاصريه . وفي وسعنا أن نتبين
القصص التي استمد منها بعض رواياته في كتابات هؤلاء المعاصرين «فقصة الشتاء»
و « حلم ليلة في منتصف الصيف » و « كما تحب » وأجزاء كثيرة من الروايات
الأخرى وعبارتها مأخوذة من هؤلاء المعاصرين ، وقرأ شيكسبير الترجمة الإنجليزية
لكتاب « التراجم » تأليف بلوتارخوس Plutarch ، وقرأ كذلك التراجم الإنجليزية
لقصص الكتاب الإيطاليين ، وأخذ عن المؤرخين الإنجليز قصص الملك لير
ومكبث وسمبلين .

على أن شيكسبير لم يكن يتقيد كثيرا بالمادة التي يقرأها ، فقد كان يعمل فيها
فكره وخياله ، ويغير فيها ما يشاء ، فيضيف إليها من عنده ما يلائم غرضه ،
ويحذف ما لا يلائمه ، ويخلق فيها شخصيات جديدة من خياله ، ويبدل الحوادث نفسها
فيحي من الأشخاص من يشاء ويميت من يشاء ، سواء وافق ذلك الأصل الذي
استمد منه أو لم يوافق . وهو يجعل من القصة ملهة أو مأساة حسب ما يلائم
غرضه ومزاجه في الوقت الذي كان يكتب فيه . لكنه اضطر أن يكون قريبا جدا
من الأصل في الروايات التي تبحث في تاريخ إنجلترا ، وكان من حسن حظ أنه
استمد هذه القصص التاريخية من مصدر تاريخي في ظاهره لكنه روائى بطبيعته ،
وهو أخبار هلنشد The Chronicles of Holinshed ، ولذلك تراه في هذه
الروايات ، أو في الكثير منها على الأقل ، لا يحيد قط عن المصدر الذي يستمد
منه حتى ليخيل إلى الإنسان أنه كان يكتب وهذا المصدر مفتوح أمامه . فالحوار
الذي يدور بين ملكهم ومكدف في الفصل الرابع من رواية مكبث لا يختلف كثيرا
عما هو وارد في كتاب هلنشد السالف الذكر . على أنه في المواقف الروائية الهيمية
التي تتطلب الخيال الخصب أو الفكاهة اللطيفة ، حتى في هذه الروايات نفسها ،
يترك مصدره ويطلق خياله العنان ، فيخترع من الحوادث والشخصيات والحوار

ما يشاء ، ويغير مصائر الناس كما يريد . واستمد شيكسبير رواياته الإيطالية مثل « يليوس قيصر » و « كليبورة » من « تراجم » بلوتارخوس . وهنا تقيد شيكسبير بالأصل إلى حد كبير . وذلك أن هذا الكاتب كان يعنى بتصوير أشخاصه أكثر مما يعنى بالحوادث ، ولهذا لم ير شيكسبير حاجة إلى كثير من التغيير ، بل أخذ منه القصص التى كانت أساس رواياته ، وأخذ منه عبارات بنصها وضعها فى قصصه الأخرى التى لم يستمد منها .

وأخذ شيكسبير بعض قصصه عن معاصريه من الكتاب الفرنسيين والإيطاليين ومن هذه رواية دقة بدقة وعطيل وتاجر البندقية .

وجملة القول أن شيكسبير أخذ قصصه من بلاد مختلفة ، من بلاد اليونان وإيطاليا ودنمرك وغيرها ، ولكن شخصياته إنجليزية وإن تسمت بأسماء إيطالية أو فرنسية أو رومانية ، وقد ابتدعها شيكسبير مما ارتسم فى خياله من الصور أثناء مقامه فى استرترد وفى لندن ، وفى أثناء تجواله فى عاصمة إنجلترا ، واختلاطه بجميع طبقات الشعب خاصته وعامته ، أشراؤه وخياره ، فى الطرق والحانات ، وفى قصور العظماء والملوك ؛ فهو فى هذه الروايات يصف أحوال عصره وأشخاص عصره ، وهذا هو منشأ كثير من المتناقضات التاريخية التى نجدتها فيها ، فهو يذكّر دقات الساعة فى عصر يليوس قيصر ، ومصنع الورق فى عصر هنرى السادس . على أن هذا كله لا ينقص من قيمة هذه الروايات ، فهى فى حقيقة أمرها قطع فنية وليست سجلا للحوادث التاريخية .

وقد كتب شيكسبير رواياته بالشعر المرسل أى الشعر الموزون الغير المقفى الذى اخترعه كرسنفر مارلو Christopher Marlowe (١٥٦٤ — ١٥٩٣) قبل أن يكتب شيكسبير ببضع سنين .

وكانت اللغة الإنجليزية فى عصر الملكة اليبابات مائعة لم تجمد لغة شيكسبير ولم تثبت قواعدها ، ولم تتجمع لها سوابق تحتم على الكاتب أن يتقيد بها فى النحو أو الأسلوب . ولذلك كان شيكسبير يتمتع فى اللغة بنصيب من حرية الاختراع لا يستطيع أن يتمتع به من جاء بعده

من الكتاب . فهو لا يتردد في خلق ألفاظ جديدة للتعبير عن معانيه ، واستخدام
الكلمات القديمة في غير المعاني التي وضعت لها . ولم يكن يعرف ما يسميه النحويون
أنواع الكلام ، فإذا احتاج إلى فعل اشتقه من أول اسم يدور بخله أو أول صفة
تخطر بباله ؛ وهو يخرق كل قاعدة نحوية ويجعل أذنه المخبار الذي يختبر به كلماته ،
فإذا رأى أن الكلمة حسنة الوقع عليها ، وأعجبه رنينها ، عدها صالحة لأداء غرضه ،
فاستعملها فعلاً أو اسماً مهما يكن أصلها ، واشتق منها ما يريد جامدة كانت أو منصرفة .
ويصعب على القارئ في بعض الأحيان أن يحلل كثيرا من جمل شيكسبير ، ليعرف
الأصلية منها والتابعة لغيرها ، وليعرف فيها المسند إليه والمسند ؛ لكن الذي يقرأ
جملة على عجل لا يصعب عليه أن يدرك معناها ، أما الذي يقف عندها ليقسمها أصلية
وتابعة وليطبق عليها القواعد المألوفة ، فإنه يحار في أمره لكثرة ما يجده فيها من
التعقيد ، ومن تدخل بعضها في بعض . على أن هذا كله لا يعيب لغة شيكسبير ولا
يضعف من أثرها في نفس السامع أو القارئ .

وأهم ما يمتاز به أسلوبه هو كثرة ما فيه من الاستعارات ؛ وإنك لتجد في
الجملة الواحدة ، وبخاصة في رواياته الأخيرة ، استعارتين أو ثلاث استعارات مختلفة ،
فترى زوجة مكبث مثلاً حين أرادت أن تؤنب زوجها وتعيب عليه ضعفه تقول له
«هل كان الأمل الذي اكتسبت به من قبل مثلاً» .

غير أن شيكسبير لا يبتعد في أسلوبه عن القواعد المألوفة إلا ليقرب بذلك من
حقائق الأشياء . وأقرب شخصية في روايات شيكسبير إلى أخلاق شيكسبير نفسه
هي شخصية پرسيرو في رواية العاصفة ولعلها كانت آخر رواياته .

تلك كلمة موجزة عن حياة شيكسبير وعن لغته . أما من شاء أن يستزيد فعليه
أن يقرأ الروايات نفسها بلغتها الأصلية ، وأن يدرس حياة شيكسبير وشخصيات
شيكسبير في المطولات التي كتبت ولا تزال تكتب عنه إلى هذا اليوم .

تشارلس لام

ويجدر بنا بعد ذلك أن نقول كلمة موجزة عن تشارلس لام وأخته ميري اللذين كتبوا روايات شيكسبير نثرا بالصورة التي ترجمناها في هذا الكتاب .

ولد تشارلس لام Charles Lamb في سنة ١٧٧٥ من أب رقيق الحال ، كان كاتباً لأحد المحامين في لندن ، ولما شب دخل مدرسة Christ's Hospital وصادق فيها الشاعر الكبير كولردج ، ثم تركها وتقلب في عدة مناصب صغيرة ، كان آخرها في « إدارة المصالح الهندية » . بلندن . ثم استقال في سنة ١٨٢٥ وعاش في ضنك مع أبيه وأمه وأخته ميري التي كانت تكبره بعشر سنين . وفي عام ١٧٩٦ حدثت في الأسرة حادثة مروعة ، فقد اعترت ميري نوبة جنون فجائية ، قتلت في أثناءها أمها بإحدى سكاكين المائدة ، وعندئذ عدل تشارلس عن فكرة الزواج نهائياً ، وكرس حياته للعناية بأخته ، وهي التي يردد ذكرها في مقالاته باسم ابنة العم برديت Cousin Bridget .

وكان أول ما كتبه تشارلس طائفة من القصائد نشرت مع قصائد صديق له في مجلد واحد بعنوان « الشعر المرسل » Blank Verse ، وخير هذه القصائد كلها قصيدة « الوجوه المألوفة القديمة » The Old Familiar Faces وهي من القصائد السهلة التي تليد الأطفال . وفي عام ١٨٠٧ طلب إليه أحد الناشرين أن يشترك في إخراج « مكتبة الشبان » ، فكتب هو وأخته ميري هذه القصص الذائعة الصيت التي يجد القارىء ترجمتها في هذا الكتاب ، فكتب هو المآسى وكتبت ميري الملاحى . وفي عام ١٨٠٩ طلبت إليه شركة لنجهان للنشر Longmans أن يختار لها نماذج من مسرحيات عصر الملكة إليصابات ، ونشرت هذه المجموعة المختارة وعليها شروح ونقد ، دلت كلها على أن تشارلس من أعظم النقاد الذين كتبوا في أدب ذلك العصر .

وكان تشارلس يرسل كثيراً من المجلات الأدبية ، وخير ما كتبه من هذا النوع « مقالات إليا Essays of Elia » وهي من المقالات اللذيذة المنمتعة وكانت في الحقيقة أساس شهرة تشارلس لام .

وفي عام ١٨٣٤ أخذت صحته تـضمحل شيئاً فشيئاً ، وأثر فيه كثيراً حزنه على موت صديقه كولريـدج Coleridge . وبينما هو يتروض في يوم من الأيام سقط على الأرض وأصيب بجرح في وجهه ، وتسمم الجرح ومات منه في تلك السنة ، ثم ماتت أخته ميري في عام ١٨٤٧ .

ويعد لام من أعظم النقاد وكتاب المقالات الإنجليز ، وهو يدخل شخصيته في مقالاته بطريقة تـلذ القارئ وتستثير إعجابه ؛ وفي وسعنا أن نتبين من هذه المقالات صفات لام كلها ، عيوبه وفكاهته وأهواءه ، كأننا نراه رأى العين .

وقد قلنا من قبل إنه هو وأخته قد اشتركا في كتابة قصص شيكسبير للشبان من القراء ، فهما لم يكتباهما للأطفال كما يظن ، لأن الأطفال يعجزون عن فهم المعاني التي أـبرزها فيها شيكسبير ، كما يعجزون عن فهم العبارات الكثيرة التي اقتبسها الكاتبان منه كما يقولان في مقدمة الكتاب . وليس في مقدورنا أن نجد فرقا كبيرا بين أسلوب تشارلس في المآسى وأسلوب ميري في الملاحى ، فأسلوبهما واحد أو متقارب ، وكلاهما يلجأ إلى الجمل المعقدة الطويلة التي تبلغ أحيانا عشرين سطرا من سطور الكتاب . وهذا الأسلوب إن جاز في اللغة الإنجليزية لا يستسيغه قراء العربية ، ولذلك حاولنا قدر طاقتنا أن نبسط هذه الجمل ليسهل فهمها على القراء وقد اضطررنا في كثير من الأحيان أن نرجع إلى روايات شيكسبير نفسها لفهم العبارات الغامضة التي اقتبسها الكاتبان منها بنصها أو بتغيير قليل ، ولم نسمح لأنفسنا بحذف التمهيد الذي كتبه تشارلس وميري لقصصهما ، وإن كان كثير مما جاء فيه ينطبق على الأصل الإنجليزي دون الترجمة العربية ، ولكنه جزء من كتاب تشارلس وميري ، ومن حقهما على من يتصدى لترجمة كتابهما ألا يغفل شيئاً مما جاء فيه . ولعلنا نكون قد استطعنا أن نقدم لقراء العربية ، كما قدم تشارلس وميري للقراء الإنجليزية ، «وشلا من ذلك السرور الغمر الذي ينتظرهم في مستقبل أيامهم» حين ينعمون بقراءة روايات شيكسبير ، فيدركون بأنفسهم عظمة هذا الشاعر الكبير .

تقديم

كتبنا هذه القصص لنمهد بها للنشء من القراء طريق دراسة شيكسبير ،
ولذلك حرصنا على أن نستعمل فيها كلماته نفسها كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا ،
وعيننا كل العناية فيما أضفناه إليها من ألفاظ نربط بها حلقات القصة بعضها ببعض
بأن نختار من الكلمات أكثرها انسجاماً مع روعة اللغة التي كتب بها
شيكسبير ؛ ومن أجل هذا تجنبنا قدر المستطاع ما جد في اللغة من ألفاظ بعد عصر
الشاعر العظيم .

وإذا ما بلغ النشء السن التي تمكنهم من أن ينعموا بقراءة مآسى شيكسبير
في صورتها الأصلية ، فيسجدون في القصص المأخوذة من هذه المآسى ألفاظه
نفسها تتكرر على مسامعهم في سياق القصة وفيما يدور على لسان أشخاصها من
حوار ؛ وسيرون أن هذه الألفاظ على كثرة تكرارها لم يدخل عليها من التغيير
إلا القليل . أما القصص المأخوذة من الملاحى فقد شق علينا فيها أن نصوغ
عبارات شيكسبير نفسها في قالب القصصى ، ولذلك نخشى أن يجد النشء الذين
لم يألّفوا أسلوب المسرحيات أننا قد أسرفنا في استعمال الحوار ؛ ولكن الذى
يعفر لنا هذا الخطأ ، إذا صح أن نسميه خطأ ، أن الباعث عليه هو حرصنا الشديد
على أن نضمن هذه القصص أكثر ما نستطيع من ألفاظ شيكسبير . فإذا ما ملّ
النشء سماع « قال » و « قالت » ، وثقل على آذانهم الغضة تكرار السؤال
والجواب ، فليعفوا عن ذلك وليصفحوا ، فلقد كانت هذه هى الطريقة الوحيدة التي
نستطيع بها أن نقدم لهم وشلا من ذلك السرور الغمر الذى ينتظرهم في مستقبل
أيامهم ، حين يغترفون من ذلك الكنز الثمين ، الذى أخذنا منه هذه الدرهمات
الزياف ، وهى درهمات تنحصر قيمتها في أنها تحمل أثراً من صورة شيكسبير
الفذة . وهذا الأثر مع ذلك معيب وضئيل ، لأن ما تمتاز به لغة شيكسبير من روعة
وجمال كثيراً ما تبلى جدته حين تحتم علينا الظروف أن نستبدل بألفاظه الموقفة

المتأزاة ألفاظاً لا تعبر عن معانيه الحققة تعبيراً صادقاً صحيحاً ، وذلك حين نجعل من هذه الألفاظ قصة شبه منشورة . وقد نقلنا في مواضع قليلة شعر شيكسبير المرسل بنصه ، لعلنا نستطيع أن نخدع النشء فيظنوه نثراً لسهولة ووضوحه ؛ ولكننا لا نشك في أن تلك العبارات نفسها تفقد كثيراً من جمالها الأصيل حين تنتزع من منبتها الأول في روضة الشعر البرية .

ولقد كانت جل رغبتنا ونحن نكتب هذه القصص أن نجعل منها مطالعات سهلة للصغار ، وظل هذا الغرض ماثلاً على الدوام أمام أعيننا ، ولكن موضوع معظم القصص مما يجعل تحقيقه شديد المراسة صعب المرام ؛ فلم يكن من السهل الهين أن نعرض على القارئ تاريخ رجال شيكسبير ونسائه في عبارات قريبة المتناول تدركها بسهولة عقول النشء الصغار . كذلك كان أهم أغراضنا أن نجعل هذه القصص صالحة لأن تقرأها الفتيات ؛ وذلك لأن الفتيان يسمح لهم عادة بالاطلاع على ما تحتويه مكاتب آبائهم قبل أن يؤذن بذلك لأخواتهم بزمان طويل . ومن ثم نرى الفتيان قد استظهروا خير مناظر روايات شيكسبير قبل أن يباح لأخواتهم الاطلاع على كتب الرجال . ولذلك لا ترانا نوصي الفتيان بقراءة هذه القصص ، لأننا نعتقد أن خيراً لهم وأعود بالنفع عليهم أن يقرأوها كما كتبها شيكسبير نفسه . ولكننا نرجو منهم أن يعينوا أخواتهم على قراءتها ، بأن يشرحوا لهن ما كان منها مُعْجِز الدرك ممتنعاً عليهن ، فإذا ما أناروا لهن الشبهات وذللو الصعاب ، فقد يكون خليقاً بهم أن يختاروا من إحدى هذه القصص فقرات ارتاحوا هم لها وأعجبوا بها ، ويعرضوها عليهن في صورتها الأصلية بعد أن يراعوا في هذا الاختيار ما يليق وما لا يليق أن تسمعه أخواتهم الصغار . وإننا نرجو أن تكون هذه المختارات الجميلة ، وتلك النخبة المنتقاة ، أحب إلى أخواتهم وأدنى ملتصقاً لهن إذا كن قد ألمن من قبل بالقصة كلها بقراءتها في هذه الملخصات البتراء . وإذا كنا قد واتانا الحظ فأفلحنا في كتابة هذه القصص بحيث تغتبط بها إحداهن ، فإننا نرجو ألا تعدوا أسوأ آثارها في نفسها أن تتمنى لو أنها كانت أكبر مما هي سناً حتى تستطيع أن تقرأ روايات شيكسبير المطولة .

وتلك أمنية لا تنطوى على شيء من السفاهة أو الامتناع . وإذا ما أوفين على السن التي يستطيع فيها تحقيقها ، وسمحت لمن بتحقيقها حكمة الكبار من الأصدقاء ، فسيجدن فيما لخصناه لمن من القصص في هذا الكتاب ، وفي قصص أخرى لم نلخصها لمن ولا تقل عنها عدا ، سيجدن في هذه وتلك كثيراً من الحوادث المختلفة ومن تصارييف الأقدار ما لم تتسع له صحف هذا الكتاب الصغير . وسيجدن كذلك في روايات شيكسبير عدداً لا يحصى من الشخصيات المرحية البهجة ، رجالا كانت أو نساء ، تفقد بلا ريب ما حباها من فكاهة حلوة لو أننا حاولنا أن نقص عليهن سيرتها في إيجاز .

وإننا لندرجو أن يجد النشء متى كبروا في قصص شيكسبير الأصلية مثل ما وجدوه وأكثروا . كما وجدوه في هذه القصص المنشورة وهم صغار ، فتكسبهم قوة في الخيال ، واستمساكاً بالفضيلة ، وبعداً عن الطمع والأنانية ، وترشدتهم إلى سبيل الشرف ، وتغرس في نفوسهم حلو الطباع ونبييل الخصال ، وتلق عليهم دروساً في دماثة الخلق ، ورقة الشئال ، وكرم السجايا ، والعطف على الناس ، وذلك لأن صحن هذه الروايات غاصة بالحوادث التي تضرب لهذه الفضائل أحسن الأمثال .

العاصفة

كانت في البحر جزيرة لا يسكنها إلا شيخ مُسن يدعى پرسپرو Prospero وابنة له تدعى مرندا Miranda ، وهي فتاة بارعة الحسّن جاءت هذه الجزيرة وهي صغيرة السن ، لا تذكر أنها رأت وجهاً من البشر إلا وجه أبيها .
وكانا يسكنان معاً في كهف أو غار منحوت في صخرة ، ومقسم إلى عدة غرف ، وكان پرسپرو يسمى واحدة منها حجرة دراسته ؛ وكان يحتفظ فيها بكتبه التي يبحث معظمها في السحر ، وهو فن كان يمارسه كل العلماء في تلك الأيام . وأفاد پرسپرو من علمه بهذا الفن فائدة عظيمة ، فقد ألقت المصادفات في هذه الجزيرة التي سحرتها عجوز تدعى سكرّا كس Sicorax ماتت قبل أن يفد هو إليها بزمان قليل ، واستطاع بفضل هذا الفن أن يطلق كثيراً من الأرواح الطيبة التي سجنها سكرّا كس في جذوع الأشجار الضخمة ، حين أبت أن تصدع بما أمرتها به من سيء الفعال ؛ فلما أطلق پرسپرو هذه الأرواح اللطيفة ظلت بعد ذلك تطيعه وتخضع لإرادته ، وكان زعيمها كلها روح يدعى إيريل Ariel .

ولم يكن في طباع هذا العفريت النشيط شيء من الخبث ، اللهم إلا أنه كان يقتبط كل الاعتباط حين يعذب مارداً بشعاً يدعى كلبن Caliban ، وهو مخلوق مشوه الخلق ذو هيئة فظيعة غريبة ، أقل شبيهاً بالإنسان من القردة . وكان إيريل يحقد عليه لأنه ابن عدوته القديمة سكرّا كس ، وقد وجد پرسپرو بين الأشجار فأخذه إلى غاره وعلمه الكلام ؛ ولولا ما طبع عليه كلبن من خبث ورثه عن أمه سكرّا كس ، وحال بينه وبين تعلم أي شيء صالح أو نافع ، لأشفق عليه ورأف به . أما وتلك سجيته فقد استخدمه كما يستخدم الرقيق ، يحتطب من الجزيرة ويقوم بأشق الأعمال ، ووكل به إيريل يراقبه ويرغمه على العمل إرغاماً ؛ فإذا ما كسل كلبن وأهمل واجبه تسلس إليه إيريل — وكان لرقته لا تراه إلا عينا پرسپرو — وقرصه أو ألقاه في الوحل ، ثم انقلب بعد ذلك قرداً وجلس يلوى شذقه استهزاءً

به ، ثم أسرع فبدل صورته واتخذ شكل قنفذ يتقلب في طريق كابن ، فلا يجرو
على المشى لئلا تصيب أشواكه الحادة قدميه العاريتين فتخرمهما . وبهذه الألاعيب
المنغیظة وكثیر من أمثالها كان إيريل يعذب كابن كلما توانى عن أداء ما أمره
به پرسپرو .

وكانت هذه الأرواح القوية طوع أمر پرسپرو يسخر بها الرياح وأمواج البحار ،
وقد أمرها يوماً فأثارت عاصفة هوجاء ، كان في وسطها سفينة كبيرة جميلة تغالب
الأمواج المتلاطمة ، التي كانت في كل لحظة توشك أن تطبق عليها وتبتلعها في
جوفها . وقال پرسپرو لابنته وهو يشير إلى هذه السفينة إنها مملأى بالأحياء من
الآدميين أمثالها ، فقالت له : « يا أبت العزيز ، إذا كنت قد أثرت بسحرك هذه
العاصفة الرهيبة فارحم من فيها وأشفق عليهم في محنتهم ؛ ألا تراها تكاد تتحطم
وتتطاير إرباً ؟ ألا ما أشقى هؤلاء البائسين وأشد بلواهم ! إنهم لا محالة هالكون
عن آخرهم ، ولو أن لى قوة لأمرت ماء البحر أن يغيض في جوف الأرض ، قبل
أن تغرق هذه السفينة الطيبة ، ويهلك كل من فيها من أنفس عزيزة » .

فأجابها پرسپرو : « لا تراعى يا ابنتى مرندا فلن تصاب السفينة بأذى ، لقد
دبرت الأمر بحيث لا يمس أحداً ممن فيها مكروه ؛ وأنا لم أفعل ما فعلت إلا من
أجلك يا بنيتى العزيزة ، إنك لتجهلين من أنت ومن أين جئت إلى هذا المكان ،
ولا تعرفين عنى إلا أنني أبوك وأنى أعيش في هذا الكهف الحقير ، فهل تذكرين
زمناً لم تكونى قد جئت فيه إلى هذا الغار ؟ أظنك لا تذكرينه لأنك لم تكونى
قد بلغت الثالثة من عمرك وقتئذ » .

فقالت مرندا : « بلى إني أذكره ما في ذلك شك » .

فقال لها پرسپرو : « بأى شيء تذكرينه ؟ بيت غير هذا أو بشخص غير
أبيك ؟ خبرينى أى شيء تذكرين ؟ » .

فأجابته مرندا : « إن هذه الذكريات لتبدو كأنها حلم من الأحلام ، ولكن
قل لى ألم تكن لى في يوم من الأيام أربع نساء أو خمس يرعيننى ويقضين حوائجى ؟ » .
فقال لها أئوها : « بلى ، قد كان لك هذا وأكثر منه ، ولكن كيف بقيت

هذه الذكري حية في مخيلتك؟ وهل تذكرين معها كيف جئت إلى هذا المكان؟»
فأجابته مرندا: «كلا يا أبت لست أذكر غير هذا».

فواصل پرسپرو حديثه قائلاً: «كنت يا مرندا منذ اثنتي عشرة سنة دوق ميلان، وكنت أنت ترثين وحدك عرشها من بعدى، وكان لي أخ أصغر مني يدعى أنطونيو Antonio ائتمنه على كل شيء، وكنت مولعاً بالعزلة والدرس العميق، فتركت تدبير أمور الدولة لعمك، أخي الغادر، (ولقد أثبت أنه غادر حقاً)». فأما أنا فقد صرفت كل وقتي في تثقيف عقلي، وأعرضت عن مشاغل الدنيا، وقضيت حياتي بين كتبي؛ وأما أخي أنطونيو فقد استحوذ على ما كان لي من سلطان، وبدأ يظن أنه الدوق حقاً؛ وهيأت له بعمله الفرصة التي أمكنته من أن يحب نفسه إلى شعبي، فأثار ذلك في طباعه الذميمة رغبة جامحة في أن يغتصب مني ملكي. وقد نال آخر الأمر مبتغاه؛ وأعانه على ذلك ملك نابلي، وهو أمير شديد البأس كان بيني وبينه عداوة».

فقالت مرندا: «ولم لم يقضيا علينا في تلك الساعة؟»
فأجابها أبوها: «لم يكونا يجرؤان على ذلك يا ابنتي، لأن شعبي كان يحبني حباً جماً، ولذلك حملنا أنطونيو على ظهر سفينة، ولما أصبحنا على مسافة بضعة فراسخ من البر أنزلنا بالقوة في قارب صغير لا حبال له ولا سارية ولا شراع، وظن أنه أسلمنا للهلاك. وكان من كبار رجال حاشيتي رجل رحيم يدعى جنزالو Gonzalo، دفعه حبه وإخلاصه أن يضع في القارب خلسة ماء وطعاماً ولباساً وكتباً هي أغز على من ملكي».

فقالت مرندا: «يا أبت ما أكثر ما عانيت يومئذ بسببي!»
فأجابها پرسپرو: «كلا يا حبيبتى، لقد كنت أنت ملاكاً صغيراً يرعاني ويحفظ حياتي، وكانت بسماتك الطاهرة هي التي أعانتني على احتمال شقائي. وقد كفانا ما كان لدينا من الطعام حتى نزلنا في هذه الجزيرة الجرداء، ومن ذلك الحين كان أكبر أسباب مسرتي أن أعلمك يا مرندا، وما أكثر ما أفدت من تعليمي».

فقلت له مرندا : « أثابك الله على حسن صنيعك يا أبا العزيز ، والآن أرجو منك يا سيدى أن تخبرنى لم أثرت هذه العاصفة فى البحر ؟ » .
فقال لها أبوها : « اعلمى إذا أن هذه العاصفة ستلقى بعدوى ملك نابل وبأخى غليظ الكبد فى هذه الجزيرة » .

قال ذلك ومس ابنته مساً لطيفاً بعصاه السحرية ، فنامت نوماً عميقاً ؛ وذلك لأن إيريل قد مثل فى هذه الساعة بين يدى مولاه ، ليقص عليه نبأ العاصفة وما فعله هو بركاب السفينة ؛ ومع أن عين مرندا لم تكن ترى الأرواح قط ، فإن پرسپرو لم يشأ أن تسمعه يتحدث ، كما كان يبدو لها ، مع الهواء .
وقال پرسپرو لإيريل : « والآن أيها الروح المقدام ، قل لى كيف أديت واجبك ؟ » .

فأخذ إيريل يقص عليه نبأ العاصفة ويصور له تصويراً باهراً شائقاً ما شاهدته من ارتياع الملاحين ، وقال إن فردنند ابن الملك كان أول من ألقى بنفسه فى اليم ، وظن والده أن الأمواج قد ابتلعت ابنه العزيز وأغرقتة » .

ثم قال : « ولكنه قد نجا ، وهو يجلس الآن فى ركن من أركان الجزيرة مطوى الذراعين ، واجماً يندب فقد أبيه الملك ، فهو يعتقد أنه غرق ؛ والأمير سليم لم يمسه أذى ، وثيابه وإن بللها ماء البحر تبدو أزهى مما كانت » .

فقال پرسپرو : « ما أظرفك يا إيريل ! اتنى به ، فلا بد أن ترى ابنتى هذا الأمير الشاب . وأين الملك وأخى ؟ » .

فأجابه إيريل : « لقد تركتهما يبحثان عن فردنند ، وهما قليلا الرجاء فى أن يعثرا عليه ، إذ يظنان أنهما قد شاهداه يغرق ، وتلك أيضاً حال بحارة السفينة ، لم ينقص أحد منهم ، وإن كان كل واحد يظن أنه لم ينج أحد غيره ، والسفينة نفسها آمنة فى مرساها ، وإن كان أحد لا يستطيع أن يراها » .

وعندئذ قال پرسپرو : « لقد كنت يا إيريل أميناً فى أداء واجبك ، ولكنك لم تفرغ من عملك بعد » .

فأجابه إيريل : « وهل بقى لى عمل ؟ أرجو أن تسمح لى يا مولاي بأن أذكرك

أنك قد وعدتني بأن تطلق سراحى ، كما أرجو أن تذكر أننى قد أديت لك أجل الخدمات ، وأننى لم أكذب عليك أو ارتكب ذنباً ، ولم أتضجر من خدمتك أو أتذمر .

فقال پرسپرو : « ما هذا القول يا إيريل ؟ ألا تذكر العذاب الذى نجيتك منه ؟ وهل نسيت سكر الكس الساحرة الخبيثة التى حنى ظهرها الحسد ومر السنين حتى كادت تمشى على أربع ؟ تكلم وقل لى أين ولدت ؟ » .
فأجابه إيريل : « لقد ولدت فى مدينة الجزائر ! » .

فقال پرسپرو : « عجباً ! أحق ما تقول ؟ لا بد لى أن أحدثك بسيرتك الأولى لأنك نسيته : لقد أخرجت هذه الساحرة الشريرة من مدينة الجزائر بعد أن اقتربت فيها من ضروب السحر ما تقشعر من هوله الأبدان ، وتركها الملاحون فى هذا المكان ، وكنت أنت روحاً لطيفاً لا تقوى على القيام بتنفيذ ما تأمرك به من سبى الأعمال ، فسجنتك فى جذع شجرة وجدتك فيه تعوى وتناوهِ . لا تنس أن هذا هو العذاب الذى أنجيتك منه » .

فأجابه إيريل وقد غر عليه أن يظهر بمظهر الجاحد بنعمة مولاه : « عفواً يا سيدى العزيز ، سوف أصدع بما تأمرنى به » .

فقال له پرسپرو : « إن فعلت أطلقت سراحك » . ثم أمره بما يجب عليه أن يفعله بعد ، وانطلق إيريل فذهب أولاً إلى حيث ترك فردنند ، فألفاه لا يزال جالساً على الكلا لم يفارقه حزنه وكآبته .

فلما رآه إيريل قال له : « أى سيدى الشاب ، سأنتقل الساعة من هذا المكان ، فلقد علمت أن لا بد من ذهابك إلى الآنسة مرندا لترى محياك الجميل . قم معى يا سيدى واتبعنى » ثم أخذ يغنى :

« يرقد أبوك وفوقه خمس قامات طوال ، ومن عظمه ينشأ المرجان ، ومن عينيه تتكون الآلى ، وكل ما يتساقط منه يصبح من خلق البحر شيئاً عجيباً ثميناً ، وفى كل ساعة يدق حور البحر أجراس موته ، وهانذا أسمع صلصلتها الآن » .
ولم يكد الأمير يسمع هذا النبأ الغريب عن أبيه حتى تنبه من نوبة الخمول التى

غشيته ، وسار مدهوشاً وراء صوت إيريل حتى قاده الصوت إلى حيث كان پرسپرو
ومرندا يتفياآن ظل دوحه محلال ، ولم تكن مرندا قد رأت بشراً من
قبل إلا أباهما .

وقال لها پرسپرو : « خبريني يا مرندا إلى أى شىء تنظرين عن بعد ؟ » فأجابته
مرندا فى دهشة عجيبة : « يا أبت لا شك أنى أرى روحاً من الأرواح ؛ ربه !
إنه يتلفت من حوله ، صدقنى يا أبى إنه مخلوق جميل ، أليس هو روحاً حقاً ؟ » .

فأجابها أبوها : « كلا يا ابنتى إنه بشر يأكل الطعام وينام ، وله من الحواس
مثل ما لنا . إن هذا الفتى الذى ترينه كان فى السفينة ، وقد شفه الحزن فغيره ،
وإلا لكان فى نظرك إنساناً جميلاً . لقد ضل عنه رفقاؤه ، وهو يحوس خلال هذه
الجزيرة يبحث عنهم » . وأعجبت مرندا بمنظر هذا الأمير الشاب الجميل ، وهى التى
كانت تظن أن الرجال كلهم كأبيها ، لهم وجوه وقورة ولحى شيب . ورأى فردنند
هذه الفتاة الجميلة فى ذلك المكان القفر ، فظن أن المقادير قد ألفت به فى جزيرة
مسحورة ، وذلك لأنه لم يكن يتوقع بعد ما سمعه من الأصوات العجيبة أن يرى
شيئاً غير عجيب ؛ وخال مرندا ربه المكان فأخذ يخاطبها كما تخاطب الأرباب .

فأجابته فى حياء بأنها ليست من الأرباب ، وإنما هى فتاة كغيرها من الفتيات ،
وهمت أن تقص عليه قصتها ولكن أباهما قطع عليها الحديث . وسره أن يعجب بها
فردنند وتعجب به ، فقد أدرك من فوره أنها قد تحابا منذ وقعت العين على العين ؛
لكنه أراد أن يخبر فردنند ليعرف مقدار ثباته على حبه ، فقرر أن يقيم فى
طريقهما بعض الصعاب ، ولذلك دنا منهما وخاطب الأمير فى جفاء ، واتهمه بأنه
قد أتى الجزيرة ليكون عيناً على من فيها ، ولينزعها منه وهو صاحب الأمر فيها .
ثم قال له : « سر ورأى ، فلاقيدن رجليك وأضع الأغلال فى عنقك ، وستسقى
ماء البحر الأجاج ، وتطعم الأصداف والجذور الذابلة وقشور ثمار البلوط » .

فأجابه فردنند : « كلا لن أقبل هذه الضيافة ، أو أرى عدواً لى أشد منك
بأساً » . ثم استل سيفه ، ولكن پرسپرو أشار إليه بعصا سحره فجمد فى مكانه
لا يستطيع حراكا .

ثم أخذ فردنند يحدث مرندا الطاهرة البريئة حديثاً آخر ظريفاً — ومن عادة الشبان أبناء الملوك أن يكون حديثهم ظريفاً — قال لها في خلاله إنه وارث عرش نابلي وإنها ستكون مليكته ، فتمهدت مرنده وقالت : « ألا ما أقل عقلي حين أبكي مما يثلج به صدرى ، وسأفصح لك عن ضميرى فى صراحة وطهر لا حرج على فيهما ، إننى أنا زوجتك إذا ارتضيتنى لك زوجة » .

وتراءى پرسپرو وقتئذ لهما ، وحالت رؤيتهما إياه بين فردنند وبين شكره لهما ، ثم حدثهما بقوله : « لا تخشى شيئاً يا بنيتى ، لقد سمعت كل شىء وأنا راض عن كل ما سمعته منك ، وأما أنت يا فردنند فإذا كنت قد قسوت عليك فإنى سأجزيك الجزاء الأوفى ، وستكون ابنتى لك ، وإنى لم أسئ إليك إلا لأخبرك وأعرف قدر حبك . ولقد تبين لى أنك صادق المخبر ، وهأنذا أهدى إليك هدية قد استحققتها بصادق حبك : إن ابنتى لك ، ولا تبتسم إذا سمعتنى أنخر بأن محامدها يقصر عنها كل ثناء » ، ثم أخبرهما أن لديه من الأعمال ما يتطلب وجوده ، ورغب إليهما أن يجلسا ويتحدثا حتى يعود إليهما . ولم يبد من جانب مرندا ميل لمخالفة أمر أبيها فى هذه المرة .

ولما فارقهما پرسپرو دعا إليه الروح إيريل ، فجاءه من فوره يريد أن يحدثه عما فعله مع أخيه وملك نابلي ؛ وقال إيريل إنه تركهما بعد أن أراهما وأسمعهما ما كاد يستطير منه لهما روعا . ولما أعيأها السير وأمهكهما الجوع بسط أمامهما على حين غفلة مائدة شهية ، فلما هما بتناول الطعام تراءى لهما فى صورة مريدة مجنحة نهمة التهمت كل ما كان على المائدة فى لمح البصر . ولشد ما كانت دهشتهما حين أخذت هذه المريدة ، كما ظناها ، تحدثهما وتذكرهما بما اقترفاه من قسوة حين أخرجا پرسپرو من ملكه ، وتركاه هو وابنته يقضيان نحبهما فى لجج البحر ، وقالت إنهما الآن يتقيان هذه الأهوال جزاء ما جنته أيديهما . وندم ملك نابلي والأخ الغادر أنطنيو على ما ارتكباه من ظلم ، وقال إيريل لسيدة إنه لا يشك فى أن توبتهما كانت توبة نصوحا ، وإنه لا يسعه إلا أن يرثى لحالهما وإن كان روحا .

وعندئذ قال له پرسپرو : إذا فجئ بهما إلى هذا المكان ، وإذا كنت وأنت

روح قد رثيت لحالهما تخليق بي وأنا بشر مثلهما أن تأخذني بهما الرأفة ، جىء بهما على الفور أيها الروح الظريف » .

وعاد پرسپرو من فوره ومعه الملك وأنطنيو ومن خلفهما الشيخ جنزالو وهم دهشون مما كان يملأ به إيريل الهواء من موسيقى عجاجة يدلهم بها على موضع سيده ؛ وجنزالو هذا هو الذى أخذته الرأفة پرسپرو فجاءه بالكتب والطعام حينما ظن أخوه الغادر أنه تركه ليأقى حتفه وسط البحر فى قاربه المكشوف .

وذهب الرعب والحزن بمشاعرهم ، فلم يعرفوا پرسپرو حين قدموا إليه ؛ ثم أظهر نفسه أول الأمر للشيخ الطيب جنزالو ووصفه بأنه منقذ حياته ، وعندئذ أدرك أخوه وأدرك الملك أن الذى يحدثهما هو پرسپرو الذى ظلماه وآذياه .

ودنا أنطنيو من أخيه والدمع يفيض من عينيه ، والحزن والندم الصحيح يبدوان فى أقواله ، وأخذ يتوسل إليه أن يغفر له ذنبه ؛ وأظهر الملك أشد الأسف على ما قدم لأنطنيو من مساعدة لخلع أخيه عن عرشه ، وعفا پرسپرو عنهما وعاهداه على أن يردا له ملكه . وقال بعدئذ لملك نابلي : « إن لك عندى فوق ذلك هدية » ثم فتح الباب فرأى من داخله فردنند يلعب الشطرنج مع مرندا .

وبعثت هذه المقابلة المفاجئة فى نفس الوالد وولده سروراً لا يعادله سرور ، لأن كليهما كان يظن الآخر قد لاقى حمامه حين ثارت العاصفة .

وقالت مرندا حين رأتهما : « يا عجباً ! ما أحسن خلق هؤلاء الناس ! ولا شك فى أن العالم الذى يعيش فيه أمثال هؤلاء عالم كله أبطال » .

ولم يكن إعجاب ملك نابلي بجمال مرندا وظرفها أقل من إعجاب ابنه فردنند ، وقال حين أبصرها : « من تكون هذه الفتاة ؟ يلوح أنها هى الإلهة التى فرقت بيننا ثم عادت فجمعت شملنا » . وابتسم فردنند إذ وجد أن أباه قد وقع فى نفس الخطأ الذى وقع هو فيه من قبل حين أبصر مرندا لأول مرة ، ثم قال وهو يبتسم : « كلا يا أبت إنها بشر ، ولكن العناية الإلهية قد وهبتها لى . لقد اخترتها زوجاً لى حين لم أكن أستطيع أن أستأذنك لأنى لم أكن أظنك حياً . إن تلك الفتاة ابنة پرسپرو أمير ميلان الشهير ، الذى طالما شاد الناس بذكره ،

ولكنى لم أكن رأيته ، وقد وهب لى حياة جديدة وكان لى أباً ثانياً ، إذ أنعم على بهذه الفتاة العزيزة .

وقال الملك : « فلا كونى إذا أباه ؛ ولكن ما أغرب أن أطلب المغفرة من ابنتى ! » .

وقال پرسپرو : « كفى ولنس ما صادفنا من شقاء ما دام قد انتهى إلى ما نحن فيه من سعادة » ، ثم عانق پرسپرو أخاه وأكده مرة أخرى أنه يصفح عنه ، وقال إن الإله المدبر القدير قد أذن أن يخرج من دوقية ميلان الحقيرة لى تراث ابنته تاج ناپلى ، لأن حب فردنند لمرندا كان نتيجة التقاءهما فى هذه الجزيرة . ولما سمع أنطونيو هذه الكلمات الطيبة التى أراد بها پرسپرو أن يطمئن أخاه ، فاض الدمع من عينيه لفرط خجله وندم ولم يقو على الكلام . وكذلك بكى الشيخ الرحيم جنزالو حين رأى الأخوين يصطلحان على هذا النحو السار ، ودعا للزوجين الناشئين بالسعادة والهناء .

ثم خبرهم پرسپرو أن سفينتهم آمنة فى الميناء وعليها جميع بجاتها ، وأنه هو وابنته سيركبانها معهم فى صباح الغد ويعودون جميعاً إلى وطنهم ، وقال لهم : « وإلى أن يحين ذلك الوقت دونكم ما فى كهفى الحقيرة من طعام وشراب ، وسأسليكم فى المساء بأن أقص عليكم ما جرى لى منذ وطئت قدمى هذه الجزيرة الجرداء » ، ثم دعا إليه كلبن وأمره أن يهيب الطعام ويصلح من شأن الكهف . ولشدهما دهش الصحاب من صورة هذا المخلوق البشعة الذميمة وهيئته الفظيعة ، فقال لهم پرسپرو إنه ليس لديه من يقوم بخدمته سواء . وقبل أن يبرح پرسپرو أرض الجزيرة أطلق سراح إيريل وأعفاه من خدمته ؛ ولشدهما سر من ذلك هذا الروح الصغير الطريف ، فقد كان خادماً مخلصاً لمولاه ، ولكن نفسه طالما تآقت لأن يتخلص من الأسر ويصبح حراً طليقاً يسبح فى الفضاء كيف شاء ، كما يسبح الطير بين الأشجار الخضراء وبين يانع الثمار وشذا الأزهار .

وقال پرسپرو لإيريل حين وهب له حريته : « أيها الروح العجيب ، لست فى غنى عنك ، ولكنك مع ذلك ستنال حررتك » .

فأجابه إيريل بقوله : « شكراً لك ياسيدى العزيز ، ولكن خادمك الروح
الأمين يسأذذك ، قبل أن تعفيه من خدمتك ، أن يحوط السفينة التى ستقلكم إلى
بلادكم بريح طيبة ، فإذا ما أصبحت بعد ذلك حراً طليقاً تلج بذلك صدرى وطابت
به حياتى » .

ثم غنى إيريل هذه الأغنية اللطيفة :

أنا والنحل نمتص الرحيق سويا ،

وفى كؤوس زهر الربيع نتوى مليا ،

أهجع فيها حين ينطق البوم ،

وإذا انقضى الصيف طرت مستبشراً على ظهر خفاش ،

ألا ما أبهج عيشى وقتئذ تحت الأزهار العالقة بالآفنان .

ثم دفن پرسپرو فى باطن الأرض كتب سحره وعصاه ، لأنه اعتزم ألا يعود
إلى السحر بعدئذ ، ولم يبق من أسباب سعادته بعد أن ظفر بأعدائه وتصلح مع
أخيه وملك ناپلى إلا أن يعود إلى وطنه ، ويستوى على عرش ملكه ، ويشهد
زواج ابنته بالأمير فردنند ؛ وقد قال الملك إن معالم أفراحهما ستقام فى ناپلى
ساعة وصوله إليها . وفى الحق أنهم لم يلبثوا إلا قليلا حتى وصلوا إليها سالمين بعد
رحلة سارة ممتعة فى حراسة الروح إيريل .

~~أثينا~~
~~الطاعون = الوباء~~
حلم ليلة في منتصف الصيف

كان في شريعة أثينا قانون يجيز للآباء أن يرغموا بناتهم على أن يتزوجن بمن يرغبون في زواجه بهن ؛ فإذا أبت إحدى بناتهم أن تتزوج بمن يختاره لها أبوها جاز له بمقتضى هذا القانون أن يأمر بقتلها . ولكن الآباء لا يرغبون عادة في موت بناتهم وإن أظهرن في بعض الأحيان شيئاً من التمرد وعدم الإذعان لمشيئتهم ، ولذلك فإن هذا القانون قلما كان ينفذ فيهن ، أو قل إنه لم ينفذ على الإطلاق ، وكل ما في الأمر أن الآباء في هذه المدينة كانوا في كثير من الأحيان يرهبون بناتهم بما في هذا القانون من هول وقسوة .

ولكن حدث مرة أن شيخاً مُسنّاً يدعى إجيوس Egeus مثل أمام الدوق تسيوس Theseus حاكم أثينا في وقته ، وشكا إليه ابنته هرميا Hermia لأنه أمرها أن تتزوج بشاب يدعى دميتريوس Demetrius من أسرة أثينية نبيلة فلم تطع أمره ، لأنها كانت تحب شاباً آخر من أهل أثينا يسمى ليسندر Lysander ، وطلب إجيوس إلى تسيوس أن يأخذ العدل مجراه وأن ينفذ هذا القانون القاسي في ابنته .

ودافعت هرميا عن نفسها واعتذرت عن عصيانها أمر أبيها بأن دميتريوس قد جهر من قبل بحب صديقة لها عزيزة تدعى هلنا Helena ، وأن هذه الصديقة كانت تحب دميتريوس حباً يبلغ حد الجنون ، ولكن هذا العذر النبيل الذي اعتذرت به هرميا عن عصيانها أمر أبيها لم يبعث في قلب إجيوس القاسي شيئاً من الحنان والرأفة .

وكان تسيوس أميراً عظيماً رحيماً ، ولكنه لم يكن يملك تغيير شريعة بلده ، وكل ما كان في وسعه أن يفعله أن يمهل هرميا أربعة أيام تفكر خلالها في أمرها ، فإذا أبت بعد هذه الأيام الأربعة أن تتزوج دميتريوس حق عليها القتل .

ولما انصرفت هرميا من مجلس الدوق ذهبت إلى حبيبها ليسندر وأطلعته

على ما كان يحدق بها من خطر ، وقالت إنها بين اثنتين : فإما أن تنفض يدها منه وتتزوج دم تريوس ، وإما أن يقضى عليها بعد أربعة أيام .

وسمع ليسندر بهذا النبأ المشؤم فأحزنه وأمر عيشه ؛ ثم تذكر أن له عمة تقيم في مكان قريب من أثينا ، وأن ذلك القانون القاسى لا يستطيع تطبيقه على هرميا حيث تقيم العمة ، لأن سلطانه لا يمتد خارج حدود المدينة ، فعرض على هرميا أن تتسلل من دار أبيها في تلك الليلة وتذهب معه إلى بيت عمته ، وفيه يتم زواجهما . وقال لها في حديثه : « سألقاك على بعد بضعة أميال من المدينة في الغابة البهيجة التى طلبا سرنا فيها مع هلنا فى أيام شهر مايو اللطيفة » .

ووافقت هرميا على هذا الاقتراح وهى فرحة مغتبطة ، ولم تجرب أحداً بما اعترمته من الحرب إلا صديقتها هلنا ؛ لكن الفتيات كثيراً ما يدفعهن الحب إلى أسخف الفعال ، وقد فعلت هلنا من أجل الحب فعلة لا تتفق مع النبل والشهامة إذ اعترمت أن تبوح بسر صديقتها البائسة إلى دم تريوس ، وإن لم تكن ترجو من وراء إذاعته إلا أن تنال شيئاً من المسرة الحقيرة بالذهاب إلى الغابة مع حبيبها الغادر ، وكانت لا تشك في أن دم تريوس سوف يذهب إليها في أثر هرميا .

وكانت الغابة التى اتفق ليسندر وهرميا على أن يتقابلا فيها هى المأوى الذى اختارته لنفسها الخلائق الصغيرة المعروفة باسم « الجن » .

وكان أوبرن Oberon ملك الجن وتيتانيا Titania ملكتهم ، هما وأتباعهما الصغار ، مجتمعين كعادتهم فى منتصف الليل يمرحون ويقصفون فى هذه الغابة . واتفق أن كان بين ملك الجن الصغير وملكهم فى ذلك الوقت شقاق محزن ، فكانا كلما اجتمعا فى ضوء القمر فى طرقات هذه الغابة البهيجة المظلمة بالأشجار ، تنازعا وتخاصما ؛ وكان خصامهما يدوم حتى يزحف كل أتباعهما من الجن ويختفون داخل قشور ثمار البلوط من شدة الخوف .

وكان منشأ هذا النزاع المشؤم أن تيتانيا أبت أن تعطى أوبرن طفلاً مبدولاً كانت أمه صديقة لتيتانيا ، فلما ماتت الأم سرق ملكة الجن طفلها من مربيته ، وقامت هى على تربيته فى الغابة .

وكانت تيتانيا تسير في الغابة مع بعض وصيفاتها في الليلة التي اتفق العاشقان على أن يتقابلا فيها ، وإذا بها تلتقي بأبرن تحوطه حاشيته من الجن .

فلما رآها بادرها بقوله : « لقاء مشؤوم لقاءك في ضوء القمر باتيتانيا المتخطرة » فأجابه الملكة بقولها : « أهذا أنت يا أبرن ؟ أهذا أنت أيها الحسود ؟ » .

ثم قالت لوصيفاتها من الجن : « اقفزن وابعدن عن هذا المكان فقد أقسمت ألا يكون لي بأبرن صلة » ، فرد عليها بقوله : « على رسلك أيتها الجنية الحمقاء ، ألسنت صاحب الأمر عليك ؟ فلم إذا تغاضب تيتانيا سيدها أبرن ؟ هيا أعطني طفلك المبدول ليكون لي غلاماً » .

فأجابه الملكة بقولها : « أرح نفسك من هذا العناء يا أبرن ، إنك لن تنال هذا الولد ولو أعطيتني مملكة الجن بأسرها » ، ثم تركت زوجها محنقاً مغيظاً ومضت في طريقها ، فقال لها أبرن : « اذهبي أنسى شئت ولأجزينك قبل مطلع الفجر على ما أسأت إليّ شر الجزاء » ، ثم دعا أبرن إليه بك Puck كبير أصفياه ومشيره الخاص . وكان بك (أو رُبِن طيب القلب) عفريتاً ما كراً خبيثاً اشتهر بالأعْييه الهزلية في القرى المجاورة ، فتارة يدخل الملاين وينزع قشدة اللبن ، وطوراً يدفع بجسمه الرقيق الغازي في المخضّة ثم يشرع يرقص فيها رقصه العجيب ، فلا تستطيع حلابة اللبن مهما أجهدت نفسها أن تحول القشدة إلى زبد . ولم يكن فتيان الريف أحسن حظاً من فتياته ؛ فإذا ما حبلّ لك أن يخص بالأعْييه معاصر الخمر ، تلفت الخمر لا محالة ، وإذا اجتمع بعض الجيرة ليروحوا عن أنفسهم باحتساء شيء منها قفز بك إلى الكئوس في صورة سرطان مشوى ، وإذا شاءت ربة الدار أن تشرب اهتز فوق شفيتها وسكب الخمر على ذقنها المجدد ، فإذا جلست هذه السيدة بعد ذلك بقليل تقص على جاراتها في هدوء ووقار قصة محزنة نزع بك من تحتها كرسيها ذا الأرجل الثلاث فوقعت المعجوز المسكينه على الأرض من فورها ، وأخذت جاراتها القواعد الثرثرات يسخرن منها ويغرقرن في الضحك عليها ، ويقسمن أنهن لم يكن قط أكثر ابتهاجا منهن في تلك الساعة .

وقال أبرن لهذا العفريت المرح الساري في جوف الليل : « تعال يا بك وجئني

بالزهرة التي تسميها الفتيات (الحب الكسـل) ، وهى زهرة صغيرة أرجوانية اللون إذا عصر ماؤها على جفون النائمى هاموا بحب أول شىء تقع عليه أعينهم عندما يستيقظون ؛ وسأعصر شيئاً من ماء تلك الزهرة على جفنى تيتانيا وهى نائمة ، فإذا فتحت عينيها شغفها حب أول شىء تراه ، ولو كان هذا الشىء أسداً أو دُباً أو نسناساً لعبوباً أو قرداً دُوباً ، وسأرغمها على أن تعطينى ذلك الغلام ليكون من خدمى قبل أن أمحو أثر هذه الرقية ، وفى وسعى أن أمحوه برقية أخرى أنا بها عليم .

وكان بك يحب الحبث من صميم قلبه ، ولذلك سره كل السرور هذا اللهو الذى أراد أن يلهو به سيده ، وذهب من فوره ليأتيه بالزهرة المطلوبة . وبينما كان أبرن ينتظر عودة بك سمع دمـتريوس يؤنب هلنا لمجيئها إلى الغابة فى أثره ، ويغلظ لها فى القول ، وهى تعاتبه فى رفق وتذكـره بحبه القديم ، وما كان يجهر به من صادق الود والإخلاص ، ثم أعرض عنها وقال لها إنه يتركها للذئاب الضارية تفتـرسها أو ترحمها كما تشاء ، وراحت هى تجرى وراءه بأسرع ما تستطيع .

وكان ملك الجن طول حياته صديقاً للمحبين الأوفياء ، ومن أجل ذلك أخذته الرأفة بهلنا ، ولعل أبرن قد رآها من قبل فى تلك الأيام السعيدة حين كان دمـتريوس يهواها ، وقد سمع من ليسندر أنهما كانا يجوسان خلال هذه الغابة الجميلة فى ضياء القمر .

وسواء كان ذلك أو لم يكن ، فقد قال أبرن لبك ناصحه الأمين حين عاد إليه ومعه الزهرة الأرجوانية الصغيرة : « خذ معك جزءاً من هذه الزهرة ، فقد جاءت إلى هذا المكان عادة أثينية حسناء تهيم بحب شاب صغير ، فإذا رأيته نائماً فضع بضـع قطرات من عصير الحب فى عينيـه ، واحرص على أن تفعل ذلك وهى قريبة منه ، حتى تكون هذه الفتاة التى يزدرىها أول ما تقع عليه عيناه حين يصحو من نومه ، وستعرف هذا الشاب من الشياـب الأثينية التى يرتديها » . وقال بك إنه سيمضى فى هذا العمل بكل ما وهب من حذق ومهارة ؛ ثم تركه أبرن وجاء إلى تيتانيا فى عريشها من غير أن تراه ، وكانت وقتئذ تستعد للنوم . وكان عريش الجنينة جسراً ينبت عليه الصمغـر البرى وزهر الربيع والبنفسج النضير ، وتظللـه قبة من

البلابل وورد المسك وورد الجبال ؛ وكان من عادة تيتانيا أن تنام في هذا المكان بعض ساعات الليل ، وغطاؤها ثوب ثعبان مبرقش يحسبه الرائي صغيراً ولكنه يتسع لأن تلتف فيه جنية .

وألقى تيتانيا تأمر تابعاتها من الجن بما يجب عليهن أن يفعلنه وهي نائمة ، ومما قالتها جلاتها : « ليمض بعضكن ويقتلن الأساريع في براعم ورد المسك ، وليحارب بعضكن الخفافيش ليأخذن منها أجنحتها الجلدية يصنعن منها أردية لصغار الجن ، ويراقب بعضكن البوم كثير النعيق فلا يسمح له بالاقتراب مني ، ولكني أحب أولاً أن أنام على صوت غنائكن » .

وأخذت الوصيفات يغنين هذه الأغنية :

« أيتها الأفاعى الرقطاء ذات اللسانين ،

ويا أيتها القنافذ أبعدى فلا تقع عليك العين .

ويا أيها الورل الصغير والدود الأعمى ،

اكفنى كلكن شرّكن ،

ولا تقربن ملكة الجن .

ويا أيتها البلابل غن واطربيه بصوتك الشجي .

لولا ، لولا ، لولا باى . لولا ، لولا ، لولا باى .

وليبعد عن سيدتنا الجميلة كل أذى وكل سحر ،

ألا نامى وعمى مساءً » .

ولما نامت ملكة الجن على غناء وصيفاتها وانصرفت الوصيفات ليقيمن بما

عهدت به إليهن من مهام ، اقترب أوبرن فى خفة من تيتانيا وألقى بقليل من عصير الحب على جفניה وهو يقول :

« هيمى بحب من ترينه عندما تستيقظين من نومك » .

والآن فلنعد إلى هرميا التي خرجت من بيت أبيها فى تلك الليلة ، لتنجو

بنفسها من الموت الذى قدر لها جزاء رفضها الزواج بدمتريوس . فلما جاءت إلى

الغابة وجدت حبيبها ليسندر فى انتظارها ليأخذها إلى بيت عمته ؛ وقبل أن يجتازا

نصف الطريق داخل الغابة أحست هرميا بتعب شديد ، فأشار عليها ليسندر أن تستريح فوق كتيب من الأشنة الرطبة حتى الصباح . وكان ليسندر يعز هذه الفتاة ويحرص على راحتها بعد أن أثبتت له حبها بتعريض حياتها للخطر من أجله . وورقد هو على الأرض بالقرب منها ، وسرعان ما أخذ الكرى بمعاقد أجفانهما . وجاء بك إلى هذا المكان فرأى شابا وسيما نائما وعليه ثياب من الطراز الأثيني ، ورأى غادة حسناء نائمة بالقرب منه ، فلم يشك في أنها هي الفتاة الأثينية وأن الشاب الذي ينام بالقرب منها حبيبها الغادر الذي أرسله أبرن للبحث عنه ، وظن بطبيعة الحال أن أول ما ستقع عليه عين الشاب بعد أن يصحو من نومه هو هذه الفتاة ، إذ لا ثالث لهما في هذا المكان . وعمد من فوره إلى وضع شيء من ماء الزهرة الأرجوانية الصغيرة في عينه ؛ واتفق أن مرت هلنا بهذا المكان فكانت هي لا هرميا أول ما وقعت عليه عين ليسندر حين صحا من نومه . وكان من أغرب الأشياء أن قوة العصير السحرية بلغت من الشدة حدا ذهب معه كل ما كان في قلبه من حب لهرميا ، وحل مكانه حب هلنا .

ولو أن هرميا كانت أول من رأى حين استيقظ من نومه لما كان للخطأ الذي وقع فيه بك أثر ما ، لأن حبه لهذه الفتاة الوفية لم يكن يعلو عليه حب ؛ ولكن أصعب الأمور على النفس وأدعاها للحسرة أن يخضع ليسندر لرؤية حب من عمل الجن ، فينسى هرميا حبيبته الوفية ويجرى وراء فتاة غيرها ، ثم يتركها هي في منتصف الليل نائمة وحدها بين أشجار الغابة .

ولكن هذا ما جرى به القدر المشؤوم . لقد حاولت هلنا أن تلحق دمتریوس بعد أن أساء إليها بتركها في الغابة ، ولكنها لم تستطع أن تجاريه طويلا ، لأن الرجال على الدوام أقدر من النساء على الجرى الطويل . وسرعان ما غاب دمتریوس عن عين هلنا ، وظلت هي تسير في الغابة حزينة كاسفة البال حتى جاءت إلى المكان الذي ينام فيه ليسندر ، فلما رأيته قالت : « عجبنا هذا هو ليسندر ماقى على الأرض ، ترى أميت هو أم نائم ؟ » . ثم مسته بلطف وقالت : « إذا كنت حيا يا سيدي فاصح من نومك » ، وعندئذ فتح ليسندر عينه وبدأت رقية الحب تعمل عملها ،

نخاطبها من فوره خطاب المحب الواله ، وأبدى إعجابه بها ، وقال إن الفرق بين جمالها وجمال هرميا كالفرق بين الثريا والثرى ، وإنه يدخل النار من أجلها ، إلى غير ذلك من عبارات الوجد والهيام . وسمعت هلنا ليسندر يخاطبها بهذه اللهجة فغضبت أشد الغضب ، فقد ظنت أنه يستهزئ بها ؛ وكان خليقا بها أن تظن ذلك لأنها كانت تعرف أن ليسندر حبيب صديقتها هرميا ، وأن بينه وبينها عهدا صريحا بزواجها ، فقالت : « واحسرتاه ! هل جئت إلى هذه الدنيا ليسخر منى ويستهزئ بي كل إنسان ؟ أما كفاني أيها الشاب ألا أحظى بنظرة عطف أو كلمة حنان من دميريوس حتى تأتي أنت فتتظاهرن بجبي هذا التظاهر المزرى ؟ لقد كنت أظنك يا ليسندر أكرم مما رأيت » ، قالت هذا في حنق شديد ، ثم جرت من ذلك المكان فأخذ ليسندر يعدو خلفها ، ونسى حبيبته هرميا التي كانت لا تزال نائمة .

ولما استيقظت هرميا وألفت نفسها بمفردها وجلت من ذلك أشد الوجمل ، وأخذت تجوس خلال الغابة وهي في حيرة لا تدري ما حل بليسندر ، ولا تعرف أين تذهب للبحث عنه . وكان دميريوس في ذلك الوقت قد عجز عن العثور على هرميا وغريمه ليسندر ، وأنهكه بحثه غير المجدى فنام نوما عميقا ؛ وراه أبرن على هذه الحال ، وكان قد عرف من أسئلة له ألقاها على بك أنه قد وضع رقية الحب في غير العينين المقصودتين ، فلما أن وجد طلبته مس عيني دميريوس بماء الحب فاستيقظ من فوره ، وكانت هلنا أول ما أبصر فأخذ يتحدث الوجد والهيام كما فعل ليسندر من قبله . وفي هذه اللحظة أقبل ليسندر ومن ورائه هرميا ، وكانت هي التي تجرى الآن وراء حبيبها بسبب الغلطة المشؤمة التي ارتكبها بك ، وشرع ليسندر ودميريوس جميعا يغازلان هلنا ، لأن كليهما كان متأثرا بالرقية السحرية القوية .

ودهشت هلنا من ذلك أشد دهشة ، وظنت أن دميريوس وليسندر وصديقتها القديمة هرميا كلهم يأترون بها ويسخرون منها .

ولم تكن هرميا أقل دهشة من هلنا ، لأنها لم تكن تعرف كيف أصبح ليسندر ودميريوس يحبان هلنا ، وقد كانا من قبل يحبانها هي ؛ ولاح لهرميا أن

الأمر جد لا هزل ، وأخذت الفتاتان اللتان كانتا من أعز الأصدقاء تتبادلان قوارص الكلم .

فقالت هلنا : « ما أقساك يا هرميا ! إنك أنت التي حملت ليسندر على أن يغاضبني بمدح الساخر . وأما حبيبك الآخر دمتریوس ، فإنك أنت التي أمرته أن يسميني إلهة وحرورية ودرة فريدة بارعة الحسن قدسية الجمال .

« ولولا أنك قد أغريته بأن يسخر مني ما قال لي هذا القول لأنه كان يمتقني من قبل . وهل بلغ من قسوتك يا هرميا أن تشتركي مع الرجال في الاستهزاء بصديقتك البائسة ؟ وهل نسيت صداقة أيام الدراسة ؟ فكم من مرة يا هرميا جلسنا على وسادة واحدة نغني معا أغنية واحدة ، وننقش معا زهرة واحدة على قطعة من القماش واحدة ، وقد مضت بنا الأيام ونحن لا نفرق كأننا فرقدان للمأمل ، أو كأننا شققنا من نبعة واحدة . ليس من الصداقة يا هرميا ، بل ليس مما يليق بالفتيات ، أن تتآمري مع الرجال على السخرية بصديقتك البائسة » .

وقالت هرميا : « إني لیدهشني منك هذا الكلام المحقق ، لست أسخر منك ، بل يلوح أنك أنت التي تسخرين مني » .

فأجبتها هلنا قائلة : « أسدرى في غوايتك ، وتظاهري بالجد ما استطعت ، فإذا التفت فلوى شديك وتغامزى أنت ومن معك بالأجفان ، ولا تنقطعوا عن الهذر والاستهزاء . لو كان في قلبك رحمة ، أو كنت على شيء من الظرف وحسن الخلق ، ما عاملتني هذه المعاملة » .

وبينا كانت هلنا وهرميا تتبادلان قوارص الكلم تر كهما دمتریوس و ليسندر وذهبا يقتتلان في الغابة ليقررا من منهما يفوز بحب هلنا .

ولما رأت الفتاتان أن الشاين قد فارقهما غادرتا مكانهما ، وشرعتا تجولان في الغابة مرة أخرى ، تبحثان عن حبيبيهما رغم ما حل بهما من تعب .

وكان ملك الجن وپك الصغير يستمعان حديث خصامهما ، فلما ذهبتا قال الملك لپك : « هذه عاقبة إهمالك ، أو لعلك قد فعلت فعلتك عامداً » ، فأجابه پك : « لا وحقك يا ملك الأطياف ، لقد كان ذلك عن خطأ وقع مني . ألم تقل لي أن

أتعرف الرجل بملابسه الآثنية ؟ على أننى لست أسفأ لما حدث لأن فى خصامهم لذة أيا لذة . فقال أبرن : « لقد سمعت أن دمتريوس وليسندر قد ذهبا يبحثان عن مكان صالح يقتتلان فيه ، فعليك أن تظل الأرض طول الليل بضباب كثيف ، وأن تضل هذين العاشقين فى ظلام الليل حتى يعجز كلاهما عن لقاء صاحبه ، وقلد أنت لكل منهما صوت غريمه ، واسخر منهما سخرية تحمل كلا منهما على أن يسير وراءك وهو يظن أنه يسمع صوت خصيمه ، ولا تنقطع عن عملك حتى يضمنهما التعب فيعجزا عن مواصلة السير ؛ فإذا وجدتهما قد استغرقا فى النوم فضع ماء هذه الزهرة الثانية فى عيني ليسندر ، حتى إذا استيقظ نسي حب هلنا الجديد ورجع إلى حب هرميا القديم ، وعندئذ تسعد كتما الفتاتين بالشاب الذى تحبه ، وسيظنون جميعاً أن كل ما حدث لم يكن إلا حلماً من الأحلام المزعجة . أسرع ياپك وافعل ما أمرك به ، أما أنا فسأذهب لأرى أى حبيب وجدته تيتانيا . »

وجاء أبرن إلى موضع تيتانيا فألفاها لا تزال نائمة ، ووجد بجوارها مهرجاً قد ضل الطريق فنام هو أيضاً بين الأشجار . وقال أبرن : « سيكون هذا الإنسان محبوب تيتانيا الحقيقى ؛ ثم ألصق فوق رأس المهرج رأس حمار فوافقه كأنه قد خلق له ؛ ووضع أبرن رأس الحمار فى موضعه بخفة وعناية ، ولكنه مع ذلك أيقظ الرجل فقام وهو لا يدرى ما فعل به أبرن ، ومشى نحو العريش الذى كانت ملكة الجن تنام فيه .

وفتحت تيتانيا عينها ، وأخذ عصير الزهرة الصغيرة الأرجوانية يجعل عمله فقالت : « ما هذا الملاك الذى أرى ؟ ترى هل فيك من العقل بقدر ما فيك من الجمال ؟ » ، فأجابها المهرج الأبله بقوله : « لو أن لى ياسيدتى من العقل مايدلنى على الطريق الذى أخرج به من هذه الغابة لكفانى ولم أطلب مزيداً » .

فقالت له الملكة المستهامة : « لا تفكر فى الخروج من الغابة ، أنا جنية من أرقى طبقات الجن ، وقد أحببتك فتعال معى آتاك بجنيات تخدمك . ثم نادى أربعاً من جنها ، وهن زهرة القطانى ونسج العنكبوت والعث وبذرة الخردل ، وقالت لهن : « قفن بين يدي هذا السيد الجميل ، واقفرن فى طريقه ، والعين أمام

ناظريه ، وأطعمنه عنباً ومشمشاً ، واسرقن له أكياس العسل من بطون النحل » ،
ثم قالت للمهرج : « تعال اجلس إلى جانبي ، ودعني أعبت بجديك الأشعرين
اللطيفين ، وأقبل أذنك الكبيرتين الجميلتين يا مصدر سرورى وبهجتى » .

ولم تكن لهذه العبارات ، عبارات المودة والحب ، أثر فى نفس المهرج الذى
استبدل برأسه رأس الحمار ، ولذلك لم يعبأ بها ، ولكنه أخذ يتيه عجباً بخادmates
الجدد ، فبدأ يناديهن واحدة فى إثر واحدة ، وقال : « أين زهرة القطانى ؟ » .

فأجابته : « هأنذا ياسيدى » ، فقال : « حكي بأظافرك رأسى . وأين نسيج
العنكبوت ؟ » ، فقالت هى الأخرى : « لبيك يامولاي » .

فقال لها المهرج المغفل : « يانسيج العنكبوت الطيبة ، اقتلى هذه النحلة
الوضيعة التى حطت على تلك العوسجة البعيدة ، واحرصى يانسيج العنكبوت
الطيبة على أن تأتيني بمدخر عسلها ، ولا تجهدى نفسك فوق ما يجب عليك يانسيج
العنكبوت ، وإياك أن تمزقى كيس العسل فلست أحب أن يغمر ك ما فيه ، وأين
بذرة الخردل ؟ » ، فأجابته : « هأنذا ياسيدى فى انتظار أوامرك » . فقال :
« لست أريد منك يابذرة الخردل الطيبة إلا أن تعينى زهرة القطانى على حك
رأسى . لا بد لى يابذرة الخردل من الذهاب إلى الحلاق لأنى أظن أن شعر وجهى
قد طال كثيراً » .

وقالت ملكة الجن : « ماذا تريد أن تأكل يا حبيبي ؟ إن لدى جنية جريئة
فى وسعها أن تذهب إلى بيت السنجاب وتأتيك ببعض ما فيه من البندق الجديد » .
فقال لها المهرج وقد أصبح له ما للحمار من شهوة للطعام ، بعد أن ركب عليه
رأس حمار : « إني أفضّل أن تأتيني بحفنة من حب القطانى الجاف . على أنى أرجو
ألا يقلقنى أحد من أتباعك فإنى أحب أن أنام » :

فقالت الملكة : « فلتنم إذاً بين ذراعى ، إني أحبك ، وكم ذا أكابد من حبك » .
ولما رأى ملك الجن المهرج نائماً بين ذراعى ملكته اقترب منها حتى وقعت
العين على العين ، وأخذ يؤنبها على ما أحاطت به الحمار من حب .

ولم يكن فى مقدورها أن تنكر هذا الحب لأن المهرج كان وقتئذ بين ذراعيها ،

وقد كملت بالأزهار رأس الحمار الذى كان فوق كتفيه .

وظل أُرن يضايقتها بمض الوقت ، ثم طلب إليها أن تعطيه الطفل المبدول ، فلم تجرؤ على رفض طلبه بعد أن كشف ما كان من أمرها مع عشيقها الجديد .

ولما استحوز أُرن بهذه الطريقة على الطفل الذى كان يريده خادماً له ، رثى لحال تيتانيا وما أصابها من بلاء أوقعها فيه بتدبيره المرح ، فألقى ببضع قطرات من ماء الزهرة الثانية فى عينيها ، فاستعادت ملكة الجن حواسها ، وعجبت أشد العجب من غرامها السابق ، وقالت إنها الآن لا تطيق رؤية هذا المخلوق العجيب .

ثم انتزع أُرن رأس الحمار عن كتفى المهرج ، وتركه يغط فى نومه وعلى كتفيه رأسه هو يحشوه السخف .

ولما زال ما كان بين أُرن وتيتانيا من خلاف ، أخذ يقص عليها قصة المحبين وما وقع بينهم من نزاع فى منتصف الليل ، واتفقا على أن تذهب معه لترى خاتمة أمرهم .

ووجد ملك الجن وملكتهم العاشقين ومعشوقتيهما الجميلتين ، وكلهم نائمون على السكّاء متقاربين ، لأن بك أراد أن يكفر عن ذنبه السابق فعمل على أن يأتى بهم جميعاً إلى مكان واحد دون أن يشعروا هم بذلك ؛ وكان قد عنى بإزالة الرقية السحرية من عيني ليسندر بالعصير الذى أعطاه إياه ملك الجن .

وكانت هرميا أول من استيقظ من النوم ، فوجدت ليسندر بالقرب منها بعد أن ضلت السبيل إليه فى الغابة ، فأخذت تنظر إليه وتعجب من تقلبه الغريب . ثم فتح ليسندر عينيه ورأى حبيبته هرميا فعاد إليه صوابه الذى ذهبت به رقية الجن ، وعاد إليه معه حب هرميا ، فأخذا يذكران ما جرى لهما فى تلك الليلة وهما لا يدریان أن كان ذلك حقيقة واقعة أم كانا يريان حلمًا واحدًا عجيبًا .

واستيقظ دمتریوس وهلنا بعد أن سكن النوم الهادئ الذى من روعها وأزال ثورة نفسها واضطرابها ، فأخذت تستمع فى سرور إلى ما كان يجهر به دمتریوس من حب لها ، وبدأت تدرك فى غبطة ودهشة أنه صادق فى حبه .

ولم يبق الآن سبب للتنافس بين هاتين الفتاتين اللتين كانتا تجوبان الغابة بالليل ،

فعادتنا كما كانتا صديقتين وفيتين ، ونسيت كلتاها ما فاهت به الأخرى من قوارص
الكلم ، وأخذتا تتشاوران فيما يجب عليهما أن تعملاه في موقفهما الجديد . وسرعان
ما تم الاتفاق بينهما على أن يسعى دمتریوس لدى والد هرملیا فی أن يستصدر منه
عفواً عن الحكم القاسی الذي قضی بإعدام ابنته ، بعد أن نزل هو عن حقه قبلها .
وبینا كان دمتریوس يتأهب للعودة إلى أثينا ليسعى ذلك السعی الحمید ، إذا به
هو وزملائه يفاجئون بمقدم إگیوس والد هرملیا ، وقد جاء إلى الغابة فی أثر
ابنته الآبقة .

ولما علم إگیوس أن دمتریوس لم يعد يرغب فی الزواج بابنته ، لم يعارض فی
زواجها بلیسندر ؛ وقبل أن یعقد له عليها بعد أربعة أيام من ذلك الیوم ، أى بعد
مرور عام كامل علی الیوم الذي صدر فیہ الحكم بإعدامها . وقبلت هلنا بغبطة أن
تنزوج فی نفس الیوم حبیبها دمتریوس بعد أن وثقت من إخلاصه لها .
وسر ملك الجن وملكهم أیما سرور من عودة المیاء إلى مجاریها بین هؤلاء
المحبین ، وكانا فی أثناء ذلك يشاهدان خفية هذه الخاتمة السعيدة التي اختتمت بها
قصتهم بفضل جهود أبرن الموقفة الطيبة . وبلغ من سرور هذين الزوجین الطیبین
أن قرقرارها علی أن يحتفلا هما أيضاً بزفافهم ، فیمرح الجن ویقصفون فی
جميع أرجاء مملكتهم .

والآن وقد انتهت هذه القصة إذا كان أحد قدساءه ماقرأ فیها عن الجن
وحیلهم ، ورأى ذلك غریباً لا یصدقہ العقل ، فلیظن أنه كان نائماً یحلم ، وأن
ما فیها من مخاطرات كان كله أضغاث أحلام . ولعل أحداً من القراء لا یبلغ به
السخف مبلغاً یحمله علی الاستیاء من ذلك الحلم اللطیف الذي لا ضرر فیہ ، حلم لیلة
فی منتصف الصیف .

قصة الشتاء

كان لينتيس Leontes ملك صقلية وهرميون Hermione ملكتها الطاهرة الحسنة يعيشان في وئام وصفاء كأحسن ما يعيش الزوجان . وكان لينتيس سعيداً منعماً يحب هذه السيدة الفاضلة حباً نال به كل ما يشتهي ، ولم يكن ينقصه إلا شيء واحد يرغب فيه ، ذلك أنه كان يود أحياناً أن يرى رفيقاً له قديماً كان زميلاً له في أيام الدراسة ، وهو پلكسينس Polixenes ملك بوهيميا Bohemia ، وأن يعرفه بزوجته . وكان لينتيس وپلكسينس قد درجا معاً منذ نعومة أظفارهما ، ثم فرق بينهما موت أبويهما ، فقد دعى كل منهما لأن يجلس على عرش مملكته ، ولم يلتقيا منذ عهد طويل وإن كانا كثيراً ما يتبادلان الهدايا والكتب والرسائل الحبية . ودعا لينتيس صديقه لزيارته مراراً ، وأخيراً لبى پلكسينس دعوته وجاء من بلاد بوهيميا إلى بلاط ملك صقلية في زيارة لصديقه .

ولم تبعث هذه الزيارة أول الأمر إلا السرور الخالص في نفس لينتيس ، وبلغ من سروره برفيق صباه أن أوصى الملكة أن تعنى به عناية خاصة . وكان يبدو في حضرة ذلك الصديق العزيز والزميل القديم وكأنه قد كملت أسباب سعادته . وأخذ يتحدثان عن العهود الخالية ويذكران أيام الدراسة ومرح الشباب ، ويقصان حديث ذلك كله على هرميون ، وكانت هي على الدوام تشترك في هذا الحديث وهي فرحة مغتبطة .

وأقام پلكسينس في ضيافة صديقه زمناً طويلاً ، ثم شرع بعد ذلك يعد العدة للرحيل ، ولكن لينتيس أخذ يتوسل إليه أن يطيل المكث عنده ، وانضمت هرميون إلى زوجها في هذا الرجاء إجابة لرغبته .

ومن هذه الساعة بدأت أحزان هذه الملكة الطيبة ، وذلك أن پلكسينس الذي أبى أن يطيل مقامه إجابة لرغبة لينتيس لم يستطع أن يرفض رجاء هرميون بل تغلبت عليه برقيق لفظها وقوة حجتها ، فرضى أن يؤجل سفره بضعة أسابيع ؛

وعندئذ تملك لينتيس غيرة جامحة رغم ما كان يعلمه عن صديقه پلكسينس من شرف واستقامة ، وعن الملكة من نبل وطهارة . وكانت نيران الغيرة تزداد تأججاً في قلب هذا الملك البائس كلما أظهرت هرميون شيئاً من العناية بپلكسينس ، وإن لم يكن ذلك إلا إجابة لطلب زوجها ورغبته في إدخال السرور عليه . وأصبح لينتيس بين يوم وليلة وحشاً ضارياً غليظ الكبد ، وهو الذي كان من قبل صديقاً محبباً مخلصاً ، وزوجاً هو خير الأزواج وأشدهم وفاء . ومن أجل ذلك استدعى إليه كملو Camillo ، وهو شريف من كبار رجال حاشيته ، وأطلعه على ما يساوره من شكوك ، ثم أمره أن يدس السم لپلكسينس .

وكان كملو رجلاً طيب القلب ، وكان يعرف أن الغيرة التي تأكل قلب لينتيس لا تستند إلى أساس صحيح ، فلم يدس السم لپلكسينس ، بل أطلعه على أوامر مولاه الملك ، واتفق معه على أن يخرجاً معاً من بلاد صقلية . وكذلك نجى پلكسينس بفضل معونة كملو ووصل هو وزميله سالمين إلى مقر ملكه في بوهيميا . وكان كملو يقيم بعض الوقت في بلاط الملك ، وأصبح من ذلك الحين أعظم أصدقائه وأقرب المقرين إليه .

واستشاط لينتيس غضباً حين علم بهروب پلكسينس ، فذهب إلى مخدع الملكة فرآها جالسة مع ابنها ممليس Mamillius الصغير ، وكان قد بدأ في تلك اللحظة يقص على أمه قصة من أمتع ما يعرف من القصص ليسليها بها ، فدخل عليهما الملك وانتزع الطفل منها ، وبعث بها إلى السجن .

وكان ممليس طفلاً صغيراً ، ولكنه كان يحب أمه حباً جماً ، فلما شاهد ما لاقته من مذلة ومهانة ، وعلم أنها قد انتزعت منه لتلقى في غيابة السجن ، أمضه ذلك وآلم قلبه ، وأكسف باله وضععه ، وحرمه شهوة الطعام ولذة النوم ، حتى ظن الناس أن الحزن لا محالة قاتله .

ولما أرسل الملك هرميون إلى السجن أمر كليومينس Cleomenes وديون Dion ، وهما من أشرف صقلية ، أن يذهبا إلى دلفوس Delphos ليعرفا من مهبط الوحي في معبد أپلو أخاتته الملكة أم لم تخنه .

أما هرميون فإنها بعد أن لبثت في السجن بعض الوقت وضعت طفلة صغيرة كان منظرها الجميل يبعث السلوى في نفسها ؛ وقالت لها يوماً : « أيتها السجينة الصغيرة المسكينة إنني بريئة من الذنب براءتك منه » .

وكان لهرميون صديقة رحيمة شريفة النفس تدعى پولينا Paulina ، وهي زوجة شريف من أشرف صقلية يدعى أنتيجون Antigonous ، فلما سمعت پولينا أن سيدتها الملكة قد وضعت طفلة ذهبت إلى سجنها وقالت لإمليا Emila حارستها : « أرجو منك يا إمليا أن تبلي جلالة الملكة أنها إذا رأت أن تعهد بطفلتها إلى فاني سأخذها إلى أبيها الملك ، ومن يدرينا لعل قلبه يرق لها عند ما يرى هذه الطفلة البريئة ؟ » فأجبتها إمليا قائلة : « أيتها السيدة الكريمة ! سأنقل إلى الملكة هذا العرض النبيل . لقد كانت في هذا اليوم تتمنى أن تجد من الأصدقاء من يجروا على تقديم طفلتها إلى الملك » . وواصلت پولينا حديثها قائلة : « وقولي لها إنني سأدافع عنها أمام لينتيس ولا أخشى شيئاً » فأجبتها إمليا بقولها : « بارك الله فيك طول حياتك جزاء ما تحسنين للمكتنا الكريمة » . ثم جاءت إمليا إلى هرميون وعرضت عليها الأمر ، وسر الملكة السجينة أن تعهد بطفلتها إلى عناية پولينا لأنها كانت تخشى ألا تجد إنساناً يرضى أن يجازف بتقديم الطفلة إلى أبيها .

وأخذت پولينا الطفلة المولودة ودخلت بها حجرة الملك قوة واقتداراً ، وحاول زوجها أن يمنعها من الدخول خوفاً من غضب الملك عليها ، ولكنه لم يقو على ذلك . ثم وضعت الطفلة عند قدمي أبيها ودافعت أمامه عن هرميون دفاعاً مجيداً ، ولأتمته أشد اللوم على قسوته ، وتضرعت إليه أن يرأف بزوجها وطفلته البريئتين . ولكن دفاع پولينا القوي لم يكن له من أثر إلا مضاعفة غضب لينتيس ، ولذلك أمر زوجها أنتيجون أن يخرجها من حضرته .

وخرجت پولينا من حضرة الملك ، ولكنها تركت الطفلة عند قدميه ، ظناً منها أنه إذا خلا بنفسه نظر إليها وأخذته الرأفة بها ، فأثر فيه طهرها وضعفها .

ولكن پولينا قدرت فأخطأت التقدير . ذلك أنها لم تكد تخرج من عنده

حتى أمر الوالد القاسى زوجها أنتجون أن يأخذ الطفلة ويخرج بها ويلقيها على شاطئ قفر تهلك .

ولم يفعل أنتجون ما فعله الرجل الطيب كملو ، بل فعل ما أمره به لينتيس ، وأخذ الطفلة من فوره على ظهر سفينة وسار بها فى البحر ليلقيها على أول شاطئ قفر يعترضه . وأيقن الملك بجرمة هرميون فلم يشأ أن يصبر حتى يرجع إليه كليومينس وديون ، وهما اللذان أرسلهما إلى مهبط وحى أيلوفى دلفوس ، بل أمر أن يؤتى بالملكة لتحاكم علنا أمام جميع نبلاء البلاط وأشرافه . ولما اجتمع أعيان البلاد وقضاتها ونبلاؤها لمحكمة هرميون ، وجىء بالملكة التعسة من السجن لتسمع حكم رعاياها عليها ، أقبل كليومينس وديون على هذا الجمع الحاشد ، وسالما الملك جواب الوحى فى غلاف مختوم . وأمر لينتيس أن تفرض الأختام وتقرأ رسالة الوحى جهرة ، فإذا بها تقول : « هرميون بريئة ، وپلكسينس غير ملوم ، وكملو من الرعايا الأوفياء الصادقين ، ولينتيس ظالم حسود ، وسيعيش الملك ولا وارث له إذا لم يُردَّ ما ضاع » . لكن الملك لم يثق بقول الوحى ، وأعلن أن ما جاء بالرسالة كذب اكتبته أصدقاء الملكة ، وطلب إلى القاضى أن يستمر فى محاكمتها . وبينما هو فى حديثه إذا برجل يدخل عليه ويخبره أنه لما سمع الأمير ممليس بأن الملكة قد وقفت أمام القضاء ليحكم عليها بالموت ، فت الحزن والمهانة فى عضده فلقى نحيبه لساعته .

وسمعت هرميون بموت طفلها العزيز عليها الكلف بحبها ، الذى قضى نحيبه حزنا عليها فى بؤسها ، فخارت قواها وغشى عليها . وآلم هذا النبأ المحزن قلب الملك فبدأ يشفق على هذه الملكة التعسة ، وأمر پولينا ومن كان حولها من نساء الحاشية أن يخرجن بها ويعملن على إعادة الحياة إليها . لكن پولينا عادت إلى الملك من فورها ، وأبلغته أن هرميون قد قضت نحبها .

ولما سمع لينتيس بموت الملكة ندم على قسوته لها ، وعرف أن سوء فعالة هو الذى قطع نياط قلبها . وأيقن عندئذ أنها بريئة ، وأن الوحى قد نطق بالحق ، وأنه لن يكون له من يرث ملكه من بعده « إن لم يُردَّ ما ضاع » . وظن بعد أن مات

الأمير ممليس أن ما ضاع هو ابنته ، وكان يود لو عادت إليه هذه البنية المفقودة وإن نزل في سبيل ذلك عن جميع مملكته . وأكسف الحزن باله وقضى سنين طوالا واجما تتوزعه الفكر وتتقسمه الحُموم ، ويعض بنان الندم على ما جنت يده . وهبت عاصفة على السفينة التي كان أنتجون يحمل فيها الطفلة الأميرة ، فدفعت بها إلى شاطئ بوهيميا^(١) ، وهي البلاد التي كان يحكمها الملك پلكسينس فنزل أنتجون في أرضها وترك الطفلة المولودة فيها .

ولم يعد أنتجون إلى صقلية ليخبر لينتيس عن موضع ابنته ، وذلك لأن دُبا خرج عليه من بين الأشجار وهو عائد إلى السفينة ومزقه إرباً ، فنال بذلك ما استحقه من عقاب ، إذ أطاع أمر الملك لينتيس الظالم الأثيم .

وكان لباس الطفلة فاخراً غالياً ، وكانت قد زُيّنت بالجواهر الثمينة ، لأن هرميون قد حملتها قبل أن ترسلها إلى لينتيس ، وألصق أنتجون على ميدعتها ورقة كتب فيها پرديتا ، Perdita ومعناها «المفقودة» ، وبعض أَلَفاظ أخرى تشير في غموض إلى منشأ الطفلة السامى وحظها السيء .

وعثر راع على هذه الطفلة المنبوذة المسكينة ، وكان رجلاً رحيمًا ، فأخذ پرديتا الصغيرة إلى داره وأسلمها إلى زوجته ، فقامت على تربيتها والعناية بها . ولكن الفقر أغرى هذا الراعى أن يخفي هذه اللقية الثمينة ، فنزح عن هذا المكان حتى لا يعرف إنسان مصدر ثرائه ، وابتاع ببعض جواهر پرديتا قطعاناً من الماشية والضأن ، وأصبح من أكثر الرعاة ثروة ، ونشأ پرديتا على أنها ابنته ، فلما كبرت لم تكن تعرف إلا أن الراعى هو أبوها .

وأصبحت پرديتا الصغيرة بعد أن كبرت من أجمل الفتيات ؛ ومع أنها لم تنل من التعليم أكثر مما يناله بنات الرعاة ، فإن ما ورثته عن أمها الملكة من شمائل قد

(١) لا حاجة بنا إلى أن ننبه القارئ إلى أن بوهيميا بلاد لا شاطئ لها ولم يكن لها في ذلك الزمن شاطئ ، ولكن شيكسبير لا يعبأ بعلم الجغرافيا كما لا يعبأ بعلم النحو أو بفقہ اللغة . (المترجم)

بدا سناه في عقلها الذي لم يرنه نور العلم ، ولذلك لم يكن يظن من رآها إلا أنها قد ربيت في قصر أبيها .

وكان پلكسينس ملك بوهيميا ابن وحيد يدعى فلزل Florizel ؛ وكان هذا الأمير يصطاد في يوم من الأيام على مقربة من بيت الراعي ، ف وقعت عينه على ابنته المزعومة ، وأعجب بمجالاتها وخفرتها وسلوكها الذي ينم عن نشأتها الملكية ، فأحبها لساعته ، وأخذ من ذلك الوقت يتردد على دار الراعي الشيخ متكرراً في زى رجل عادى ، وسمى نفسه دركليز Doricles .

ولما تكرّر غياب فلزل عن بلاط پلكسينس أوجس الأب في نفسه خيفة ، ورصد على ابنه العيون ليراقبوه وليوافوه بجلية أمره ، فعرف منهم حبه لابنة الراعي الحسنة .

ومن أجل ذلك دعا إليه كملو الوفى الذى أقذ حياته من غضب لينتيس ، وطلب إليه أن يرافقه إلى بيت الراعى والد پرديتا المزعوم .

وجاء پلكسينس وكملو متتكرين إلى مسكن الراعى الشيخ ، في يوم كان يحتفل فيه بعيد جز الأغنام ، وأدخلهما الراعى إلى مسكنه ودعاها إلى مشاركتة هو وأهله في حفلاتهم ، ولم يمنعه من ذلك أنهما غريبان في داره ، لأن من عادة الرعاة أن يرحبوا بكل زائر في عيد الجز .

وكانت الدار كلها تفيض مراحا وسروراً ، وقد مدت فيها الموائد وأخذ أهلها يستعدون لذلك العيد الريفى . وكان بعض الفتیان والفتيات يتراقصون على السكلا خارج الدار ، وكان غيرهم من الشبان يتتاعون من بائع جوال عند بابها أشرطة وقفازات وما إلى ذلك من الأشياء .

وبينا كان ذلك المخرج يحدث خارج الدار كان فلزل وپرديتا يجلسان في هدوء في ركن بعيد من أركانها ، وكان حديثهما أحب إليهما من الاشتراك مع من حولهما في لعبهم ولهوهم السخيف .

وبالغ الملك في تنكره حتى عجز ابنه عن أن يتيبنيه ، واستطاع بذلك أن يقترب منهما ويسمع حديثهما . ولشد ما كانت دهشة پلكسينس حين رأى ظرف پرديتا

ورقة حديثها رغم ما فيه من سداجة ، فقال من فوره لكم لو : « تلك أجمل فتاة من بنات السوق رأيتها عيناى ، وما من شىء تقوله أو تفعله إلا وهو ينم عن شىء أعظم منها وأنبى من أن تحتويه هذه الدار » .

فأجابه كملو : « حقا إنها زينة الفتيات ودرة تاجهن » .

ثم قال الملك للراعى : « أتعرف أيها الصديق الطيب من هذا الفتى الوسيم الذى يتحدث إلى ابنتك ؟ » ، فأجابه الراعى : « إنهم يُسمونه دركليز وهو يقول إنه يحب ابنتى ، ولست أدري أيهما يحب الآخر أكثر من صاحبه ؛ وإذا استطاع الفتى دركليز أن يتخذها له زوجة فستأتى له بما لم يكن يحلم به » ، وكان يشير بقوله هذا إلى ما بقى من جواهر پرديتا التى ادخرها لتكون مهراً لها عند زواجها ، بعد أن أنفق بعضها فى ابتياع غنمه .

ثم خاطب پلكسينس ابنه قائلا : « أيها الشاب يلوح أن قلبك مفعم بأشياء تصرفك عن الاستمتاع بهذا العيد ؛ لقد كنت فى أيام شبابى أكثر من الهدايا لمن أحب ، أما أنت فقد تركت البائع الجوال يذهب من هذا المكان ولم تشتري منه ما تهديه إلى حبيبته » .

فأجابه الأمير الشاب وهو لا يعرف أنه يحدث أباه الملك : « سيدى الشيخ إنها لا تعبأ بهذه السفاسف ؛ إن الهدايا التى تنتظرها منى مكنونة فى قلبى » . ثم التفت إلى پرديتا وقال : « أى پرديتا اصغ إلى ما أحدثك به أمام هذا الشيخ ، وأكبر الظن أن طائف الحب قد طاف بقلبه فى شبابه ، سوف يسمع هذا الشيخ ما أعاهدك عليه » . ثم طلب فلرزل إلى الشيخ الغريب أن يشهد عليه بأنه قد عاهد پرديتا عهداً مقدساً بأن يكون زوجها لها وقال له : « أرجو منك أن تكون شاهداً على هذا العهد » .

فأجابه الملك بعد أن كشف عن حقيقة أمره : « سأكون شاهداً على طلاقها منك أيها الشاب » . ثم أخذ پلكسينس يوجه اللوم لولده على جراته فيما عاهد عليه هذه الفتاة الوضيعة ، وأنذرها بأنه سوف يقتلها هى وأبائها الراعى العجوز شر قتلة ، إذا سمحت لابنه أن يراها بعد تلك اللحظة .

وتركهما الملك بعد ذلك وهو مغيب مجنون ، وأمر كملو أن يلحق به ومعه الأمير فلزل . وأثار تهكم پلكسينس ما كان في نفس پرديتا من عزة ملكية ، فلما غادر الملك الدار قالت لحبيبتها : « إنني ما خفت قط رغم ما يحقق بنا كلنا من مكروه ، ولقد هممت مرة أو مرتين أن أخبره في صراحة أن الشمس التي تطلع على قصره الملكي لا تحجب وجهها عن كوخنا هذا ، بل تطلع عليهما جميعاً » .

ثم قالت والحزن ملء فؤادها : « والآن وقد تبدد ذلك الحلم اللذيذ فإني لن أكون ملكة بعد اليوم ، فدعني أيها الحبيب أحلب النعاج وأذرف الدموع » . وأعجب الرجل الطيب القلب كملو بشجاعة پرديتا وحسن تصرفها ، ورأى أن الأمير الشاب يحب الفتاة حباً لا يستطيع معه أن يفارقها طوعاً لأمر أبيه الملك ، فأخذ يفكر في وسيلة ينفع بها الحبيين ويقضى بها حاجة في نفسه عزيزة عليه . فقد كان كملو يعرف منذ زمن طويل أن لينتيس ملك صقلية قد ندم ندماً صادقا على ما فعل ، وكان هو نفسه يحن إلى وطنه وإلى رؤية مولاه الملك رغم صداقته لپلكسينس وقربه منه ؛ ولذلك عرض على فلزل وپرديتا أن يصحباه إلى بلاط ملك صقلية . وهو يعاهدتهما بأن لينتيس سوف يحميهما حتى يسعى هو لدى پلكسينس فيعفو عنهما ويوافق على زواجهما .

ورضيا بذلك مغتبطين ؛ وهياً كملو كل ما يلزم لهربهما ، وسمح للراعي العجوز بأن يصحبهما ، وأخذ الراعي معه ما بقي من جواهر پرديتا ، وما كانت تلبسه من الملابس في طفولتها ، والورقة التي عثر عليها مدبسة في ميدعتها .

ووصلا فلزل وپردينا وكملو والراعي الشيخ سالمين إلى قصر لينتيس بعد رحلة جميلة موقفة . وكان لينتيس لا يزال حزيناً على موت هرميون وفقد طفله ، ولكنه أحسن استقبال كملو ، ورحب بالأمير فلزل وأكرم مثواه ؛ وعرفه فلزل وپرديتا قائلاً إنها أميرة .

ولاحظ الملك أن هذه الأميرة تشغل بال لينتيس وتملك عليه لبه ، وأضرم قلبه الحزن من جديد لما أن شاهد ما بينها وبين الملكة الميتة هرميون من شبه ، وأعلن أنه لو لم يكن قد قسا على ابنته وأهلكها لقال إنها هي هذه الفتاة الجميلة

بعينها ، ثم التفت إلى فلرزل وقال له : « وفي ذلك الوقت أيضاً فقدت صحبة أبيك الشهم وصدافته ، وإن رغبتى فى أن أشاهده الآن لأشد من رغبتى فى حياتى » .
ولما سمع الراعى الشيخ بما لقيته پرديتا من عناية الملك ، وعرف أنه قد فقد ابنة له تركت فى العراء فى أثناء طفولتها ، أخذ يفكر فى الوقت الذى عثر فيه على پرديتا الصغيرة والحالة التى لقيها عليها ، وجواهرها وكل ما يدل على شرف محتدها ، ولم يكن ثمة مفر من أن يؤدى به تفكيره إلى الحكم بأن پرديتا هى بعينها ابنة الملك المفقودة .

واستمع فلرزل وپردينا وكملو وپولينا المخلصة الأمينة للراعى الشيخ وهو يصف للملك حال الطفلة عند ما عثر عليها ، والظروف التى قتل فيها أنتجون ، لأنه قد شاهد الدب وهو يفترسه . ثم أظهر له المبدعة الثمينة فتذكرت پولينا أنها هى بعينها التى لفت فيها هرميون ابنتها ، ثم أخرج له بعد ذلك جوهرة ذكرت پولينا أن هرميون قد علقها حول عنق پردينا ، وأطلعهم على ورقة مكتوبة عرفت فيها پولينا خط زوجها ، فلم يبق بعد ذلك شك فى أن پرديتا ابنة الملك حقاً . ولشد ما عانت پولينا فى نفسها من كفاح بين حزنها على زوجها ، وسرورها من تحقق نبوءة الوحى ، إذ عادت إلى الملك وارثة عرشه ، وهى ابنته التى طال العهد بفقددها . ولما سمع لينتيس أن پرديتا هى ابنته استولى عليه الحزن لأن هرميون لم تكن حية فترى ابنتها ؛ وظل وقتاً طويلاً واجماً لا يقوى على النطق بشيء اللهم إلا قوله : « أمك ! أمك ! » .

وبدلت پولينا هذا الموقف السار المؤلم معاً بأن أخبرت لينتيس أن لديها تمثالاً قد فرغ الآن من نحتة التمثال الإيطالى الشهير جوليو رومانو Julio Romano ، وهو لا يفترق عن الملكة فى شيء ، فإذا سمح جلالة الملك بالذهاب معها إلى منزلها ونظر إليه ، ما تردد فى الحكم بأنه يرى هرميون نفسها . وذهبوا كلهم من فورهم إلى دار پولينا ، لأن الملك كان شديد الرغبة فى أن يرى تمثال هرميون ، ولأن پردينا كانت تترقى إلى أن تعرف كيف كانت أمها التى لم ترها قط .
وأزاحت پولينا الستار عن ذلك التمثال العظيم ، فبدا كأنه هرميون نفسها ،

ولم يكد الملك يراه حتى عاد إليه حزنه وظل برهة طويلة لا يقوى على الحركة أو الكلام .

وقالت پولينا : « إني أحب منك هذا السكوت يا مولاي ، لأنه يفصح عن دهشتك أكثر مما يفصح عنها الكلام . أليس هذا التمثال شبيهاً كل الشبه بالملكة ؟ » وقال الملك أخيراً : « هكذا كانت وقفها ، وكذلك كانت عظمتها حين خطبتها ، لكنها يا پولينا لم تكن قد بلغت هذه السن التي تبدو في هذا التمثال » .

فأجابه پولينا : « وهذا دليل آخر على براعة الممثل ، فقد صنع التمثال بحيث يبدو كما كانت تبدو هرميون لو أنها عاشت إلى الآن . ولكن أسمح لي يا مولاي أن أسدل الستار لئلا يظن الآن أن التمثال يتحرك ؟ » .

فقال الملك : « كلا لا تسدلي الستار . ليتني لم أعش إلى الآن ! انظر إليه يا كملو ، ألا تظن أنه يتنفس ؟ إن عينها لتبدو وكأنها تتحرك » .

فأجابه پولينا بقولها : « لا بد أن أسدل الستار يا مولاي ، لأنني أخشى أن يحملك ما أنت فيه من ذهول ودهشة على الاعتقاد بأن التمثال حي » .

فقال لها لينتيس : « بحقك يا پولينا إلا ما جعلتني أعتقد هذا عشرين عاما طوالا ، وإني ليخيل إلى أن الهواء يأتي إلى من جهتها ، فأى إزميل هذا الذي يستطيع أن يفتح الأنفاس ، بحقكم لا تسخروا مني ، لا بد أن أقبلها » .

فأجابه پولينا : « لا تقدم على ذلك يا مولاي ، إن الصبغة الحمراء التي على شفيتها لم تجف ، فإن قبلتها لو ثت شفتيك بهذه الصبغة الزيتية ، فهل تسمح لي أن أسدل الستار ؟ » فقال لينتيس : « لا لن تسدليه قبل عشرين عاما » .

وكانت پرديتا طوال هذا الوقت راكعة تنظر في سكون وإعجاب إلى تمثال أمها العظيمة ، فلما سمعت جواب أبيها قالت : « وفي وسعي أن أقيم هنا عشرين عاما أيضاً أمتع فيها ناظري برؤية أمي العزيزة » .

وقالت پولينا للملك : « إما أن تهدي من سورة عواطفك وتسمح لي أن أسدل الستار ، وإما أن تستعد لما هو أعجب من ذلك ؛ إن في وسعي أن أجعل التمثال يتحرك ، أجل يتحرك وينزل عن قاعدته ويأخذ بيدك ؛ ولكنك ستظن

وقتئذ أنى أستعين على ذلك بقوى خفية شريرة ، وتلك مهمة لا أقبلها .

فأجابها الملك فى دهشة : « إنى قانع بالنظر إلى ما تستطيعين أن تحمليها على فعله ، وسماع ما تستطيعين أن تحمليها على قوله ، وليس تحريك لسانها بأصعب من تحريك أطرافها » .

وعندئذ أمرت پولينا بأن تعزف بعض قطع موسيقية هادئة كانت قد أعدتها لهذه الساعة ؛ وما كان أشد دهشة الحاضرين جميعا حين نزل تمثال هرميون عن قاعدته ، وتوجه تلقاء لينتيس وطوق عنقه بذراعيه ثم شرع يتكلم ويدعو الله أن يباركه ويبارك ابنته پردينا .

ولا عجب أن يطوق تمثال هرميون عنق لينتيس ويباركه هو وابنته ، لأن التمثال لم يكن إلا هرميون الملكة الحية الحقيقية .

ذلك أن پولينا لم تكن صادقة حين نقلت إلى الملك نبأ وفاة هرميون ، فقد نقلت إليه هذا النبأ لأنها لم تجد أمامها سبيلا تنجى بها سيدتها الملكة إلا هذه السبيل . وعاشت هرميون مع پولينا من ذلك الحين ، ولم تشأ أن يعرف الملك أنها حية ترزق حتى سمعت بعودة پردينا ، لأنها وإن لم تستطع أن تسامح الملك فى قسوته على ابنته ، قد عفت من زمن طويل عما لحقها هى من أذى على يديه .

وفاض السرور والسعادة على لينتيس حتى لم يقو على احتمالها ، بعد أن عادت زوجته إلى الحياة وردت إليه ابنته ، وانتهى بهذا وذاك عهد أحزانه الطويل .

ولم تكن تسمع فى هذا الوقت إلا التهانى تتردد على كل لسان ، وعبارات الحب والعطف تنبعث من كل مكان ؛ وأخذ الأيوان المغتبطان يشكران للأمير فلرزل حبه ابنتهما رغم ضعفتها الظاهرة ، وللراعى الشيخ الطيب عنايته بطفلهما ومحافظة على حياتهما . ولشد ما اغتبط كلو وپولينا لأنهما قد عاشا ليريا هذه الخاتمة السعيدة التى اختتمت بها جهودهما وإخلاصهما .

وكأنما أرادت الأقدار ألا ينقص شىء يتم به هذا السرور العجيب الذى لم يكن أحد يتوقعه ، فقد دخل القصر فى هذه اللحظة الملك پلكسينس نفسه .

ذلك أن هذا الملك تفقد ابنه وكملا فلم يجدها ، وكان يعرف أن كملا يرغب من
زمن طويل في العودة إلى صقلية ، وظن أنه سيجده هو وابنه فيها فجاء من فوره
على أثرهما ، وشاءت الصدفة أن يصل إليها في هذه اللحظة وهي أسعد اللحظات
التي شهدتها لينتيس في حياته كلها .

واشترك پلكسينس في هذا السرور العام ، وعفا عن صديقه لينتيس وعن
غيرته الباطلة منه ، وعاد الحب بينهما قويا كما كان أيام الصبا . ولم يكن أحد في ذلك
الوقت يخشى أن يعارض پلكسينس في زواج ابنه ببرديتا ، فلم تكن هي الآن
خاطفة النعاج ، بل كانت وارثة تاج صقلية .

وكذلك جوزيت هرميون على صبرها وفضائلها وآلامها الطويلة أحسن الجزاء
وعاشت هذه السيدة الفاضلة زمناً طويلاً مع زوجها لينتيس وابنتها بريديتا ، وكانت
أسعد الأمهات والملكات .

جعجعة بلا طحن

كان يعيش في قصر ليوناتو Leonato حاكم مسينا Messina سيدتان تسمى إحداهما « هيرو Hero وتدعى الأخرى بيتريس Beatrice . فأما هيرو فكانت ابنة الوالى ، وأما بيتريس فكانت ابنة أخيه .

وكانت بيتريس ذات طبع مرح ، وكان يسرها أن تروح بفكاهاتها اللذيذة عن ابنة عمها هيرو التى كانت أكثر منها جدا ورزاة ، وكانت لمرحها وبشرها ترى سبباً للبهجة والسرور فى كل ما يحدث حولها .

وجاء لزيارة ليوناتو فى الوقت الذى تبدأ فيه قصة هاتين الفتاتين جماعة من الشبان ، لهم مراتب عالية فى الجيش ، مروا بمدينة مسينا وهم عائدون من حرب وضعت أوزارها فى تلك الأيام ، وظهروا فيها على أقرانهم بما أبدوه من ضروب الشجاعة وأعمال البطولة . وكان من بينهم دن بدرو Don Pedro أمير أرغونة ، وصديقه كلوديو Claudio من أشرف مدينة فلرنس Florence ، ومعهم بندك Benedick من أشرف پدوا Padua وكان شابا مجازفا فكها .

وكان هؤلاء الغرباء قد زاروا مسينا من قبل ، فلما جاءوا إليها هذه المرة قدمهم حاكمها المضيف الكريم إلى ابنته وابنة أخيه ، وقال لهما إنهم من معارف الأسرة وأصدقائها القدماء .

ولم يكذب بندك يدخل حجرة الاستقبال حتى أخذ يتحدث إلى ليوناتو والأمير دن بدور حديثاً شيقاً ممتعاً ؛ وكانت بيتريس تحب ألا يفوتها حديث أيا كان نوعه ، ولذلك جاءت وقاطعت بندك بقولها : « من أعجب الأشياء أنك ياسيد بندك لا تزال تتحدث ، إن أحداً لا يصنى إليك » .

وكان بندك لا يقل عن بيتريس طيشاً ونزقا ، ولكنه مع ذلك لم يعجبه ما تنطوى عليه هذه التحية من جرأة ، وكان يرى أنه لا يليق بسيدة مهيبة أن تطلق لسانها على هذا النوال ؛ وعاد إلى ذاكرته أنه حين جاء مسينا آخر مرة كانت

بيتريس تختاره هدفا لمزاحها ومجونها . ولما كان أكثر الناس كرها للاستهزاء به أكثرهم استهزاء بغيره ، فإن بندك وبيتريس لم يشدا عن هذه القاعدة ، فلم يكن هذان الفكهان المتوقدا الذهن يتلاقيان في الأيام الماضية دون أن تدور بينهما حرب من التهم حقيقية لا تحبو نارها حتى يفترقا مغضبين . ولما قطعت عليه بيتريس حديثه ، وقالت له إن أحداً لا يصنى إلى قوله ، تظاهر بأنه لم يلاحظ قبل ذلك وجودها ، وقال لها : « وليك سيدتى المزدرة العزيرة الأترالين فى عداد الأحياء ؟ » ، ثم ثارت بينهما من جديد حرب من التهم شعواء ، أعقبها لجاج طويل ، قالت بيتريس فى خلاله إن فى طاقتها أن تأكل جميع من قتله هناك ، مع علمها بأنه قد أثبت فى الحرب الأخيرة شجاعته ورباطة جأشه . ولما رأت الأمير مصغياً إلى حديثه مشتاقا لسماعه وصفته بأنه مضحك الأمير . وآلم هذا الاستهزاء ببندك أكثر مما آلمه كل ما قالته بيتريس من قبل ؛ فهو لم يعبأ بما ينطوى عليه قولها إن فى وسعها أن تأكل جميع من قتله من وصفه بالجبن ، وذلك لما يعرفه عن نفسه من الشجاعة وقوة الجنان ، ولكن ما من شئ يخشاه كبار الفكاهين أكثر من أن يتهموا بالمجون لأن هذه التهمة تكون أحيانا قريبة كل القرب من الحقيقة ، ومن أجل هذا كره بندك بيتريس أشد الكره حين وصفته بأنه « مضحك الأمير » .

وظلت هيرو لحياها صامته أمام الضيوف الكبار ؛ وبينما كان كلوديو ينعم النظر فى جمالها الذى زادته الأيام حسناً وبهاء ، ويتأمل قوامها الرشيق لأنها كانت فى الحق فتاة بارعة الجمال ، بينما كان كلوديو يفعل هذا وذاك كان الأمير يصنى فى بهجة وانسراح إلى ما كان يدور بين بندك وبيتريس من حوار لذيذ ، وقد أسر إلى ليوناتو قوله : « تلك فتاة خفيفة الروح ، وإنما لتكون زوجا من أحسن الأزواج لكلاؤديو » ، فأجابه ليوناتو : « مولاي ! مولاي ! لو أنهما تزوجا لجن جنونهما من حديثهما بعد أسبوع واحد من زواجهما » .

وكان ليوناتو يظن أنهما لن يكونا زوجين موفقين متفقين ، ولكن الأمير لم يعدل عن رأيه فى أن يجمع بين هذين الفكاهين .

ولما عاد الأمير من القصر مع كلوديو وجد أن الزواج الذى كان يدبره بين

بندك وبيتريس لم يكن هو الزواج الوحيد الذى تفكر فيه هذه الجماعة الطيبة ، وذلك لأنه رأى كلوديو يتحدث عن هيرو حديثاً عرف من خلاله ما كان يجيش فى صدره .
وسر الأمير من ذلك كل السرور وقال لـكلوديو : « أتحب هيرو ؟ » ، فأجابه كلوديو عن سؤاله هذا بقوله : « مولاي ، إنى حين كنت فى مسينا آخر مرة كنت أنظر إليها بعين الجندى الذى يميل قلبه ، ولكنه لا يجد من الوقت متسعاً للحب ، أما الآن ونحن فى وقت السلم السعيد فقد تركت أفكار الحرب مكانها فى عقلى خاوية ، فازدحت فيه أفكار أخرى رقيقة لطيفة ، تحدثنى كلها عن جمال هيرو البارع ، وتذكرنى بما كان فى قلبى من ميل إليها قبل أن أذهب إلى ميدان القتال » . وأثر فى نفس الأمير اعتراف كلوديو بحب هيرو فلم يتوان عن أن يرجو من ليوناتو أن يرضى بـكلوديو زوجاً لابنته ؛ وقبل ليوناتو هذا الرجاء ، فلم يجد الأمير بعدئذ صعوبة فى إقناع هيرو الفتاة الظريفة أن تقبل خطبة كلوديو النبيل صاحب المواهب النادرة ، واستطاع كلوديو بمعونة هذا الأمير الطيب الكريم أن يقنع ليوناتو بتحديد يوم قريب يحتفل فيه بزواج كلوديو وهيرو .

ولم يكن بينهم وبين اليوم الذى حدد لزواج كلوديو بهذه الغادة الحسنة إلا بضعة أيام قليلة ، ولكنه أخذ يشكو السامة والملل كما يفعل معظم الشبان وهم ينتظرون إبرام أمر يطمحون إليه ، ولذلك عرض الأمير عليه أن يمضيا تلك الفترة المملة فى تدبير حيلة يشعلان بها نار الحب فى صدر بندك وبيتريس . وسر كلوديو أن يشترك فى تنفيذ هذا الخاطر الذى سنح للأمير ، ووعدهما ليوناتو أن يقدم لهما مساعدته ، ولم تمنع هيرو نفسها فى أن تعمل أى شئ لا يتعارض مع حياتها ويمكن ابنة عمها من الحصول على زوج صالح لها .

وكانت الحيلة التى دبرها الأمير ومن معه أن يدخلوا فى روع بندك أن بيتريس تحبه ، وأن تقنع هيرو ببيتريس بأن بندك مولع بحبها .

وكان الأمير وليوناتو وكلوديو هم البادئين بالعمل ، وسنحت لهم الفرصة حين رأوا بندك جالساً يقرأ خلف العريش بين الأشجار ، بحيث لم يكن فى وسعه إلا أن يسمع كل ما يقولون . وأخذوا أول الأمر يتحدثون فى موضوعات شتى ، ثم قال

الأمير : « يا ليوناتو اذن منى ، ماذا كنت تقول لى فى ذلك اليوم ؟ أ كنت تقول إن بيتريس ابنة أخيك تحب السيد بندك ؟ إنى لم أ كن أظن أن فى مقدور هذه الفتاة أن تحب أحداً من الرجال » .

وأجابه ليوناتو بقوله : « وكذلك كان شأنى أيضاً يا سيدى ، والحق أن شغفها ببندك لشيء غريب ، لأن ظاهر الأمر كان يدل دائماً على أنها تبغضه » . وأ كد كلوديو ذلك كله بقوله « إن هير و قد حدثته بأن بيتريس تحب بندك ، وبأنها تموت كهداً إذا لم يبادلها الحب ، وهو أمر يظن ليوناتو وكلوديو أنه فى حكم المستحيل ، لأن من طبيعة بندك أن يهزأ بكل الفتيات الجميلات ، وبخاصة بيتريس نفسها » .

وتظاهر الأمير بأنه يصغى إلى هذا كله وقد أخذته الرأفة ببيتريس وقال : « إن من الخير أن يخبر بندك بهذا » . فقال كلوديو : « وماذا يرجى من هذا ؟ لا شك فى أنه سيتخذ وسيلة للهو و يعذب به قلب هذه الفتاة المسكينة أكثر مما عذبها من قبل » . وأجاب الأمير : « إنه إن فعل فقد استحق الشق ، لأن بيتريس فتاة من أجمل الفتيات وأحسنهن ، وأكملهن عقلا ، وأصوبهن رأياً ، إلا فى حبها لبندك » . ثم أشار الأمير إلى أصحابه أن يغادروا المكان ويتركوا بندك يفكر فيما سمعه .

وكان بندك فى أثناء ذلك مصغياً إلى هذا الحديث لا تقوته منه كلمة ، فلما سمع أن بيتريس تحبه قال فى نفسه : « أهذا مستطاع ؟ أحق هو ؟ » .

ولما بعدوا عنه أخذ يقلب الأمر فى فكره ويجادل نفسه بالطريقة الآتية : « لا يمكن أن تكون هذه حيلة فقد كان حديثهم جدا لا هزل فيه ، وقد عرفوا حقيقة الأمر من هير و ، ويلوح أنهم مشفقون على الفتاة ، إنها تحبنى ولا بد أن أبادلها حبا بحب ، إنى لم أفكر قط فى الزواج ولكنى حين قلت إنى سأموت غرباً لم أ كن أظن أنى ستطول بى الحياة حتى أتزوج ، إنهم يقولون إن الفتاة فاضلة جميلة والحق أنها كذلك ؛ ويقولون إنها حكيمة فى كل شيء إلا فى حبها إياى ، وليس هذا دليلا قويا على ضعف عقلها ؛ وها هى ذى بيتريس مقبلة ،

لعمرى إنها فتاة جميلة ، وإنى لأتوسم فيها دلائل الحب . »

واقتربت بيتريس منه وخاطبته بلهجتها اللاذعة المألوفة قائلة : « قد أرسلوني على الرغم منى لأن أدعوك إلى تناول الطعام » . ولم يكن بندك قبل الآن يشعر بأقل ميل فى نفسه لأن يتجمل فى حديثه لها ، ولكنه فى هذه المرة أجابها بقوله : « بيتريس ، أيتها الفتاة الحسنة ، إنى شاكر لك ما تحملت من مشقة » . ولما غادرت بيتريس المكان بعد أن ألقت على سمعه بعض الكلمات اللاذعة الجافة ، ظن بندك أنه يستطيع أن يتبين من ثنايا حديثها الجاف معانى من العطف عليه ، فقال جهره : « إننى إذا لم أرحمها كنت نذلاً ، وإن لم أحبها كنت يهودياً ، سأذهب من فورى وآتى بصورتها » .

وهكذا وقع بندك فى الشرك الذى نصبوه له ، ولم يبق إلا أن تنهض هيرو بالعبء الذى ألقى على عاتقها ، ولذلك بعثت فى طلب وصيفتين من وصيفاتها هما أرسولا Ursula ومرجريت Margaret ، فلما جاءتا قالت لمرجريت : « يا مرجريت أسرعى إلى حجرة الاستقبال وستجدين فيها ابنة عمى بيتريس تتحدث إلى الأمير وإلى كلوديو ، فأسرى إليها أنى أنا وأرسولا نمشى فى البستان ، وأن حديثنا كله يدور حولها ، ثم اطلبى إليها أن تتسلل إلى هذا العريش الجميل الذى يظله زهر العسل ، وقد تفتح من ضياء الشمس ولكنه كفر بنعمتها فنع هذا الضياء من أن ينفذ إلى العريش » . وكان هذا العريش الذى طلبت هيرو إلى مرجريت أن تغرى بيتريس بالمجئ إليه هو نفس العريش الجميل الذى جلس فيه بندك من زمن قليل يصغى إلى حديث الأمير وأصدقائه . وقالت مرجريت : « لست أشك فى أننى سألقى بها من فورى إلى هذا العريش » .

ودهبت هيرو ومعها أرسولا إلى البستان وقالت : « والآن يا أرسولا إذا جاءت بيتريس فسنسير فى هذا الطريق الضيق جيئةً وذهاباً ، وسيدور حديثنا كله حول بندك ، فإذا ذكرت اسمه فعليك أن تثنى عليه ثناء ليس بعده ثناء ، وسيكون موضوع حديثى هو حب بندك لبيتريس . هيا ابدئى فيها هى ذى بيتريس تتسلل خفية لتستمع إلى حديثنا » . وبدأ الحديث على الفور ، فقالت هيرو كأنها هى تجيب

عن سؤال ألقته عليها أرسولا : « في الحق يا أرسولا أن الأمر ليس كذلك ، إنها لشديدة الازدراء لغيرها من الناس ، وإنها لحبيبة كل الحياء » .
وقالت أرسولا : « ولكن أنت واثقة من أن بندك يحب بيتريس هذا الحب كله ؟ » .

فأجبتها هيرو : « هذا هو ما يقوله الأمير وسيدى كلوديو ، وقد طلبا إلى أن أفضى به إليها ، ولكنني أقنعتهما بأن لا يطلعا بيتريس على جليلة الأمر إذا كانا يحبان بندك حقا » . فردت عليها أرسولا قائلة : « إنك محقة بلا شك ، وإن من الخير ألا تعرف شيئا عن هذا الحب لئلا تتخذ موضوعا لسخريتها » .
ثم قالت هيرو : « وفي الحق أنني لم أَر رجلا مهما كان عقله ونبله ، ونضرة شبابه وجمال خلقه ، إلا ذمته وعابته » . فأجبتها أرسولا : « لا شك أن مذمة الناس أمر غير محمود » . فقالت هيرو : « هو غير محمود حقا ، ولكن من يجرو أن يخبرها بذلك ؟ إنني إذا قلت هذا القول سخرت مني وسلقتني بالسنة حداد » .
فأجبتها أرسولا : « إنك تظلمين ابنة عمك بهذا الاعتقاد ، إنها لن يصل بها الحق إلى أن ترفض الزواج بسيد مثل بندك قل أن يوجد له نظير بين الرجال » . فقالت هيرو : « حقا إن له بين الرجال أعظم مقام ، ولست أقول إلا الحق إذا أخبرتك أنه صاحب المقام الأول في إيطاليا كلها إذا استثنيت بالطبع حبيبي كلوديو » .
ثم أشارت هيرو إلى صديقها إشارة فهمت منها أن الوقت قد حان لتغيير مجرى الحديث ، فقالت أرسولا : « ومتى يتم زواجك يا سيدتي ؟ » فأجبتها هيرو بأن زواجها بـكلوديو سيكون في اليوم التالي ، وطلبت إليها أن تذهب معها لتطلعها على ثياب جديدة لأنها تحب أن تعرف رأيها فيما يحسن أن تلبسه في غد .

وكانت بيتريس في أثناء ذلك تصنع إلى حديثهما وتعيه ، فلما غادرتا المكان قالت جهرة : « كأني أحس بنار هذا الحب تحرق قلبي ، أحق هو ؟ وداعا للاحتقار والسخرية وكبرياء العذارى ، وليدم حبك يا بندك ، سأبادلك حبا بحب وأخضع قلبي النفور إلى حبك » .

وما من شك في أن منظر بندك وبيتريس بعد أن تبدلت عداوتهما حبا كان

منظراً ممتعاً حقاً ، وما كان أجمل لقاءهما بعد أن خدع كلاهما وأدخل في وهمه أن زميله يحبه ، وذلك بفضل تدبير الأمير وظرفه وحسن فكاهته . ولكن حدث في ذلك الوقت أن أكب الدهر على هير وورماها بسهم من سهامه ، فنزل بها في اليوم المحدد لزفافها ما أمر عيشها وعيش أبيها الشيخ الطيب ليوناتو .

وذلك أن الأمير كان له أخ غير شقيق يدعى دن چون Don John ، جاء معه من ميدان الحرب إلى مسينا . وكان هذا الأخ رجلاً كئيباً ساخطاً على العالم ، طبعت نفسه على الشر كأنه قد خلق لتدبير المكائد ؛ وكان يبغض أخاه الأمير ويبغض كلوديو لأنه صديق الأمير ، ولذلك عول على أن يحول بينه وبين زواجه بهيرو . ولم يكن يقصد بتدبيره هذا إلا أن يشفي عله بشقاء كلوديو والأمير لأنه كان يعرف أن رغبة الأمير في إتمام هذا الزواج لا تقل عن رغبة كلوديو نفسه . واستخدم في الوصول إلى غرضه الذئ رجلاً يدعى بورا كيو Borachio لا يقل عنه خبثاً ومكرًا ، وأغراه على ذلك بجائزة سنوية . وكان بورا كيو هذا خطيب مرجريت وصيفة هير و ، وكان دن چون يعرف ذلك فأقنعه بأن يطلب إلى مرجريت أن تعده بأن تطل عليه من نافذة غرفة سيدتها في تلك الليلة وتحده بعد أن تنام هير و ، وأن ترتدى في أثناء ذلك ثياب هير و نفسها حتى لا يخامر كلوديو شك في أنها هي هير و ذاتها . وكان هذا هو الغرض الذي يريد أن يصل إليه بتلك المؤامرة الدنيئة .

ثم ذهب دن چون بعد ذلك إلى الأمير وكلوديو وأخبرهما أن هير و فتاة طائشة ، وأنها تتحدث إلى الرجال من نافذة غرفتها في منتصف الليل . وكانت هذه هي الليلة السابقة ليوم الزفاف فعرض عليهما أن يأخذهما معه إلى حيث يستمعان هير و تحدث رجلاً من نافذة غرفتها ، ورضيا أن يذهبا معه ؛ وقال كلوديو : « إذا رأيت في هذه الليلة من الأسباب ما يمنعني من زواجها فسأفصح أمرها غداً في الجمع المعد للاحتفال بزفافها » . وقال الأمير : « وكما أنى قد أعنتك على الزواج بها فسأعينك على إذلالها بكشف سرها » .

وجاء بهما دن چون في تلك الليلة بقرب مخدع هير و ، فرأوا بورا كيو واقفاً تحت نافذتها ومرجريت تطل منها وتحدث إليه ، وكانت ترتدى نفس الثياب التي

كانت ترتديها هيرو فلم يبق لدى الأمير ولدى كلوديو شك في أنها هي هيرو عينها . واستشاط كلوديو غضباً عندما كشف ما كان في اعتقاده سراً خطيراً ، واستحال حبه السابق لهيرو البريئة كرها ومقتاً ، وعول على أن يفشى هذا السر الخطير في الكنيسة في اليوم التالي كما وعد بذلك من قبل . ووافق الأمير على ذلك لاعتقاده أن هذه الفتاة الغادرة جديرة بكل عقاب ينزل بها بعد أن تحدثت مع رجل من نافذتها في الليلة السابقة ليوم زفافها لكلوديو الكريم النبيل .

ولما اجتمعوا في اليوم التالي للاحتفال بهذا الزواج ووقف كلوديو وهيرو أمام القسيس ، وهمّ القس بأن يتلو صيغة عقد الزواج ، أعلن كلوديو في حق وغضب جريمة هيرو الطاهرة البريئة ؛ ودهشت هيرو أشد دهشة من الألفاظ الغريبة التي نطق بها كلوديو ، فقالت في رقة ووداعة : « ماذا أصاب سيدي فأنطقه بهذه الألفاظ » .

فقال ليوناتو للأمير وهو في أشد حالات الرعب : « سيدي لم لا تتكلم أنت ؟ » . فأجابه الأمير : « وماذا عسى أن أقول ؟ لقد لوث شرفي إذ هممت بأن أربط صديقاً لي عزيزاً بامرأة حقيرة ؛ أقسم بشرفي يالوناتو أنني أنا وأخي وكلوديو هذا الرجل الحزين قد رأيناها وسمعناها في منتصف الليلة الماضية نتحدث إلى رجل واقف تحت نافذة حجرتها » .

وقال بندق وهو مندهش مما سمع : « ما أبعد هذا عن حفلات الزفاف » ، وقالت هيرو وقد أكسفت الحزن بالها وهد كيائها : « إى والله يا إلهى » . ثم سقطت هذه الفتاة البائسة مغشياً عليها ، وظن الجميع أنها قد قضت نحبها ، وغادر الأمير هو وكلوديو الكنيسة دون أن ينتظرا حتى تفيق من نوبتها ، أو يهتما بالمصيبة التي أوقعا فيها ليوناتو ، وذلك لأن الغضب قد ملأ قلوبهما حتى لم يبق فيهما موضع للرحمة . وبقي بندق مع بيتريس ليساعدها على أن تفيق هيرو من غشيتها ؛ ولما سأل بيتريس عن حالها أجابته بقولها : « أظن أنها قد قضت نحبها » ؛ وقالت ذلك في حزن وألم لأنها كانت شديدة الحب لابنة عمها ، واثقة من طهرها وعفافها ، ولم تصدق شيئاً مما اتهمت به . ولم يكن هذا شأن والدها الشيخ الحزين فإنه صدق

قالة السوء عن ابنته ، وكان منظره وهو يراها مطروحة أمامه لا حراك بها وهو يندبها ويدعو الله أن تكون هذه الساعة آخر عهدا بالحياة ، كان منظره هذا يفتت الكبد

لكن القس الشيخ كان رجلا حكما ، ذا نظر ثاقب وخبرة واسعة بالطبائع البشرية ، فكان في أثناء هذه الحوادث شديد اليقظة ، يرقب وجه الفتاة وهي تصنى إلى ما يهتمها به بندق ، فرأى أول الأمر حمرة الخجل بادية في وجهها ، ثم شاهد هذه الحمرة يذهب بها بياض كياض الملائكة ، ولح في عينيها وميضاً يكاد ينطق بكذب ما افتراه عليها الأمير ؛ وقال القس للوالد الحزين : « إذا لم تكن هذه الفتاة الطيبة بريئة من الذنب وضحية فرية دنيئة فسمنى أبله إذا شئت ، ولا تثق بعلمى ولا بدقة ملاحظتى ، ولا بسنى وتجاربى وطبيعة مهنتى » .

ولما أفاق هيرو من غشيتها قال لها القس : « من هو هذا الرجل الذى اتهموك بالاتصال به ؟ » . فأجابته : « إنما علم هذا عند من يفترون على ، أما أنا فلا أعرف عنه شيئاً » . ثم التفتت إلى ليوناتو وقالت له : « أى أبت ، إذا استطعت أن تثبت من أنى قد تحدثت إلى رجل أيا كان فى ساعة من ساعات الليل لا يليق أن يحدث فيها الرجال ، أو أنى فى الليلة الماضية قد خاطبت أى إنسان ، فتبرأ منى وأبغضنى وعذبنى حتى أقضى نحبى » .

وقال القسيس : « إن فى الأمر خطأ خفيا وقع فيه الأمير وكلوديو » . ثم أوصى ليوناتو أن يذيع فى الناس أن هيرو قد ماتت ، وقال إن الأمير ومن معه قد تركوها مغشياً عليها ، ولذلك لن يصعب عليهم أن يصدقوا هذا الخبر . وأشار عليه أيضاً أن يلبس ثياب الحزن ويقيم لابنته نصباً ، وألا يغفل شيئاً من المراسم التى تتبع عادة فى دفن الموتى . وسأله ليوناتو : « وماذا يفيد هذا ؟ وما الغرض منه ؟ » . فأجابه القسيس : « إن نبأ وفاتها سيبدل الفرية التى افترت عليها رافة بها ، وفى هذا بعض الخير ولكنه ليس كل ما أرجوه . إن كلوديو إذا عرف أنها قد ماتت حين سمعت ما قاله عنها ، عادت إليه ذكري حياتها ، فيحزن عليها إذا

كان الحب قد وجد سبيلا إلى قلبه ، وسيندم على ما اتهمها به حتى ولو كان يظن أنه حق لا مزية فيه .

وقال بندك وقتئذ : « افعل ما يشير به الأب يا ليوناتو ، وأقسم بشرفي أنني لن أفشي هذا السر للأمير أولكلوديو رغم ما تعرف من حبي لهما » .
واقنع ليوناتو بهذا النصح ورضى به ، وقال في حزن ولوعة : « لقد بلغ مني الحزن مبلغا أسلس قيادي وأضعف في كل قدرة على المقاومة » . ثم نقل القس الرحيم ليوناتو وهيرو من هذا المكان ليواسيهما ويخفف من أحزانهما ، وبقيت بيتريس وبندك وحدهما ، وكان هذا هو اللقاء الذي ينتظره أصدقاؤها الذين دبروا المؤامرة المرحمة ضدتهما ، وتوقعوا أن يشهدوا فيه ما يسرهم ويثير ضحكهم ، ولكنهم أصبحوا الآن وقد طغى عليهم الحزن ولم يبق لهم رغبة في المرح والسرور .

وكان بندك أول من تكلم فقال : « خبريني يا بيتريس ، هل كنت تبكين طول هذه الفترة ؟ » . فأجابته بيتريس : « نعم بكيت وسيطول بكائي » . وقال بندك : « لا شك عندي في أن ابنة عمك الحسنة مظلومة » . فردت عليه بيتريس بقولها : « كم ذا يستحق مني ذلك الرجل الذي يدفع عنها هذا الظلم » فقال لها بندك : « وهل من سبيل إلى إظهار هذه الصداقة ؟ إنني لا أحب شيئا في العالم بقدر ما أحبك ، أليس هذا عجيبا ؟ » . وأجابته : « وفي وسعي كذلك أن أقول إنني لا أحب شيئا في العالم كما أحبك أنت ، ولكن لا تصدق هذا القول وإن لم أكن فيه كاذبة ، ولست بهذا أعترف بشيء أو أنكر شيئا ، إنني لفي ألم مما أصاب ابنة عمي » . فقال لها بندك : « وحق سيفي ، إنك تحمينني وإنني أحبك ، فأمريني أن أفعل أي شيء من أجلك ، تجدين طوع أمرك » . فأجابته بيتريس : « اقتل كلوديو » . فرد عليها بندك بقوله : « لن أفعل ولو أعطيتني ملك العالم كله » ، وذلك لأنه كان يحب صديقه كلوديو ويعتقد أن هذا الصديق قد خدع ، ولكن بيتريس قالت له : « أليس كلوديو ندلا دينيا قد سب ابنة عمي وحقرها ولوث شرفها ؟ آه ! ليتني كنت رجلا ! » . وقال بندك : « اصغ إلي يا بيتريس » ، ولكن بيتريس لم تصغ إلى شيء مما يقوله دفاعا عن كلوديو وظلت تلح عليه أن ينتقم منه

على ما أساء لابنة عمها ، وقالت له : « هير و تخاطب رجلا من النافذة ؟ أهذا صحيح ؟
إنك ل مظلومة يا هير و ، وإن هذا لإفك افتري عليك وأصابوك به في الصميم . ليتنى
كنت رجلا لأنتقم لك من كلوديو ، أوليت لى صديقاً يقف من أجلى موقف
الرجال . ولكن شجاعة الرجال تذوب ولا تتمخض إلا عن تحيات والفاظ حسان ،
إن التمتى لا يجعلنى رجلا ، ولذلك سأموت من الحزن وأنا امرأة » . فأجابها
بندك : « لا تعجلى يا عزيزتى بيتريس ، أقسم بحق يدى هذه أنى أحبك » . فقالت
له بيتريس : « إذن فلتستخدم يدك من أجل حى لغرض آخر غير القسم بها » .
فسألها بندك : « أتقسمين أن كلوديو قد ظلم هير و ؟ » . فأجابه بيتريس : « أقسم
أنى واثقة من ذلك ثقتى بنفسى » . فقال بندك : « كفى وهذا عهد على ، سأدعوه
للبراز ، وسأقبل يدك وأستودعك الله ، ويبدى هذه سأحاسب كلوديو حساباً
عسيراً . ولا تظنى فى غير ما سمعته منى ، والآن فاذهبى وواسى ابنة عمك » .

وبينا كانت بيتريس تجادل بندك هذا الجدال العنيف ، وتستثير بألفاظها
الغضبية حميته وشهامته لتضمه إليها فى الأخذ بناصر هير و ومبارزة صديقه الحميم
كلوديو ، كان ليوناتو يدعو الأمير للبراز ليكفر عن الإهانة التى لحقت بابنته ،
ويؤكد لهم أنها ماتت حزناً وكداً . ولكنهما أشفقا عليه لحزنه وكبر سنه ، وقالا
له : « لا تقاثلنا أيها الشيخ الطيب » . وجاء فى هذه اللحظة بندك ودعا كلوديو
للبراز لى يغسل بسيفه الإهانة التى لحقت بهير و ، وقال كلوديو والأمير كلاهما
لصاحبه : « لقد أغرتة بيتريس على أن يفعل هذه الفعلة » . ولم يكن بدُّ مع ذلك
أن يجيب كلوديو بندك إلى ما طلب ، لولا أن العدالة الإلهية قد ساقط إليهم فى
تلك اللحظة دليلاً آخر على براءة هير و ، أقوى وأصدق من نتيجة البراز التى لا تميز
الحق من الباطل .

ذلك أنه بينا كان الأمير وكلوديو يتحدثان عن دعوة بندك للبراز ، أقبل على
الأمير أحد رجال الشرطة ومعه برا كيو مقيداً ، لأن بعض الناس قد سمعوه يتحدث
إلى أحد زملائه عن الفعلة السيئة التى سخره دن جون للقيام بها ؛ واعترف برا كيو
للأمير أمام كلوديو بالحقيقة كاملة ، وقال إن الفتاة التى كان يتحدثها من النافذة هى

مرجريت في لباس سيدتها ، وقد ظنها من معه هيرو نفسها . ولم يبق وقتئذ لدى كلوديو والأمير شك في براءة هيرو ؛ وإذا كان قد بقي في نفسيهما أية ريبة فقد زالت بقرار دن چون ، فإنه لما علم أن أمره قد افتضح خرج من مسينا لينجو من غضب أخيه وقصاصه العادل . وأمض الحزن كلوديو وأكسف باله حين عرف أنه قد اقترى على هيرو الكذب فأتت — في ظنه — حين سمعت ألفاظه القاسية . وطافت بخياله ذكراها المحبوبة في صورتها الأولى التي ارتسمت فيه حين أحبها أول مرة ؛ ولما سأله الأمير ألم يحز ما سمعه في قلبه حز النصال ؟ قال إنه حين سمع كلام براكيو أحس كأن السم يسرى في جسمه .

وندم كلوديو أشد الندم على فعلته ، وتضرع إلى الشيخ ليوناتو أن يعفو عن إساءته إلى ابنته ، وقال إنه جدير بكل عقاب ينزل به جزاء له على تصديقه تلك التهمة الباطلة التي اتهمت بها خطيئته ، وأنه يتحمله من أجلها . وكان العقاب الذي فرضه عليه ليوناتو أن يتزوج في صبيحة اليوم التالي بابنة عم لهيرو شبيهة بها كل الشبه ، وقال إنها أصبحت وارثته بعد وفاة ابنته . وقال كلوديو إنه برا بما وعد به ليوناتو يرضى بزواج هذه السيدة المجهولة ، ولو كانت حبشية . ولكن قلبه كان في أثناء ذلك يفيض حزنا وكدا ، وقضى تلك الليلة عند القبر الذي أقامه ليوناتو لهيرو يبكي في حسرة وألم .

ولما أصبح الصباح مضى كلوديو ومعه الأمير إلى الكنيسة ؛ وكان قد اجتمع بها القس الكريم وليوناتو وابنة أخيه ليحتفلوا بالزواج مرة أخرى . وقدم ليوناتو إلى كلوديو زوجته الموعودة مقنعة الوجه حتى لا يعرفها ؛ وخاطب كلوديو الفتاة المقنعة بقوله «مدى إلى يدك أمام هذا الأب ، إنني زوجك إذا ارتضيتني لك زوجا» . وأجابته السيدة المجهولة قائلة «لقد كنت زوجتك الأخرى حين كنت على قيد الحياة» . ثم رفعت القناع عن وجهها فتبين أنها لم تكن ابنة عم لهيرو ، بل كانت هيرو ابنة ليوناتو نفسها . ولا شك في أن كلوديو قد سر كل السرور من هذه المفاجأة ، فقد كان يظن أن هيرو قضت نحبها ، ولم يكده من فرط السرور يصدق عينيه . ولم تكن دهشة الأمير مما رأى أقل من دهشة كلوديو فصاح قائلاً

« أليست هذه هيرو ، هيرو التي ماتت ؟ » وأجاب ليوناتو بقوله « إنها لم تمت يا مولاي إلا حين أحاطت الأفائك بها » . ووعدهم القس أن يكشف لهم عن سر هذا الأمر الذي خالوه معجزة بعد أن يتم الاحتفال بالزواج ؛ ولقد هم فعلا بإتمامه ولكن بندك قاطعه بقوله إنه يريد أن يتزوج بيتريس في نفس الوقت . ولما أظهرت بيتريس شيئا من التردد قضى عليه بندك بقوله إنها تحبه وإنه عرف ذلك من هيرو ، واتضح في ذلك الوقت سر المسألة كلها ، وتبين كلاهما أنه خدع في حب رفيقه ، وأن هذا الحب لم يكن له وجود ، من قبل ، وأنهما قد أصبحا حبيبين بفضل دعاية كاذبة خدعا بها معا ؛ ولكن هذا الحب الذي قام على الخديعة قد نما وترعرع فلم يهن أو يتزعزع بعد أن كُشف لهما عن حقيقة منشئه . وطلب بندك أن يتوج هذا الحب بالزواج ، وأبى أن يصنى لأى شيء يعترض به عليه ، ولكنه ظل مع ذلك يواصل دعبته ويقسم لبيتريس أنه تزوج بها إشفاقا عليها ، لأنه سمع أن حبه يكاد يقضى عليها . واحتجت بيتريس على هذا الادعاء بقولها إنها لم تحب طلبه إلا بعد إلحاح ورجاء ، وإنها لم تتزوجه إلا لتتقذ حياته بعد أن سمعت أن نار الحب تحرق قلبه . وهكذا جمع الصحاب بين هذين الفكهين المتوقدى الذكاء ، فتزوجا بعد أن تم زفاف كلوديو وهيرو . وانتهت القصة بالقبض على دن چون مدبر المكيذة ، فجيء به إلى مسينا . وكان عقاب هذا الرجل النكد البرم بالحياة أن يرى علائم السرور والأفراح قائمة على قدم وساق في قصر الأمير بمسينا ، بعد أن حبطت مؤامراته كلها وردَّ كيده في نحره .

كما تحب

لدا هب

في الوقت الذي كانت فيه فرنسا مقسمة إلى ولايات أو دوقيات ، كما كانوا يسمونها في ذلك الوقت ، كان يحكم إحدى هذه الدوقيات مغتصب خلع أخاه الأكبر الدوق الشرعي وأخرجه من البلاد .

ولجأ الدوق بعد أن خرج من ملكه هو وعدد قليل من أتباعه الأوفياء إلى غابة أردن Arden ، وعاش فيها هو وأصدقائه الذين خرجوا من بلادهم طائعين لتعلقهم به ، وتركوا فيها أرضهم وأموالهم لينعم بها المغتصب . وسرعان ما تعودوا عيش الدعة الخفيض ، حتى أصبح هذا العيش أنهما لهم من حياة البلاط التي لا راحة فيها ولا نعيم ، وعاشوا كلهم في ذلك المكان كما كان يعيش ربن هود Robin Hood الإنجليزي . وكان يفد على الغابة في كل يوم كثير من الشبان ذوي المراتب الرفيعة في البلاط ، ليقضوا فيها أوقاتهم في هدوء ، كما كان يقضيها الذين يعيشون في العصور الذهبية الماضية ؛ فكانوا في الصيف ينامون في ظلال الأشجار الوارفة ، يتمتعون أبصارهم بمرأى الغزلان البرية تفرح في الغابة ، وقد أولعوا بحب هذه الحيوانات البلهاء ساكنات الغاب ، ولذلك كان يحزنهم أن يضطروا إلى قتلها ليتخذوا من لحمها طعاماً لهم . فإذا جاء الشتاء برياحه الباردة وأشعر الأمير بحظه المنكود ، صبر على بلواه وقال في نفسه : « إن هذه الرياح الصرصر العاتية التي تهب على جسمي أصدق ما يشير على وينصحنى ؛ فهي لا تتملقني بل تصور لي حالي أحسن تصوير ؛ وهي رغم قسوتها لا تؤلني كما تؤلني قسوة الصحاب وكفرهم بالنعمة ؛ ومهما قال الناس في ذم الشدائد فإن فيها بعض الخير ، فهي أشبه بالجوهرة الشافية ، تؤخذ من رأس العلجوم السام الحقير » . وعلى هذا النحو كان الدوق الصبور يستمد من كل ما يراه دروساً خلقية نافعة ؛ وقد استطاع بفضل تفكيره الفلسفي في حياته الجديدة البعيدة عن المهام الرسمية أن يجد السنة في الأشجار ، وكتباً في مجارى الأنهار ، ومواعظ وحكا في الأحجار ، وخيراً في كل شيء .

وكان للدوق المنفى ابنة وحيدة تدعى روزلند Rosalind استبقاها الدوق فردرك Frederick المغتصب في بلاطه بعد أن نفى أخاه ، لتكون رفيقة لابنته سلييا Celia ؛ ونشأت بين الفتاتين صداقة دائمة وثيقة العرى ، لم يوهنها ما كان بين أبيهما من خلاف ، وبذلت سلييا كل ما في وسعها لتخفف عن روزلند أثر الجرم الذي ارتكبه أبوها بخلع والد روزلند واغتصاب ملكه ؛ وكانت كلما رأت روزلند كئيبة كاسفة البال تفكر في والدها المنفى وفي اعتمادها على من اغتصب منه ملكه ، لم تدخر وسعاً في مواساتها وتخفيف آلامها .

وبينا كانت سلييا في يوم من الأيام تتحدث إلى روزلند حديث الود والعطف كعادتها وتقول لها : « أرجو منك يا ابنة عمى أن تروحي عن نفسك » ، وإذا برسول من عند الدوق يدخل عليهما ويخبرهما أن مصارعة بين شابين ستبدأ توا ، فإذا شاءتا أن تشهدا هذا المنظر فعليهما أن تخرجا من فورهما إلى الفناء الواقع أمام القصر ؛ ووافقت سلييا على الذهاب لتشهد المصارعة لأنها ظنت أنها ستسر روزلند وتفرج همها .

ولم تكن المصارعة في تلك الأيام مقصورة على الفلاحين من أبناء الريف ، بل كانت من الألعاب المحبوبة التي تقام حفلاتها في بلاط الأمراء ، وتشاهدها الغواني والأميرات الحسان .

وجاءت سلييا وروزلند لتشهدا هذا الصراع ، فتبين لهما أنه سوف يفضى إلى مأساة مروعة ؛ وذلك لأنهما رأتا رجلاً قويا مارس فن المصارعة وعرن عليه من زمن طويل ، وقضى فيه على حياة كثير من الرجال ، يوشك أن ينازل شابا صغير السن قليل التجارب في هذا الفن ، وظن النظارة أن هذا الشاب هالك لا محالة .

ولما رأى الدوق سلييا وروزلند قال لهما : « هل جئتما يا ابنتي ويا ابنة أخي لتريا هذا الصراع ؟ إنكما لن تتمتعيا به كثيراً لأن الفرق بين قوة المتصارعين كبير ، فليتكما تقنعان هذا الشاب بأن يعدل عن عزيمه رافة به ، فكلماه في ذلك لعله يستمع لنصيحكما » .

وسر الفتاتان أن تضطلعا بهذا الواجب الإنساني ، وتقدمت سلييا أولاً ترجو

من الشاب الغريب ألا يحاول منازلة خصمه . ثم جاءت بعدها روزلند وتحدثت إلى الفتى في رقة وحنو ، وأظهرت له مبلغ الخطر المحدق به ، ولكنه بدل أن ينتصيح بألفاظها الرقيقة وينشئ عن عرضه صمم على أن يظهر شجاعته وصدق بأسه أمام هذه الفتاة الحسنة ، ورفض الشاب رجاء سليا وروزلند في لطف وتواضع زادا من إشفاقهما عليه ، وختم رده عليهما بقوله : « يؤسفني أن أرفض طلب فتاتين في بهاء طلعتكما وكريم خصالكما ، ولكنني أرجو ألا تفارقتي في محنتي عيونكما الجميلة وأمانيكما الطيبة ، فإذا غلبت فقد جلد العار إنساناً لم يكن قط ظريفاً ، وإذا قتلت فقد مات شخص راغب في الموت ، ولن أسيء بموتي إلى أصدقائي لأنني ليس لي أصدقاء يبيكونني ، ولن أضرب العالم في شيء لأنني ليس لي في العالم شيء ؛ وكل ما في الأمر أنني أشغل فيه مكاناً سوف يشغله إذا خلا من هو أحق به مني » .

ثم بدأ الصراع ؛ وكانت سليا ترجو ألا يصاب الشاب الغريب بأذى ، أما روزلند فكانت أشد الناس إشفاقاً عليه . ذلك أن ما وصف به نفسه من أنه لا صديق له وأنه راغب في الموت قد جعلها تعتقد أنه بائس مثلها ، فأشفقت عليه واهتمت بالخطر المحدق به في أثناء صراعه اهتماماً لا يخطئ الإنسان إذا قال إنها شغفت من ذلك الوقت بحبه . وزاد العطف الذي أظهرته الفتاتان الجميلتان على هذا الشاب المجهول من قوته ورباطة جأشه ، فأظهر من ضروب البسالة العجب العجائب وتغلب على خصمه آخر الأمر ، وأصابه بجرح شديد أفقده النطق والحركة ساعة من الزمان .

وأعجب الدوق فردرك بشجاعة الشاب الغريب ومهارته ، وأراد أن يعرف اسمه ونسبه لكي يأخذه في كنفه ويشمله برعايته .

وقال الفتى الغريب إن اسمه أرلندو Orlando ، وإنه أصغر أبناء سير رولند ده بوى Sir Roland de Boys .

وكان سير رولند دى بوى والد هذا الشاب قد مات من بضع سنين ، ولكنه كان وهو على قيد الحياة من أعز أصدقاء الدوق المنفى ومن أخلص رعاياه ؛ فلما سمع فردرك أن أرلندو ابن صديق أخيه المطرود تبدل كل ما كان يشعر به من حب

لهذا الفتى الشجاع كرهاً له ، فغادر حلبة الصراع مغضباً وقال وهو يهيم بمغادرتها إنه كان يود لو أن أرلندو لم يكن ابن هذا الرجل .

أما روزلند فقد سرها أن يكون هذا الفتى الذى بدأت تعطف عليه صديقاً قديماً لأبيها ، وقالت لسلياً : « إن أبى كان يحب سير رولند ده بوى ، ولو أنى عرفت أن هذا الفتى ابنه لأضفت دموع عيني إلى رجائى إليه بأن لا يخاطر بنفسه فى هذا الصراع .

ثم جاءت الفتاتان ورأتاه قد أثر فى نفسه ما أظهره الدوق فجأة من غضب عليه فألقيا على مسامعه بعض عبارات العطف والتشجيع ؛ ولما هتما بالانصراف التفتت روزلند إليه لتحبيه وتظهر حنوها عليه ، ثم أخذت قلادة من عنقها ومدت بها يدها إليه وهى تقول : « أيها الشاب المذهب البس هذه تذكاراً منى ، إن الحظ يعاندنى ، ولولا ذلك لقدمت إليك شيئاً أثمن من هذه الهدية » .

ولما خلت الفتاتان إحداها إلى الأخرى ، ولم تنقطع روزلند عن ذكر أرلندو ، تبينت سلياً أن ابنة عمها قد وقعت فى حب الشاب المصارع الوسيم ، وقالت لروزلند : « أيمكن أن يقع حبه فى قلبك بهذه السرعة ؟ » ، فأجابتها روزلند : « إن أبى الدوق كان يحب أباه حباً جما » . فردت عليها سلياً بقولها : « ولكن هل معنى هذا أن تحبى ابنه هذا الحب الشديد ؟ لو صح ذلك لكان واجباً على أن أبغضه ، لأن أبى كان يبغض أباه ، ولكنى لا أشعر بشيء من الكره له » .

وكانت نار الحقد قد عادت تشتعل فى قلب فردرك على ابنة أخيه ، لأن منظر ابن سير رولند ده بوى قد أثاره حين ذكره بما للدوق المنفى من أصدقاء كثيرين بين أشراف البلاد ؛ وقد كان من زمن غير قريب ساخطاً على ابنة أخيه لما كان يسمعه من مدح الناس لها وثنائهم على فضائلها ، وإشفاقهم عليها لما أصاب والدها الطيب القلب . وبينما كانت سلياً وروزلند تتحدثان عن أرلندو أقبل عليهما فردرك والغضب باد فى وجهه ، وأمر روزلند أن تغادر القصر من فورها وتذهب لتقيم مع والدها فى منفاه . وأرادت سلياً أن تثنيه عن عزمه فلم يصغ إليها ، وقال لها إنه لم يسمح ببقاء روزلند فى القصر إلا إرضاء لها . فقالت له سلياً : « إننى لم أطلب إليك أن

تبقيا لأننى كنت فى ذلك الوقت صغيرة السن لا أستطيع أن أقدر فضائلها ، أما الآن وقد عرفت قدرها وصاحبها هذا الزمن الطويل ، ننام معاً ونصحو معاً ، وندرس ونلعب ونطعم معاً ، فإنى لا أستطيع أن أفارقها . وأجابها فردرك بقوله : « إنها فتاة ماكرة لا تستطيعين أن تعرفى خبيثة نفسها ، وإن دعيتها وسكوتها وصبرها لألسنة ناطقة تتحدث إلى الناس فيشفقون عليها ويرقون لحالها ، وإن من الحماقة أن تدافى عنها لأنها إذا ذهبت زاد ذهابها من بهائك وفضائلك ، ولذلك آمرُك ألا تنطق بكلمة واحدة فى معرض الدفاع عنها ، لأن القرار الذى اتخذته بشأنها قرار لا رجوع عنه » .

ولما وجدت سليا أنها لا تستطيع أن تقنع والدها بالرجوع عن قراره وإبقاء روزلند معها ، دفعها مروءتها إلى مصاحبها ، فخرجت من قصر أبيها مع صديقتها فى تلك الليلة لتبحثا عن الدوق المنفى فى غابة أردن .

واعتقدت سليا قبل أن تبدأ سفرهما أن من الخطر على سيدتين مثلهما أن تسافرا فى ثيابهما الغالية ، فعرضت على صديقتها أن تحفيا حقيقة أمرهما بارتداء ثياب القرويات ؛ وقالت روزلند إن مما يزيد فى أمنهما وسلامتهما أن تلبس إحداها ثياب الرجال . وسرعان ما اتفقا على أن ترتدى روزلند أطول الفاتين ثياب شاب قروى ، وأن تكون سليا فى زى قروية ، وأن تقولوا إذا سئلتا عن أمرهما إنهما أخوان . وقالت روزلند إنها ستسمى نفسها جنميد Ganymede واختارت سليا لنفسها اسم ألينا Aliena .

واتفقت الأميرتان الجميلتان على ذلك كله ونفذتا فعلا ، وأخذتا معهما كل ما كان ليهما من نقود وحلى لتنفقا منه فى سفرهما . ثم بدأتا رحلتهم على الفور لأن غابة أردن كانت بعيدة الشقة تقع خارج حدود أملاك الدوق .

وكان ثياب الرجال التى ارتدتها روزلند (أو جنميد وهو الاسم الذى يجب أن تسمى به بعدئذ) قد خلعت عليها شجاعة الرجال أيضاً . وكان للصدقة التى أظهرتها سليا عندما اعتزمت أن تصحب روزلند فى سفرها الشاق الطويل أثرها فى بث روح النشاط والحبور فى نفس أخيها الجديد ليجزيها بذلك على صادق حبها ، وكانما كانت

روزلند بحق جنميد الأخ الفلاح لألينا الفتاة القروية الظريفة .

ولما انتهى بهما المطاف إلى غابة أردن لم تجدا فيها الفنادق الصالحة والغرف المريحة التي كانتا تجدها في الطريق ، وشعر جنميد بألم الجوع فلم يربداً من أن يعترف لألينا بأنه يوشك من شدة التعب أن يبكي مثل النساء رغم ما عليه من ثياب الرجال ، مع أنه كان قبل يُسلي أخته ويطربها بلذيد حديثه وحلو فكاهته طول الطريق . وصرحت ألينا بأنها عاجزة عن مواصلة السير ، ولكن جنميد عادت ذكر أن من واجب الرجال أن يواسوا النساء ويروحوأ عنهن لأنهن أضعف الجنسين ، وأراد أن يتظاهر بالشجاعة أمام أخته الجديدة فقال : « لا تحزني يا أختي ألينا فقد وصلنا إلى غابة أردن محط رحالنا » . ولكن الرجولة المتكلفة والشجاعة المصطنعة لم تعودا تكفيانهما ، لأنهما لم تكونا تعرفان مقر الدوق وإن كانتا تسيران في غابة أردن نفسها ؛ ولولا أن الله قد لطف بهاتين الفتاتين المتعبتين لساءت عاقبة أمرهما ، فقد كان يخشى أن تضللا الطريق وتقضيا نحبهما من شدة الجوع ، ولكن الأقدار ساقتهما إليهما قرويا عبر سبيل مر بهما وهما جالستان على الكلا خائرتي القوى لا أمل لهما في النجاة . وحاول جنميد مرة أخرى أن يتصنع شجاعة الرجال فقال : « أيها الراعي ، إن كان في الناس من يضيفنا حبا فينا أو رغبة في مالنا ، فإننا نرجو منك أن تأخذنا إلى حيث نستريح ، لأن أختي هذه متعبة من طول السفر ، منهوكة القوى من شدة الجوع » .

وأجاب الرجل بقوله إنه خادم عند أحد الرعاة ، وإن بيت سيده يوشك أن يباع ، وإني من أجل ذلك لن يجدا ما يطعمان فيه من الضيافة ، فإذا شاء مع ذلك أن يذهبا معه فإنه سيقدم لهما ما يستطيع أن يقدمه على قلبه . وسارت الفتاتان مع الرجل يحدوهما الأمل بأنهما سوف تجدان الغوث القريب ، ويبعث فيهما هذا الأمل قوة جديدة . وابتاعت الفتاتان بيت الراعي وغنمه ، واستأجرتا الرجل الذي أرشدهما إليه ليقوم بخدمتهما فيه . وهكذا أسعدهما الحظ بالعثور على هذا الكوخ الأنيق والطعام الوفير ، فقر رأيهما على أن تبقىا في هذا المكان حتى تعرفا مستقر الدوق في الغابة .

ولما ذهب عنهما عناء السفر أخذتا تطمئنان إلى حياتهما الجديدة ، وكادتا تعتقدان أنهما راع وراعيه حقاً ، وليستا أميرتين في ثياب الرعاة . ولكن جنميد كان يذكر أحياناً أنه كان من قبل الفتاة روزلند الهائمة بحب أرلندو الشجاع ابن السير رولند صديق أبيها ؛ وكان يظن أن أرلندو بعيد الدار عنهما وأن بينه وبينهما ما لا يقل بعداً ومشقة عن الطريق الذي قطعه من قصرهما إلى تلك الغابة ؛ ولكنهما سرعان ما تبين أن أرلندو يقيم أيضاً في غابة أردن ، وكان وجوده فيها سبباً في وقوع هذا الحادث الغريب .

كان أرلندو أصغر أبناء السير رولندى بوى ، وكان أبوه وهو على فراش الموت قد عهد به إلى أخيه الأكبر أثير Oliver وأوصاه أن يحسن تربيته وأن يعنى به العناية التى تليق بمكانة بيتهم القديم ، حتى ينال بذلك رضا أبيه . ولكن أثير أثبت أنه غير جدير بهذه الأمانة وذلك الرضا ، فلم يعمل بوصية أبيه ولم يرسل أخاه إلى المدرسة ، بل أبقاه فى البيت جاهلاً مهملًا كل الإهمال . غير أن أرلندو كان يشبه أباه العظيم فى حسن خلقه ، وفى قوة ذكائه ونبل عقله ، فكان لذلك يبدو كأنه قد لقي فى تربيته أعظم ما يلقى أبناء الأسر الكريمة من الرعاية ، وإن حرم مزايا التربية والتعليم . وحسد أثير أخاه الجاهل على بهاء طلعتة وهيبته ، وما زالت نيران الغيرة تتأجج فى صدره حتى عزم آخر الأمر على أن يهلكه ليتخلص منه . وكانت الطريقة التى دبرها ليصل بها إلى غرضه أن يبعث إلى أخيه بمن يزين له أن ينازل ذلك المصارع الشهير الذى قتل كثيراً من الأقران كما ذكرنا من قبل . وكانت قسوة أثير وإهماله شأن أخيه هما اللذين أنطقا أرلندو بقوله إنه يرغب فى الموت لأنه لا يجد له فى الحياة صديقاً .

فلما خابت آمال الأخ الغادر وظفر أرلندو بقرنه ، استعرت نيران الحسد فى قلب أثير ، وأقسم أن يحرق بالنار حجرة نوم أخيه ؛ وسمع هذا القسم صديق قديم وفى لأبيهما ، يحب أرلندو لما كان بينه وبين أبيه من شبه عظيم . وخرج هذا الشيخ للقاء أرلندو وهو عائد من قصر الدوق ، فلما رآه تصور الخطر المحقق بسببه الشاب ، فثارت تأثرته وقال : « سيدى الكريم ؛ أى سيدى العزيز يامن يذكرنى

بسيدي سير رولند الكبير ، لم كنت تجمع الفضائل ؟ ولم كنت ظريفاً قويا شجاعا ؟
ولم أولعت بهزيمة المصارع الذائع الصيت ؟ لقد أسرع مديحك فسبقك إلى
هذه الديار .

وعجب أرلندو من هذا القول ولم يدرك معناه ، فسأل الرجل عن جليلة الخبر ،
فقال له إن أخاه يحقد عليه من أجل حب الناس له ، وإنه لما سمع بما ناله من
المجد بفوزه على غريمه في قصر الدوق صمم على أن يفتك به بإشعال النار في غرفته
في تلك الليلة ، وختم حديثه بأن أشار عليه أن يغادر المكان من فوره لينجو
بنفسه من الخطر المحقق به . وكان هذا الشيخ الطيب (واسمه آدم) يعرف أن
أرلندو ليس له مال ، فأحضر معه جميع ما ادخره من مال قليل وقال له « إن معي
مبلغا ادخرته من أجرى في السنين التي كنت أخدم فيها أباك ، لأستعين به عند
ما يقعدني عن العمل ضعف الشيخوخة . نخذ هذا المال وليتواني في شيخوختي
من يرزق الطير في أوكارها ، هاك هو الذهب أقدمه إليك وأرجو أن ترضى بي
خادماً لك ، فإني وإن بدت على علائم الكبر أستطيع أن أقوم بما يقوم به من هم
أصغر مني سناً ، فأخدمك وأقضى حوائجك » . وأجابه أرلندو بقوله « ما أطيب
قلبك أيها الشيخ ، إن الوقار الذي كان الناس يتحلون به في الأيام الخالية ليتجلى
فيك ، فلست أنت من أبناء هذا الجيل ، وسنضرب في الأرض معاً ، وقبل أن
ينفد ما ادخرته من أجرك سأوفق إلى وسيلة نستعين بها على العيش » .

وسار الخادم الأمين في صحبة سيده المحبوب ، وأخذوا يضربان في الأرض إلى غير
مكان معروف ، حتى ألقيا عصا التسيار في غابة أردن ؛ وهناك ألقيا أنفسهما في حاجة
إلى الطعام كحاجة جنميد وألينا إليه ، فأخذوا يجوسان خلال الغابة يبحثان عن ملجأ
لهما حتى أعياهما الجوع والتعب ؛ وعندئذ قال آدم لسيده « أي سيدي العزيز
سأموت من ألم الجوع ، إني عاجز عن السير » ثم ارتقى على الأرض وعول على
أن يجعل من هذا المكان قبراً له ، فحمله بين ذراعيه ووضعه في ظلال بعض
الأشجار الظليلة وقال له « لا تبتئس أيها الشيخ واسترح هنا قليلا ، ولا تحرك
لسانك بذكر الموت » .

ثم أخذ أرلندو يبحث عن طعام ، واتفق أن قاده البحث إلى ذلك المكان الذى يقيم فيه الدوق ، وقد هم هو وأصحابه بتناول الطعام وهو جالس معهم على الكلا يستظل بوارف الأشجار .

وكان الجوع قد عض أرلندو بنابه وأذهل عقله ، فاستل سيفه يريد أن يأخذ الطعام عنوة وخاطبهم قائلاً « كفوا أيديكم ولا تتناولوا شيئاً من الطعام ، فلا بد لى أن أستولى عليه كله » . وسأله الدوق « أهى المصائب التى ذهبت بلبه ففعل ما فعل ؟ أم هى شراسة الطبع التى تجعله يحتقر الدوق والآداب ؟ » فأجابه أرلندو بقوله إن الجوع يكاد يهلكه . ودعاه الدوق إلى الجلوس وتناول الطعام معهم ؛ وتأثر أرلندو من لطف الدوق ورقة لفظة ، فأغمد سيفه وهو خجل أشد الخجل من الطريقة التى أراد أن يفتصب بها طعامهم وقال لهم « عفوا سادتى لقد ظننت أن كل ما فى هذا المكان قد غلبت عليه الوحشية ، ولذلك تكلفت العنف والجرأة ؛ ولكن من تكونون يا ترى ؟ ولماذا تقضون حياتكم فى هذا المكان المهجور فى ظلال هذه الأغصان التى تشع منها روح الكآبة ؟ فإذا كنتم قد مرت بكم فى حياتكم أيام أحسن من هذه الأيام ، وإذا كنتم قد أقمت حيث تدق أجراس الكنائس تدعو المؤمنين لعبادة الله ، وإذا كنتم قد جلستم ضيوفاً على موائد الكرام ، وإذا كنتم يوماً من الأيام قد مسحتم من أعينكم دمعة شفقة وحنان وعرفتم كيف ترحمون وترحمون ، فلعل الرجاء يحرك فيكم عاطفة الرأفة والحنان فتصنعون الصنع الجميل » . وأجابه الدوق قائلاً « فى الحق أننا كما قلت رجال قد مرت بهم أيام أطيب من هذه الأيام ، وقد سكنا المدن العامرة قبل أن نسكن هذه الغابة الموحشة ، وسمعنا أجراس الكنائس تدعونا إلى الصلاة ، وطعمنا على موائد الكرام ، ومسحنا دموعاً فاضت من مآقينا شفقة على البائسين ؛ ولهذا كله أدعوك إلى الجلوس معنا وأخذ ما يسد حاجتك من هذا الطعام والشراب » وأجابه أرلندو بقوله « إن معى رجلاً منهوك القوى ، قد أجهد نفسه فى السير خلفى لفرط حبه لى رغم ما يقعد به من ضعف الشيخوخة وشدة الحاجة إلى الطعام ، ولن أذوق طعامكم حتى ينال منه كفايته » . فقال له الدوق « اذهب وائت به إلى هذا المكان ،

ولن نمد أيدينا إلى الطعام حتى تعود» . وانطلق أرلندو كما تنطلق الظبية إلى فراخها بالطعام ، وسرعان ما عاد يحمل آدم بين ذراعيه ، فقال له الدوق « ضع عنك حملك الشريف المبجل ، مرحباً بك وبه » . ثم أطعما الشيخ الضعيف وروّحا عنه حتى انتعش واستعاد صحته وقوته .

وسأل الدوق أرلندو من يكون ؟ فلما عرف أنه ابن صديقه القديم سير رولند ده بوى أخذه في كنفه ، وعاش هو وخادمه الشيخ إلى جانبه في الغابة . وكان محبىء أرلندو إلى الغابة بعد أيام قليلة من قدوم جنميد وألينا إليها وشرائهم بيت الراعى كما سبق القول .

ودهش جنميد وألينا حين وجد اسم روزلند محفوراً على سوق الأشجار ، وأغاني الحب معلقة على أفنانها ، وكلها تتغنى بحب روزلند . وبينما هما في شدة العجب من هذا كله إذا بهما يلتقيان بأرلندو ، وتقع أعينهما على العقد الذى أعطته إياه روزلند يطوق جيده .

ولم يكن أرلندو يظن أن جنميد هو الأميرة الحسنة روزلند التى هام بحبها لتواضعها النبيل وعطفها عليه ، فقضى وقته كله ينقش اسمها على سوق الأشجار ويكتب الأغاني فى مدح جمالها ، ولكنه أعجب بظرف هذا الشاب الراعى ولطفه فأخذ يجاذبه أطراف الحديث ، وظن أنه يرى كثيراً من الشبه بين جنميد وحيبيته روزلند ، وإن كان ينقصه هبة تلك الفتاة النبيلة . ذلك أن جنميد قد تكلف المرأة وقلة الاحتشام اللتين تلازمان الشبان بين الغلومة والرجولة فى كثير من الأحيان ، وأخذ يحدث أرلندو بشيء غير قليل من الخبث والدعابة عن فتى محب يأتى إلى غابتهم ، ويتلف أشجارهم ، فيحفر كلمة روزلند فى لحاها ، ويعلق الأغاني والمراثى على أغصانها ، وكلها فى مدح هذه الفتاة ، وقال له « لو أنى وجدت هذا المحب لأسديت إليه من النصح ما يشفى قلبه من غرامه » .

وأقر أرلندو بأنه ذلك المحب الواله الذى يتحدث عنه ، وطلب إلى جنميد أن يسدى إليه ما عنده من النصح ، فأشار عليه أن يأتى فى كل يوم إلى الكوخ الذى يقيم فيه هو وأخته ألينا ، وقال له : « سوف أظاهر بأنى أنا روزلند ، وستخاطبنى

أنت كما لو كنتُ روزلند بحق ، وسأقلد عبث الفتيات مع أحبائهن ، حتى تستحي أنت من حبك وتقلع عنه ، وذلك هو العلاج الذى أصفه لك » .
ولم يؤمن أرنلدو بهذا العلاج ، ولكنه رضى أن يأتى فى كل يوم إلى كوخ جنميد ويتظاهر بحبه ، وأتبع القول بالفعل فصار يتردد على جنميد وألينا كل يوم ، ويخاطب الراعى باسم روزلند ، ويسمعه كلما جاء من الثناء وحلو الكلام ما يلقى الشبان على مسامع الفتيات اللاتى يخطبونهن لأنفسهم ، ولم يبد فى أثناء ذلك ما يدل على نجاح جنميد فى شفاء أرنلدو من حبه لروزلند . ولم يكن أرنلدو يتصور أن جنميد هو روزلند نفسها ، ولذلك كان يظن أن ما يدور بينهما كله عبث ، ولكن الفرصة التى أتت له بأن يفرغ كل ما كان يمتلئ به قلبه من عواطف قد سرته وأذهبت عنه الحزن كما سرت جنميد نفسه . وكان يزيد من سرور جنميد علمه أن عبارات الحب التى ينطق بها أرنلدو إنما كانت تلقى على مسامع من يجب أن تلقى على مسامعه .

ومرت بهما أيام كثيرة وهما على هذه الحالة السارة ؛ ولم تشأ ألينا الطيبة القلب أن تحرم جنميد هذه المتعة ، بل كان يسرها هى أيضاً أن تشاهد الخطبة المزورة ، فلم تلفت نظر جنميد إلى أن الفتاة روزلند لم تلق أباه الدوق بعد أن عرفت من أرنلدو مقره فى الغابة . على أن جنميد قابل الدوق فى يوم من الأيام ، ودار بينهما حديث قصير ، سأله الدوق فى خلاله عن أصله فأجابه بأنه من أسرة لا تقل مكانة عن أسرته ، وتبسم الدوق ضاحكا من قوله لأنه لم يكن يظن أن الفتى الراعى الوسيم من نسل الملوك ، ورأى جنميد أن الدوق يتمتع بصحة الجسم وهناءة العيش ، فاكتمى بهذا وأجل جلاء الموقف بضعة أيام أخرى .

وذهب أرنلدو فى زيارة لجنميد يوماً من الأيام ، فشاهد فى الطريق رجلاً نائماً على الأرض ، ورأى شعباناً ضخماً أخضر اللون يطوق عنقه ؛ فلما اقترب أرنلدو من الشعبان ترك الرجل واتخذ سبيله بين الأعشاب . ولما دنا أرنلدو من الرجل رأى لبؤة مخفية بين الأشجار ورأسها على الأرض ترقب الرجل حتى يصحو من نومه ، لأن الأسد كما يقول الناس لا يفترس الميت أو النائم ؛ وكان

العناية الإلهية قد ساقط أرلندو لينقذ الرجل من الأفعى واللبؤة جميعاً . ولما تفرس في وجه النائم تبين أن الرجل الذي كان معرّضاً لذلك الخطر المزدوج هو أخوه أَلِثْر الذي قسا عليه وأراد أن يقتله حرقاً ؛ وهم أن يتركه فريسة اللبؤة الجائعة ، ولكن عطفه الأخوى وكرم طباعه تغلبا على ما كان في نفسه من غضب على أخيه ، فاستل سيفه وهجم به على اللبؤة وقتلها ، وأنقذ حياة أخيه من الأفعى السامة واللبؤة الضارية ، ولكن اللبؤة مزقت بمخالبها الحادة إحدى ذراعيه قبل أن يتغلب عليها .

وبينا كان أرلندو يصارعها استيقظ أَلِثْر من نومه ، ورأى أخاه الذي قسا عليه ينقذ حياته من شر وحش ضار ويعرض نفسه للخطر ، فحجل من فعلته وعض بنان الندم ، وأخذ يتوسل إلى أخيه والدمع يفيض من عينيه أن يعفو عنه ويففر له زلته . وسر أرلندو حين شهد أخاه يندم على ما اقترف ، فعفا عنه لساعته ، وتعانق الأخوان ، ومن تلك الساعة أحب أَلِثْر أخاه حبا صادقا وإن كان قد أتى إلى الغابة في أثره ليقضى عليه .

وكان الدم الذي نزع من جرح أرلندو غزيراً ، أضعفه فلم يستطع الذهاب لزيارة جنميد ، فطلب إلى أخيه أن يذهب إليه ويخبره بما حدث له ، وأضاف إلى ذلك قوله : « إنه يدعو من باب العبث والتسلية محبوبته روزلند » .

وذهب أَلِثْر إلى جنميد وألينا وأخبرهما بما فعله أرلندو لإيقاد حياته ، وحين انتهى من وصف شجاعة أخيه وقص عليهما كيف ساقته الأقدار لنجاته ، قال لهما إنه هو أخو أرلندو الذي قسا عليه وعامله أسوأ معاملة ، ثم أنبأهما بأنه هو وأخاه قد تصافيا ، وعادت المياه بينهما إلى مجاريها .

وأثر في نفس ألينا الطيبة الرحيمة ما أظهره أَلِثْر من ندم على ما اقترف في حق أخيه ، فأحبتة من فورها ، وكذلك أحبها هو في تلك اللحظة بعد أن شهد تأثرها حين حدثها بندمه على فعلته . ولكن هذا الحب الذي أخذ ينبعث في قلبي ألينا وأَلِثْر لم يشغلهما عن جنميد ، فإنه لما سمع بالخطر الذي كان محققاً بأرلندو وبما أصابه في صراعه مع اللبؤة ، خر على الأرض مغشياً عليه . ولما أفق ادعى أنه إنما

تصنع هذه النوبة لتتفق مع ما يتظاهر به من تمثيل شخصية روزلند ، وقال لأثر : « صف لأخيك أرلندو بعد أن ترجع إليه كيف مثلت الغشية أحسن تمثيل » .
ولكن أثير أدرك من امتناع لونه أنه قد غشى عليه حقا وقال له وهو في شدة العجب من ضعف هذا الشاب : « إذا كنت حقا تتظاهر فتظاهر أيضاً بأنك من الرجال » . وأجابه جنميد جواب صدق : « إني أفعل ذلك ، وإن كان من حق أن أكون من النساء » .

وأطال أثير الزيارة عن قصد ، ولما عاد بعدها حمل إلى أخيه من الأخبار الشيء الكثير . فقد قص عليه حديث جنميد والنوبة التي غشيتها حين سمع بأن أرلندو قد جرح ، وأفضى إليه بأنه قد وقع في حب الفتاة ألينا الحسنة وأنها قد بادلتها في هذه الزيارة الأولى حباً بحب ، وقال لأخيه إنه سيتزوج بها وإنه من فرط حبه لها سيعيش معها معيشة الرعاة ، وينزل له عن ضيعته وبيته .

وأجابه أرلندو بقوله : « إني راض بذلك ، وليكن زواجك غداً ، وعلى أن أدعو الدوق وأصدقاءه ، أما أنت فعليك أن تذهب لتقنع راعيتك فإنها الآن بمفردها وها هو ذا أخوها حاضر إلينا » . وتوجه أثير لتلقاء ألينا ، وأقبل جنميد ليسأل عن صحة صديقه الجريح .

ولما أخذ أرلندو وجنميد يتحدثان عن الحب الذي نبت فجأة في قلب أثير وألينا ، قال إنه أشار على صديقه بأن يقنع الراعية الحسنة أن تتزوج به في اليوم الثاني ، وأضاف إلى ذلك قوله إنه يتمنى لو استطاع أن يتزوج بروزلند في اليوم نفسه .

وقال جنميد إنه موافق كل الموافقة على هذه الخطة ، وإن أرلندو سينال بغيته إذا كان يحب روزلند ذلك الحب الذي يدعيه ، لأن في وسعه أن يأتيه بروزلند ذاتها ، وأن تكون راضية بزواجه .

ولم يكن يصعب على جنميد أن يحقق هذا الأمر الغريب في ظاهره ، لأنه هو روزلند بعينها ؛ ولكنه ادعى أنه سيستخدم في تحقيقه السحر الذي علمه إياه عم

له كان من السحرة الدائمي الصيت . وكان أرلندو المحب الواله بين مصدق لما سمع ومكذب ، ولذلك سأل جنميد هل هو جاد فيما يقول أو هازل ؟ فأجابه جنميد بقوله : « وحق حياتي أنني لا أقول إلا حقا ، ولذلك أطلب إليك أن تلبس خير ما عندك من ثياب ، وأن تدعو الدوق وأصدقاءه ليشهدوا حفلة زفافك ، فإنك إن أردت أن ترف إلى روزلند غداً فستكون هنا في غد » .

وفي صباح اليوم التالي مثل أثير وألينا بين يدي الدوق بعد أن رضيت ألينا بزواجه ، وجاء معهما أرلندو .

واجتمعوا كلهم ليحتفلوا بالزواجين ، ولكن العروسين لم تحضر منهما إلا واحدة ؛ وأخذ العجب منهم كل مأخذ ، واختلفت آراؤهم فيما عسى أن يكون ، وكان الرأي السائد أن جنميد يسخر من أرلندو .

ولما سمع الدوق أن ابنته هي التي سيؤتي بها بهذه الطريقة العجيبة ، سأل أرلندو هل يعتقد أن في وسع الراعي أن ينجز ما وعد ؟ وبينما كان أرلندو يجيبه عن سؤاله بأنه لا يدري ما يقول ، إذا بجنميد يدخل ويسأل الدوق هل يوافق إذا جاء بابنته أن يزوجه بأرلندو ؟ فأجابه الدوق بقوله : « إنني أزوجه به ، ولو كان لي ملك الأرض أمهرها به » . ثم قال جنميد لأرلندو : « وهل تقول أنت إنك ستزوجه بها إذا جمئت بها إلى هنا ؟ » . فأجابه أرلندو : « سأزوج بها ولو كنت مَلِكاً على العالم كله » .

وعند ذلك خرج جنميد وألينا معاً ، وخلع جنميد ما كان عليه من ثياب الرجال وعاد مرة أخرى إلى لبس ثياب النساء ، فكان هو روزلند دون أن يستعين بقوة السحر . وكذلك خلعت ألينا ثياب بنات الريف وعادت إلى لبس ثيابها الغالية فكانت هي الفتاة سليبا دون كبير عناء .

ولما خرج جنميد وألينا قال الدوق لأرلندو إنه يرى شهماً كبيراً بين الراعي جنميد وابنته روزلند ، وقال أرلندو إنه هو أيضاً قد لاحظ هذا الشبه الكبير . ولم يتسع وقتهم للتفكير فيما سينتهى إليه هذا الموقف الغريب ، لأن روزلند وسليبا أقبلتا عليهما في لباسهما الحقيقي . ولم تدع روزلند أن قوة السحر هي التي جاءت

بها إلى هذا المكان ، بل خرت راكعة أمام والدها وطلبت إليه أن يدعو لها بخير .
وعجب كل الحاضرين من ظهورها بينهم بهذه الطريقة المفاجئة ؛ ولو أنها ادعت أن
قوة السحر هي التي جاءت بها لما خالجهم شك في صدق دعواها ، ولكن روزلند
لم تشأ أن تطيل هذا العبث مع أبيها ، فقصت عليه نبأ خروجها من بلدها وحياتها
في الغابة كأنها فتى من الرعاة وكأن ابنة عمها سليا شقيقته .

وأكد الدوق رضاه عن زواج ابنته ، وتم زفاف أرلندو وروزلند ، وأثر
وسليا كلهم في وقت واحد . ولم يكن في مقدورهم أن يحتفلوا بهذا الزواج في هذه
الغابة الموحشة بما يليق به من العظمة والفخامة ، ولكن يومه كان أسعد أيام
الزفاف وأعظمها بهجة ، وكأن العناية الإلهية قد شاءت ألا ينقص هذا الدوق
الطيب وهؤلاء المحبين الأوفياء شيء تتم به سعادتهم ، فساقت إليهم في هذه اللحظة
رسولا أقبل على حين غفلة يبشر الدوق بأن دوقيته قد ردت إليه .

ذلك أن الغاصب قد استشاط غضباً حين عرف أن ابنته سليا هربت من
قصره ، وسمع أن كثيراً من عظماء البلاد يخرجون كل يوم إلى غابة أردن لينضموا
إلى الدوق الراعي في منفاه ، وكره أن يرى الناس يعطفون على أخيه في محنته ،
فسار إلى الغابة على رأس قوة كبيرة ليقبض على أخيه ويقتله هو وأصدقاءه الأوفياء ؛
ولكن العناية الإلهية قدرت غير هذا التقدير ، فحولت هذا الأخ الغادر عن غمره
وبدلت شره خيراً ؛ فلم يكد يتخطى حدود الغابة الموحشة حتى لقيه شيخ مسن
من رجال الدين ، جرى له معه حديث طويل ، نزع ما في قلبه من غل على أخيه ،
وجعله يندم على ما اقترف في حقه ، ويصمم على أن ينزل له عن ملكه المغتصب ويقضى
بقية حياته في بيت من بيوت الله . وكان أول ما فعله بعد توبته أن أرسل رسولا
إلى أخيه يعرض عليه أن يرد عليه ملكه الذي اغتصبه من زمن طويل ، وأن
يعيد معه أملاك أصدقائه الأوفياء الذين شاركوه في محنته ، وجميع ما حصله من
هذه الأملاك .

وجاءت هذه البشرى السعيدة التي لم تكن متوقعة في أنسب الأوقات ،

وبداً فلتين سفره إلى ميلان في ذلك اليوم نفسه ؛ ولما خرج صديقه من عنده جلس يكتب خطاباً إلى جوليا ، فلما فرغ من كتابته ناوله لخادمتها لوستا Lucetta لتحملة إلى سيدتها .

وكان حب جوليا لپروتیوس لا يقل عن حبه لها ، ولكنها كانت فتاة نبيلة الطبع كريمة الخلق ، ترى أنه لا يليق بكرامة العذارى مثيلاتها أن يستجبن لنداء الحب بسهولة ، ولذلك كانت تتصنع عدم مشاركتها پروتیوس في عواطفه ، فسبب له ذلك كثيراً من الألم طوال مدة خطبته .

ولما قدمت لوستا الرسالة لجوليا أبت أن تأخذها منها ، وأبنت خادمتها على قبولها رسائل من پروتیوس ، وأمرتها بالخروج من حجرتها على الفور . ولكنها كانت في خبيثة نفسها شديدة الرغبة في أن تعرف ما تحتويه الرسالة ، فلم تلبث أن دعت خادمتها أن تعود إليها ثم سألتها : « كم الساعة ؟ » ، وأدركت لوستا أن رغبة سيدتها في أن تعرف ما تحتويه الرسالة كانت أشد من رغبتها في معرفة الوقت ، فعرضت عليها الخطاب دون أن تجيب عن سؤالها . وأغضب جوليا أن ترى جرأة خادمتها على أن تظهر أمامها بمظهر العارف بحقيقة مقصدها ، فزقت الرسالة وألقت بها على الأرض ، وعادت فأمرت خادمتها أن تغادر الحجرة . وانحنت لوستا وهي تهم بالخروج لتجمع قطع الرسالة الممزقة ، ولكن جوليا لم تكن تريد أن تخرج هذه الأوراق من عندها فتظاهرت بالغضب وقالت لخادمتها : « أخرجي من هنا على عجل ، ودعي الأوراق حيث هي ؛ إنك إنما تعبتين بها رغبة منك في إغضابي » .

وشرعت جوليا بعدئذ تجمع أجزاء الرسالة الممزقة وتضمها بعضها إلى بعض بأحسن ما تستطيع ؛ وكان أول ما تبينته منها هذه الكلمات : « پروتیوس جريح الهوى » . وأثرت في نفسها هذه العبارة ومثيلاتها من عبارات الوجد التي استطاعت أن تبينها من أوراق الرسالة الممزقة أو المجروحة كما سمها هي ، وكان الذي أوحى إليها بهذا التشبيه هو عبارة پروتیوس جريح الهوى . وأخذت تخاطب هذه العبارات الرقيقة وتقول لها إنها ستحتفظ بها بين طيات صدرها حتى تلتئم جراحها ، وإنها ستقبل كل قطعة منها مراراً عدة لتكفر بذلك عن ذنبها .

وظلت تضرب على هذه النغمة ، وطال حديثها إلى الأوراق كأنها طفل يحدث دميته ، حتى تبينت عجزها عن قراءة كل ما حوته الرسالة ؛ وآلمها ما أظهرته من جحود حين مزقت ما أسمته ألفاظ الحب الجميلة ، فكتبت إلى پروتيوس خطابا كان أكثر عطفاً وحناناً من كل ما خطته أناملها من قبل .

ولشد ما سر پروتيوس حين تلقى هذا الرد الجميل ؛ وبعد أن تلاه قال بصوت عال : « أيها الحب العذب ، وأيتها السطور العذبة ، وأيتها الحياة العذبة ! » ، وبينما هو في هذه السورة إذا بوالده يدخل عليه ، فلما رآه على هذه الحال قال له : « ماذا دهاك ؟ وما هذا الخطاب الذي تقرأه » .

فأجابه پروتيوس : « مولاي تلك رسالة من ثلثتين أرسلها إلى من ميلان » . فقال له والده : « أرني الخطاب لأطلع على ما فيه من أخبار » . ودب الخوف في قلب پروتيوس فقال : « ليس في الرسالة يا أبى شيء من الأخبار ، سوى أنه يقول فيها إن دوق ميلان يحبه كثيراً ، وإنه يزيده في كل يوم قرباً منه وعطفاً عليه ، وهو يتمنى أن أكون معه وأن أقاسمه حظه » .

فسأله والده : « وما هو شعورك أنت نحو هذه الرغبة » . فأجابه پروتيوس : « إن شعوري نحوها هو شعور الابن الذي يخضع لإرادة أبيه لا لرغبة صديق » .

واتفق أن كان والد پروتيوس قبل مجيئه يتحدث إلى صديق له في هذا الموضوع نفسه ، فقال له ذلك الصديق إنه يعجب كيف يسمح لابنه أن يقضى شبابه في وطنه ، في الوقت الذي يرسل فيه كثيرون غيره أبناءهم ليطلبوا الخير لأنفسهم خارج بلادهم « فيذهب بعضهم إلى الحروب ليروا ماذا يكون لهم فيها من حظ ، ويسافر بعضهم لكشف الجزائر النائية ، ومنهم من يغترب عن أوطانه ليطلب العلم في الجامعات ، وهاك ثلثتين صديق ولدك قد التحق ببلاط دوق ميلان ، وابنك خليك بمثل هذا ، ولن يكون من الخير له في كبره ألا يبرح وطنه في حداثة سنه » .

وأعجب والد پروتيوس بنصيحة الصديق ؛ ولما أخبره ابنه أن ثلثتين يرغب في حضوره ليشركه حظه ، غزم من فوره على أن يرسل ابنه إلى ميلان ؛ ولم يشأ

أن يخبر ابنه بسبب هذا العزم المفاجئ ، لأن من عادة هذا الشيخ القوى الإرادة أن يصدر لابنه الأمر ولا يذكر له الأسباب ، ولذلك قال له : « إن إرادتي تتفق مع رغبة قلنتين » . ولما رأى العجب بادياً على وجه ولده واصل حديثه قائلاً : « لا تعجب إذا اعتزمت فجأة أن تقضى بعض الوقت في بلاط دوق ميلان ، لأن ما أريده سوف يكون ، ولا جدال فيه ، فاستعد للسفر غداً ، ولا تنتحل المعاذير فلن أقبل منك اعتذاراً » :

وكان پروتيوس يعرف أن لا فائدة ترجى من معارضة رغبات أبيه ، لأنه لم يسمح له قط بأن يجادله في رأى ، ولذلك لام نفسه لأنه كذب عليه ولم يصدقه الخبر عن رسالة چوليا التي كانت سبب فراقه الأليم لها .

ورأت چوليا أن پروتيوس سيفارقها زمناً طويلاً ، فلم تستطع أن تدعى أنها لا تأبه له ، فجاءت إليه تودعه وداعاً محزناً ، وأقسمت أغلظ الأيمان أنها تحبه وأن حبها له دائم لا يحول ، وأعطته في هذا اللقاء خاتماً وأعطاها مثله ، وتعاهدا على أن يحتفظ كل منهما بخاتمه تذكاراً لهذا العهد . ثم ودعها پروتيوس وهو مكتئب حزين ، وبدأ سفره إلى ميلان مقر صديقه قلنتين .

وكان أمر قلنتين كما وصفه پروتيوس لوالده عن غير علم ، فكان من المقربين عند دوق ميلان ؛ وقد حدثت له حادثة لم يكن پروتيوس نفسه يتوقعها ، فقد طلق قلنتين حريته التي كان يتباهى بها ، وأحب حباً لا يقل عن حب پروتيوس .

وكانت الفتاة التي بدلت حال قلنتين هذا التبديل الغريب تدعى سلفيا Silvia ابنة دوق ميلان ؛ وكانت هي أيضاً تحبه ، ولكنهما أخفيا هذا الحب عن الدوق ، لأنه كان يريد أن يزوج ابنته بشاب من حاشيته يدعى ثوريو Thurio ، وإن كان كثيراً ما يظهر العطف على قلنتين ويدعوه في كل يوم إلى قصره . وكانت سلفيا تحتقر ثوريو لأنه لم يكن كقلنتين مرفه الحس كريم الصفات . واتفق أن اجتمع هذان الخصمان ثوريو وقلنتين معا في زيارة لسلفيا يوماً من الأيام ، وأخذ قلنتين يسامر سلفيا بالسخرية من كل ما يقوله ثوريو . ودخل عليهما الدوق في أثناء هذا الحديث وبشر قلنتين نبأ قدوم صديقه پروتيوس ، فأجابه قلنتين بقوله « لو طُلب

إلى أن أتمنى شيئاً لما تمنيت إلا أن أراه هنا في هذه الساعة». ثم أخذ يثنى على
 بروتیوس أمام الدوق ، وكان مما قاله له « لقد أضعت أنا كثيراً من وقتي فيما لا يفيد ،
 أما صديقي فقد أفاد من وقته أكبر فائدة ، فأكمل جسمه وعقله ، واتصف بجميع
 الفضائل التي يزدان بها الفتى المذهب الشريف » .

وأجابه الدوق بقوله : « إذن فحياء التحية التي تليق بقدره ، إنني أوجه كلامي
 إليك يا سلقيا وإليك يا ثوريو ، أما قلنتين فهو في غير حاجة إلى هذا التنبيه » .
 وفي هذا الوقت دخل عليهما بروتیوس ، فقدمه قلنتين إلى سلقيا بقوله « سيدتي
 العزيزة أرجو أن تقبله زميلاً لخادمك » .

ولما فرغ قلنتين و بروتیوس من زيارتهما وانفردا معاً ، قال قلنتين لصديقه
 « حدثني عن كل شيء في البلد الذي جئت منه ، وما هي أخبار حبيبتك ؟ وإلى أي
 حد وصل حبك ؟ » — وأجابه بروتیوس بقوله « لقد كانت أخبار حبي تضايقك ،
 وأنا أعلم أن حديث الحب لا يسرك » فأجابه قلنتين « لقد تبدلت هذه الحياة يا صاح ،
 وأنا الآن أكفر عن ذنبي في احتقار الحب ، وقد اقتضى هذا الحب مني جزاء هذا
 الاحتقار فنفي الكرى عن عيني ، أي عزيزي بروتیوس إن للحب سلطاناً على
 النفوس ، ولقد أدلني فأصبحت أرى أن لا عذاب أقوى من عذابه ، ولا لذة على الأرض
 خيراً من لذة من يقوم على خدمته ، وأشهى حديث لي الآن هو حديث الحب ،
 وهذا الحديث هو الآن غذائي في الصباح والظهر والمساء ، وهو موضوع تفكيري
 في يقظتي ومنامي » .

وكان اعتراف قلنتين بهذا التحول في مجرى حياته انتصاراً باهراً لصديقه
 بروتیوس ، نقول لصديقه وإن كان بروتیوس لم يعد في الحق « صديقاً » لأن الحب ،
 ذلك الإله القادر الذي كانا يتحدثان عنه ، كان في هذه الساعة يضرع النار في قلب
 بروتیوس حتى جعله في أول مرة يلتقي فيها بسلقيا يغدر بالصديق ويخون حبيبته ؛
 فقد ذهب ما كان في قلبه من حب ليجوليا كما تذهب الأحلام عند ما وقعت عيناه
 على سلقيا لأول مرة ، ولم تكن صداقته الطويلة العهد لقلنتين لتحول بينه وبين سعيه
 للاستئثار بحبها دون صديقه . ولم يكن من السهل عليه في أول الأمر أن يسكت

صوت ضميره عند ما اعتزم أن ينبذ حب جوليا ، شأن ذوى الطباع الكريمة عند ما ينحدرون لأول مرة في طريق الشر ؛ ولكنه استطاع آخر الأمر أن يسكت هذا الصوت ، ويتغلب على شعوره بالواجب ، ثم أسلم نفسه لعواطفه وأصبح وليس لضميره سلطان عليه . وأسر إليه قلنتين ، وهو مطمئن إليه واثق به ، بقصة حبه من أولها إلى آخرها ، وأخبره أنه أخفى أمرهما عن الدوق لأنه لا أمل له في أن يرضى عن زواجه بها ، ولذلك أقنع سلقيا بأن تغادر قصر أبيها في تلك الليلة وتهرب معه إلى منتوا Mantua ، ثم أظهر لپروتیوس سلماً من الحبال أعده لتنزل عليه سلقيا من إحدى نوافذ القصر في جنح الظلام .

ولما كشف قلنتين لپروتیوس عن سره كله واثمنه عليه ، فعل لپروتیوس فعلة لا يصدقها العقل وإن كانت هي الحقيقة بعينها ، فقد اعتزم أن يذهب من فوره إلى الدوق ويفشى له السر كله .

وبدأ هذا الصديق الغادر قصته بحديث كله مكر ودهاء ، فقال له إن واجبات الصداقة كانت تقضى عليه بأن لا ييوح بشيء مما سيقصه عليه ، ولكن ما أظهره الدوق من عطف عليه وإكرام له يحمله على أن يفشى إليه بما لم يكن ليفشى به إلى أحد ، ولو أعطى في نظير ذلك كل ما يمكن أن يعطاه إنسان . ثم أخبر الدوق بكل ما سمعه من قلنتين ولم يغفل ذكر السلم والطريقة التي يريد بها أن يخفيه تحت رداءه .

وظن الدوق أن لپروتیوس مثال الاستقامة الأعلى ، فقد آثر أن يفشى سر صديقه ولا يخفى شرا ينتويه ؛ فأثنى عليه ثناء عظيماً ، ووعد أن يكرم عن قلنتين مصدر هذا النبأ ، وأن يحتال عليه حتى يجعله يفشى السر بنفسه . ولذلك انتظر الدوق قدوم قلنتين في مساء ذلك اليوم ، ولم يلبث أن رآه مسرعاً نحو القصر ، وتبين أنه يخفى شيئاً تحت رداءه ، فأيقن أنه السلم الذي حدثه لپروتیوس عنه ، فاستوقفه الدوق وسأله : « إلى أين تسرع يا قلنتين ؟ »

فأجابه قلنتين بقوله : « مولاي ، إن رسولا في انتظارى ليحمل رسائلي إلى أصدقائي ، وأنا ذاهب لأعطيهم هذه الرسائل . »

ولم يلق هذا النبأ الكاذب من النجاح أكثر مما لقي حديث پروتيوس لأبيه ، فقال له الدوق : « وهل هذه الرسائل ذات شأن كبير ؟ » .
فأجابه ثلثتين بقوله : « كل ما لها من شأن أنى أريد أن أبلغ أبى أنى بخير وأنى سعيد بوجودى فى بلاط مولاي الدوق » .

« إذن فلا داعى إلى الإسراع ، ولتبق معى قليلا لأنى أريد أن أستشيرك فى أمور تهمنى » .

ثم أخذ يقص على ثلثتين قصة اخترعها من عنده ، وأراد بها أن يستخرج منه سره . فقال له إنه يريد أن يزوج ابنته بثوريو ، ولكنها عنيدة لا تريد أن تطيع أمره « وقد تجاهلت أنها ابنتى فلم تخش بأسى كأننى لست أباه . ولست أخفى عليك أن كبرياءها قد نفر قلبى منها بعد أن كنت أظن أننى فى هذه السن سأعز بعرفانها ما يجب عليها لى ، ولذلك قررت أن أتخذ لى زوجة ، وأن أزوج هذه الفتاة بمن يرضى بها ، وليكن جمالها هو كل ما أمهرها به ، لأنها لا تقدرنى أنا وما لى حق قدرنا » .

ولم يستطع ثلثتين أن يعرف ما يرمى إليه ذلك كله ، فسأل الدوق : « وماذا يريد سيدى أن أفعله ؟ » . فأجابه الدوق قائلاً : « إن الفتاة التى أريد أن أتزوجها جميلة شديدة الحياء ، لا يؤثر فيها قول من كان فى سننى ؛ وفوق هذا فإن وسائل الخطبة قد تبدلت عما كانت عليه فى أيام شبابى ، وإنى ليسرنى أن ألقى عليك درساً فى خطبة الفتيات » . وأعطاه ثلثتين فكرة عامة عن طرق الخطبة التى كان يتبعها شبان ذلك الوقت إذا أرادوا أن يجتذبوا إليهم قلوب الفتيات ، ومنها الهدايا والزيارات ونحوها .

وأجابه الدوق بقوله إن الفتاة قد رفضت هدية أرسلها إليها ، وإن أباه يضيق عليها فلا يستطيع أحد أن يتصل بها فى أثناء النهار .

فقال له ثلثتين : « عليك إذن أن تزورها ليلا » . ثم دخل الدوق الساكر فى لباب الموضوع وأجابه بقوله : « لكن أبوابها موصدة بالليل » .
وهنا ارتكب ثلثتين غلطة يؤسف لها ، فعرض على الدوق أن يرقى إلى حجرة

الفتاة بسلم من الجبال ، وقال إنه سيعيد بنفسه هذا السلم ، ونصح الدوق في ختام الحديث أن يخفيه تحت معطف شبيه بذلك المعطف الذي كان يلبسه ثلثتين وقتئذ . وكان الدوق قد اخترع هذه القصة كلها ليستطيع أن يطلب إلى ثلثتين أن يخلع معطفه ، فلم يكد ثلثتين يلفظ بهذا القول حتى قال الدوق على الفور : « أعزني هذا المعطف إذن » . ثم مديده إلى ثلثتين وألقاه عنه ، فوجد تحته السلم ورسالة من سلقيا ، فتحتها وقرأها فوجد فيها بياناً مفصلاً عن طريقة هربهما ، فأخذ الدوق يقرع ثلثتين لجحوده بنعمته ولإساءته لمن أحسن إليه ومحاولته الهروب بابنته ؛ ثم طرده من بلاطه وأمر أن يُخرج من مدينة ميلان ولا يعود إليها أبداً ؛ وغادر ثلثتين المدينة في تلك الليلة دون أن يرى سلقيا .

وبينا كان پروتيوس في ميلان يسير إلى ثلثتين ، كانت جوليا في فيرونا حزينة على فراقه ، وقد اشتد وجدها حتى أنساها ما هو خليق بالفتيات من احتشام ، فاعترمت أن تخرج من فيرونا وتأتي إليه . ولبست هي وخدامتها لوستا ملابس الرجال لتأمن على نفسيهما في الطريق ، واتخذتا سبيلهما إلى ميلان ، فوصلتا إليها بعد وقت قصير من خروج ثلثتين بسبب خيانة پروتيوس .

وكان وصول جوليا إلى ميلان في وقت الظهيرة ، فاتخذت مقامها في فندق من فنادق المدينة . ولم يكن يشغل أفكارها في ذلك الوقت إلا پروتيوس ، فأخذت تحدث صاحب الفندق — أو مضيفها كما كان الناس يسمون أصحاب الفنادق وقتئذ — لعلها تعرف منه شيئاً عن پروتيوس .

وسر صاحب الفندق أيما سرور من أن ترتفع الكلفة بينه وبين هذا الفتى المذهب الذي تدل سيماء على أنه من ذوى المراتب الرفيعة . وكان هذا الرجل طيب القلب فألمه أن يراه مكتئباً حزيناً ، وأراد أن يفرج همه فعرض عليه أن يذهب معه في المساء ليستمتع إلى موسيقى شجية ، قال إن شاباً سيضطرب بها محبوبته تحت نافذتها . وكان سبب اكتئاب جوليا أنها لم تكن تعرف رأى پروتيوس في هذه الفعلة الجريئة التي افتعلتها من غير روية ، لأنها كانت تعلم أن حبه لها قائم على أنفها ونبيل أخلاقها واحتفاظها بكرامتها ، وكانت تخشى أن تكون بما فعلت قد

أحطت منزلتها لديه ، فكان ذلك منشأ ما بدا عليها من هم وتفكير .
ولذلك قبلت وهى مسرورة ما عرضه عليها مضيفها ، وهو أن تذهب معه
لتستمع إلى نغمات الموسيقى . وكانت نفسها تحدثها أنها ربما قابلت پروتيوس فى
الطريق ، ولكنها حين وصلت إلى القصر الذى أخذها مضيفها إليه ، لم يحدث فيها
ما رأت الأثر الذى كان يقصده المضيف الرحيم . ذلك أنها رأت هناك ما أحزنها
وآلم قلبها ، رأت حبيبها السابق پروتيوس يطرب سلقيا بقطعة موسيقية ، ويالق
على مسامعها عبارات الحب والإعجاب ، وسمعت سلقيا يخاطب پروتيوس من نافذتها
وتؤنبه على خيانتته لحبيبته الصديقة الوفية ، وعلى غدره بصديقه ثلثتين ، ثم رأت
سلقيا أن تترك النافذة وترفض أن تصنى إلى موسيقاه وحديثه اللطيف ، لأنها كانت
وفية لحبيبها المنفى ثلثتين ، تبغض أشد البغض مسلك صديقه الخائن پروتيوس .

واستولى اليأس على قلب جوليا عندما شهدت هذا المنظر المؤلم ، ولكنها مع
ذلك بقيت على حبها لپروتیوس رغم تقلبه وعدم وفائه ، وسمعت أنه كان قد أخرج
من عنده خادماً له فأفلحت بمساعدة مضيفها صاحب الفندق أن تجعل پروتيوس
يستأجرها لخدمته . ولم يكن پروتيوس يعلم أنها جوليا نفسها ، فأخذ يبعث معها
رسائله وهداياهم إلى خصيمتها سلقيا ، ووصل الأمر إلى أن أرسل معها الخاتم الذى
أهدته إليه عندما افترقا فى فيرونا .

فلما ذهبت بالخاتم إلى سلقيا سرها كل السرور أن تعرف أن هذه الفتاة لا تلقى
بالا إلى خطبة پروتيوس ، وأخذ الفتى سبستيان — وهو الاسم الذى تسمت به
جوليا فى ذلك الوقت — يتحدث إلى سلقيا عن جوليا حبيبة پروتيوس الأولى التى
تخلى عنها ، ولم تنس أثناء الحديث أن تذكر عن نفسها كلمة طيبة ، فقالت إنها
تعرف جوليا — وكانت فى الحق تعرفها لأنها هى جوليا التى تتحدث عنها —
وإن جوليا كانت تحب پروتيوس حبا جما ، وإن قسوته عليها وإهماله لها سوف
يحزنانها ويمضان قلبها ، ثم واصلت حديثها وقد خلعت عليه ثيابا رقيقة من الغموض
فقالت : « إن جوليا قريبة منى فى طول قامتها وفى ملامحها ، ولون عينيها وشعرها
لا يختلفان فى شيء عن لون عيني وشعري » ، والحق أن جوليا كانت تبدو فى لباس

الشبان فتى وسيا جميل الطلعة . وأشفت سلقيا على هذه الفتاة الجميلة التي تَحلى عنها حبيبها بهذه الطريقة المحزنة ، ولما عرضت عليها جوليا الخاتم الذى أرسله معها بروتیوس رفضته وقالت لها : « ويزيدنى ازدراءً له أن يرسل إلى هذا الخاتم ، فأنا أرفضه لأننى طالما سمعت منه أن حبيبته جوليا قد أعطته إياه ، وإنى لمعجبة بك أيها الشاب لأنك تشفق على هذه الفتاة المسكينة . وهاك كيساً به نقود أقدمه إليك إكراماً منى لجوليا » ، وأثرت فى نفس جوليا هذه الكلمات الطيبة الصادرة من خصيمتها الرحيمة فطابت بها نفس الفتاة المتسكرة وذهب عنها الحزن .

والآن فلنعد إلى قلنتين المنفى لنقول إنه لم يدر ماذا يفعل ولا أى طريق يسلك ، لأنه لم يكن يرغب فى العودة إلى أبيه مطروداً محقراً . وبينما كان يجوس خلال غابة موحشة بالقرب من ميلان ، التى استودع فيها حبيبته سلقيا أحب الناس إلى قلبه ، هجم عليه جماعة من اللصوص وطلبوا إليه أن يعطيهم ما معه من المال . وأخبرهم قلنتين أنه رجل نزلت به الشدائد ، وأنه مشرد منفى لا مال له ، ولا يملك غير ما عليه من الثياب .

وسمع اللصوص أنه رجل بائس ، وتأثروا من نبل مظهره وعزة نفسه ، فعرضوا عليه أن يقيم معهم ، ويكون زعيماً لهم ، فيسلموه قيادهم ويخضعوا لأوامره . فإذا لم يقبل ما يعرضونه عليه فسيقتلونه لساعته .

ولم يكن قلنتين ليهم كثيراً بما يصيبه ، ولذلك أجابهم بأنه يقبل أن يكون قائداً لهم إذا عاهدوه على ألا يسيئوا لامرأة ولا لعابر سبيل مسكين .

وكذلك أصبح قلنتين ، الرجل النبيل ، قائد اللصوص وقطاع الطريق الخارجين على القانون كما كان ربن هود Robin Hood الذى تقرأ عنه فى الأقايصى الشعرية الغنائية . وعلى هذه الحال وجدته سلقيا بالطريقة التى سنقصها على القارى فيما يلى :

أرادت سلقيا أن تنجو من زواج ثورينو حين أصر أبوها على أن ينفذ رغبته رغم رفضها هذا الزواج ، وسمعت أن حبيبها قلنتين قد لجأ إلى مدينة منتوا فقررت أن تتبعه إليها . ولكن ما سمعته من ذلك لم يكن صحيحاً ، لأن قلنتين كان لا يزال

يفيم في الغابة بين اللصوص ، يتولى زعامتهم من غير أن يشترك في الاعتداء على الناس معهم ، أو يستخدم السلطة التي فرضوها عليه فرضا إلا في إرغامهم على الرأفة بالمسافرين الذين يغتصب اللصوص أموالهم .

وكانت سلشيا حين فرت من قصر أبيها قد اصطاحت معها رجلا مسنا طيب القلب يدعى إجلامور Eglamour ليرد عنها ما عسى أن تتعرض له من أذى في الطريق ، وكان لا بد لها أن تخترق الغابة التي يقيم فيها ثلثتين ومن معه من اللصوص ، وقد ألقى أحدهم القبض عليها وهم بالقبض على إجلامور ولكنه نجى منه . ولما رأى اللص الذي قبض عليها ما حل بها من الرعب ، أمرها ألا ترتاع لأنها لن يصيبها منه أذى ، بل إنه سيذهب بها إلى كهف يعيش فيه رئيسهم ، وهو رجل كريم رحيم بالنساء . ولكن سلشيا لم يهدي من روعها أن تسمع أنها ستساق أسيرة إلى زعيم طائفة من اللصوص الخارجين على القانون ، وصرخت من فرط حزنها « يا ثلثتين كم ذا أكابد من أجلك ! »

وبينا كان اللص يقودها إلى كهف الزعيم إذا بروتیوس يعترض طريقه ومن ورائه جوليا في زى الخدم ؛ لأنه حين سمع بفرار سلشيا جاء في أثرها إلى الغابة ، وبذلك أنقذها بروتیوس من يدى اللص . ولكنها لم تسكدهم بشكره على حسن صنيعه حتى بدأ يضايقها من جديد ويسمعها عبارات الحب ، ويطلب إليها في غير أدب أو احتشام أن تقبل زواجه بها . وكان خادمه (جوليا المسكينة) واقفا إلى جانبه مضطربا كاسف البال ، لأنه كان يخشى أن ما قدمه بروتیوس من خير لسلشيا قد يلين قلبها له . وبينا هم على هذه الحال وإذا بثلثتين يظهر بينهما على حين غفلة ، وذلك لأنه سمع أن رجاله قد أسروا سيدة فجاء لينقذها ويفرج كربها .

وكان بروتیوس يلاطف سلشيا ويتودد إليها ، وأخجله أن يتبين صديقه جلية أمره ، فندم وأنبه ضميره ، وأظهر أسفه الشديد على ما قدم لثلثتين من إساءة . وكان ثلثتين رجلا كريما الطبع شريف النفس ، فعفا عن صديقه من فوره ، وصفا قلبه له ، وعادت الصداقة بينهما إلى ما كانت عليه من قبل ؛ واثرت في نفسه فجأة عاطفة الشهامة فقال : « إني أعفو عنك وأنزل لك عن كل ما في نفسي من

تاجر البندقية

كان شيلك Shylock اليهودى يسكن فى مدينة البندقية ، وكان مرايياً جمع ثروة طائلة بإقراض المال إلى التجار المسيحيين بربا فاحش ، وكان لا يرحم أحداً بل يلجأ فى استرداد ما يقترض من الأموال إلى ضروب من القسوة نفرت منه قلوب جميع الناس الطيبين ، وبخاصة قلب شاب من أهل البندقية يدعى أنطنيو Antonio . وكان شيلك نفسه يبعض أنطنيو أشد البعض لأنه يقترض المال لكل من نزلت به كارثة ، ويأبى أن يأخذ عليه فائدة ، ولذلك اشتدت العداوة بين اليهودى الجشع وأنطنيو التاجر الكريم . وكان أنطنيو كلما التقى بشيلك فى سوق المال أنه وعاب عليه ربه وقسوته فى معاملاته ، فكان اليهودى يتحمل هذا الأذى ويصبر عليه فى الظاهر ويعمل فى الخفاء على الانتقام لنفسه .

وكان أنطنيو من أطيب الناس قلباً وأحسنهم حالاً ، لا يمل من صنع المعروف ، وفى الحق أن النبل الرومانى القديم كان يظهر فى هذا الرجل أكثر مما يظهر فى أى رجل آخر فى إيطاليا بأجمعها . وكان مواطنوه كلهم يحبونه أعظم الحب ، ولكن كان أقرب الناس إليه وأحبهم إلى قلبه رجل من أشراف البندقية يدعى بسانيو Bassanio ، ورث عن أبيه مالاً قليلاً كاد يذهب به بسط اليد فى الإنفاق منه ، كما يفعل الشبان ذوو الثروة القليلة من أبناء الطبقات العليا ، وكلما احتاج بسانيو إلى المال أمدّه به أنطنيو كأنما كان للاثنين قلب واحد ومال واحد .

وجاء بسانيو إلى أنطنيو يوماً ما وأخبره أنه يريد أن يصلح من شأنه بزواج فتاة موسرة يحبها ، توفى أبوها ولم يكن له وارث سواها ، فورثت عنه ضيعة كبيرة ؛ وقال إنه كان يزورها فى منزلها فى حياة أبيها ، وكان يخيل إليه أن عيني هذه الفتاة تبعثان إليه برسائل صامتة ، تكاد تنطق بأنه لن يرد خائباً فى خطبته ؛ وأضاف إلى ذلك قوله إنه ليس له من المال ما يمكنه من أن يظهر بالمظهر الذى يليق بمن يحب فتاة ورثت هذه الثروة الطائلة ، ولذلك جاء يرجو أنطنيو أن يضيف إلى أفضاله

الكثيرة السابقة فضلاً جديداً ، فيقرضه ثلاثة آلاف بندقي (١) .

ولم يكن عند أنطنيو في ذلك الوقت مال يقرضه لصديقه ، ولكنه كان ينتظر وصول سفن تحمل إليه شحنات من البضائع ، فقال لصديقه إنه سيذهب إلى شيلك المرابي السري ويقترض منه المال بضمانة تلك السفن .

وذهب أنطنيو وبسانيو إلى شيلك ، وطلب إليه أن يقرضه ثلاثة آلاف بندقي بالفائدة التي يرتضيها ، على أن يردها إليه من ثمن البضائع التي تحملها سفنه القادمة في البحر . ولما سمع ذلك شيلك قال في نفسه : « إذا استطعت أن أسيطر على هذا الرجل شفيت منه غلى القديم . إنه يحقد على أمة اليهود ، ويقرض المال من غير فائدة ، وإذا رآني مع التجار استهزأ بي وعاب على معاملاتي المالية الشريفة التي يسميها رباً . ألا لعنة الله على أمتي إذا عفوت عنه ! » . ورأى أنطنيو أن شيلك يقلب الرأي في فكره وهو صامت لا يحير جواباً ، فنقد صبره وخاطب شيلك بقوله : « أسمعني يا شيلك ؟ وهل تريد أن تقرضني المال ؟ » . وأجابه شيلك بقوله : « يا سيد أنطنيو ، كم مرة استهزأت بي في سوق المال وسخرت من أموالى ومن أرباحى ، وقد صبرت على هذا الأذى ولم أعبأ به ، لأن الصبر هو شعار أمتي . وكم مرة سميتني كافراً وكلباً سفاحاً ، وبصقت على ملابسى اليهودية ، وركلتني بقدمك كما تركل الكلاب . والآن يلوح أنك في حاجة إلى عونى فتجيئني وتقول لى : (يا شيلك أقرضنى من مالك) ، فهل للكلب مال ؟ وهل يستطيع الكلب أن يقرض ثلاثة آلاف بندقي ؟ وهل تظن أنى أحنى رأسى إجلالاً وأقول لك : أى سيدى العزيز ! لقد بصقت على يوم الأربعاء الماضى ودعوتنى كلباً ، وسأرد إليك اليوم هذا الجليل بأن أقرضك المال ؟ » . وأجابه أنطنيو بقوله : « ليس ما يمنعنى أن أدعوك بهذا الاسم مرة أخرى ، وأن أبصق عليك كما بصقت من قبل ، وأن أضربك بقدمى أيضاً ، فإذا أعطيتنى المال فلا تعطنى إياه كما تعطى الصديق ، بل أقرضه قرض العدو ، حتى إذا لم أوف بالدين حق على العقاب » . ورد عليه شيلك بقوله : « هدى من روعك إنى أريد أن أ كسب

(١) عملة ذهبية قديمة كانت متداولة فى معظم بلاد أوربا قيمتها نحو ٩ شلنات . (المترجم)

حبك ، وأن أكون لك نعم الصديق ، وسأنسى ما جللتني من عار ، وأقضى حاجتك ولا أطلب ربحاً على ما أقرضك من مال . » وعجب أنطنيو أشد العجب من هذا العرض السخى في الظاهر ، وظل شيلك يتظاهر بالعطف عليه ويدعى أنه لا يريد بعمله هذا إلا أن يكسب مودته ، وكرر قوله إنه سيقرضه الثلاثة الآلاف من البنادقة ولا يأخذ عنها فائدة ، وكل ما يرجوه أن يذهب معه إلى محام ويمضى أمامه من قبيل المزاح صكاً يقول فيه إنه إذا لم يوف بالدين في الموعد المحدد يجز على ذلك بأن يؤخذ منه رطل من اللحم ، يقطع من جسمه في المكان الذى يرتضيه شيلك .

وقال أنطنيو : « لك ذلك ، وسأوقع الصك وأقول إن فى قلب اليهودى شيئاً كثيراً من الرحمة » . وأشار بسانيو على أنطنيو ألا يوقع هذا الصك ، ولكن أنطنيو أصر على أن يوقعه ، لأن سفنه ستعود قبل الموعد المحدد وعليها من البضائع ما تربي قيمته على الدين أضعافاً مضاعفة .

وسمع شيلك هذا الحديث فقال متعجباً : « يا أبانا إبراهيم ! ما أكثر ما يسيء أولئك النصارى الظن بالناس ! إن قسوتهم فى معاملاتهم قد علمتهم أن يظنوا بالناس الظنون . قل لى بحقك يا بسانيو ، ماذا يفيدنى هذا الجزاء الذى فرضته عليه إذا لم يوف بدينه فى اليوم المحدد ؟ إن رطلا من اللحم الأدمى لأقل قيمة وأقل نفعاً من لحم الضأن أو البقر ، لقد قلت لكما إننى أعرض عليه هذه الصداقة لأكسب رضاه ، فإذا قبلها فيها ونعمت ، وإذا لم يقبلها فإنى تاركة وإلى اللقاء » .

وأخيراً وقع أنطنيو الصك وهو يظن أن الأمر كله هزل لا جد كما قال اليهودى ، ولم يستمع إلى نصيحة بسانيو الذى لم يكن يريد أن يتعرض صديقه من أجله لهذا الجزاء الرهيب ، ولم يصدق شيئاً مما قاله اليهودى عن حسن نواياه .

وكانت الوارثة السرية التى يريد بسانيو أن يتزوجها تسكن بجوار مدينة البندقية فى مكان يدعى بلمنت Belmont ، وكانت تسمى پورشيا Portia ، وفى الحق أنها كانت لا تقل فى جمالها وكال عقلها عن پورشيا ابنة كيتو Cato وزوجة بروتس Brutus التى تحدثنا عنها الأخبار .

ولما حصل بسانيو على المال بمساعدة صديقه الوفي أنطنيو الذي عرض حياته للخطر من أجله ، سافر إلى بلانت تحف به حاشية كبيرة ، ويقوم على خدمته رجل مذهب كريم يدعى جرسيانو Gratiano . ووفق بسانيو في خطبته ، ورضيت پورشيا بعد زمن قليل أن تكون زوجة له .

واعترف بسانيو لپورشيا بأنه ليس من ذوى الثراء ، وأن كل ما يستطيع أن يفخر به هو نبيل أسرته وكرم محنته ؛ ولما كانت هى قد أحبتة لنبلة وكريم سجاياه ، وكان لها من المال ما يغنيها عن ثروة الزوج ، فقد أجابته فى حياء وتواضع جميل أنها تتمنى لو أنها كانت أجمل مما هى ألف مرة ، وأكثر ثروة مما هى عشرة آلاف مرة ، لكى تكون أجدر به مما هى ؛ ثم أخذت تذكر له عيوبها فى ظرف ودعة ، وتقول إنها فتاة قليلة العلم والتجربة ، ولكنها لم تصل بعد إلى السن التى لا تستطيع فيها أن تتعلم ، وإنها تعهد إليه بروحها ليوصلها ويسيرها فى جميع الشؤون كيف شاء ؛ وقالت بعدئذ : « إني أنا وما ملكت يداى قد أصبحنا طوع أمرك . لقد كنتُ بالأمس يا بسانيو صاحبة هذا القصر الجميل ، سيدة نفسى وسيدة هؤلاء الخدم ، أما الآن فإن هذا القصر وهؤلاء الخدم وأنا نفسى ملك لك يا مولاي أقدمه لك مع هذا الخاتم » . قالت ذلك وهى تهدى إلى بسانيو خاتماً كان فى يدها .

ودهش بسانيو من رقتها وأثر فى نفسه حسن صنعها ، إذ ارتضت هذه السيدة النبيلة أن تتزوج برجل رقيق الحال مثله ، فلم يستطع أن يعبر عن سروره وإجلاله لمن أنالته هذا الشرف العظيم إلا بوضع كلمات متقطعة ، ثم عن حبه واعترافه بالجميل ، ثم أخذ الخاتم من يدها وأقسم ألا يفرط فيه قط .

وكان جرسيانو ونرسا Nerissa وصيفة پورشيا يشهدان هذا الاجتماع بين سيدهما وسيدتهما ، ويسمعانها تعدد بأن تكون زوجته المطيعة فدعا جرسيانو لسيدة وسيدته بالخير والسعادة ، وطلب أن يؤذن له أن يتزوج معهما فى وقت واحد .

وأجابه بسانيو بقوله : « إني أوافق على ذلك من صميم قلبي إذا استطعت أن
تجد لك زوجة » .

فقال جرسيانو إنه يحب نرسا وصيفة پورشيا الجميلة ، وإنها قد وعدته أن تتزوج
به إذا رضيت سيدتها أن تتزوج بسانيو ؛ وسألها پورشيا في ذلك فأجابتها بقولها :
« إنه صحيح إذا رضيت أنت به » فوافقت پورشيا وهي مغتبطة . وقال بسانيو وهو
منشرح مسرور : « وسيزيد من شأن زفافنا أن ترف معنا يا جرسيانو » .

ولكن سرور هؤلاء المحبين قد كدر صفوه في ذلك الوقت قدوم رسول يحمل
رسالة من أنطنيو ، تحتوي أبناء رهيبة . وقرأ بسانيو رسالة أنطنيو فامتقع لونه حتى
ظنت پورشيا أنها تنبئ بوفاة صديق عزيز ، وسألته عن ذلك النبأ الذي أحزنه ،
وأكشف باله فقال لها : « سيدتي العزيزة ، هنا كلمات هي شر ما سودت به صحيفة .
أى سيدتي العزيزة ، إنني حين أفضيت إليك بحبي قلت لك في صراحة إن
كل ما أملكه من الثروة هو الدم الذي يجري في عروقي ، وكان ينبغي لي أن
أقول لك إن ثروتي أقل من لا شيء لأنى مدين » ، ثم حدثها بما قصصناه على القارىء
من قبل ، فأخبرها أنه اقترض المال من أنطنيو ، وأن أنطنيو قد حصل على المال
من شيلك اليهودى ، وحدثها عن الصك الذى يتعهد فيه أنطنيو بأن يقدم رطلا
من لحمه إذا لم يوف بالدين قبل الأجل المحدد ، ثم قرأ عليها رسالة صديقه وقد جاء
فيها « عزيزى بسانيو ، لقد خسرت كل شيء ومضى أجل استحقاق الصك الذى
وقعته لليهودى ، وإذا كان الوفاء بما ينص عليه يقضى حتما على حياتي ، فإنى أحب
أن أراك في ساعة موتى ؛ ولكنى مع ذلك أترك لك الخيار ، فإذا لم يملكك حبك
لى على الحضور فلا يحملتك عليه خطابى » . فلما سمعت ذلك پورشيا نادى من
فورها « أى حبيبي ! أترك كل عمل لديك وبادر بالذهاب إليه ، وسيكون لك من
الذهب ما يفي بعشرة أمثال الدين لأنى لا أرضى أن تمس شعره من جسم ذلك
الصديق لخطأ وقع فيه بسانيو ، وسيزيد حبي لك كلما زاد ما أنفقه من المال لأجلك »
وأضافت إلى ذلك أنها ستتزوج به قبل سفره ليكون من حقه أن يأخذ من مالها
ما يشاء ، وتم زواجهما في ذلك اليوم نفسه ، وتم أيضا زواج جرسيانو ونرسا .

وما كاد يتم الزواج حتى أسرع بسانيو وجرسيانو إلى مدينة البندقية وفيها وجد بسانيو صديقه أنطنيو سجيناً .

وكان يوم الوفاء قد فات ، فلم يقبل اليهودي الغليظ الكبد ما عرضه بسانيو عليه من المال ، بل أصر على أن يأخذ رطلاً من لحم أنطنيو . وحدد يوم لنظر هذه القضية المروعة أمام دوق البندقية ، وبقي بسانيو ينتظر يوم المحاكمة الرهيب . وودعت پورشيا زوجها ، وحاولت أن تشجعه وتدخل السرور عليه ، وطلبت إليه أن يأتي بصديقه معه ؛ ولكنها كانت في قرارة نفسها تخشى أن يصيب أنطنيو سوء ، فلما خلت إلى نفسها أخذت تفكر فيما عسى أن تفعله لتتقذ حياة صديق زوجها العزيز .

وكانت حين أرادت أن تشعر بسانيو بمنزلته عندها قد قالت له في رقة الزوجات ووداعتهن إنها تأتمر في كل شيء بحكمته العالية ، ولكنها لما تمثل لها الخطر المهدق بصديق زوجها هداها حسن تديرها ، وسداد رأيها ، واعتقادها في مقدرتها التي لم تشك فيها يوماً من الأيام ، أن تذهب من فورها إلى البندقية وتتولى الدفاع عن أنطنيو .

وكان پورشيا قريب من رجال القانون يدعى بلاريو Bellario ، فكتبت إليه رسالة شرحت فيها تفاصيل القضية ، وطلبت إليه أن يبعث إليها برأيه فيها ، وأن يرسل إليها الملابس التي يرتديها المحامون في أثناء الدفاع . وعاد الرسول يحمل رسائل من بلاريو يشرح فيها طريقة السير في الدعوى ، ويحمل أيضاً الملابس التي يجب أن يرتديها المحامون .

ولبست پورشيا ووصيفتها نرسا ثياب الرجال ، وارتدت هي فوق ملابسها رداء المحامين واتخذت نرسا كاتباً لها . وسافرتا من فورهما فوصلتا مدينة البندقية في اليوم المحدد لبدء المحاكمة . واجتمع الدوق وأعضاء مجلس الشيوخ في قاعة المجلس ليبدءوا في نظر القضية ، وإذا پورشيا تدخل ساحة هذه المحكمة العليا وتعرض عليها رسالة من بلاريو ، بعث بها هذا المحامي القدير إلى الدوق يقول فيها إنه كان يود أن يحضر بنفسه للدفاع عن أنطنيو ، ولكن المرض عاقه عن القيام بهذا

الواجب ، ويطلب إليه أن يسمح للدكتور بلشزار Belshasar ، وهو الاسم الذي سمي به پورشيا ، الشاب النابه أن ينوب عنه في ذلك . ووافق الدوق وهو يعجب أشد العجب من صغر سن هذا الفتى الغريب ، الذي أخفى حقيقة أمره بلباس المحامين وبالشعر المستعار الطويل . ثم بدأت المحاكمة الرهيبة ، ونظرت پورشيا حولها فرأت اليهودى الغليظ القلب ، ورأت بسانيو وإن كان هو لم يعرفها لأنها بلغت في إخفاء أمرها ، وكان واقعاً بجوار أنطنيو حزينا كاسف البال يخشى أن يمس صديقه أذى .

وقوى الواجب الخطير الذي اضطلعت به پورشيا قلبها الغض الرقيق ، فأقدمت على عملها بجنان ثابت وعزم قوى ، ووجهت خطابها أول الأمر إلى شيلك ، فأقرته على حقه في أخذ ما نص عليه الصك ، ولكنها أشادت بذكر الرحمة تلك الخلقة العالية النبيلة ، ووصفتها وصفاً الآن كل قلب إلا قلب شيلك فإنه ظل جامداً لا يلبس . ومما قالته في وصفها إن الرحمة كالغيث ينزل من السماء على الأرض ، وإنها نعمة وبركة على من يتألفها ومن يسديها ، وإنها زينة للملوك أفضل من زينة التاج والصولجان ، لأنها من صفات الله القدسية ، وإن سلطانهم في هذه الأرض يكون أشبه بسلطان الله ، بقدر ما يمتزج به عدلهم من رحمة تلطفه وتخفف من أثره . وقالت لشيلك إن الناس جميعاً إذا كانوا يطلبون الرحمة لأنفسهم فأحر بهم أن يكونوا رحماء فيما بينهم . فما كان جواب شيلك إلا أن قال إنه يريد الجزء الذي نص عليه الصك ؛ وسألته پورشيا « أعاجز هو عن أداء الدين ؟ » فعرض بسانيو من فوره على اليهودى أن يؤدي الثلاثة الآلاف البنادقة أضعافاً مضاعفة يترك تقديرها لشيلك ، ولكن شيلك رفض هذا العرض وأصر على أن يأخذ رطلا من لحم أنطنيو . وعندئذ رجا بسانيو المحامى الشاب القدير أن يحور القانون تحويراً قليلاً لينقذ بذلك حياة أنطنيو ، ولكن پورشيا أجابته في صرامة أن الشرائع إذا سنت وجب ألا تمس . وسمع شيلك پورشيا تقول إن القانون يجب أن لا يعبث به فظن أنها تنصره ، وصاح قائلاً « هذا دنيال قد جاء يحكم بين الناس ، ألا ما أعظم إجلالي لك أيها الفتى القاضى الحكيم ، وما أكبر الفرق بين حكمتك وسنك ! » ثم طلبت پورشيا

إلى شيلك أن يطلعها على الصك ، فلما قرأته قالت « إن هذا الصك قد انقضى أجله ، ومن حق اليهودى بمقتضى القانون أن يطالب برطل من اللحم يقطع منه أقرب مكان إلى قلب أنطنيو » . ثم التفتت إلى شيلك وقالت له « إرحم هذا الرجل وخذ المال ومصرنى أن أعزق الصك » ، ولكن اليهودى الغليظ الكبد أصم أذنه عن سماع النداء وأجابها بقوله « أقسم أن ليس لمخلوق من قوة اللسان ما يستطيع به أن يثني عن عزمي » . وقالت پورشيا « إذن فأكشف يا أنطنيو عن صدرك للسكين » . وبينما كان شيلك يشحذ سكيناً طويلاً ليقطع به رطل اللحم التفتت إلى أنطنيو وقالت له « هل لديك ما تقول ؟ » ، فأجابها في هدوء واستسلام أن ليس لديه شيء يقوله لأنه مطمئن لملاقاة الموت . ثم وجه الخطاب إلى بسانيو وقال له « امدد إلى يدك يا بسانيو ، استودعك الله ، لا تحزن على ما أصابني من سوء بسبك ، واحمل سلامي إلى زوجتك النبيلة وحدثها عن مبلغ حبي لك » . وأجابه بسانيو في حزن عميق « إن لى زوجة هى أحب إلى من حياتي ، ولكن حياتي وزوجتي والعالم كله ليست أعز على من حياتك أنت ، ولن أتردد في أن أضحي بها كلها وأضعها بين يدي هذا الشيطان لأفتدى بها حياتك » .

وسمعت پورشيا هذا فلم يغضبها من زوجها أن يعبر عن حبه لصديقه الوفي هذا التعبير القوي ، ولكنها ردت عليه بقولها : « لو أن زوجتك كانت هنا وسمعت منك هذا العرض لما شكرتك عليه كثيراً » . وكان جرسيانو يحب أن يقلد سيده فيما يعمل ، فظن أن من واجبه هو أيضاً أن يلقى كلمة شبيهة بكلمة بسانيو ، فقال على منسمع من نرسا وكانت جالسة في ثياب الكتبة إلى جوار پورشيا تدون أقوالها : « إن لى زوجة أحبها ، ولكني أتمنى أن لو كانت هذه الزوجة في جوار ربها لتستطيع أن تدعوه أن يلين قلب هذا اليهودى النذل » . وردت نرسا عليه بقولها : « من حسن حظك أنك تقول هذا في غيبتها ، وإلا لأثرت المشاكل في بيتك » . وعيل صبر شيلك فقال مغضباً : « إننا نضيع الوقت سدى ، أرجو أن تنطقوا بالحكم » . وساد ساحة القضاء سكون رهيب وامتلاّت قلوب الحاضرين أسى وحسرة

وسألت پورشيا هل أعد الميزان ليوزن به اللحم ؟ ثم التفتت إلى اليهودى وقالت له : « إن عليك أن تستدعى جراحاً لئلا ينزف الدم من أنطنيو فيموت » ، وإذ كان الذى يبيغيه شيلك أن ينزف دم أنطنيو فيموت ، فقد قال لها جواباً عن سؤالها : « هذا ما لم ينص عليه الصك » . وأجابته پورشيا بقولها : « نعم إن الصك لم ينص عليه ولكن هلا راعيته كرامتك وإحساناً ؟ » . ولكن شيلك لم يجب بأكثر من قوله : « إني لا أجده ، إنه ليس فى الصك » . فقالت له پورشيا : « إذن نخذ رطلاً من لحم أنطنيو ، إن القانون يقضى به والمحكمة تجيزه ، ولك أن تقطع اللحم من صدره فالقانون يقضى به والمحكمة تجيزه » ، وصاح شيلك مرة أخرى : « ما أعدلك من قاض وما أعظم حكمتك ! لقد جاء دنياي يحكم بين الناس ! » ، ثم أخذ يشحذ سكينه الطويل مرة أخرى ، وصبوب نظراته إلى أنطنيو وقال له : « تقدم واستعد ! » .

فقالت پورشيا : « تمهل قليلاً أيها اليهودى ؛ إن ثمة شيئاً آخر ، إن هذا الصك لا يعطيك نقطة دم واحدة ، فهو ينص صراحة على رطل من اللحم ، فإذا أرتقت وأنت تقطع اللحم نقطة واحدة من دم هذا المسيحى فإن أرضك ومالك يصادران بحكم القانون ، ويصبحان ملكاً لدولة البندقية » . وإذ لم يكن فى وسع شيلك أن يأخذ اللحم دون أن يريق معه بعض دماء أنطنيو فإن هذه الفكرة الجديدة السديدة التى لاحت لعقل پورشيا ، وهى أن الصك إنما ينص على اللحم دون الدم ، قد أنقذت حياة أنطنيو . وأعجب الحاضرون كلهم بفطنة المحامى الشاب النابه الذى هداه عقله إلى هذا رأى السديد ، ودوت قاعة الجلسة بالتصفيق ، وصاح جرسيانو مردداً ما قاله شيلك من قبل : « ما أعدلك من قاض وما أعظم حكمتك ، انظر أيها اليهودى لقد جاء دنياي يحكم بين الناس » .

ورأى شيلك أنه قد خاب فى سوء تدبيره ، فقال ودلائل اليأس بادية عليه ، إنه يقبل المال ؛ وسر بسانيو كل السرور بنجاة أنطنيو التى لم تكن فى الحسبان فصاح قائلاً : « دونك المال نأخذه ! » ، ولكن پورشيا قطعت عليه حديثه بقولها : « تمهل قليلاً ولا داعى للعجلة . لن يأخذ اليهودى إلا الجزء الذى نص عليه

الصك ، فهيا ياشيلك لقطع اللحم ، ولكن إياك أن تريق نقطة من دمه أو أن تقتطع من لحمه أكثر من رطل أو أقل منه . فإذا زاد الرطل درهما أو نقص درهما ، وإذا مال الميزان بقدر شعرة ، فإن قانون البندقية يقضى بموتك ومصادرة أملاكك . فقال شيلك من فوره : « إذن فأعطوني مالى وودعوني أغادر هذا المكان » . وقال بسانيو : « إن المال حاضر لدى وها هو ذا بين يديك » .

وهم شيلك أن يأخذ المال ولكن بورشيا حالت مرة أخرى بينه وبين غرضه وقالت له : « تمهل أيها اليهودى ، إن لى عليك حقا آخر . إن شرائع البندقية تقضى بأن تصادر الدولة مالك لأنك ائتمرت على حياة رجل من أهلها ، وإن حياتك الآن لرهينة بأمر الدوق فاركع أمامه وسله المغفرة » .

وقال الدوق لشيلك : « إنى أعفو عنك وأهبك حياتك قبل أن تطلب المغفرة ، وذلك لتعرف الفرق بيننا نحن المسيحيين وبينك ، أما مالك فنصفه حق لأنطنيو ونصفه الثانى حق للدولة » .

وقال أنطنيو فى كرم وإباء إنه ينزل عن نصيبه فى مال شيلك إذا تعهد كتابة أن يتركه بعد موته لابنته وزوجها . وكان أنطنيو يعرف أن لشيلك ابنة وحيدة تزوج بها حديثاً شاب مسيحي يدعى لرنزو Lorenzo من أصدقاء أنطنيو ، وتم هذا الزواج رغم إرادة أبيها فغضب عليها وحرمها حقها فى ماله بعد موته . ووافق اليهودى على ذلك ؛ ولما رأى أنه قد خاب فى سعيه للانتقام من عدوه وخسر ماله ، أثر ذلك فى نفسه فقال : « إنى مريض فاسمحوا لى أن أعود إلى دارى ، وأرسلوا العقد إلى أوقعه وأنزل به عن نصف مالى إلى ابنتى » . فأجاب الدوق إلى طلبه وقال له : « عد إلى دارك ووقع العقد ، وإذا ندمت على قسوتك واعتنقت الدين المسيحى ردت إليك الدولة النصف الآخر من مالك » .

وأطلق الدوق سراح أنطنيو وفض الجلسة ، وأثنى على ذكاء المحامى الشاب وحكمته ، ودعاه إلى الغداء على مائدته . ولكن بورشيا كانت ترغب فى العودة إلى بلعمت قبل زوجها فأجابته فى تواضع جم « أرجو أن يتفضل نخامة الدوق بقبول شكرى ، غير أنى لا بد أن أعود إلى بلدى من فورى » ، وأجاب الدوق أنه يأسف

لأن وقته لا يتسع لقبول دعوته ، ثم التفت إلى أنطنيو وقال له : « عليك أن تكافئ هذا السيد فأنت في رأي مدين له بالشيء الكثير » .

وغادر الدوق وشيوخ المدينة ساحة القضاء ، والتفت بسانيو إلى پورشيا وقال لها : « أيها السيد الأجل ، لقد أجمعتني أنا وصديقي أنطنيو في هذا اليوم ، بفضل حكمتك وحسن تدبيرك ، من شر أنواع العقاب ؛ ولهذا أرجو أن تقبل ثلاثة الآلاف البنادقة التي كانت من حق اليهودى » .

وأضاف أنطنيو إلى ذلك : « وسنبقي مدينين لك بما هو أكثر من هذا وأجل شأنًا ، وسيكون لك حبنا واستعدادنا لخدمتك على الدوام » . وأبت پورشيا أن تأخذ المال ، وألح عليها بسانيو أن تقبل منه شيئاً جزاء لها على حسن صنعها فقالت له : « هبني قفازيك فسألبسهما إكراماً لك » . وخلع بسانيو قفازيه فلمحت في إصبعه الخاتم الذي أعطته إياه من قبل ، وكان هذا الخاتم هو الذي تريد الفتاة الأريية أن تأخذه ليكون موضوع فكاهاة لها حين ترى بسانيو بعد عودته إليها ، ومن أجل ذلك طلبت إليه قفازيه . فلما رأت الخاتم قالت له : « وسأخذ منك هذا الخاتم ليكون شاهداً على حبك » .

وتألم بسانيو أشد الألم حين طلب إليه المحامي الشيء الوحيد الذي لا يستطيع أن يتخلى عنه ، فأجاب في اضطراب شديد أنه لا يستطيع أن يعطيه الخاتم لأنه هدية من زوجته ، ولأنه قد أقسم ألا ينزعه من إصبعه ، وقال إنه على استعداد لأن يبتاع له أثمن خاتم في البندقية وإنه سينشر في الناس إعلاناً بهذه الرغبة . فلما سمعت پورشيا ذلك تظاهرت بالغضب وغادرت قاعة الجلسة وهي تقول : « إنك تعلمني أيها السيد كيف يُرد السائل » .

وقال له أنطنيو : « صديقي بسانيو ، أعطه الخاتم واجعل حبك لي وعظيم فضله على يرجحان غضب زوجته » . واستحى بسانيو أن يظهر بمظهر الجاحد الناكِر للجميل فحضر لرغبة صديقه وبعث بالخاتم إلى پورشيا مع جرسيانو . وجاء دور نرسا (الكاتب) وكانت هي أيضاً قد أعطت جرسيانو خاتماً ، فطلبت إليه أن يمنحها إياه . ولم يشأ جرسيانو أن يكون أقل كرمًا من سيده فأعطاها الخاتم . ولشد ما ضحكت

ها تان السيدتان حين تصورتا ماسيكون لهما من شأن مع زوجيهما حينما تعودان إلى دارهما وتلو مان زوجيهما لتفريطهما في الخاتمين ، وتقسمان أنهما قد أهدياهما إلى بعض النساء . وكانت پورشيا وهى فى طريقها تحس بتلك الغبطة التى تلازم من يشعرون بأنهم قد فعلوا الخير للناس ، فكانت تسر من كل شىء تراه ، فالقمر لم يكن ضياؤه فى ليلة من الليالى أبهج منه فى تلك الليلة ، ولما حجبت نوره سحابة من السحب لاح لها بريق ضوء يشع من منزلها فى بلغت فزاد مرآه من غبطتها وسرورها ، وقالت لنرسا : « إن هذا الضوء الذى نراه خارج من فناء دارى . فانظرى ما أبعد المدى الذى يصل إليه ضياء هذه الشمعة الصغيرة ، وهكذا يشيع ضياء العمل الصالح فى هذا العالم الذى يفيض بالإثم والشرور » . ووقعت على آذانها نغمات الموسيقى يحملها النسيم من منزلها فقالت : « يخيل إلى أن هذه النغمات بالليل أشجى منها بالنهار » . ودخلت پورشيا ونرسا الدار ولبست كلتاها ملابس النساء وانتظرتا قدوم زوجيهما . ولم يلبث الزوجان أن أقبلوا ومعهما أنطنيو . وقدم بسانيو صديقه العزيز إلى زوجته فأخذت ترحب به وتهنئه بنجاته . ولم تكد تنتهى من ترحيبها وتهنئتها حتى شاهدا نزاعاً قائماً فى أحد أركان الحجرة بين نرسا وزوجها ، فقالت پورشيا : « أنزاعاً ولما يعمض غير هذا الوقت القصير ؟ ماذا جرى ؟ » ، وأجابها جرسيانو بقوله : « إنه من أجل خاتم مذهب تافه كانت نرسا قد أعطتني إياه ، وعليه ألفاظ شبيهة بالشعر الذى ينقش على أيدى المدى وهى : « أحبني ولا تفارقني ؟ » . وقالت نرسا : « وماذا يهمنى من الشعر أو من قيمة الخاتم ؟ لقد أقسمت لى حين أعطيتك إياه أنك ستحتفظ به إلى ساعة مماتك ، وأراك تقول الآن إنك أهديته إلى كاتب المحامى ولست أشك فى أنك قد أهديته إلى امرأة » ، وأجاب جرسيانو : « أقسم إنى قد أهديته إلى شاب ، بل إلى ولد ليس أطول منك قامه ، وهو كاتب المحامى الذى أنقذ بحكمته حياة أنطنيو ، وقد طلب إلى هذا الفتى الثرثار أن أهدى إليه الخاتم أجراً له ، ولم أجد فى نفسى قدرة على رفض طلبه » . وقالت پورشيا : « لقد أخطأت يا جرسيانو إذ فرطت فى أول شىء أهدته إليك زوجك ؛ لقد أعطيت سيدي بسانيو خاتماً ، ولست أشك فى أنه لن يفرط فيه ولو أعطى ملك هذا العالم » . وأراد جرسيانو أن يبرر فعلته فقال : « إن سيدي بسانيو قد أعطى المحامى

هذا الخاتم نفسه ، فلما فعل ذلك طلب إلى كاتبه أن أعطيه خاتمي نظير ما لاقاه من عناء في الكتابة .

وسمعت پورشيا ذلك فتظاهرت بالغضب الشديد ، ولامت بسانيو على تفريطه في خاتمها ، وقالت إن نرسا قد هبتها إلى ما يجب أن تعتقده ، وإنها لا تشك في أن الخاتم قد أخذته امرأة . وحزن بسانيو أشد الحزن لغضب زوجته فقال في جد : « أقسم بشرفي أن هذا غير صحيح ، إن امرأة لم تأخذ الخاتم ، بل أخذه عالم كبير أبي أن يقبل ثلاثة آلاف بندق ، وطلب هذا الخاتم فرفضت ، فانصرف مغضباً . وماذا عساي أن أفعل يا عزيزتي پورشيا ؟ لقد أخجلني أن أظهر بمظهر الجاحد للنعمة ، الناكر للجميل ، فبعثت إليه بالخاتم ، فاصفح عني ياسيدي وثق أنك لو كنت معنا لطلبت إلى أن أعطيك الخاتم لتقدميه بنفسك إلى هذا العالم العظيم . » وقال أنطنيو : « ويل لي ! إنني أنا سبب هذا الخصاص المؤلم » . وطلبت پورشيا إليه أن لا يبتئس ، وقالت إنها ترحب به وتسر بوجوده على الرغم مما حدث ؛ فقال أنطنيو : « إنني قبل هذا قد ضحيت بحياتي من أجل بسانيو ، ولولا ذلك الرجل الذي أعطاه الخاتم لكنت الآن بين سكان القبور ، وفي وسمي أن أتعهد لك بأن زوجك لن يخونك بعد الآن ، وحياتي نفسها ضمنية لذلك » ، فقالت پورشيا : « فلتضمنه إذن . وهاك خاتماً فأعطه إياه ، وعمره ألا يفرط فيه كما فرط في سابقه » . وتأمل بسانيو الخاتم فدهش حين وجد أنه هو الذي كان في يده من قبل ، وأخبرته پورشيا أنها هي المحامي الشاب وأن نرسا كاتبه ، وعجب بسانيو أشد العجب وسر غاية السرور حين علم أن زوجته هي التي أنقذت حياة أنطنيو بشجاعتهما وحسن تديرها .

وحيت پورشيا أنطنيو ورحبت به من جديد ، وأعطته رسائل وقعت في يدها بطريق الصدفة وهي تصف سفن أنطنيو التي ظن أنها غرقت ، وتقول إن هذه السفن قد وصلت إلى الميناء بسلام . وهكذا نسي الجميع ما بدأت به قصة هذا التاجر السري من مأس وآلام ، طغى عليها كلها ما أعقب ذلك من نعم لم تكن في الحسبان . وعاد الكل يضحكون من قصة الخاتمين ومن الزوجين اللذين لم يعرفا زوجتيهما ، وأقسم جرسيانو أنه لن يحرص في حياته على شيء حرصه على خاتم نرسا .

سمبلين

في أيام أغسطس قيصر إمبراطور رومة كان يحكم إنجلترا (وكان اسمها في ذلك الوقت بريطانيا) ملك يدعى سمبلين Cymbaline . وماتت زوجة الملك الأولى وتركت له ثلاثة أطفال صغار ، ذكرين وأنثى . ونشأت إمچين Imogen كبرى هؤلاء الأطفال في قصر أبيها ، ولكن أبنيه الآخرين اختطفوا من مخدعهما بطريقة خفية ، ولم يكن أكبرهما قد جاوز الثالثة من عمره ، أما أصغرهما فكان لا يزال في مهده ، ولم يعرف الوالد سمبلين ما جرى لولديه ولا اليد التي امتدت إليهما .

وكانت الملكة تبغض إمچين ، ولكنها كانت ترغب في أن تزوجها بابن لها من زوج آخر ، فقد تزوجت هي الأخرى مرتين . وكانت ترجو بذلك أن تضع تاج بريطانيا بعد موت سمبلين على رأس ابنها كلوتن Cloten ، وذلك لعلمها أن الأميرة إمچين ستصبح وارثة عرش بريطانيا إذا لم يظهر ولدا الملك الآخرين . لكن إمچين نفسها أفسدت عليها هذا التديير ، إذ تزوجت بغير رضا أبيها وزوجته بل بغير علمهما .

وكان زوجها پستيمس Posthumus أكثر شبان ذلك الوقت علماً وأدباً ، وكان أبوه قد قتل وهو يحارب حروب سمبلين ، وتوفيت أمه حزناً على زوجها بعد مولد طفلها بقليل . واختار سمبلين للطفل اسم پستيمس لأنه ولد بعد موت أبيه (١) وأشفق الملك على هذا الطفل اليتيم البائس فأخذه في كنفه ورباه في بلاطه . وتلقى پستيمس وإمچين العلم معاً على نفس المعلمين ، وكانا رفيقين في لعبهما من نعومة أظفارهما ، ونشأ متحابين من عهد طفولتهما ، وزاد حبهما كلما كبرت سنهما ، فلما بلغا أشدهما واستويا تزوجا سرا .

وسرعان ما كشفت الملكة هذا السر ، وعرفت خيبة مسعاها ، لأنها كانت تبث العيون على ابنة زوجها يرقبون حركاتها وسكناتها ، فأبلغت الملك من فورها نبأ زواج إمچين وپستيمس .

(١) معنى هذا اللفظ « بعد الموت » . (المترجم)

واستشاط الملك غضباً حين عرف أن ابنته قد أهدرت كرامتها وتزوجت بشاب من السوق ، فأمر پستيمس من فوره أن يغادر أرض بريطانيا منفياً ، ولا يعود إليها أبداً . وتظاهرت الملكة بالإشفاق على إمچين في محنتها التي حلت بها بفقد زوجها ، وعرضت عليها أن تيسر لها سبيل الالتقاء به خفية قبل أن يبدأ سفره إلى رومة ، وهي المدينة التي اختارها منفى له . وكان غرضها من هذه الشفقة الظاهرة أن تستعين بها فيما بعد على تنفيذ ما كانت تدبره لابنها كلوتن ، وكانت تريد أن تقنع إمچين بعد أن يسافر پستيمس بأن زواجها به كان زواجاً غير شرعى لأنه تم بغير رضا الملك .

وودع پستيمس وإمچين كلاهما الآخر أحروداع ، وأهدت إمچين إلى زوجها خاتماً من ماس ورثته عن أمها ، ووعدھا پستيمس ألا يفرط فيه قط ، وألبسها هو سواراً في ذراعها ورجاها أن تحتفظ به شاهداً على حبه ، ثم افترقا بعد أن أكد كلاهما للآخر عظم حبه وإخلاصه . وعاشت إمچين في قصر أبيها وحيدة بائسة ، ووصل پستيمس إلى رومة التي اختارها مقراً له في منفاه .

واجتمع پستيمس في رومة بطائفة من الشبان المرحين الذين جاءوا إليها من مختلف البلدان ؛ وكان حديثهم يدور حول النساء لا يستحون من ذكر كل شيء عنهن ، وكان كل منهم يثني على نساء بلده ويشيد بذكر حبيبته . وكان پستيمس لا ينسى عهد زوجته العزيزة ، فأخذ يؤكد لأصحابه أن إمچين الحسنة كانت أعف نساء العالم وأرجحن عقلاً وأكثرهن وفاء .

وغضب من ذلك شاب يدعى يشيمو lashimo ، وساءه أن تفضل فتاة من أهل بريطانيا على النساء الرومانيات بنات وطنه ، وأثار غضب پستيمس بأن تظاهر بالشك في إخلاص زوجته التي يثني عليها هذا الثناء كله . وبعد أن احتدم الجدل بينهما طويلاً وافق پستيمس على اقتراح عرضه يشيمو ، مضمونه أن يذهب هذا الشاب إلى بريطانيا ويحاول كسب حب إمچين . ثم تراهنا على أن يدفع يشيمو مبلغاً كبيراً من المال إذا لم يفلح في مسعاه الخبيث ، أما إذا نجح في كسب حب إمچين وأقنعها بأن تعطيه السوار الذي رجاها پستيمس أحر رجاء أن تحتفظ به

تذكراً لحبه ، فإن يشيمو يكسب الرهان ويأخذ في نظير ذلك الخاتم الذي أهده إميچين إلى زوجها في ساعة وداعه دليلاً على حبها له .

وقد بلغ من ثقة پستيمس بوفاء إميچين أن كان يعتقد اعتقاداً أكيداً أن لا خطر مطلقاً من أن تمتحن زوجته في شرفها بهذه الطريقة .

ولما وصل يشيمو إلى بريطانيا أذن له بمقابلة إميچين ، واستقبلته الفتاة أحسن استقبال على زعم أنه صديق زوجها ، فلما أخذ يسمعها عبارات الحب طردته من عندها بازدياء ، وتبين من فوره أن لا أمل له في النجاح في مسعاه الدميم .

ولكن رغبته الملحة في أن يكسب الرهان حملته على أن يلجأ إلى مخادعة پستيمس والكذب عليه ، فأغرى بالمال بعض خدم إميچين ، فحملوه إلى مخدعها في حقيبة كبيرة ظل مختفياً فيها حتى آوت إلى فراشها واستغرقت في نومها ، ثم خرج من الحقيبة وفحص عن كل شيء في الحجرة ، ودون في مذكرة له كل ما رآه فيها ، وكان أهم ما استرعى نظره شامة رآها في عنق إميچين . وأخيراً أخرج السوار بخفة من ذراعها وعاد إلى الحقيبة ؛ ثم انطلق في اليوم الثاني مسرعاً إلى رومة ، وأخذ يتباهى أمام پستيمس بأن إميچين قد أعطته السوار وسمحت له أن يقضى ليلة في مخدعها ، وقص يشيمو قصته الكاذبة بهذه الطريقة : « إن جدران مخدعها مغطاة بنسيج من الحرير الموشى بالفضة ، يمثل قصة كايو بطرة تحتال عند لقاءها أنطوني وهي قطعة فنية بديعة » .

وأجابه پستيمس بقوله : « هذا صحيح ، ولكنك قد تكون سمعت عنه بأذنك ولم تره بعينك » . وواصل يشيمو حديثه قائلاً : « أما الموقد ففي الجهة الجنوبية من الحجرة ، وغطاؤه يمثل ديانا في الحمام ، ولم أر في حياتي صورة أبدع من تلك الصورة » ، وقال پستيمس : « وذلك أيضاً ربما كنت قد سمعته لأن الناس يتحدثون به كثيراً » .

فأخذ يشيمو يصف سقف الحجرة بمثل هذه الدقة ، وزاد على هذا الوصف قوله : « وأكاد أنسى مسند موقدها . إن هذا المسند مكون من تمثالين لإله الحب صيغا من الفضة ، وهما يتغامزان بالأعين ويقف كل منهما على قدم واحدة » . ثم

أخرج السوار وقال : « أتعرف هذه الحلية يا سيدى ؟ لقد أعطتني إياها بعد أن انتزعتها من ذراعها ، وما زلت أتصور ساعة انتزعتها ، وكانت طريقة الإهداء أعظم في نظري من الهدية نفسها ، وزادتها قيمة على قيمتها . ولقد قالت لى وهى تمدبها يدها إلى إنها كانت من قبل عزيزة عليها » . وكان آخر ما فعل أن وصف الشامة التى رآها فى عنقها .

وكان پستيمس يصغى إلى هذه المكيدة المدبرة بشىء من الشك المؤلم ، وأما الآن فقد انفجر مرجل غيظه على إمچين ، وأسلم خاتم الماس إلى يشيمو ، وكان قد وعده به إذا جاء بالسوار من إمچين .

ثم كتب پستيمس وهو فى سورة الغيرة والغضب رسالة إلى پيزانيو Pisanio ، وهو رجل من سادة بريطانيا كان من قبل فى حاشية إمچين وظل زمناً طويلاً من أصدقاء پستيمس الأوفياء المخلصين . وبعد أن قص عليه ما لديه من الأدلة الناطقة بخيانة زوجته ، طلب إليه أن يأخذها إلى ملفرد هيفن Milford Haven أحد ثغور ويلز Wales ويقتلها فيه . وكتب فى الوقت نفسه رسالة إلى إمچين ملؤها المكر والخداع ، طلب فيها إليها أن ترافق پيزانيو إلى هذا الثغر لأنه وجد الحياة بعيدة عنها مستحيلة فاعترم المحب إلى ملفرد هيفن ليلتقى بها ، وإن كان قد أمر ألا يعود إلى بريطانيا وأهدر دمه إن عاد إليها . وكانت هذه السيدة طيبة القلب لا تظن بالناس سوءاً ، فلما تلقت الرسالة سافرت من فورها فى نفس الليلة مع پيزانيو ، لأنها كانت تحب زوجها حباً لا يعدله حب ، ولأن رغبتها فى أن تراه كانت أشد من رغبتها فى الحياة .

ولما أشرفت رحلتها على غايتها كشف پيزانيو لإمچين عن حقيقة الأمر الصادر إليه ، لأنه رغم وفائه لپستيمس لم يشأ أن يسخر لارتكاب هذا الجرم الشنيع . وتألّت إمچين أشد الألم حين علمت أنها لن تقابل زوجها يحبها وتحبه ، بل إن هذا الزوج نفسه يريد أن يسلبها الحياة .

وهذا پيزانيو من روعها وطلب إليها أن تتذرع بالصبر ، حتى يتبين پستيمس أنه قد ظلمها ويندم على ما فعل . ولما كانت غير راغبة فى العودة إلى قصر أبيها

بعد أن أصابها ما أصابها ، فقد أشار عليها أن تلبس ملابس الفتيان لتأمن على نفسها في سفرها . وعملت إمچين بهذه النصيحة وفكرت أن تذهب في هذا الزى إلى رومة لتقابل فيها زوجها الذي لم يبرح حبة قلبها ، وإن كان قد عاملها هذه المعاملة الوحشية القاسية .

وزودها پيزانيو بلباسها الجديد ثم تركها تحت زحمة الأقدار ، فقد كان عليه أن يعود في ذلك الوقت إلى قصر الملك ؛ وأعطاهها قبل أن يفارقها زجاجة من دواء منعش قال إن الملكة قد أعطته إياها ، وإن في دوائها الشفاء من كل الأمراض . وحقيقة الأمر أن الملكة التي كانت تكره پيزانيو لما كان بينه وبين إمچين وبستيمس من صداقة قد أعطته هذه الزجاجة ظنا منها أن بها سما ؛ وكانت قد طلبته من طبيبها الخاص مدعية أنها ستجرب أثره في بعض الحيوانات ، ولكن الطبيب كان يعرف خبث طويتها فلم يأتمنها على سم حقيقي ، وأعطاهها بدلا منه عقاقير لا تحدث ضرراً لمن يتناولها أكثر من أن تنيمه ساعات قليلة ، تبدو عليه في خلالها كل مظاهر الموت . وأعطى پيزانيو إمچين هذا المزيج الذي كان يعتقد أنه خير دواء منعش ، وأخبرها أن تتجرع بعضه إذا رأت نفسها متعبة في أثناء الطريق ، ثم تركها بعد أن دعا لها بالخير والسلامة والنجاة من متاعبها التي لم تكن تستحق منها شيئاً .

وشاءت الأقدار أن تتخذ إمچين سمتها إلى المكان الذي آوى إليه أخوها اللذان اختطفوا في عهد الطفولة . وكان بلاريس Belarius الذي اختطفهما من كبار رجال البلاط في قصر سمبلين ، ولكن الواشين وشوا به إلى الملك واتهموه بالخيانة كذبا ، فطرده الملك من خدمته ، وانتقم بلاريس لنفسه بأن سرق ولدى سمبلين ورباهما في الغابة ، وآوى فيها إلى كهف واتخذ مسكناً له . وكان حب الانتقام من والدهما هو الذي حمله على اختطافهما ، ولكنه لم يلبث أن أحبهما كما يحب الآباء أبناءهم ، وأحسن تربيتهما ، فنشأ نشأة طيبة ، ودفعهما كرم عنصرهما إلى القيام بكثير من أعمال الجرأة والبطولة . وكانا يحصلان على قوتهما من صيد الغاب ، فأكسبهما ذلك النوع من المعيشة نشاطا وصلابة . وكانا لا ينفكان يلحان على

أبيهما المزعوم أن يرسلهما لي تجربا حظهما في ميادين القتال .
وساقت الأقدار إميحان إلى الكهف الذي كان يسكن فيه هذان الفتيان ؛
وذلك أنها ضلت سبيلها وهي سائرة في غابة كبيرة تعترض طريقها إلى ملفردهيشن
حيث كانت تريد أن تسافر بطريق البحر إلى رومة ؛ ولم تجد في طريقها مكاناً
تبتاع معه الطعام فكادت تموت من شدة الجوع والتعب ، لأن ملابس الرجال
لا تكفي وحدها لأن تبعث في نفوس الفتيات اللاتي نشأن في أحضان النعمة
قوة الرجال والصبر على مشاق السفر منفردات في الغابات . فلما رأت الكهف
دخلته لعلها تجد فيه من يمدّها بالطعام ؛ ولما لم تجد فيه أحداً أخذت تقلب الطرف
في أرجائه ، فوقع عيناها على بعض اللحم البارد ، ولم تنتظر لشدة الجوع أن
يدعوها أحد إلى الطعام ، بل جلست من فورها وأخذت تأكل اللحم ، وقالت
في نفسها « إن حياة الرجال في نظري حياة شاقة ، ألا ما أشد ما قاسيت من
التعب ! لقد قضيت ليلتين متوالييتين أقترش الغبراء ، ولولا غريمي الصديقة لأضناني
المرض . لقد أشار پيزانيو إلى ملفردهيشن من أعلى الجبل فلاحت لي قرية كل
القرب ! » ثم تذكرت زوجها وقسوته عليها فقالت « عزيزي يستيمس إنك
لرجل غادر ! » .

ورجع أخوا إميحان في ذلك الوقت من الصيد مع بلاريس أبيهما المزعوم ؛
وكان بلاريس قد أطلق عليهما اسمي پليدور Polydore وكدول Cadwal ، فلم
يكن الأميران يعرفان لهما غير هذين الاسمين ، وكانا يظنان أن بلاريس أبوهما
حقاً . أما اسماهما الحقيقيان فكانا جيديريس Guiderius وأرقراجس Arviragus
ودخل بلاريس الكهف قبل الأميرين ، فلما رأى إميحان قال لهما « قفا
مكانكما ولا تدخلوا الكهف ، إنها تأكل الطعام ، ولولا ذلك لظننتها من
بنات الجان » .

وسأله الشابان عن جليلة الأمر ، وقال بلاريس حين رأى جمال إميحان البارع
وهي في ثياب الفتيان « أقسم أن في الكهف ملكاً من السماء ، أو آية من آيات
الخلائق الأرضية » .

وسمعت إمچين أصواتهم نخرجت من الكهف وخاطبتهم قائلة « أيها السادة النجب ، لا تؤذوني ، فقد فكرت قبل أن أدخل كهفكم أن أسألكم أو أبتاع منكم ما طعمته ، والحق أني لم أسرق شيئاً ، وليس من شيمتي أن أسرق ، ولو وجدت الذهب منشوراً على أرض هذا الكهف ؛ وها هو ذا المال أقدمه ثمناً لما أكلت من اللحم ، وكان في نيتي أن أتركه على هذه اللوحة بعد أن أفرغ من تناول الطعام ، وأن أدعوا لأصحابه بالخير والبركة » . وأبى أصحاب الكهف أن يأخذوا منها شيئاً من المال ، فقالت لهم في خجل « يخيل إلى أني قد أغضبتكم بما فعلت ، ولكن اعلّموا ياسادتي إذا أخذتموني بذنبي ، أنني كنت أموت حتماً لو لم أرتكب هذا الذنب » .

وسأل بلاريس « ما اسمك وأنى تذهب ؟ » فأجابته إمچين بقولها « اسمي فيديل Fidele ، ولى قريب مسافر إلى إيطاليا ، وقد ركب البحر من ملفردهيشن ، وخرجت أنا من بلدى أريد الذهاب إليه ، فاشتد بي الجوع فارتكبت هذا الذنب » .

ورد عليها الشيخ بلاريس بقوله « أيها الشاب الوسيم ، نرجو ألا تظننا أجلاً غلاظاً ، وألا تحكم على طباعنا بهذا البيت الخشن الذى نعيش فيه . لقد أدركك الليل فرحياً بك ، وستلقى قبل رحيلك خيراً مما لقيت عند قدومك ، وسنشكر لك ما أقمّت عندنا وما طعمت من زادنا . هيا ، يا ولدى وأكرم ما الضيف » .

وتقدم الفتيان إلى أختيهما إمچين ودعواها إلى الجلوس فى كهفهما ، وحيياها أحسن تحية ، وقالاً إنهما سيحبانها (أو على الأصح سيحبانه) حب الأخ أخاه ؛ ثم دخلا الكهف ومعهما ما صاداه من الغزلان ، فطهت لهما إمچين اللحم أحسن الطهى ، وساعدتهما على تهية العشاء . وكان من عادة الفتيات بنات الأسر الكريمة أن يتعلمن طهى الطعام ؛ ولم يكن يستنكفن أن يفعلن ذلك كما تستنكفن مثيلاتهن فى هذه الأيام ، ولذلك كانت إمچين تجيد هذا الفن النافع . وعبر الأخوان عن إعجابهما بقولهما : « إن فيديل يقطع الجذور للطهى كأنه يخطها بالقلم ، ويهين الحساء كأن جونو Juno زوجة چوپتر Jupiter مريضة ، وكأنما كاف هو بإعداد ما يلزمها من الطعام . ثم قال پليدور Polydore لأخيه : « ما أعذب غناء هذا الملاك وما أشجناه ! » .

وقال كلاهما لصاحبه إن ابتسامات فيديل الحلوة لتشف عن حزن عميق يبدو في وجهه ، وكأنما الحزن والصبر معاً يحزان في قلبه .

وأصبحت إمچين - أو فيديل كما كان يسميها الفتیان -- بفضل هذه الصفات الطيبة ، أو بفضل ما كان يربطها بالفتيين من أواصر القربى على غير علم منهما ، أصبحت إمچين أحب الناس إلى أخويها ، وأحبتهما هي أيضاً أشد الحب ؛ ولولا ذكرى زوجها العزيز يستيمس لودت أن تعيش على الدوام مع هذين الفتيين ساكني الغابة ، وقد قبلت في سرور أن تقيم معهما حتى تستريح من عناء السفر ، وتستطيع أن تواصل سيرها إلى ملفردهيشن .

ولما فرغ لحم الغزلان التي صاداها وأرادا أن يخرجوا للصيد مرة أخرى ، لم تستطع الفتاة لمرضاها أن تصحبهما ، ولا شك في أن ألمها من قسوة زوجها ، وما عانتها من مشقة في تجوالها في الغابة ، كانا سبب هذا المرض ، فودعاها وذهبا للصيد ، وكانا طول الطريق يتحدثان بخير عن الفتى فيديل ويعجبان بكرم أخلاقه وبهاء طلعتة .

ولم تكذب إمچين تنفرد بنفسها حتى تذكرت الزجاجة التي أعطاها لها پيزانيو ، وشربت كل ما فيها من الدواء ، فنامت لساعتها نوماً عميقاً لا فرق بينه وبين الموت . وعاد بلاربس وأخواها من الصيد ، وكان پليدور أول من دخل الكهف ، فلما رآها ظنها نائمة ، نخلع نعليه الغليظين لكيلا يوقظها بثقل وطئها ، وذلك لأن الرقة والظرف نبتا سريعاً في قلب هذين الأميرين ساكني الغاب . ولكن پليدور أدرك بعد قليل أنها لا تستيقظ مهما علا الصوت ، فاعتقد أنها ماتت ، وحزن عليها حزن الأخ الشفيق الذي لم يفارق أخاه منذ نعومة أظفاره .

وأشار عليهما بلاربس أن ينقلها بين الأشجار ليحتفلوا جميعاً بجنائزها بترديد الأغاني وأنشيد الحزن كما كان الناس يفعلون في تلك الأيام .

وحمل الأخوان إمچين إلى مكان فسيح مظلل في الغابة ، ووضعها على الكلا ، وأخذوا ينشدان الأناشيد ويطلبان لها الرحمة ، ثم غطيا جسمها بالزهر وأوراق الشجر . ولما فرغا من عملهما قال پليدور : « سأزور قبرك يا فيديل في كل يوم من

أيام الصيف ما دمت مقياً في هذا المكان ، وأثر عليه الزهر وأوراق الشجر ، سأثر عليه زهر الربيع الشاحب أشبه الأزهار بوجهك ، والزنبق الأزرق أشبهها بلون أوردتك ، وأوراق الورد الجبلي التي لا يفوق شذا عرفها أنفاسك العطرية يوم كنت في الأحياء ؛ سأثر كل هذا عليك في الصيف ، وسأثر الطحلب الناعم في الشتاء حين لا أجد من الأزهار ما أعطي به جسمك » .

ولما أتما مراسم دفنها عادا إلى كهفهما حزينين كاسفي البال .

وقبل أن يمضي على فراقهما وقت طويل ، زال أثر الدواء فاستيقظت إمچين ونفضت ما كان عليها من أوراق وأزهار ، ووقفت على قدميها وهي تظن أنها كانت في حلم فقالت : « يخيّل إلى أني كنت في كهف أشرف عليه وأطهى فيه الطعام لقوم كرام ، فكيف جئت إلى هذا المكان ؟ وكيف غطتني هذه الأزهار ؟ » .

وضلت إمچين طريقها إلى الكهف ، ولم تر أحداً من رفاقها الجدد فلم يخامرها شك في أنها كانت في حلم ، وبدأت رحلتها الشاقة من جديد وهي ترجو أن تصل آخر الأمر إلى ملفردهيفن وتستقل منها سفينة مسافرة إلى إيطاليا ، لأن أفكارها كانت لا تزال متعلقة بزوجها پستيمس ، وقد اعتزمت أن تبحث عنه وهي في ثياب الفتیان

ولكن أحداثاً خطيرة كانت تحدث في تلك الأيام ولا تعرف عنها إمچين شيئاً . ذلك أن حرباً قد شبت نارها فجأة بين أغسطس قيصر إمبراطور الرومان وسمبلين ملك بريطانيا ، ونزل جيش روماني في أرض بريطانيا ليغزوها ، وتقدم الجيش حتى وصل إلى الغابة التي كانت تسير فيها إمچين ، وجاء پستيمس مع الغزاة الفاتحين . جاء پستيمس مع هذا الجيش إلى بريطانيا ولم يكن في نيته أن يحارب بلاده في صفهم ، بل كان يريد أن ينضم إلى جيش بريطانيا ليدافع عن مليكه الذي أخرجته من بلاده .

وكان لا يزال يعتقد أن إمچين قد خانتة ، ولكن موت زوجته التي كان يحبها ويعزها والتي أمر هو بقتلها — فقد كتب إليه پيزانيو يقول إنه أطاع أمره وقتل إمچين — نقول إن موت هذه الزوجة قد أحزنه وأمر عيشه ، فعاد إلى بريطانيا

لعله يخر صريعاً في ميدان القتال ، أو لعل سمبلين يقتله جزاءً له على عودته من منفاه . ووقعت إمجين أسيرة في أيدي جنود الرومان قبل أن تصل إلى ملفردهيشن ، وأعجب قواد الرومان ببهاء طلعتها وسرعة بديتها ، فألحقها لوسيس Lucius قائد الجيش بخدمته .

وتقدم جيش سمبلين لملاقاة العدو ، فلما دخل الغابة انضم إليه پليدور وكدول وكانا شديدي الرغبة في أن يظهرأ شجاعتهم وأسمهما ، وإن كانا لا يعرفان أنهما سوف يحاربان دفاعاً عن أبيهما الملك ، وسار معهما أيضاً الشيخ بلاريس لأنه قد ندم من زمن طويل على ما آذى به سمبلين باختطاف ولديه . وإذا كان قد تعود الحرب في شبابه ، فقد سره أن ينضم إلى الجيش ليدافع عن مليكه ويكفر عما جناه عليه من قبل .

وحمل وطيس القتال بين الجيشين ، وكادت تدور الدائرة على البريطانيين ويقتل مليكهم سمبلين ، لولا ما أبداه پستيمس وبلاريس وولدا سمبلين من ضروب الشجاعة النادرة ؛ وبفضل هذه الشجاعة نجا الملك من الهلاك المحقق ، وتغير مجرى القتال ، وهزم الأعداء ، وعقد لواء النصر للبريطانيين . ولما خبت نيران القتال ولم يظفر پستيمس بالموت الذي كان يرجوه ، أسلم نفسه إلى أحد ضباط سمبلين لعله يقتل جزاء له على عودته من منفاه .

وأمرت إمجين مع مخدومها وجيء بهما أمام سمبلين ، وجيء أمامه أيضاً بيشيمو ، وكان ضابطاً في الجيش الروماني . وبينما كان هؤلاء كلهم واقفين في حضرة الملك جيء أيضاً پستيمس ليتلى عليه حكم الإعدام . وفي هذا الوقت عينه أدخل بلاريس ومعه پليدور وكدول لينالا ما يستحقان من جزاء على ما أديا للملك بشجاعتهم من خدمات جليلة . وحضر هذا المشهد أيضاً پيزانيو ، وكان من أتباع الملك ومن رجال بلاطه .

اجتمع أمام الملك إذن في هذه اللحظة طائفة من الأفراد لكل منهم آماله ومخاوفه الخاصة به . وكان منهم پستيمس وإمجين مع القائد الروماني سيدها الجديد ، وكان منهم الخادم الأمين پيزانيو والصديق الغادر يشيمو ، وكان منهم ولدا

سمبلين الضائعان مع بلاريس الذى اختطفهما من أبيهما .
وكان القائد الرومانى أول من تكلم ، ووقفوا كلهم صامتين أمام الملك ،
ولكن معظمهم كان فى وجل ترتعد فرائضه فرقاً .

ورأت إمچين پستيمس وعمرته ، مع أنه كان يلبس ثياب القرويين ، أما هو
فلم يعرفها فى ثياب الفتیان ، وعرفت كذلك يشيمو ولحت خاتماً فى إصبعة تبينت
أنه خاتمها ، ولكنها لم تكن تعرف وقتئذ أنه سبب كل ما حل بها من شقاء ،
ووقفت هى أمام أبيها أسيرة حرب .

وعرف پيزانيو إمچين ، وكان هو الذى ألبسها ثياب الفتیان ، وقال فى نفسه :
« إنها لسيدتى بلاريب ، وما دامت هى على قيد الحياة فليكن بعد ذلك ما يكون
خيراً كان أو شراً » . وعرفها بلاريس وأسر إلى كدول قوله : « أليس هذا فتاناً
قد عادت إليه الحياة ؟ » . فأجابه كدول : « إن هذا الفتى الوسيم ذا الوجنة الوردية
ليشبه فيديل الميت كأنما شقا من نبعة واحدة » . وقال پليدور : « إنه هو قد عادت
إليه الحياة » . وقال بلاريس : « صه ، صه ! لو كان هو لتحدث إلينا من غير
شك » . وأجابه بلاريس : « صه ! » .

وظل پستيمس صامتاً ينتظر الحكم المرتجى بإعدامه ، واعتزم ألا ييوح للملك
أنه قد أنجاه من الموت ، لئلا يحرك ذلك عطف سمبلين فيعفو عنه .

وكان لوسيس القائد الرومانى الذى أخذ إمچين فى كنفه وجعلها خادماً له أول
من تكلم أمام الملك كما سبق القول ، وكان هذا القائد رجلاً ثابت الجنان مهيب
الطلعة ، وهاك ما قاله للملك :

« سمعت أنك لا تقبل الفداء من الأسرى بل تقضى بإعدامهم ، إني من بنى
الرومان وسألقى الموت بقلب كقلوب الرومانيين ، ولكن لى رجاء واحداً لا أرجو
سواه » . ثم جاء إمچين أمام الملك وقال : « إن هذا الفتى بريطانى المولد ، فاقبل
منه الفداء ، وهو خادى ولم أرفى حياتى عند سيد من السادة خادماً أشفق منه أو
أحرص منه على أداء واجبه ، أو أكثر منه نشاطاً أو أعظم منه إخلاصاً وحنوا .

إنه لم يسي قط إلى بريطانيا وإن كان قد خدم رومانيا . ولا أقل من أن تغفو عنه إن لم تغف عن أحد سواه .

ونظر سمبلين نظرة ثاقبة إلى ابنته إمچين ، غير أنه لم يعرفها وهي متنكرة في ثياب الفتیان . وكان الطبيعة قد حدثت قلبه حديثاً صامتاً فقال : « يقيناً لقد رأيته من قبل ، إنى لا أعرف وجهه ولست أدري كيف ولم أقول عش أيها الفتى ، ولكنى أهبك الحياة وأقول لك سل ما تشاء فسؤالك مجاب ، ولو طلبت العفو عن أشرف أسير في قبضة يدي » .

فأجابته إمچين : « أشكر لجلالتك هذا العطف في خضوع وإجلال » . وكان قولهم « سل ما تشاء » بمثابة وعد لمن واثاه ذلك الحظ بأن يجاب إلى شيء واحد يرجوه أيا كان شأنه . وسكت الكل ينتظرون ما يطلبه الفتى ، وقال له سيده لوسيس : « لست أرجو لنفسى الحياة أيها الفتى الكريم ، ولكنى أعرف أن هذا هو الذى ستطلبه إلى الملك » . فأجابته إمچين : « كلا ! مع الأسف الشديد ، إن لى مطلباً آخر أيها السيد الشريف ، وليس فى وسعى أن أطلب لك الحياة » .

وعجب القائد الرومانى من هذا الذى ظنه جحوداً . ثم صوبت إمچين نظرها إلى يشيمو ، ولم تطلب إلى الملك إلا أن يرغمه على أن يعترف بمصدر هذا الخاتم الذى يلبسه فى إصبعه . وأجابها سمبلين إلى طلبها وأنذر يشيمو بأشد أنواع العذاب إذا لم يدلهم على الطريقة التى حصل بها على خاتم الماس الذى فى إصبعه .

وعندئذ اعترف يشيمو بفعلته النكراء ، وقص عليهم قصة الرهان ، وأخبرهم كيف نجح فى حيلته بفضل سداجة پستيمس وسرعة تصديقه .

وليس فى وسع الإنسان أن يصف شعور پستيمس عندما سمع بأذنه هذا الدليل القاطع على براءة زوجته . وحسبنا أن نقول إنه تقدم من فوره ، واعترف أمام سمبلين بالحكم الصارم الذى أمر پيزانيو أن ينفذه فى الأميرة ، وصاح قائلاً : « ملكتى ، حياتى ، زوجتى ! إمچين ، إمچين ، إمچين » .

ولم يكن في طاقة إمچين أن ترى زوجها المحبوب في هذه المحنة ولا تكشف له عن أمرها ، ولشد ما سر يستيمس عند ما رفع عنه وزر الجريمة وعبء الحزن الثقيل ، واستعاد ما كان له من مكانة في قلب السيدة العزيزة التي قسا عليها في الأيام الماضية .

ولم يكن سرور سمبلين بوجود ابنته المفقودة بهذه الطريقة العجيبة أقل من سرور يستيمس ، فردها إلى مكانتها الأولى عنده ، وعاد حبه الأبوى إلى ما كان عليه من قبل ، ولم يكتف بالغفو عن يستيمس بل رضى به زوجاً لابنته .

واختار بلاريس هذه الساعة ، ساعة الرضا والسرور الشامل ، فأقر هو الآخر بذنبه وقدم إلى الملك پليدور وكدول ، وقال إنهما ولداه جيديريس وأرقراجس . وعفا سمبلين عن الشيخ بلاريس ، وهل كان في وسع إنسان أن يفكر في الانتقام في هذه الساعة ، ساعة السعادة الشاملة والسرور الذي لم يكن في الحسبان ؟ وهل كان يدور بخلد الملك أنه سيجد ابنته على قيد الحياة ، وأن ولديه سيدافعان عنه دفاع الأبطال ؟

وفي هذه الساعة وجدت إمچين الفرصة سانحة لخدمة مولايها السابق القائد الرومانى لوسيس ، فعفا الملك عنه بناء على طلبها ؛ وبفضل وساطة هذا القائد نفسه عقد الصلح بين الرومان والبريطانيين ، ودام هذا الصلح كثيراً من السنين . وحسبنا أن نشير هنا إشارة عارضة إلى ما كان من أمر الملكة الأثيمة زوج سمبلين . لم تفلح هذه الملكة في تنفيذ مكائدها ودسائسها ، وندمت على سوء فعالها فمضت وماتت بعد أن رأت ولدها الأحق كلوتن يقتل على أثر شجار أثاره بنفسه ، حسبنا أن نشير إلى هذا كله إشارة خاطفة ، لأن فيه مأسى لا يصح أن نكدر بها صفو هذه الهناءة الشاملة . لقد نال السعادة من هذا الجمع كل من كان جديراً بها ، وحتى يشيمو الخائن قد طرد دون أن يوقع عليه عقاب لأن مآربه الخبيثة لم تتحقق .

المملك لير

كان للملك لير ملك بريطانيا ثلاث بنات ، جنرل Goneril زوجة دوق ألبنى Albany ، وريجان Regan زوجة دوق كرنوول Cornwall ، وكرديليا Cordelia وهي شابة عذراء كان يتنازع حبها ملك فرنسا ودوق برجنديا Burgundia وكانا يقيمان لهذا السبب في بلاط لير .

وكان أبوهن قد جاوز الثمانين من عمره ، وهدت قواه الشيخوخة ومتاعب الحكم ، فقرر أن ينفذ يده من شؤون الدولة ، ليتولاهما من هم أقل منه سنا ، وأقدر منه على تصريف الأمور ، وليقضى ما بقي من أيام حياته في الاستعداد للموت الذي هو مدركه عما قليل ؛ ولذلك دعا إليه بناته الثلاث ليعرف منهن أمهن أكثر حبا له ، فيقسم مملكته بينهن بنسبة هذا الحب . وقالت كبراهن جنرل إنها تحب أباهما حبا تعجز عن التعبير عنه الألفاظ ، وإنه أغر عليها من نور عينيها ، ومن الحياة والحرية إلى غير ذلك من العبارات التي ينطق بها اللسان وليس لها سند من الحب الخالص ، بل هي ألفاظ جميلة ينقصها الإخلاص والوفاء . وسر الملك أن يسمع ابنته تؤكد له بنفسها هذا الحب الشديد ، وظن أنها تعبر بلسانها عما في قلبها ، فثارت في نفسه عاطفة الحب الأبوى ومنحها هي وزوجها ثلث مملكته الواسعة . ثم دعا إليه ابنته الثانية وسألها عما تقول . ولم تكن ريجان أقل من أختها فراغ قلب ، ولذلك لم تشأ أن تسبقها هذه الأخت في زلاقة الألفاظ وشقشقة اللسان ، فأجابت بأن ما قلته أختها يقصر عن التعبير عن الحب الذي تكنه لجلالته ، وأن ما يفيض به قلبها من الغبطة بحب مليكها وأبيها العزيز ليتضاءل أمامه كل ما عدها من غبطة وسرور .

فلما سمع الملك هذا القول حمد الله الذي وهبه ذرية طيبة تحبه هذا الحب الصادق في ظنه ، ولم يسعه بعد هذا التأكيذ إلا أن يمنحها هي وزوجها جزءاً من مملكته يعادل ما منح جنرل .

ثم التفت إلى كركديليا صغرى بناته ، التي كان يدعوها بهجته وسروره ، وسألها

ماذا عسى أن تقول ؛ وكان يظن من غير شك أنها ستسمعه مثل أختها من ألفاظ الحب ما يطربه ، بل كان يعتقد أن ألفاظها ستكون أقوى في التعبير عن هذا الحب ، لأنها كانت طوال حياتها أعز بناته وأقربهن إلى قلبه . ولكن كردليا اشمأزت من ألفاظ الملق التي فاهت بها شقيقتها ، وكانت تعرف أن قلبيهما لا يكتنان لأبيهما ذلك الحب الذي نطق به لسانهما ، وأن كل ما كانتا تبغيانه من أقوالهما المعسولة أن تسلبا أباهما الشيخ ملكه ، حتى تتمتعوا مع زوجيهما بسلطان الحكم في حياته . ولذلك لم تجبه بأكثر من قولها إنها تحب جلالته قدر ما يقضى به واجبها له لا أكثر منه ولا أقل .

وبهت الملك حين سمع ابنته المحبوبة تظهر أمامه بهذا الجحود ، فطلب إليها أن تفكر في ألفاظها وتصلح من قولها لئلا يسوء حظها .

فقالت كردليا لأبيها إنه هو أبوها الذي رباهما وأحبها ، وإنها تجزيه على ما فعل بخير ما يجب أن يجزى به ، فهي تطيعه وتجبه وتجله بالإجلال كله ، ولكنها لا تستطيع أن تحمل لسانها من الألفاظ الضخمة ما نطقت به أختها ، فتعده بأن لا تحب في الدنيا سواء ؛ وسألته لم تزوجت أختها إذا لم تكونا تحبان غير أبيهما كما تدعيان ؟ ثم قالت إنه إذا ما قدر لها أن تتزوج فإن من حق الرجل الذي تزوجه أن ينال نصف حبها ونصف رعايتها ونصف ما عليها من واجبات ، وإنها إذا كان لها ألا تحب غير أبيها فما أجدرها ألا تتزوج قط كما تزوجت أختها .

ولو سئلت كردليا في غير هذا الظرف عن مقدار حبها لأبيها الشيخ لعبت عن هذا الحب بألفاظ صريحة أدل عليه وأليق بالبنات عندما يخاطبن آباءهن ، ومن غير أن تضيف إلى قولها تلك العبارات التي لا تخلو من بعض الجفاء . وكانت في حقيقة أمرها تحب أباهما حباً لا يقل عما ادعته أختها ؛ ولكنها بعد أن سمعت منهما ألفاظ المكر والملق ، وعرفت ما عاد عليهما من هبات كريمة بلغت غاية السخاء ، رأت أن خير ما تستطيع أن تفعله هو أن تحب أباهما وأن تطوى على هذا الحب جوانحها ولا تحرك به لسانها ، فيكون حبها خالصاً لا ترقى إليه الشبهات ولا تبغى

به كسباً . وكانت ترى أن كلما كانت ألفاظها أبعد عن التظاهر كانت أكثر صدقاً وإخلاصاً من ألفاظ شقيقتها .

وكان الملك حتى في آخر أيامه لا ينفك يهتاج ويركب رأسه ، والآن وقد بلغ أرذل العمر فقد خرف وفسد عقله ، فلم يكن في مقدوره أن يتبين الصدق من الملق ، أو ألفاظ الرياء المزوقة من عبارات الوفاء والإخلاص . واستشاط الشيخ غضباً من صراحة ابنته التي سماها صلفاً وكبرياء ، ورجع عما كان يريد أن يخصها به من ملكه ، وقسم الثلث الباقي بين أختها وزوجيهما أميري ألبي وكرنول ، ودعا الأميرين إليه وخلع عليهما تاجه ونزل لهما في حضرة رجال بلاطه وكبراء دولته عن كل ما كان له من سلطان وخراج وتصرف في شؤون الدولة ، ولم يستبق لنفسه إلا اللقب ، أما سائر مظاهر الملك فقد نزل عنها لهما ولم يشترط عليهما إلا أن يكون مقامه في قصر ابنتيه بالتناوب شهراً عند هذه وشهراً عند تلك هو ومائة من فرسانه يستبقهم ليكونوا حاشية له .

وعجب رجال البلاط من تصرف لير في مملكته هذا التصرف العجيب الذي ملته عليه عواطفه ولم يحكم فيه عقله ، وحزنوا لذلك أشد الحزن ، ولكن واحداً منهم لم يجرؤ على أن يعارض الملك في ساعة غضبه إلا إيرل كنت Earl Kent ، فقد شرع يذكر كردليا بالخير أمام أبيها ، ولكن لير أمره في حدة وغيط ألا يثبت بينت شفته ، وإلا أمر بقتله . غير أن كنت لم يكن بالرجل الذي يهرب مثل هذا الموقف ؛ لقد كان طوال حياته وفياً للير ، يحمله إجلال الملوك ، ويحبه حب الآباء ، ويتبعه كالخادم ؛ ولم يكن يعرف لحياته قيمة إلا أنها درع يقي به مولاه من أعدائه ، ولا يتردد في أن يضحي بها إذا تطلبت ذلك سلامة لير ؛ وحتى في هذه الساعة التي أصبح فيها الملك ألد أعداء نفسه لم ينس هذا الخادم الوفي خلاله النبيلة ، بل وقف وقفه البطل في وجه لير ليفعل الخير للير ، ولم يخرجه عن أدبه إلا جنون لير . وكان كنت مشيراً أميناً للملك في أيامه الماضية فأهاب به في هذا الوقت أن يرى بعينه ويستمع إلى نصيحته كما كان يفعل من قبل في كثير من الأمور الخطيرة ، وأن يحزم أمره ويرجع عن خرقة الشنيع ؛ وقال إن ابنته الصغرى ليست أقل حبا

له من شقيقتها ، وإن الصوت الخافت لا يدل على عطل القلب من الحب ، كما أن ضعف الرنين لا يدل على فراغ الإناء ؛ ثم قال إنه يضمن بحياته صدق حكمه ، وإن صاحب السلطان إذا خضع الملق وجب أن يصارحه الرجل الشريف . ولم يكن تهديد لير ليؤثر فيه وهو الذى اعتاد أن يضحى بحياته فى خدمة مولاه ، لأن الواجب كان يدعوهُ ألا يضمن عليه بالنصح .

وتلهب الملك غيظاً من هذه الصراحة النبيلة ، وأمر هذا الخادم الأمين فى ساعة غضبه أن يخرج من مملكته ، ولم يممه إلا خمسة أيام يهيه فيها نفسه للرحيل ، فإذا وجد فى اليوم السادس داخل حدود بريطانيا كان هذا اليوم آخر أيام حياته . وكان لير بعمله هذا أشبه بالمريض الأحمق الذى يقتل الطبيب ويصطفى الداء الوبيل . وودع كنت الملك وقال له إنه إذا كان ذلك شأنه فإن البقاء معه هو النفى بعينه ؛ وقبل أن يغادر المكان أهاب بالآلهة أن تعنى بكردليا ، تلك الفتاة التى لم تضمر إلا الخير ولم تنطق بغير الصواب ، وتمنى أن تحقق أختها صدق دعواها الطنانة ، ثم خرج — على حد قوله — ليسلك مسلكه القديم فى بلد جديد ^(١) .

ودعى ملك فرنسا ودوق برجنديا ليستمعا إلى ما اعترمه الملك بشأن صغرى بناته ، وليعرف منهما هل يصران على خطبتهما لكردليا بعد أن استحققت غضبه وسخطه ، ولم يبق لهما ما يحبهما فيها إلا شخصها . فأما دوق برجنديا فأعرض عن خطبته وأبى أن يتزوجها على هذه الشروط ، وأما ملك فرنسا فإنه بعد أن عرف حقيقة جرمها الذى حرمها عطف أبيها ، وأيقن أن ذلك الجرم لم يكن إلا عجزها عن أن تنطق لسانها بمثل ما نطقت به أختها من ملق ورياء ، أخذ بيد الفتاة وقال إن مهرها هو فضائلها التى لا يعادلها ملك مهما عظم ، ثم أمرها أن تودع أختها وأبائها وإن قسا عليها ، وأن تستعد للذهاب معه لتكون ملكة عليه وعلى فرنسا الجميلة ، وتحكم بلاداً أبهى مما تحكم أختها ، وقال لدوق برجنديا فى ازدراء إن حبه لهذه الفتاة قد نصب معينه فى لحظة وجيزة .

(١) أو ليقضى أيام الشيخوخة فى بلد جديد — كما يقول بعض الشراح . (المترجم)

ثم ودعت كردليا أختيها والدمع يفيض من عينيها ، وطلبت إليهما أن تحبا أباهما جزاء ما أفاض عليهما من ملك واسع . فأجابتهما الأختان في أنفة ألا تولى عليهما ما تفعلان ، لأنهما أعرف منها بواجبهما ، وأن عليهما أن تعمل لاسترضاء زوجها « الذي تصدق عليها بقبولها » كما قال لها في سخرية وازدراء . وغادرت كردليا قصر أبيها حزينة كاسفة البال لأنها كانت تعرف ما تضرره أختها من مكر وخبت ، وتمنت أن يرزق والدها صدوراً أحن عليه من صدرى أختيها اللتين توشك أن تتركة بينهما .

ولم تكذ كردليا تغادر القصر حتى بان الخفاء وظهر ما في طبيعة الأختين من خبت . وقبل أن ينقضى الشهر الأول الذي اتفق أن يقيمه لير في قصر جنرل كبرى بناته بدأ الملك يدرك الفرق بين القول والعمل . فبعد أن حصلت هذه الابنة الدنيئة من والدها على كل ما تستطيع أن تحصل عليه منه حتى تاج رأسه ، بدأت تستكثر عليه ما احتفظ به من بقايا الملك التافهة ليخدع بها نفسه فيظن أنه لا يزال ملكاً . فلم تكن تطيق رؤيته هو وفرسانه المائة ، وكلما لقيته تجهمتته وظلت عابسة الوجه كاشرة ، فإذا أراد الشيخ أن يكلمها تمارضت أو انتحلت من المعاذير ما تتخلص به من رؤيته ، وأصبح غير خاف على أحد أنها تعد أباه الشيخ عبئاً لا خير فيه ، وتعد ما ينفق على حاشيته إسرافاً لا ضرورة له . ولم يكن كل ما لقيه هذا الشيخ أن تظهر هي نفسها عدم اكتراثها به وتوانيتها في القيام بواجبها نحوه ، بل إن خدمها قد اقتدوا بها ، ولعلمهم قد تلقوا في السر أو امرها ، فأخذوا يهملون شأنه ويفعلون أوامره ، أو يفعلون ما هو أبلغ من هذا في احتقاره ، وهو التظاهر بعدم سماع قوله . ولم يخف على لير ما طرأ على سلوك ابنته من تبدل ، ولكنه أغضى عنه أطول ما استطاع الإغضاء لأن الناس يستنكفون في العادة أن يصدقوا ما تجره عليهم أغلاطهم وعنادهم من سوء العاقبة .

لكن الحب والإخلاص لا يذهب بهما سوء المعاملة ، كما لا يفيد حسن الصنيع في كسب قلوب الخونة الغادرين ؛ وتظهر هذه الحقيقة بأجلى مظاهرها في إيرل كنت ، فقد أخرجه لير من بلده ، وأباح دمه إذا وجد في أرض بريطانيا ، ولكنه فضل

أن يبقى في تلك البلاد ويعرض نفسه لجميع الأخطار ، لعل فرصة تتاح له لخدمة مولاه الملك ؛ وما أكثر ما يقاسى الأوفياء المساكين حين يضطرون إلى التنكر والظهور بمظهر الذلة والمهانة ، ولكنهم لا يرون في ذلك عاراً ياحقهم إذا كانوا بعملهم هذا يوفون بحق من أحسن إليهم . ومن أجل ذلك تزيها هذا الأمير الطيب القلب بزى الخدم ، وخلع كل مظاهر العظمة والأبهة ، وعرض نفسه على الملك . ولم يعرف الملك حقيقة أمره ، ولكن أعجبه في إجابته شيء من الصراحة ، أو على الأصح شيء من الخشونة ، يختلف عن الملوك والدهان وزلافة اللسان التي عافتها نفسه بحق بعد أن رأى فعال ابنته . وسرعان ما اتفقا على أن يأخذ لير إيرل كـنت في خدمته ، وكان الاسم الذي اختاره كـنت لنفسه هو كيس Caius ، ولم يدر في خلد الملك أن كيس هو نفسه إيرل كـنت القوي العظيم أحد كبار رجاله المقربين .

وسرعان ما أتاحت الفرصة لكيس ليظهر حبه وإخلاصه لمولاه الملك ، ذلك أن أستاذ بيت جنرل أبدى في ذلك اليوم بمظهره ومقوله شيئاً من الاستخفاف بالملك ، ولا شك في أن سيده هي التي شجعتة على ذلك سراً ، فلم يطق كيس صبراً على هذه الإهانة التي لحقت بسيده ، ولم يكن منه إلا أن عرقب الخادم الوقح وألقى به في مجرى الماء القذر . وكانت هذه الحادثة سبباً في ازدياد تعلق الملك بكيس وإعزازة له ولم يكن كـنت صديق لير الوحيد ، بل كان ممن لازمه بعد أن نزل عن ملكه وخلع التاج عن رأسه شخص آخر وضع الشأن هو مضحكه أو مهرجه كما كان الناس يسمونه . وكان هذا المهرج أحد أفراد حاشية الملك أيام أن كان للملك حاشية . ذلك أنه كان من عادة الملوك والعظماء في تلك الأيام الماضية أن يحتفظ كل منهم بمضحك له أو مهرج يسليه ويذهب عنه عناء العمل . وقد أظهر هذا المهرج الحقيق الشأن من الإخلاص لسيده ما كان في وسع رجل مثله أن يظهره ، وكان يسليه ويذهب عنه الكآبة بمرحه وفكاهته ؛ على أنه كان في بعض الأحيان لا يستنكف أن يهزأ بسيده ويندد بسقم رأيه لما أن خلع التاج عن رأسه ونزل عن ملكه

لابنته « فانهمرت من عيونهما في تلك الساعة دموع الفرح وغنى هو حزناً على عبث الملك وبلايته » (١).

وبهذه الأقوال الغريبة والأغاني الكثيرة القصيرة كان هذا المهرج المرح الشريف يفرغ كل ما في قلبه من الاستهزاء واللوم الشديد الذي كان يحز في القلوب ؛ ولم يكن يخشى أن يفعل ذلك في حضرة جنرل نفسها ، فقد كان مثلاً يشبه الملك بالعصفور الذي أخذ يطعم صغار الغراب ، فلما كبرت الصغار جرت العصفور على حسن صنعه بقطع رقبتة ؛ وذكر له مرة أن الحمار قد يعرف متى تجر المركبة الحصان (يعنى بذلك أن ابنتي لير اللتين كان عليهما أن تسيرا خلف أبيهما تتقدمان عليه الآن) . وقال مرة أخرى إن لير لم يبق هو لير ، بل أصبح خيال لير . وقد توعده الملك مرة أو مرتين أن يجزيه على هذه المرأة بالضرب .

ولم يكن الفتور وذهاب الهيبة اللتان أخذ لير يشاهدتهما في كل وقت كل ما قدر لهذا الأب المحب الأخرق أن يلاقيه من ابنته الجاحدة ، فقد أخبرته بصريح العبارة أن مقامه في قصرها يضايقها ما دام يصبر على الاحتفاظ بحاشيته الكبيرة المؤلفة من مائة فارس عديمي النفع كثيरी الكلفة ، ولا عمل لهم إلا أن يملأوا القصر بصخبهم وسوء سلوكهم ، ثم طلبت إليه أن ينقص عددهم وألا يبقى حوله إلا نفرًا من أمثاله الشيوخ الذين يليقون بسنه .

ولم يصدق لير أول الأمر ما كان يرى ويسمع ، بل كان يشك في أن ابنته هي التي تخاطبه بهذه اللجة القاسية ، لأنه لم يك يعتقد أن هذه الابنة التي وهب لها التاج تعمل على إنقاص حاشيته ، وتستكثر عليه أن ينال من الإحترام ما هو خليق بشيخوخته ؛ ولكنها حين شاقّت أباه وأصرت على طلبها ، احتاج الشيخ وقال إنها حدأة ممقوتة ، وإن ما اتهمت به فرسانه كذب صريح . والحق أنها كانت في ذلك كاذبة ، لأن فرسانه المائة كانوا كلهم من صفوة الناس ذوى العفة والأخلاق الكريمة ، لا يخفى عليهم شيء من آداب اللياقة ، ولا يميلون إلى الصخب وسوء السلوك كما تقول . ثم أمر لير أن تسرج له الخيل ليذهب هو وفرسانه المائة إلى

ابنته الثانية ريجان Regan ، وأخذ يصف الجحود ويقول إنه شيطان قد قلبه من الصخر ، وإنه أبشع ما يكون منظرًا في الأبناء ، وشرع يستنزل على ابنته الكبرى من اللعنات ما تستك منه المسامع ، ودعا عليها أن تبقى عقيمًا محرومة من الأبناء ، فإذا رزقت البنين عاشت حتى تلقى على أيديهم من الاحتقار والاستهزاء ما لقي أبوها على يديها ، حتى تعلم أن جحود الأبناء أحد من أسنان الأفعى .

ولما أراد دوق ألبي زوج جنرل أن يبرى نفسه مما عساه أن يتهمه به لير من الاشتراك في هذه القسوة ، لم يعره لير سمعه ، بل أمر وهو في شدة الغيظ أن تسرج خيله ، وخرج من فوره هو وأتباعه إلى قصر ابنته الثانية ريجان . وبدأ لير يستصغر ذنب كردليا (إن كان ما فعلته ذنبًا) ، إذا قيس بما ارتكبتها أختها ، وتحذرت الدموع من عينيه ؛ ولكنه عاد إلى نفسه وعز عليه أن يكون لفتاة مثل جنرل من القوة ما تتغلب به على رجولته ، وتستنزل الدمع من عينيه .

وكانت ريجان وزوجها يعيشان في قصرهما عيشة راضية منعمة ، وأرسل لير مع خادمه كيس Caius رسائل إلى ابنته ينبئها بقدمه لتستعد لاستقباله ، وسافر هو وحاشيته في أثره . ولكن يلوح أن جنرل قد سبقته إلى العمل ، فأرسلت هي الأخرى رسائل إلى ريجان تتهم فيها والدها بالعناد وسوء الخلق ، وتنصحها ألا تقبل الحاشية الكبيرة التي سيأتي بها معه . ووصل هذا الرسول في نفس الوقت الذي وصل فيه كيس ، والتقى الرسولان ؛ ومن أغرب المصادفات أن يكون رسول جنرل هو عدو كيس القديم أستاذ الدار الذي عرقبه كيس حين أساء الأدب إلى لير . واستاء كيس من نظرة الرجل إليه ، وحذر الغرض الذي جاء من أجله ، فأخذ يكيل له السباب ، ودعاه إلى المبارزة ؛ فلما رفض الدعوة ثار كيس عليه ثورة شريفة ، وانهال عليه ضرباً موجعاً جزاء له على جبنه وسوء فعله وما يحمله من رسائل . وسمعت ذلك ريجان وزوجها فأمرت أن توضع رجلاه في المقطرة مع علمها أنه رسول أبيها الملك ، وأنه من أجل ذلك يستحق كل إكرام . وبذلك كان أول ما وقعت عليه عين الملك حين دخل القصر هو خادمه الأمين كيس جالساً هذه الجلسة المزرية .

وكان هذا نذيراً من أسوأ النذر بما سيلقاه هو من المعاملة ؛ ثم أعقبه نذير آخر أبلغ منه في الدلالة حين سأل عن ابنته وزوجها ، فقيل له إنهما متعبان من سفرهما طول الليل ، وإنهما لا يستطيعان أن يقابلاه ؛ ولما أصر وهو مغضب حانق على أن يراها وجاء آخر الأمر إليه دهش أعظم دهشة حين رأى معهما جنرل ، وقد جاءت لتقص بنفسها قصتها ، وتثير غضب أختها على أبيها الملك !

وآلم ذلك المنظر قلب الشيخ وأغص طرفه ، وزاد ألمه حين رأى ريجان تأخذ بيدها ، فسأل جنرل ألا تستحي أن تنظر بعينها إلى لحيته البيضاء ؟ فنصحته ريجان أن يعود مع جنرال إلى قصرها وأن يعيش معها في سلام ، بعد أن يخرج من خدمته نصف حاشية ، وأن يعتذر إليها عما فرط منه ، وذلك لأنه شيخ تنقصه الحكمة ، ولأن من واجبه أن يخضع لمن هم أنفذ منه بصيرة ويسلمهم زمامه . وقال لير إن أبعد الأشياء عن العقل أن يخرج على ركبتيه ويستجدي ابنته الطعام واللباس ؛ وعارض في هذا الخضوع المقلوب ، وأعلن أنه مصمم على ألا يعود معها ، وعلى أنه اعترم أن يبقى هو وفرسانه المائة مع ريجان ، لأنها في رأيه لم تنس بعد نصف ملكه الذي وهبه لها ، ولأن عينيها لا تشعان القسوة والبغضاء كما تشعهما عينا جنرل ، بل تبدوأن أحسن عليه وأشفق . وأضاف إلى ذلك قوله إنه لا يستطيع أن يعود إلى جنرل بعد أن يسرح نصف حاشيته ، وإن أفضل من ذلك لديه أن يذهب إلى فرنسا ويطلب إلى ملكها معاشاً له من ماله وإن كان قد تزوج ابنته الصغرى من غير مهر .

ولكن الملك أخطأ حين قدر أن ريجان ستكون أشفق عليه من جنرل وأحسن منها معاملة ، وكأنما أرادت هاتين البنيتين أن تبر كلتاها أختها في سوء مسلكها مع أبيها ، فأعلنت ريجان أنها تستكثر عليه خمسين فارساً ، وأنه يكفيه منهم خمسة وعشرون . فكاد لير يصعق من هول ماسع والتفت إلى جنرل وقال إنه سيعود معها لأن خمسين تبلغ ضعف خمسة وعشرين ، وعلى هذا الحساب فإن حبها يعدل ضعف حب ريجان . ولكن جنرل اعتذرت عن عدم قبوله ، وقالت « وما حاجتك إلى خمسة

وعشرين بل إلى عشرة أو خمسة وفي وسع خدمي أو خدم أختي أن يقضوا حوائجك؟» وكان كلتا البنيتين العاقبتين كانت تنافس أختها في القسوة على والدهما الشيخ الذي أحسن إليهما ، وتعمل على طرد حاشيته كلها شيئاً فشيئاً ، لتسلبه بذلك كل ما بقي له من مظاهر الاحترام التي تذكر الناس بأنه كان في وقت ما ملكاً متوجاً ؛ وما أقل هذه المظاهر على رجل كان بالأمس صاحب الأمر والنهي في مملكة واسعة . نعم إن الحاشية الكبيرة ليست من مستلزمات السعادة ، ولكن الانتقال من أبهة الملك إلى ذلة العدم ، ومن السلطان على ملايين الخلق إلى الافتقار إلى فرد واحد من الأتباع ، أمر صعب على النفس موجه لها . ولم يكن الشيء الذي ألم قلب هذا الملك البائس وأخشع طرفه ما سوف يعانيه بعد طرد حاشيته ، بل كان جحود ابنتيه العاقبتين وقسوتهما . وكان من أثر هذه القسوة وأسفه على سفاهته وحمقه ونزوله عن ملكه ، كان من أثر هذا كله أن اختلت موازين عقله ، وأقسم أنه وإن لم يدر الآن ما سوف يفعل ، سينتقم من ابنتيه السليطتين العاقبتين انتقاماً تروّع له الدنيا بأجمعها .

وبينا كان هذا الشيخ الضعيف يهدد ابنته بما لا يقوى على فعله ، أقبل الليل وعصفت بالبلاد عاصفة هوجاء فيها رعد وبرق ومطر ، وأصرت ابنتاه على ألا تسمحا لأحد من رجاله بالبقاء معه ، فطلب خيله وآثر أن يلقي الريح العاتية في العراء على أن يظله هو وابنتيه الجاحدتين سقف واحد . وقالت ابنتاه إن ما يجلبه المتفتتون من الأذى على أنفسهم هو الجزاء الحق لهم على عنادهم ، وتركته يخرج على هذه الحال وغلقتا دونه الأبواب . واشتد عصف الرياح وزاد هطول الأمطار حين خرج الشيخ ليكافح عناصر الطبيعة الفاضية ، ولكنه كان يراها أرحم من ابنتيه . ولم يكن في الأرض التي حوله على مدى عدة أميال منه عشب يتقى به غضب الطبيعة ، فأخذ يضرب في القفار المحيطة به ، معرضاً جسمه الهزيل للعاصفة الهوجاء ، يتحدى الرياح والرعد والبرق في هذا الليل البهيم . ثم أمر الريح أن تعصف حتى تكتسح الأرض وتلقيها في اليم ، أو تقذف الأرض بأمواج البحر حتى تغرقها ولا يبقى عليها أثر للإنسان ذلك الحيوان الكنود . ولم يبق مع الملك وقتئذ

من الرفاق إلا المهرج المسكين الذى ظل فى صحبته يحاول أن يخفف بفكاهته المرحه ما يحيط به من بؤس وشقاء ، كقوله إن تلك الليلة المشؤمة لا يمكن السباحة فيها ، وإن خير ما يفعل الملك أن يعود إلى ابنتيه ويطلب إليهما أن تدعوا له بالخير ، وإن من كان فى رأسه شئ من العقل وشاهد عصف الرياح وهطول المطر فعليه أن يرضى بما قسم له وإن ظل المطر يهطل عليه فى كل يوم ، وأقسم المهرج أن تلك الليلة من أصلح الليالى لكسر زهو السيدات .

وعلى هذه الحال من قلة الرفاق عثر على هذا الرجل البائس ، الذى كان من قبل ملكاً عظيماً ، خادمه الأمين إيرل كنت الكريم الذى تسمى الآن باسم كيس والذى أبى أن يفارق الملك ، وإن كان الملك لم يعرف أنه إيرل كنت . فلما تلاقيا قال له الإيرل « أسفى عليك يا مولاي !! أنت هنا والخلائق التى تحب الليل تكره أمثال هذه الليالى ؟ إن هذه العاصفة الهوجاء قد دفعت الوحوش إلى مساكنها ، وإن فطرة الإنسان لأضعف من أن تحتمل هذا العذاب وهذا الهول » . ولألمه لير على ذلك وقال له إن الذى يشكو الداء الويل لا يشعر بما هو أقل منه إيلاًماً لجسمه ، وإن البدن لا يجد متسعاً من الوقت يحس فيه ويتأثر إلا إذا كان العقل هادئاً مطمئناً ، وإن العاصفة التى تعصف بقلبه قد سلبت حواسه كل شعورها ، إلا ذلك الشعور الذى يضطرم فى قلبه ، وأخذ يتحدث عن عقوق الأبناء ، وقال إنه أشبه بالفم يمزق اليد التى ترفع إليه الطعام ، لأن الآباء كالأيدى والطعام وكل شئ للآبناء .

لكن كيس الطيب القلب ظل يلح على الملك ألا يبقى فى العراء ، وما زال به حتى أقنعه بالدخول فى كوخ صغير قائم فى تلك البقعة الموحشة . ودخله المهرج أولاً ولكنه عاد من فوره وهو يرتعد فرقا ويقول إنه وجد عفريتاً ، فلما استطلعوا جلية الأمر تبين لهم أن العفريت المزعوم ليس إلا متسولاً مسكيناً من بدلم Bedlam آوى إلى هذا الخوص المهجور ليتقى به العاصفة ، وأخاف المهرج بحديثه عن الشياطين ؛ وهو واحد من أولئك الفقراء المجانين أو الذين يتصنعون الجنون ليستدروا بذلك العطف والصدقات من أبناء الريف ؛ وهو يسمون أنفسهم تم

Tom المسكين وترلى جود Turlygood المسكين ويطوفون القرى ينادون « ألا من يحسن تم المسكين » ويغرسون في أذرعهم الدبابيس والمسامير والشوك لينزف منها الدم . وبهذه الفعال الخيفة ، وباللدعات تارة وباللعنات الجنونية تارة أخرى ، يستدرون عطف أهل الريف السذج ، أو يقذقون الرعب في قلوبهم ، فيتصدقون عليهم . كان هذا الرجل المسكين من أولئك القوم ورآه الملك على هذه الحال من البؤس والشقاء ، لا يستر جسمه إلا قطعة من غطاء حول وسطه ، فأيقن أن هذا الشخص التعس أب وهب لبناته كل ما ملك ، فأورد نفسه هذا المورد ، وكان الملك يظن أن الإنسان لا تنزل به مثل هذه المصائب إلا إذا كانت له بنات جاحدات .

واتضح لكيس الرحيم من هذه الأقوال الغريبة وأمثالها أن الملك قد جن ، وأن سوء المعاملة التي لقيها من إبنتيه قد ذهب بعقله حقاً . وظهر عندئذ ولاء إيرل كنت العظيم فيما أدى للملك من خدمات جليلة تفوق كل ما استطاع من قبل أن يؤديه له ، فقد استعان وقتئذ بجماعة من أتباع الملك الذين ظلوا على ولائهم له فنقله عند مطلع فجر اليوم التالي إلى قصر دوثر Dover ، وكان له في هذا المكان بوصفه إيرل كنت كثير من النفوذ وعدد عظيم من الأصدقاء . ثم سافر بعد ذلك إلى فرنسا ، وأسرع إلى بلاط كрдليا ووصف لها حال أبيها الملك وصفاً مثيراً ، وأنبأها بما لقيه من أختيها من القسوة وسوء الفعال ، فقامت من فورها إلى زوجها الملك والدمع يفيض من عينيها ، وطلبت إليه أن يأذن لها بالذهاب إلى إنجلترا ومعها حملة قوية لتخضع بها أختيها الجاحدتين وزوجيهما ، وترجع أباها الملك إلى عرشه . ولما أذن لها بذلك سارت على رأس الجيش حتى نزلت عند دوثر .

واستطاع لير أن يفلت من الحراس الذين وضعهم عليه إيرل كنت ليعنوا به في جنته ، وأخذ يجوس خلال الحقول القريبة من دوثر وهو في حال من البؤس يرثى لها ، فقد ذهب عقله وشرع يغنى لنفسه بصوت عال ، وعلى رأسه تاج من القش والحسك وغيرها من الأعشاب البرية ، جمعها من مزارع القمح في تلك

الأنحاء ، ووجد به بعض أتباع كردليا على هذه الحال . وكانت كردليا شديدة الرغبة في رؤية أبيها ولكن الأطباء أشاروا عليها بأن تؤجل لقاءها به حتى تهدأ سورتها بتأثير النوم وفعل الأعشاب البرية ؛ وما لبث الملك أن أصبح في حالة تمكنه من رؤية ابنته ، وذلك بفضل هؤلاء الأطباء المهرة الذين وعدتهم كردليا بكل ما لديها من ذهب وجواهر إذا استطاعوا أن يردوا إلى الملك الشيخ عقله .

وكان منظراً مؤلماً حقاً منظر لقاء الأب وابنته ، منظر الكفاح القائم بين سرور الملك الشيخ المسكين برؤية ابنته العزيزة مرة أخرى ، وخجله مما تحيطه به من شفقة وحب بنوى ، وهو الذي نبذها لنسب صغير ظن في ساعة من ساعات غضبه أنها ارتكبتة . وكانت هاتان العاطفتان مجتمعتين تصطرعان مع بقايا مرضه الذي كان ينتاب عقله العليل من حين إلى حين ، فلا يذكر أين هو أو من هو ذلك الشخص الحنون الذي يقبله ويتحدث إليه ؛ ثم يعود فيرجو ممن معه ألا يسخروا منه إذا كان مخطئاً في ظنه أن هذه السيدة هي ابنته كردليا . ثم يجثو الشيخ على ركبتيه ليعتذر لابنته عن فعلته ؛ وهذه الفتاة الطيبة راكعة طوال الوقت تطلب إليه أن يدعو لها بخير ، وتقول له إنه لا يليق به أن يركع لأن الركوع واجب عليها ، فهي ابنته كردليا ما في ذلك شك . ثم تقبله لتمحو بقبلائها ، على حد قولها ، عقوق أختها ؛ وتقول إنهما ستشعران بالخزي حين تذكر أنهما قد أخرجا أباهما الشيخ الرحيم ذا اللحية البيضاء من دارها ونبذاه في العراء ؛ ولو أنها هي قد عضها كلب عدو لها لآوته في مثل تلك الليلة بجوار موقدها لتدفئته . ثم ذكرت لأبيها أنها أقبلت من فرنسا لتقدم له العون ، وقال هو لها إن عليها أن تنسى وتعفو لأنه شيخ مأفون لا يدري ما يفعل ، وكل ما يعلمه علم اليقين أن من حقها ألا تحبه ، أما أختها فلا تجدان ما يبرر بغضهما له ، وأجابته كردليا بقولها إنها ليس لديها سبب يدعو إلى بغضه ، فهي وأختها في ذلك سواء .

ولندع الآن هذا الشيخ في حماية ابنته المحبة البارة التي استعانت هي وأطبائها بالنوم والدواء حتى استطاعت آخر الأمر أن تعيد إلى حواسه الهدوء والانسجام

بعد أن اضطربت وساءت حالها من فعال ابنتيه وقسوتهما . لنذع الآن هذا الملك الشيخ لنقول كلمة أو اثنتين عن ابنتيه العاقبتين .

إن هاتين الابنتين اللتين يتمثل فيهما الجحود بكل ما فيه من فظاعة لم يكن ينتظر منهما أن تكونا وفيتين لزوجيهما بعد أن خانتا أباهما ؛ وسرعان ما ملت كلتاهما حتى مظاهر الحب والاحترام التي كانت تتظاهر بها لزوجها ، وأظهرت علناً أنها تحب غير هذا الزوج . واتفق أن كان هذا الحب الإجرامى لشخص واحد يدعى إدمند Edmund وهو ابن غير شرعى لإيرل جلستر السابق ، وقد أفلح بدسائسه ومكائده فى انتزاع الإرت من أخيه إدجر Edgar الوارث الشرعى ، فأصبح هو إيرل جلستر . وكان بما انطوت عليه نفسه من خبث وخسة أجدر الناس بحب جنرل وريجان الخبيثين الدنيئتين . وحدث أن توفى فى ذلك الوقت دوق كورنول زوج ريجان فأعلنت من فورها عزمها على أن تزوج بإيرل جلستر ، وأثار ذلك غيرة جنرل التى كان هذا الرجل الخبيث قد تظاهر بحبها صراحاً كما تظاهر بحب أختها . واستطاعت جنرل أن تتخلص بالسهم من شقيقتها ، ولكن أمرها افتضح فزجها زوجها دوق ألبنى فى السجن جزاء لها على جرمها وخيانتها له بحبها إيرل جلستر ، وكان قد بلغ نبأ هذا الحب مسامعه . وانتابها بسبب خيبتها فى حبها وافتضاح أمرها نوبة من الغضب قضت بيدها فى أثنائها على حياتها ، وهكذا نفذت فى الاثنتين عدالة فى السماء .

وبينا عيون الناس كلهم تتطلع إلى هذا الحادث وتعجب بالعدالة التى تجلت فى هذه الخاتمة الخليقة بهما وبسوء فعالها ، إذا بهذه الأعين تتحول فجأة من هذا المنظر لترى فى دهشة وحيرة ما وقع لكردليا الفتاة الطاهرة النقية التى كانت فضائلها جديرة بخير من خاتمتها المحزنة . ولكن من الحقائق المروعة أن الطهر والتقوى لا تنالان الخير فى هذا العالم على الدوام ، فلقد انتصرت الجيوش التى سيرتها جنرل وريجان بقيادة إيرل جلستر الخبيث ، وقضت كردليا حياتها فى السجن بتدبير هذا الرجل الشرير الذى لم يكن يريد أن يحول شئ بينه وبين العرش الذى يطمع فيه ، وصعدت روح هذه الفتاة الطاهرة إلى السماء وهى فى

عنقوان شبابها ، بعد أن رأى فيها العالم أروع مثل من طاعة الأبناء وحبهم آباءهم ، ولم تطل حياة لير بعدها كثيرا .

وظل الرجل الكريم إيرل كنت في خدمة مولاه الملك لم يفارقه من يوم أن أساءت إليه ابتداء حتى قضى نحبه ، وحاول في آخر ساعاته أن يدلّه على أنه هو نفسه خادمه الأمين كيس الذي لازمه في أيام محنته ، ولكن لير لم يستطع لخباله أن يدرك كيف يكون كنت وكيس شخصاً واحداً ، ولذلك رأى كنت أن من العبث أن يثقل عليه في ذلك الوقت بمثل هذه الأقوال . فلما قضى لير نحبه أثر الحزن في نفس هذا الشيخ الهرم فلم يعيش بعد مولاه إلا قليلا .

ولا حاجة بنا إلى أن نقص على القارىء كيف نفذت العدالة الإلهية حكمها في إيرل جلستر الغادر ، بعد أن افترض أمره وعرفت خيانتة ، فقتله أخوه الإيرل الشرعى في البراز بيده ، وكيف اعتلى عرش إنجلترا بعد موت لير دوق ألبنى زوج جنرل الذى لم تكن له يد في موت كردليا ، والذى لم يشجع قط زوجته في قسوتها على أبيها ، لا حاجة بنا إلى أن نقص هذا كله على القارىء لأن الذى يهمنى في هذه الصحف هو أخبار لير وبناته ، وقد مات لير وماتت بناته .

مكبث

فى الوقت الذى كان فيه دنكن Duncan الوديع ملكا على اسكتلندة كان يعيش فى تلك البلاد عظيم من النبلاء يدعى مكبث Macbeth . وكان هذا النبيل من أقارب الملك ، وكانت له فى بلاطه مكانة عظيمة كسبها بشجاعته وبأسه فى الحروب ، وكان آخر ما أظهره من ضروب الشجاعة عندما هزم جيشاً لجباً من العصاة يساعده جنود من بلاد النرويج .

وكان طريق القائدين الاسكتلنديين مكبث وبنكو Banquo وهما عائدان ظافرين من هذه الحرب العوان يمر بفلاة جرداء ؛ وبينما هما سائران فيها إذ اعترضتهم ثلاثة أشباح شبيهة بالنساء ، غير أمهن ذوات لحي ، وكانت لمن جلود ذابلة متغضنة وملابس غريبة ، فكن لذلك بعيدات الشبه عن الخلائق الآدمية . وخطبهن مكبث أولاً فأظهرن استياءهن من خطابه ، ووضعت كل واحدة منهن إصبعها المشققة على شفها الذابلة طالبة إليه السكوت .

وحيت أولاهن مكبث ونادته باسم شريف جلامس Glamis ؛ ودهش القائد أيما دهشة حين رأى هذه المخلوقات تناديه باسمه ، فلما أن زادت الثانية على تحية أختها بأن سمته شريف كودر Cawdor بلغ عجبه غايته لأنه لم يكن له فى هذا اللقب الثانى مطمع . ثم تقدمت الثالثة وحيته بقولها : « مرحباً بملك المستقبل » وكانت هذه النبوءة خليقة أن تحير هذا القائد الذى لم يكن له أمل فى الجلوس على العرش ما دام للملك أبناء من صلبه . ثم التفتت هذه المخلوقات إلى بنكو وقلن له ملغزات فى كلامهن إنه أقل من مكبث وأعظم ، وأشقى منه وأسعد ، وتنبأن له بأن أبناءه سيكونون ملوكا على اسكتلندة وإن لم يجلس هو على عرشها ، ثم استحلن هواء واختفين عن الأنظار ؛ وعرف القائدان وقتئذ أمهن ساحرات .

ووقف القائدان يفكران فى هذا الحادث العجيب ، وإذا برسل قادمين من عند الملك ، وقد عهد إليهم أن يخلعوا على مكبث لقب شريف كودر . ودهش

مكبت إذ رأى هذا الحادث يؤيد تأييداً عجيباً ما تنبأت به الساحرات ، فوقف كالمكسور في ذرعه لا يحير جواباً . وفي هذه اللحظة عينها أخذت الآمال تجيش في صدره ، وبدأ يرجو أن تتحقق أيضاً نبوءة الساحرة الثالثة ، فيجلس على عرش اسكتلندة يوماً من الأيام .

ثم التفت إلى بنكو وقال له : « ألسنت ترجو أن يمسي أبناؤك ملوكا ، وقد تحقق ما وعدتني به الساحرات على هذا النحو العجيب ؟ » . فأجابه القائد : « إن هذا الأمل قد يغريك بالتطلع إلى العرش ، ولكن هاتيك الساحرات رسل الظلام كثيراً ما يصدقننا في الصغائر ليدفعننا إلى أعمال عظيمة الخطر وخيمة العواقب » . غير أن ما وسوست به الساحرات الخبيثات قد استولى على عقل مكبت وملك عليه تفكيره ، فأصم أذنيه عن سماع نصيحة بنكو الأمين وتحذيره ، وأخذ من ذلك الحين لا يفكر إلا في السبيل التي توصله إلى عرش اسكتلندة .

وكان لمكبت زوجة أسر إليها نبوءة الساحرات العجيبة وما تحقق منها ؛ وكانت هذه الزوجة شريرة طموحة لا تبالى إذا ما وصلت هي زوجها إلى العظمة أى السبيل تسلكانها إليها ، فأخذت تمحرض مكبت وتغريه ، ولكن مكبت ظل متردداً لأنه كان يشعر بوخز الضمير حين يتمثل له منظر الدم المراق ؛ أما هي فظلت تردد على مسامعه قولها إن قتل الملك أمر لا بد منه لتحقيق النبوءة .

وكان من عادة الملك أن يزور كبار رجال دولته إظهاراً لتواضعه وعطفه عليهم ؛ واتفق أن جاء في ذلك الوقت يحف به ولداه ملكم Malcolm ودنلبين Donalbain وحاشية كبيرة من النبلاء والأتباع مبالغة منه في تكريم مكبت جزاء ما ناله من نصر في الحروب .

وكان قصر مكبت Macbeth ذا موقع جميل ، وكان الهواء من حوله منعشاً لطيفاً كما تدل على ذلك كثرة الأوكار التي بناها طير السنونو في طنف القصر وأسانيده البارزة وفي كل مكان صالح لبنائها ؛ وقد شوهد أن الهواء يكون على الدوام منعشاً لطيفاً حيث تبني هذه الطيور أوكارها . ودخل الملك القصر مسروراً معجباً به وبما لقيه من ربة الدار السيدة مكبت من عناية وتعظيم ؛ وكانت هذه

السيدة بازعة في إخفاء ما تنتويه من غدر وراء ستار من البسات اللطيفة ، كما كان في مقدورها أن تظهر كالزهرة البريئة ومن تحتها الأفعى السامة الميته .

وكان الملك متعباً من مشاق السفر ، فأوى إلى فراشه في أوائل الليل ، وأعدت له حجرة نخمة نام فيها ، ونام بالقرب منه رجلان من خاصة حاشيته كما كانت عادة الملوك في تلك الأيام .

وكان قد سره حسن استقباله فأنعم قبل أن يأوى إلى فراشه بعدد من الهدايا على كبار ضباطه ، وكانت السيدة مكبث ممن تمتعوا بعطفه ، فقد بعث إليها بماسة غالية ولقبها باسم أكرم مضيضة له .

وانتصف الليل وخيم على نصف الكون سكون شامل كأنه الموت ، وبدأت تنتاب عقول النائمين أحلام خبيثة ، وخلا الفضاء إلا من الذئاب والقتلة . وفي ذلك الوقت استيقظت السيدة مكبث لتأتمر بالملك وتدبر قتله ؛ وما كانت هي لتقدم على هذا الجرم الشنيع الذي يتنافى مع أنوثتها لولا أنها كانت لا تثق بطبع زوجها ، فقد كانت تعرف أن فيه من الرحمة الإنسانية ما يمنعه من الإقدام على القتل غيلة . لقد كانت تعرف أنه طموح ، ولكنها كانت تعرف أنه حي الضمير لم يعد نفسه بعد إلى ارتكاب هذا الجرم الشنيع الذي يلزم الطموح المفرط . وكان قد وافقها على ارتكاب الجرم ، ولكنها كانت غير مطمئنة إلى صدق عزمته ، وتخشى أن تحول رقة قلبه بينه وبين غرضه ، ومن عجب أن يكون هو أراف منها وأرحم . ولذلك أقبلت نحو سرير الملك والخنجر في يدها ، وكانت قد حرصت على أن تسكر خادميه بالنبيذ ، فناما لا يعيان شيئاً ، وأهملا ما عليهما من واجب . وكان دنكن غارقاً في نومه على أثر ما عاناه من مشاق السفر ، وتأملت وجهه وهو نائم فرأته شبيهاً بعض الشبه بوجه أبيها ، ولم تجد في قلبها من الجرأة ما يمكنها من الإقدام على تنفيذ إرادتها .

فعادت لكي تشاور زوجها ، فوجدت عزمته قد أخذت تخور ، وظهر له من الأسباب القوية ما يمنعه من الإقدام على هذا العمل . فلم يكن هو من رعايا الملك فحسب ، بل كان أيضاً من أقاربه الأقربين ؛ والملك في ذلك اليوم ضيف مقيم في

داره ، ومن حق الضيف على مضيفه أن يدفع عنه من يريد قتله لا أن يأخذ السكين بيده ليقته ؛ ثم تذكر أن دنكن ملك عادل رحيم لم يسي قط إلى شعبه ، محب لأعيان أمته وبخاصة له هو نفسه ، وأن العناية الإلهية تحرس أمثاله من الملوك ؛ وأن من أوجب الواجبات على رعاياهم أن يثأروا لمقتلهم ؛ يضاف إلى هذا كله أن مكبث منزلة عالية في نفوس طوائف الشعب بأجمعها لما بينه وبين الملك من قرابة وما له عنده من مكانة ، فكيف يليق به أن يدنس هذا الشرف بذلك الغدر الذميم ؟

وأقبلت السيدة مكبث فوجدت هذه العوامل تتنازع عقل زوجها ، ورأته أميل إلى الخير ، معترماً أن يقف عند هذا الحد ، وكانت هي من النساء اللاتي لا ينثنين بسهولة عما يعتزمه من فعل الشر ، فبدأت تلقى على مسامعه من الألفاظ ما أثر في نفسه وأوحى إليه بشيء من روحها ؛ وأخذت تنتحل له من الأسباب ما يوجب عليه عدم النكوص عن عزمه ، فالعمل سهل لا صعوبة فيه يتم في طرفه عين ، يفرغ منه في ليلة واحدة قصيرة ، ولكنه يضع في أيديهما أزمة الملك والسلطان طوال لياليهما وأيامهما المقبلة ؛ ثم شرعت تستهزئ بتردده وتهمه بالتذبذب وخور العزيمة ، وقالت إنها قد أرضعت من ثديها أبناء ، وإنها تعرف ما ينطوى عليه قلب الأم من حب لطفلها الذي أرضعته ، ولكنها لا تتردد في أن تنتزع هذا الطفل من صدرها وهو يبسم في وجهها وتقتله بيدها إذا كانت قد أقسمت أن تفعل هذا من قبل كما أقسم هو أن يقتل دنكن . وأضافت إلى ذلك أن من السهل أن تعزى الجريمة إلى الخادمين الثملين النائمين في مخدع الملك . وما زالت به تقلبه بين الذروة والغارب حتى أزال خور عزمته ، فاستجمع قواه استعداداً لتنفيذ جرمه الشنيع ، وأخذ الخنجر بيده وتسلسل إلى الحجرة الظلماء التي ينام فيها دنكن . وخيل إليه وهو سائر في طريقه أنه يرى في الهواء خنجراً آخر ويده متجهة نحوه ، وعلى يده وفي طرفه نقط من الدماء ؛ ولما حاول أن يقبض عليه بيده لم يجده شيئاً ولم يمسك إلا بالهواء ، لأن الخنجر لم يكن إلا صورة موهومة صورها له مخه المستعر المثقل ، والعمل الذي كان مقدماً عليه .

ثم سكن روعه وتقدم نحو الملك وقضى عليه بطعنة واحدة من خنجره ؛ وفي الساعة التي كان يطعن فيها دنكن بخنجره ضحك أحد الخادمين النائمين في مخدع الملك وهو مستغرق في نومه ، وصاح الآخر قائلاً « قتل » فاستيقظ كلاهما ولكنهما لم يزيدا على أن تليا دعاء قصيراً ، فقال أحدهما « اللهم بارك لنا » وقال الآخر « آمين » ، ثم غشيتهما النعاس مرة أخرى . ووقف مكبث يستمع إليهما ، وحاول أن يؤمن على دعاء أولهما حين قال « اللهم بارك لنا » ، ولكن اللفظ لم يطاوعه فلم يستطع إخراجه ، وإن كان في شدة الحاجة إلى طلب البركة من الله . ثم خيل إليه أنه سمع صوتاً يناديه : « لاتم بعد الآن . إن مكبث يقتل النوم ، النوم الهادئ البريء الذي يعين على الحياة » ، وظل الصوت يردد في جميع نواحي الدار « لاتم بعد الآن لقد قتل جلامس الموت ، ولن ينام كودر بعد الآن ، ولن ينام مكبث بعد الآن » .

وعاد مكبث إلى زوجته تنتابه هذه الخيالات المروعة ، وقد بدأت تظن أنه عجز عن تنفيذ عزمه ، وأن شيئاً قد حال بينه وبين قصده ؛ وأقبل عليها في حال من الرعب لا توصف ، فأخذت تؤنبه على ضعفه ، وأرسلته ليغسل الدم الذي كان يلوث يديه ، وأخذت منه الخنجر لتلطخ بدمه خدود الخادمين حتى يستطيع إلصاق التهمة بهما .

وأصبح الصباح وكشفت الجريمة ، ولم يكن من المستطاع إخفاؤها . وتظاهر مكبث وزوجته بالحزن الشديد ، وكانت الأدلة قوية على الخادمين ، فقد كان الخنجر شاهداً عليهما ، وكان وجه كليهما ملوثاً بالدماء ؛ لكن الظنون كلها كانت تحوم حول مكبث لأن هناك مغريات تدفعه إلى هذا العمل أقوى مما تدفع الخادمين البائسين ، اللذين لا ينالان من وراء هذا الجرم شيئاً . وفر ولدا دنكن في تلك الساعة ، فلجأ ملكهم أكبرهما سناً إلى بلاط إنجلترا ، وفر أصغرهما دنلبين إلى إيرلنده .

ولما خلا العرش بفرار ابني دنكن اللذين كانت لهما ولاية الملك بعد أبيهما آل الملك لمكبث ، فتزوج وتحققت نبوءة الساحرات برمتها ؛ وبلغ مكبث وزوجته

ما كانا ينبغيان من مرتبة سامية ، ولكنهما لم ينسيا نبوءة الساحرات التي قلن فيها إن مكبث سيصبح ملكا ولكن أبناءه لن يكونوا ملوكا ، بل سيلبس التاج من بعده أبناء بنكو . وأخذا يفكران في هذا وفي أنهما قد لطحيا أيديهما بالدماء ، وارتكبا ما ارتكبا من الجرائم الشنعاء ، لكي يجلسا على العرش أبناء بنكو ، فأورثهما هذا التفكير غيلاً ما زال يغلي في صدريهما حتى اعترضا أن يقتلا بنكو وولده ليبطلا نبوءة الساحرات التي تحققت في حالما بقضها وقضيضها .

وأقاما لهذا الغرض وليمة كبرى دعيا إليها أكابر رجال الدولة بأجمعهم ، وكان ممن دعوه بنكو وابنه فلينس Fleance ، واختصا هذين الشريفين بأكبر قسط من الرعاية والإكرام . وأرصد مكبث القتلة على طول الطريق الذي كان بنكو سيسلكه إلى القصر ليلا ، وأفلح هؤلاء في قتل بنكو ، ولكن ابنه فلينس استطاع أن ينجو بنفسه في أثناء المهرج الذي ساد عقب مقتل أبيه ؛ ومن نسل هذا الابن تعاقب على عرش إسكتلندة عدة ملوك كان آخرهم جيمس السادس James VI ملك إسكتلندة وهو بعينه جيمس الأول James I ملك إنجلترا ، وفي عهده توحد تاج الملكتين .

وأظهرت الملكة في أثناء العشاء من اللطف ودماثة الخلق وحמיד الشيم والعناية بالمدعوين ما أرضى جميع الحاضرين ؛ وأخذ مكبث يسامر رجال الدولة ونبلاءها بحديثه الودى ، ويقول إن قصره قد حوى الآن كل ما هو عظيم ونبيل ، ولا ينقصه إلا صديقه الكريم بنكو . وزاد على ذلك أنه يرجو أن يلقاه فيلومه على تقصيره ، وألا يحزن على ضريحه . وما كاد يفرغ من قوله هذا حتى دخل الحجر طيف بنكو الذي عمل على قتله ، وجلس الطيف على المقعد الذي أوشك مكبث أن يجلس عليه . وكان مكبث رجلاً جريئاً رابط الجأش لا يرهب الشيطان نفسه ، ولكنه حين رأى هذا المنظر البشع امتقع لونه ووقف مبهوتاً خائر القوى يحدق ببصره في الطيف . ولم تر الملكة ولا النبلاء شيئاً إلا الملك شاخصاً ببصره نحو المقعد الذي رأوه خالياً ، فظنوا أن مليكهم قد أصابته نوبة من الدهول ؛ وأخذت الملكة تؤنبه وتهمس في أذنه قائلة له إن الذي أصابه هو نفس

الوهم الذى صور له الخنجر فى الهواء حين همّ بقتل دنكن . ولكن مكبث ظل يرى الطيف أمامه ، ولم يعبأ بشيء من أقوالهم ، وأخذ يناديه بألفاظ مشوشة حائرة ولكنها عظيمة الدلالة . وخشيت الملكة أن يفتضح أمرها فبادرت من فورها إلى فض الوليمة ، وشيعت الأضياف معذرة إليهم بأن مكبث قد أصابه اضطراب تعود أن ينتابه الفينة بعد الفينة .

وصارت هذه الرؤى المزعجة تنتاب مكبث حقاً ، فأصبح هو وزوجته عرضة للأحلام المروعة . ولم تكن دماء بنكو التى لوثا بها أيديهما أكثر إزعاجاً لهما من هرب ولده فلينس ، فقد رأيا فيه أباً لطائفة من الملوك سيحولون بين أبنائهما وبين العرش ؛ وأقلقته هذه الأفكار بالهما ونغصت عليهما حياتهما ، فجد مكبث فى طلب الأخوات الساحرات ليعرف منهن أسوأ ما يستطيع معرفته .

وذهب يطلبهن فى كهف فى الفلاة ، وعرفت الأخوات بسحرهن أنه آت إليهن ، فعكفن على إعداد رقائق المرعبة يستحضرن بها الأرواح الجهنمية لتكشف لهن عما فى ذمة المستقبل . وكن يستخدمن لهذا الغرض خليطاً من الضفادع والوطاويط والأفاعى ، وعين ورل ولسان كلب وساق ضب وجناح بومة الليل وقشر تنين وسن ذئب ومعدة فرس البحر الملح النهم وجيفة ساحرة وجذر نبات الشوكران السام (ولا يكون لهذا الجذر أثره إلا إذا اقتلع فى الظلام) ، وعرارة عنزة وكبد يهودى وقطعا من شجرة سرو نابتة فى القبور وإصبع طفل ميت . وقد جمعت هذه الأشياء كلها ووضعت على النار فى وعاء كبير ، وكلما اشتدت حرارتها برّدت بدماء قرد ، وصب على هذا كله دم خنزيرة أكلت صغارها ، وألقى فى اللهب الدهن الذى يسيل من المشانق . هذه هى الرقى التى كن يرغمن بها الأرواح الجهنمية على الإجابة عن أسئلتهن .

وسئل مكبث هل يرغب فى أن يزلن شكوكه بأنفسهن ، أو أن يزيلها له سادتهن الأرواح . ولم يرغب الملك ما شاهده من مراسم مروعة ، فأجابهن فى غير وجل « وأين تلك الأرواح ؟ إنى أريد أن أراها » . فدعتها الساحرات وخرج إليه منها ثلاثة كان أولها فى صورة رأس مسلح ، ونادى مكبث باسمه ، وأمره أن يأخذ

حذره من شريف فيف Fife ؛ فشكر له مكبث هذه النصيحة ، لأنه كان في خبيثة نفسه يخشى مكدف شريف فيف .

وظهر الروح الثانى فى صورة طفل مضر ج بالدماء ، ونادى هو الآخر مكبث باسمه ، وأمره ألا يخشى شيئاً بل يضحك ويهزأ بقوة بنى الإنسان ، فلن يكون لابن أنثى قدرة على إيذائه . ثم نصح له أن يكون سفاحاً جريئاً ذا عزيمة ماضية . فلما سمعه الملك قال لنفسه « إذن فعش يا مكدف فلا حاجة لى بأن أخشاك ، ولكنى مع ذلك سأزيد المؤكد تأكيده حتى أقول للخوف المنخوب القلب إنك كاذب ، وأنا م رغم الرعود والبروق » .

ثم انصرف هذا الروح وظهر روح آخر فى صورة طفل على رأسه تاج وفى يده شجرة ، ونادى مكبث باسمه وأراح باله من عواقب المؤامرات ، وقال إنه لن يغلبه غالب حتى تسير عليه غابة برنم Birnam ، وتنتقل من موضعها إلى تل دنسبين Dunsibane . فصاح الملك من شدة الفرح « ما أحلى تلك النبوءات ، إنها لتبشر بالخير ؛ فهذا الذى يستطيع أن يقتلع الغابة من أصولها الثابتة فى مغارسها ويحركها ؟ سأعيش إذن من الأيام بقدر ما يعيش الناس ولن يفتالنى مقاتل ؛ ولكن قلبى يتحرق شوقاً لمعرفة شىء واحد ، هل فى مقدور سحر الساحرات أن ينبئنى أيحكم أبناء بنكو هذه المملكة ؟ » وفى هذه اللحظة ابتلعت الأرض الوعاء ، وسمعت نغمات موسيقية ، ومرت أمام بنكو ثمانية أطيايف فى صورة الملوك ، ومن ورائهم بنكو وفى يده زجاجة تترأى فيها أطيايف أخرى كثيرة . فلما مر بنكو وهو مضر ج بالدماء أمام مكبث ، ابتسم له وأشار إلى هذه الأطيايف ، فأدرك مكبث أنهم أبناء بنكو الذين سيحكمون بلاد إسكتلندة من بعده . ثم علت فى الجو أصوات موسيقية رقيقة ، ورقصت الساحرات كأنهن يحيين مكبث ويظهرن له إجلالهن ، ثم توارين عن الأنظار . ومن ذلك الحين فطئت نفس مكبث وسقم ضميره ، ولم يعد يفكر إلا فى القتل والدماء .

وكان أول ما سمعه بعد خروجه من كهف الساحرات أن مكدف شريف فيف قد فر إلى إنجلترا ، لينضم إلى الجيش الذى كان يتجمع فيها برياسة ملكهم الأكبر

أبناء الملك القليل ، ليخضع مكبث ويُجلس ملككم الوارث الشرعى على عرش إسكتلندة . وغلت مراحل الغيظ فى قلب مكبث عندما سمع هذا النبأ ، فسار من فوره إلى قصر مكدف وقتل زوجه وأطفاله الذين خلفهم الشريف وراءه ، وأعمل السيف فى رقاب كل من يمتنون إلى مكدف بصله مهما كانت بعيدة .

ونفرت هذه الجرائم وأمثالها قلوب أعيان البلاد من مكبث ، واستطاع جماعة منهم أن يغادروا موطنهم وينضموا إلى ملككم ومكدف ، وكانا فى ذلك الوقت يسيران على رأس جيش قوى جهزاه فى إنجلترا . وأما من بقى منهم فكانت قلوبهم مع الفارين تدعو لهم بالنصر ، وإن لم يكن فى وسعهم أن يقوموا بعمل إيجابى لخوفهم من مكبث . وتجمعت جيوش مكبث تجمعا بطيئا ، فقد كان كل من فى البلاد يبغض هذا الطاغية ، ولم يكن فيها من يحبه أو يحمله ، بل كانوا على بكرة أبيهم لا يأمنون له . وبدأ يحسد دنكن الذى قتله هو بيده ، والذى نال منه الغدر أسوأ ما يبتغيه ، فهو الآن ينام مطمئنا فى قبره ، لا تستطيع الأسنة أو السم أو حقد القلوب فى داخل البلاد أو الجيوش القادمة من خارجها أن تمسه بأذى .

وبينا كانت هذه الحوادث جارية قضت الملكة نجبها ، وقال الناس إنها قتلت نفسها ، لأنها لم تستطع أن تصبر على كره الناس وتأنيب الضمير . وكانت الملكة وحدها شريكة مكبث فى آثامه وجرائمه ، وكان فى وسعه أحيانا أن يلجأ إلى صدرها يجد فيه بعض الاطمئنان والراحة من تلك الأحلام المزعجة التى كانت تروعهما جميعا فى كل ليلة . ماتت وتركته وحيدا فى هذا العالم ، لا يرى فيه من يحبه أو يعنى به ، ولا يجد صديقا يفضى إليه بمقاصده الأثيمة . وسئم الملك الحياة وتمنى الموت ، ولكن اقتراب جيوش ملككم أثار فى نفسه ما بقى فيها من بأس قديم ، فاعتزم أن يموت وورعه فوره ظهره .

وكانت الوعود الجوفاء التى منته بها الساحرات قد ملأت قلبه ثقة باطلة ؛ وتدكر كذلك قول الأرواح إنه لن يصيبه من ابن أنثى مكروه ، وإنه لن يغلب حتى تنتقل غابة برنم إلى دنسبين ، وهذا فى ظنه لن يكون ، فتحصن فى قصره ، وكان من المناعة بحيث يستطيع مقاومة الحصار ؛ وبقى فى داخل القصر كئيبا

ينتظر قدوم ملككم . وفيما هو كذلك إذ دخل عليه في يوم من الأيام رسول ممتنع الوجه ، ترتعد مفاصله من شدة الخوف ، ولا يكاد يقوى على أن يحدث الملك بما رأى . ثم استطاع أن يتكلم ، وأكده أنه وهو واقف في موضع حراسته تطلع نحو برنم فبدا له كأن الغابة قد أخذت تتحرك . فأجابه مكبث وهو غاضب « إنك وغد كاذب ، وإذا كنت تكذب في قولك فلا صلبك حياً في جذع أقرب شجرة إليك حتى تقضى نحبك من الجوع ، أما إذا كانت قصصتك صادقة فإني لن أبالي إذا فعلت بي أنت مثل هذا الفعل » . وبدأت غزيرة مكبث تخور ، وأخذ يشك في أقوال الأرواح المبهمة اللتوية . ألم تقل له ألا يخاف حتى تنتقل غابة برنم إلى دنسبين ؟ وها هي ذى الغابة قد تحركت . وقال في نفسه « إذا كان ما يقوله صحيحاً فلنحمل سلاحنا ونخرج للقتال ، إذ لا مفر لنا من هذا المكان ولا بقاء لنا فيه ، لقد بدأت أمل الحياة وأرجو أن تنقضى أيامي » . وخرج وهو يردد هذه الأقوال وأمثالها للهجوم على المحاصرين الذين بلغوا في ذلك الوقت أسوار القصر . ولم يكن المنظر الغريب الذي ظنه الرسول غابة تتحرك بالذى يصعب فهمه ؛ وجلية الأمر أنه لما مر الجيش بغابة برنم في طريقه لمحاصرة القصر ، عمل ملككم ما يعملهم القائد المحنك ، فأمر جنده أن يقطع كل منهم غصن شجرة ويحمله أمامه ، حتى لا يعرف العدو عدة جيشه . ولاح سير الجنود من بعيد وهم يحملون الغصون كأن الغابة تتحرك ؛ ذلك هو المنظر الذي ألقى الرعب في قلب الرسول ، وتحققت به نبوءة الروح على معنى يخالف ما فهمه منها مكبث ، وزال سبب من أسباب ثقته واطمئنانه .

وحدثت في تلك الساعة مناوشة شديدة ، أظهر فيها مكبث شجاعة وبأساً ، ولم يكن حوله إلا عدد قليل من أولئك الذين كانوا يسمون أنفسهم أصدقاءه ، ولكنهم كانوا في الحقيقة ييغضونه لاستبداده وظلمه ، ويميلون بقلوبهم إلى جانب ملككم ومكدف . ولم يزل مكبث يصارع الأعداء ويفتك بكل من يلقاه حتى أقبل على مكدف ، فلما رآه وذكّر قول الروح له أن يأخذ من مكدف حذره ، أراد أن يولى الأدبار ، ولكن مكدف الذي كان يبحث طول الموقعة عنه اعترض سبيله ؛

وتصادم البطلان وحى وطيس القتال بينهما ، وأخذ مكدف يعنف قرنه ويصفه بأقبح الأوصاف لقتله زوجته وأبناءه . وكان مكبث ينوء بوزر من قتل من أفراد تلك الأسرة فأراد مرة أخرى أن ينكص عن القتال ، ولكن مكدف أخذ يستثير غيظه ويدعوه ظالماً سفاحاً وكلباً ذئباً .

وعاد إلى ذاكرة مكبث قول الروح إنه لن يصيبه ابن أنثى بأذى ، فابتسم ابتسامة الواثق وقال لمكدف « عبثاً تحاول يا مكدف ، فلأن تمزق بسيفك هذا الهواء أسهل لك من أن تسفك قطرة من دمي ، إن لي حياة مُحَصَّنة لا يمسه ابن أنثى بسوء » ، فرد عليه مكدف بقوله « لا تركن بعد إلى هذه الرقيه ، وسَلَّ الروح الكاذب الذي أسلمته زمام أمرك ينبئك أن مكدف لم تلده أنثى كما تلده النساء الرجال ، بل أخرج من بطن أمه ولما يحن يوم مولده » .

وقال مكبث وهو يرتعد فرقاً ، وقد انقطع آخر سبب من أسباب أمله : « ألا لعنة الله على ذلك اللسان الذي ينطق بهذا ، ونصيحتي إلى الناس في المستقبل ألا يصدقوا أقوال الساحرات الملتبسة الغامضة ، وعبارات الأرواح الملتوية التي تخدعنا بألفاظها المزدوجة المعنى ، فتصدق في وعدّها حين نستمسك بحروفها ، ثم يتبدل معناها فيقضى على آمالنا ؛ إني لن أقاتلك » .

فأجابه مكدف في سخرية لازعة : « إذن فعش ، وسنعرض صورتك أمام الناس كما تعرض صور الوحوش النادرة ، مرسومة على لوحة قائمة فوق عمود ، وقد كتب عليها هنا يرى الناس الظالم المستبصر » .

وعادت إلى مكبث شجاعة المستبصر فقال « لا ، لن يكون ذلك أبداً . لن أعيش لأقبل الأرض بين قدمي الفتى ملككم وتصبّ على لعنات السوقه ، سأجرب حظي للمرة الأخيرة حتى بعد أن انتقلت غابة برنم إلى دنسبين ووقفت أنت أمامي يا من لم تلدك أنثى » ، قالها وقد ملي غيظاً وحقدًا ، وألقى بنفسه على مكدف ، واستعر القتال بينهما ، وتغلب عليه مكدف آخر الأمر وجز رأسه وقدمها هدية منه إلى الشاب ملككم الملك الشرعي . وتولى ملككم الحكم بعد أن وقفت في سبيله أعمال ذلك المعتصب الباغي زمنًا طويلاً ، وجلس على عرش دنكن الوديع بين تهليل الشعب والنبلاء واعتباطهم الشديد .

إن الأمور بخواتيمها

(كل ما انتهى بخير فهو خير)

ورث برترم Bertram كنت روزين Count Rousillon لقبه ومزارعه من زمن قليل على أثر وفاة أبيه . وكان ملك فرنسا يحب والد برترم ، فلما سمع بوفاة أرسل إلى ولده يستدعيه إلى بلاطه في باريس من فوره ، ليشمله بعطفه وحمايته ، وفاء لعهد المصداقة التي كانت بين الملك وبين الكنت المتوفى .

وكان برترم يعيش مع أمه أرملة الكنت المتوفى حين قدم لافيه Lafeu ، أحد كبار رجال البلاط الفرنسي ، ليصحب برترم إلى قصر الملك . وكان ملك فرنسا يحكم البلاد حكماً مطلقاً ، فكان إذا دعا أحداً للمثول بين يديه وجه إليه الدعوة في صورة قرار ملكي أو أمر صريح ، لا يستطيع إنسان في البلاد أياً كان قدره أن يعصيه ؛ ولذلك لم تجرؤ والدته على أن تطلب تأجيل السفر يوماً واحداً ، بل أمرته بالرحيل لساعته ، وإن كان فراق ولدها العزيز قد آلمها بقدر ما آلمتها وفاة زوجها الذي وارتبه الثرى من زمن قليل . وحاول لافيه الذي جاء لاستدعاء ولدها أن يخفف من لوعتها ويواسيها في فقد زوجها وفراق ولدها المفاجئ ؛ وقال وهو يثنى على الملك بلغة أصحاب الملوك إنها ستجد في جلالته زوجاً لها وأباً لولدها ؛ ولم يكن يقصد بهذا القول بطبيعة الحال إلا أن الملك الكريم سيعطف على برترم ويعني بأمره . وأخبر لافيه الكنتنة أن الملك يعاني آلام المرض ، وأن أطباءه قد قرروا أن داءه عضال لا يرجى له شفاء . وأظهرت السيدة شديد حزنها عند ما سمعت نبأ مرض الملك ، وقالت إنها تتمنى لو أن والد هلنا Helena (وهي فتاة من أتباعها كانت حاضرة معها في ذلك الوقت) كان حياً ، إذن لاستطاع من غير شك أن يشفي جلالة الملك من مرضه . ثم قصت على لافيه شيئاً من تايخ هلنا فقالت إنها ابنة الطبيب الذائع الصيت جرارد ده نربن Gerard de Narbon ، وإنه لم يعقب سواها ، وإنه عهد إليها بابنته وهو على فراش الموت ، وإنها من تلك الساعة قد أخذت هذه الفتاة

في كنفها وتحت رعايتها . ثم أخذت تثني على أخلاق هلنا وعفتها وفضائلها ، وقالت إنها ورثت هذه الصفات عن والدها العظيم . وكانت هلنا في خلال هذا الحديث صامته تذرف الدمع حزناً وكهداً ، فأخذت الكنتة تلومها في رفق لاستسلامها للحزن على موت أبيها .

وودع برترم والدته ، وفارقت الأم ولدها العزيز والدمع ينهمر من عينيها ، وقلبها يُشيعه بدعواتها الصالحة ، وأوصت به لافيه خيراً ، وقالت له : « أي سيدي العزيز كن له نعم المشير ، فإنه لم يستعد بعد ليكون من أصحاب الملوك » . ووجه برترم آخر كلماته إلى هلنا ، ولكنها لم تكن تريد على تحية وداع تمنى لها فيها السعادة ، وختم وداعه لها بقوله : « آنسى سيدتك والدتي ، وقديرها حق قدرها » .

وكانت هلنا تحب برترم من زمن بعيد ، ولما أخذت تبكي وهي حزينه صامته لم تكن الدموع التي تذرفها حزناً على جرارده نزين . نعم إن هلنا كانت تحب أباه ، ولكن قلبها في تلك الساعة كان يخفق بحب أقوى وهو حب من سيفارقتها بعد قليل ، فأنساها صورة أبيها الميت وملاحه ، ولم ترتسم في مخيلتها وقتئذ إلا صورة برترم وحده .

وأحبت هلنا برترم من زمن بعيد ، ولكنها كانت تذكر على الدوام أنه كنت روزين سليل أعرق الأسر في فرنسا كلها ، وأنها هي من أسرة وضيعة لا يعرف الناس عن أبويها شيئاً ؛ أما برترم فقد ورث آباؤه المجد كبراً عن كابر ، ولذلك كانت تنظر إليه نظرتها إلى سيدها العزيز عليها ، ولم تكن تطمع في أكثر من أن تبقى خادمة له ، وأن تظل من أتباعه حتى تموت . ولاح لها بعد ما بين عظمتها وفقرها فكانت تقول لنفسها : « لا فرق بين أن أحبه وأن أحب نجماً ساطعاً في السماء وآمل أن أتزوجه . ألا ما أعظم الفرق بيني وبينه ! » .

وأثر بعد برترم في نفسها ، فأفاض الدمع من عينيها وملاً قلبها حسرة . نعم إنها كانت تحبه حب اليأس ، ولكن وجوده بالقرب منها تقع عينيها عليه في كل ساعة كان يسرى همها ويريح بالها ، وكانت تجلس طويلاً تتأمل عينيها السوداوين ،

وحاجبيه المقوسين وليات شعره الجميل ، كأنها تريد أن تنقش صورته على شفاف قلبها ، ذلك القلب الذى يستطيع أن يحتفظ بجميع قسمات هذا الوجه المحبوب .
ولما مات جرار ده نربن لم يترك لابنته ما تمهر به إلا وصفاً لأدوية نافعة مجربة هدته إليها دراسته العميقة وتجاربه الطويلة فى علم الطب ، مفعولها أكيد لا يكاد يخطئ ؛ وكان من بينها دواء وصفه بأنه ناجع يفيد فى شفاء العلة التى أضنت الملك فى ذلك الوقت . فلما سمعت هلنا بمرض الملك ، وكانت فى ذلك الوقت فتاة وضيعة معدومة الرجاء ، بدأت تعظم آمالها ، وفكرت فى الذهاب إلى باريس لتعالج الملك من دائه . على أنه لم يكن يتوقع أن يشق الملك وأطبائوه بهذه الفتاة الجاهلة المسكينة إذا عرضت عليهم أن تقوم بعلاجه ، وذلك لاعتقادهم أن داء الملك عضال لا يرجى له شفاء . ولم يكن يرجى أن يفيدها وقتئذ وجود هذا الدواء العجيب فى حوزتها ، لكن أملها فى النجاح ، إذا سمح لها بأن تجرب الدواء ، لاح لها فى ذلك الوقت أقوى حتى مما يبرره حذق أبيها ، وإن كان فى حياته أشهر أطباء عصره ، وذلك لأنها كانت قوية الإيمان بأن هذا الدواء قد هيأته لها الأقدار ليكون هو الوسيلة التى ترفع منزلتها ، حتى تبلغ تلك المكانة العالية التى تؤهلها لأن تكون زوجاً للكننت روزين .

وقبل أن يمضى على غياب برترم وقت طويل جاء أستاذ الدار إلى الكنتة ، وأخبرها أنه سمع هلنا تحدث نفسها حديثاً ، فهم من بعض عباراته أنها تحب برترم وأنها تفكر فى اللحاق به إلى باريس . فصدقت الكنتة أستاذ دارها ، وشكرت له أن أفضى إليها بهذا النبأ ، وطلبت إليه أن يبلغ هلنا رغبتها فى التحدث إليها . وأعاد لها حديث أستاذ الدار عن هلنا ذكرى أيامها الخالية ، ولعلمها الأيام التى بدأ فيها حبها لوالد برترم ، فقالت لنفسها : « لقد كان هذا شأنى فى أيام شبابى ، إن الحب شوكة فى ورد الشباب ، وإذا ما نشأنا نشأة طبيعية عادية فلا مفر لنا من ارتكاب هذا الخطأ ، وإن كنا لا نعرف وقتئذ أننا نرتكب خطأ » . وبينما كانت الكنتة تفكر فيما وقعت فيه أيام شبابها من أخطاء محبة ، دخلت عليها هلنا فقالت لها : « هلنا ، إنك تعرفين أننى أم لك » ، فأجابتها بقولها : « إنك سيدتى الجليلة » . فقالت لها

الكننة مرة أخرى : « إنك ابنتي ، وإنني والدتك ، لماذا تفرعين من هذا ؟ ولم امتنع لو نك عندما سمعت هذه العبارة ؟ » فأجابت هلنا وهي مبروعة مرتبكة ، تخشى أن يكون نبأ حبها برترم قد تسرب إلى ظن الكننة : « عفواً يا سيدتي ، إنك لست أمي ، وليس الكنت روزين أخي ، ولست أنا ابنتك » ؛ فقالت الكننة : « ولكنك يا هلنا قد تكونين كنتي ، ولعل هذا ما ترغبين فيه ، ولذلك تضطرين لسماع لفظي أم وبنت ؛ أصدقيني يا هلنا أتحبين ولدي ؟ » فأجابت هلنا وهي خائفة مرتاعة : « عفواً يا سيدتي الكريمة » . فسألتها الكننة مرة أخرى : « أتحبين ولدي ؟ » فأجابت هلنا : « ألت تحبينه يا سيدتي ؟ » فقالت لها الكننة : « لا تراوغي في الجواب ، تعالى واكشفي لي عن مكنون عواطفك ، لأن حبك لم يبق منه شيء خافياً » . وعندئذ جثت هلنا على ركبتيها واعترفت بحبها ، وسألت سيدتها الكريمة في خجل ورعب أن تغفو عنها ، وأكدت لها بألفاظ تم عما تشعر به من فرق عظيم بينها وبين برترم إنه لا يعرف شيئاً عن هذا الحب ، وقالت إنها في حبها الذي لا أمل لها في تحقيقه لتشبه الهندي الحقيق الذي يعبد الشمس وهي تطل عليه من مكانها العالي في السماء ، ولا تعرف عنه شيئاً ؛ وسألتها الكننة ألم تعترم أخيراً أن تذهب إلى باريس ؟ وأقرت هلنا بما دار في خلدها حين سمعت لافيه يتحدث عن مرض الملك ، فقالت لها الكننة : « وهل كان هذا قصداً من الذهاب إلى باريس ؟ أصدقيني يا هلنا ولا تخفي عني شيئاً » ؛ وأجابتها هلنا بصراحة : « إن سيدي ولدك هو الذي جعلني أفكر في هذا ، ولولاه لما فكرت في باريس ولا في الدواء ولا في الملك ، لقد كان كل ذلك بعيداً عن أفكاري قبل ذهابه إليها » .

وسمعت الكننة هذا الاعتراف بأجمعه دون أن تقول كلمة رضا أو ملامة ، ولكنها سألت هلنا أسئلة دقيقة عن أثر الدواء وعن فائدته المرجوة في شفاء الملك ، فعرفت منها أنه آثم ما كان يدخره جرار دهرين ، وأنه قد أعطاه لابنته وهو على فراش الموت . وتذكرت الكننة ما قطعت على نفسها في تلك الساعة الرهيبة من وعد مقدس بأن تغني بهذه الفتاة ، ولاح لها أن مصيرها وأجل الملك نفسه معلقان على هذا المشروع الخطير الذي أوجت به إلى هذه الفتاة الواهية أوهاام الحب وآمال

الحمين ، ولكنه قد يكون من تصارييف الأقدار التي لا تراها الأعين ، والتي تريد بها أن يشفى الملك من مرضه ، فيكون شفاؤه سبباً في سعادة ابنة جرارده نربن . ومن أجل ذلك أذنت لهلنا أن تسير في طريقها ، وأعانتها بكل ما يلزمها من المال ومن يليق بها من الأتباع . ويمت هلنا شطر باريس تصحبها دعوات الكنتة ورغبتها الصادقة في نجاح مسعاها . وأقبلت هلنا على باريس واستطاعت بفضل صديقها الشيخ اللورد لافيه أن تقابل الملك . على أنه كان لا يزال أمامها كثير من الصعاب ، فلم يكن من السهل أن يرضى الملك بأن يجرب الدواء الذي تعرضه عليه هذه الطيبة الصغيرة الحسنة ، ولكنها خبرته أنها ابنة جرارده نربن الذي يعرف الملك من هو وما شأنه ، وقالت إن الدواء الثمين الذي تعرضه عليه هو أغر ما ادخره أبوها ، وإنه خلاصة تجاريه الطويلة وحذقه العظيم ، وإنها تضع حياتها رهينة في يد الملك ضماناً لقدرتها على إعادة صحته كاملة إليه في خلال يومين . ورضى الملك أخيراً أن يجرب الدواء على أن تعدم هلنا بعد يومين إذا لم يتم شفاؤه ، ووعدتها إذا نجحت أن يزوجه بمن تختاره من الرجال في أرض فرنسا بأجمعها ، لا يستثنى منهم إلا الأمراء ، وكان اختيار الزوج الذي ترتضيه لنفسها هو الأجر الذي طلبته هلنا إذا شفت الملك من مرضه . ولم تكن هلنا مخدوعة في ثقتها بفائدة دواء أبيها ؛ ذلك أنه قبل أن يمضي الأجل المحدد عادت إلى الملك صحته كاملة ، فدعا إليه جميع الشبان النبلاء من حاشيته ليزوج طبيبته الحسنة بمن تختاره منهم ، برا منه بوعده لها . وطلب الملك إلى هلنا أن تجيل بصرها في هؤلاء الشبان الأشراف الأغراب ، وتختار منهم من تشاء . ولم تبطل هلنا في اختيار هذا الزوج لأنها رأت الكنت روزين بين هؤلاء الشبان ، فالتفتت إلى برترم وقالت « هذا هو الرجل . لن أجرو يا سيدي على القول بأني سأخذك لي زوجاً ، ولكنني أسلم نفسي إليك ، وأضع خدماتي بين يديك ما حييت ، فوجهني كيف شئت » . وقال الملك « إذن نخذها يا برترم فهي زوجتك » . ولم يتردد برترم في أن يجهر بعدم رغبته في هذه الهدية التي تعرض نفسها عليه ، وقال إن هلنا ابنة طيب رقيق الحال ، نشأت في كنف أبيه وتعيش الآن كلاً على أمه . وسمعه هلنا ينطق بهذه الألفاظ ، ألفاظ الرفض والسخرية ، فقالت للملك « أما

شفاؤك فقد سرني وأثلج صدرى ، وأما ما بقى بعد ذلك فلترح بالك منه ولا تفكر فيه قط . ولكن الملك لم يرض أن يستهان بأمره إلى هذا الحد ، وكان من حقوق ملوك فرنسا وامتيازاتهم الخاصة الكثيرة أن يهبوا نبلاء البلاد أزواجا لمن يشاءون من النساء ، ولذلك تزوج برترم بهلنا فى ذلك اليوم نفسه ، وهو زواج أرغم عليه برترم ولم يكن مرتاحا إليه ، كما أن هلنا المسكينة لم تكن ترجو من ورائه خيراً . نعم إنها استطاعت أن تحصل على الزوج النبيل الذى خاطرت بحياتها للحصول عليه ، ولكن بدالها أنها لم تكسب فى حقيقة الأمر إلا فراغاً مزوقاً ، لأن حب زوجها لم يكن من الهدايا التى يستطيع ملك فرنسا أن يهديها إليها .

ولم يكد هذا الزواج يتم حتى طلب برترم إلى هلنا أن تستأذن له الملك فى الرحيل عن بلاطه . فلما نبأته أن الملك قد أذن له قال لها إن شؤونه قد اضطربت بسبب هذا الزواج المفاجئ الذى لم يكن مستعداً له ، ولذلك فليس لها أن تعجب من الخطة التى سيسلكها . وإذا لم تكن هلنا قد عجبت من هذه الخطة فإنها قد حزنت حين عرفت أنه يريد أن يفارقها . ولقد أمرها بالفعل أن تعود إلى والدته ، فلما سمعت هذا الأمر القاسى أجابت قائلة « ليس لى ما أقوله جواباً عن هذا إلا أنى أطوع الخدم لك ، وأنى سأعمل بكل ما تأمرنى به ، لعل أنال منك ذلك التقدير الذى حرمته بسبب الفارق الكبير بين منزلتى الحقيرة وحظى العظيم » . ولكن هذا التذلل لم يؤثر فى نفس برترم ولم يكسر من زهوه فيشفق على زوجته الظريفة ، وفارقها دون أن يودعها بكلمة طيبة كما تقضى به آداب اللياقة المعتادة بين الناس .

وعادت هلنا إلى بيت الكنتية بعد أن أتمت ما كانت تبغيه من رحلتها . لقد أنجحت الملك من الموت ، وتزوجت بالكنت روزين أحب الناس إلى قلبها وأعزهم عليها ، ولكنها عادت تنقسمها الغموم إلى بيت حماها النبيلة ، وما كادت تدخل الدار حتى تلقت رسالة من برترم هديتها وفتت فى عضدها .

وأحسن الكنتية الكريمة استقبالها ، كأن ابنها قد اختارها بنفسه لتكون زوجة له ، وكأنها فتاة من أرق الطبقات ؛ وأخذت تحيىها بأطيب الألفاظ لتنسيها ما وقع فى نفسها من إهمال برترم لها وإرسالها وحدها إلى بيت أمه فى يوم زواجه

بها ؛ ولكن هذا الاستقبال الحسن لم يذهب الحزن من قلب هلنا وقالت « سيدتى لقد ذهب سيدى ، ذهب إلى حيث لا يعود أبداً » . ثم قرأت العبارة الآتية من خطاب برترم « حين تحصلين على هذا الظاتم من اصبغى ، ولن يخرج لنا اظاتم منه قط ، فسمنى وقتن زوجهك ؛ ولكن اذا جاء وقتن فسا كتب فيه أمرا » . وأضافت هلنا إلى ذلك قولها « تلك عبارة رهيبة » ، وطلبت إليها الكنتنة أن تصبر ولا تجزع ، وقالت لها إنها بعد أن ذهب برترم ستكون هى ابنتها ، وإنها جديرة بزواج يقف فى خدمته عشرون فتى وقتاً من أمثال برترم ، ويدعوها فى كل ساعة من ساعات النهار سيدتى . ولكن هذه الأم الرؤوم ، التى لا مثيل لها بين الأمهات ، لم تستطع بتواضعها وتذللها ، أن تذهب الحزن عن كنتها . وظلت هلنا تحديق بصرها فى خطاب زوجها ثم صرخت من شدة الحزن قائلة : « الى أنه بجىء الوقت الذى لا تكون له فيه زوجة لن يكون له شئ فى فرنسا » ^(١) . وسألته الكنتنة هل وجدت هذه العبارة فى الخطاب ؟ وكل ما استطاعت هلنا البائسة أن تجيب به عن سؤالها هو قولها « نعم ، سيدتى » .

وفى اليوم التالى افتقدوا هلنا فلم يجدوها ، بل وجدوا منها خطابا طلبت أن يعطى إلى الكنتنة بعد ذهابها ، وقد شرحت فى هذا الخطاب سبب غيابها المفاجئ ، وقالت فيه إنها قد أحزنها كل الحزن أن يخرج برترم بسببها من بيته ووطنه ، وإنها أرادت أن تكفر عن ذنبها فاتخذت سبيلها إلى مزار القديس چاك الأكبر St. Jaques le Grand ، وختمته برجاء إلى الكنتنة أن تبلغ ولدها أن الزوجة التى يكرهها هذا الكره كله قد خرجت من داره ولن تعود إليها أبداً .

ولما خرج برترم من باريس يمم شطر فلرنس Florence وعمل ضابطا فى جيش دوقها ، وانتصر هذا الجيش فى بعض الحروب ، وأظهر برترم من ضروب الشجاعة والبطولة ما امتاز به على أقرانه ، وتلقى وهو فى هذه المدينة رسائل من أمه

(١) إن الغموض الذى فى هذه العبارة مقصود بالذات ولكن معناها رغم ذلك مما لا يصعب إدراكه . فهو يقول إنه لن يكون له ما يعنى به فى فرنسا إلا حين لا تكون له فيها زوجة .

يحتوى ذلك النبأ السار وهو أن هلنا لن تقلق باله بعد . وبينما هو يستعد للعودة وإذا بهلنا نفسها تصل إلى مدينة فلرنس فى ثياب حاج .

وكانت مدينة فلرنس على الطريق الذى يسير فيه الحجاج إلى ضريح القديس چاك الأكبر . ولما وصلت هلنا إلى هذه المدينة سمعت أن فيها أرملة كريمة تستضيف النساء اللاتى يفتن على المدينة لزيارة ضريح القديس الكبير ، فتسكنهم وتطعمهم . وذهبت هلنا إلى دار هذه السيدة الكريمة فأحسنست استقبالتها ، ودعتها إلى مشاهدة كل ما فى تلك المدينة الشهيرة من عجائب ، ثم أخبرتها أنها إذا رغبت فى مشاهدة جيش الدوق فإنها تستطيع أن تأخذها إلى حيث ترى هذا الجيش أحسن رؤية ، وقالت لها « وسترى شابا من بنى وطنك يدعى الكنت روزين أذى للدوق خدمات جليلة فى حروبه » . ولم تكن هلنا فى حاجة إلى تكرار الدعوة حين علمت أنها ستشاهد برترم فيمن تشاهده من رجال الجيش ، فسارت مع مضيفتها ، وكان سرورها بالنظر إلى وجه زوجها العزيز مرة أخرى سرورا يشوبه الحزن والأسى . وسألتها السيدة الأرملة « أليس هو رجلا وسيما ؟ » فأجابتها هلنا جوابا صادقا كل الصدق « إني لأحبه كثيرا » . وظلتا طول الطريق تتحدثان ، وكان حديث الأرملة الثرثرة يدور كله حول برترم ، فروت هلنا خبر زواجه وهجره زوجته البائسة ، وانضمامه إلى جيش الدوق حتى لا يعيش معها . وصبرت هلنا على استماع هذه القصة ، قصة بؤسها وشقاءها ، حتى فرغت الأرملة من سردها ، ولكنها لم تفرغ من سرد تاريخ برترم ، بل أخذت تروى قصة أخرى وعت هلنا كل كلمة منها ، لأنها قصة حب برترم لابنة هذه السيدة .

ذلك أن برترم ، وإن لم يعجبه الزواج الذى فرضه الملك عليه ، لم يصمم أذنه عن سماع نداء الحب ، بل إنه من يوم أن انضم إلى جيش الدوق فى فلرنس قد وقع فى قلبه حب فتاة مهيبة حسناء تدعى ديانا Diana ، وهى ابنة الأرملة التى أضافت هلنا . وكان يأتى فى كل ليلة ويقف تحت نافذتها ليطربها بنغمات موسيقية مختلفة ، ويتغنى بجمالها ويدعوها إلى حبه . وكل ما كان يرجوه منها أن تسمح له بأن يزورها خلصة وأهلها هجج ، ولكنه لم يجد وسيلة يحمل بها ديانا على أن تستجيب لهذا الرجاء

الأخطل ، وأن تشجعه على الاسترسال في حبه ، لأنها تعرف أنه رجل محصن ،
ولأنها نشأت في كنف أم حازمة من أسرة كريمة ، وإن كانت الآن ذات عسرة
فهى من نسل أسرة كبولت Capulet النبيلة .

وقصت السيدة هذا كله على هلنا ، وأثنت ثناء مستطاباً على فضائل ابنتها
العاقلة ، وقالت إن هذا كله نتيجة ما تعهدتها به من تربية حسنة ، وما أسدته إليها
من نصائح حكيمة غالية ، وختمت حديثها بقولها إن برترم شديد الإلحاح على ديانا
أن تسمح له في هذه الليلة ذاتها بالزيارة التي يرغب فيها من صميم قلبه ، لأنه سيغادر
مدينة فلرنس في باكورة اليوم التالى .

وأحزن هلنا أن تسمع عن حب برترم لابنة هذه الأرملة ، ولكن هذه القصة
قد أوحى إلى عقلها الحبيب بالخطبة التي يجب أن تتبعها لتستعيد بها زوجها الأبق
الوانى . ولم يثبط من همها ما أصابها من خيبة في مشروعها الأول فأخذت تدبر
خطتها الجديدة ، واعترفت للأرملة بأنها هى هلنا الزوجة التي هجرها برترم ، وطلبت
إلى هذه السيدة وابنتها أن تسمحا لبرترم بالزيارة التي يرجوها ، وأن تأذنا لها بأن
تدخل في روعه أنها هى ديانا نفسها ، وأخبرتهم أن الغرض الذي ترمى إليه
من وراء هذا الاجتماع بينها وبين زوجها أن تحصل منه على خاتم قال إنها إذا
حصلت عليه اعترف بها زوجة له . ووعدتها الأرملة هى وابنتها أن تقدمما لها
ما تحتاجه من معونة ، شفقة منهما على هذه الزوجة البائسة المهجورة ، وطمعاً فيما
وعدتهما به من مكافأة ، وقد أعطتهما بالفعل بكرة من المال شاهداً على ما سوف
تجوبها به في المستقبل . وفي هذا اليوم نفسه عملت هلنا على أن يصل إلى مسامع
برترم أنها ماتت ، لعله إذا بلغه هذا النبأ وظن أن في وسعه أن يختار له زوجة ثانية
تقدم إليها يطلب الزواج بها معتقداً أنها ديانا ، ولم تشك في أنها إذا استطاعت أن
تحصل منه على الخاتم الذي بيده وعلى وعد منه بالزواج ، كان في مقدورها أن تجنى
من وراء ذلك بعض الخير في المستقبل .

وأذن لبرترم في ظلام الليل أن يدخل حجرة ديانا ، وكانت فيها هلنا مستعدة
لاستقباله . ووقعت عبارات الحب والثناء التي وجهها إلى هلنا أحسن الوقع على

مسامعها ، رغم ما كانت تعرفه من أن ديانا هي المقصودة بها . وأعجب بها برترم إعجابا لم يتمالك معه أن يعدها ، عدداً صريحاً بأن يتزوجها ويحبها حباً يدوم على مدى الدهر ، ودعت هلنا ربها أن يكون هذا حباً صادقا يبق بعد أن يعرف أن التي سر من حديثها هذا السرور العظيم هي زوجته هلنا التي كان يمتقها ويزدريها .

ولم يكن يدور بخلد برترم أن هلنا فتاة رقيقة مرهفة الحس إلى هذا الحد ، وأكبر الظن أنه لو فطن إلى ذلك من قبل لما أهملها هذا الإهمال كله ، كما أن رؤيته لها في كل يوم قد حجبت عن عينيه حقيقة جمالها البارع ، وذلك لأن الوجه الذي تراه العين كل يوم يفقد ما لجماله من أثر في النفوس ؛ وأما عقلها فلم يكن في وسعه أن يدرك رجاحته لأن حبها له كان يمتزج به نوع من الإجلال يلزمها الصمت في حضرته . أما الآن فقد لاح لها أن حظها وتوفيقها فيما دبرته من خطط تسعد بها في حبها رهن بما تستطيع أن تتركه بحديثها هذه الليلة من أثر طيب في نفس برترم ، فلم تأل جهداً في إدخال السرور عليه . وسحر برترم برقة ألفاظها البسيطة الحية الخالية من كل تكلف ، ومن أخلاقها الحلوة الجذابة ، فأقسم أن يتخذها له زوجة . وطلبت إليه هلنا أن يعطيها الخاتم الذي في إصبعه ليكون شاهداً على منزلتها لديه ، وكان يهم هلنا أن تحصل عليه فأعطاه إياه لساعته ، وأعطته بدلاً منه خاتماً أهداه إليها الملك ، وأخرجت برترم من حجرتها قبل مطلع الفجر وسافر من فوره متجهاً إلى بيت والدته .

واستطاعت هلنا أن تحمل الأرملة وابنتها ديانا على الذهاب معها إلى باريس ، لأنها كانت في حاجة إلى معونتهما لنجاح مسعاها ؛ فلما وصلن إلى هذه المدينة علمن أن الملك قد ذهب في زيارة إلى كنتية روزين ، فسافرت هي ومن معها في أثره بأسرع ما تستطيع .

وكان الملك لا يزال يتمتع بصحة جيدة ، وكان اعترافه بفضل الفتاة التي أنقذت حياته لا يبرح عقله ، فما كاد يرى كنتية روزين حتى أخذ يتحدثها عن هلنا ويقول إنها جوهرة ثمينة أضاعها ولدها بطيشه . ولما رأى هذا الحديث يؤلم قلب الكنتية ، وكانت لا تزال حزينة مخلصه في حزنها على موت هلنا ، قال لها : « سيدتي الكريمة

تذليل السليطة

كانت كترين السليطة Katharine the Shrew كبرى بنات بيتسته Baptista أحد أثرياء مدينة پدوا Padua ، وكانت فتاة متمردة جامحة صخابة لا يعرفها الناس في پدوا إلا باسم كترين السليطة . ولاح أن من أبعد الأشياء ، بل أن من المستحيل ، أن يتقدم أحد من الرجال للزواج بتلك الفتاة ، ولذلك كان الناس كثيراً ما يلومون بيتسته حين يسوف في قبول العروض الطيبة التي كان يتقدم بها كثير من الشبان للزواج بأختها الظريفة بينكا Bianca ، فقد كان يؤجل خطبتها قائلاً إنه لا يقبل أن تخطب ابنته الصغرى بينكا إلا بعد أن يتم زواج أختها الكبرى .

واتفق أن جاء إلى پدوا في ذلك الوقت رجل يدعى پتروشيرو Petruchio ، لبحث فيها عن زوجة . ولم يؤثر فيه ما يتحدث به الناس عن أخلاق كترين ، لأنه سمع أنها ثرية حسناء ، فقال لأتزوجن بهذه الصخابة الذائعة الصيت ، ولأذلنها حتى لأجعل منها زوجة وديعة طيبة . والحق أنه لم يكن أحد أقدر على هذا العمل الشاق من پتروشيرو ، فقد كان لا يقل عن كترين قوة إرادة ، ولكنه كان فكها مرحاً لبقاً ، وكان إلى ذلك كله حكيماً سديد الرأي ، يعرف كيف يتصنع الغضب والثورة وهو هادئ النفس ، حتى ليسعه أن يضحك ساخراً من غضبه المتكلف ، لأنه كان في حقيقة أمره سهلاً متهاوناً . ولم يكن ما يتصنعه من الغضب والصخب بعد أن أصبح زوجاً لكترين إلا مزاحاً ، أو على الأصح تصنعاً ، تمليه عليه حصافته وحكمته ، لأنه هو السبيل الوحيدة التي يستطيع بها أن يطفى نار غضبها .

ذهب پتروشيرو إذن ليخطب كترين السليطة ، وكان أول ما فعل أن طلب إلى أبيها بيتسته أن يأذن له بأن يتودد إلى ابنته الظريفة كترين ، كما سماها ، وقال في مكر ودهاء إنه سمع بحبائها وخفرها ورقة طبعها ، فجاء من فيرونا يسعى لكسب قلبها . وكان أبوها راغباً في زواجها ، ولكنه اضطر إلى الاعتراف بأنها بعيدة عن هذا الوصف . وقد بدا على الفور مقدار ما في طبعها من رقة ولطف ، إذ دخل

١٢١٠
١٢١٠
١٢١٠

عليهما معلم الموسيقى مهرولا ليقول إن تلميذته كثرين الظريفة قد شجت رأسه بعودها لأنه تجاسر على تخطئتها في عزفها . فلما سمع پتروشيرو ذلك قال « ما أشجعها من فتاة ! إن هذا يزيدني حبا لها ورغبة في التحدث إليها » ؛ وألح على والدها الشيخ أن يجيبه جوابا صريحا وقال له : « إن عملي ياسيد بيتسته يدعوني إلى العودة بسرعة ، وليس في مقدوري أن آتي كل يوم لأتودد وأخطب ، إنك لا تجهل أن أبي قد مات وترك لي كل ما يملك من أرض ومتاع ، فقل لي بأى شيء تمهر ابنتك إذا كسبت حبا ؟ » وظن بيتسته أن في خطبته شيئا من الخشونة لاتليق بالمحبين ، ولكنه كان يسره أن تزوج كثرين ، فأجابه بأنه يمهرها بعشرين ألف ريال ونصف أرضه بعد موته . وكذلك اتفق على هذا الزواج الغريب بعد وقت قصير ، وذهب بيتسته ليليلع ابنته السليطة ما قاله عنها حبيبها ، وبعث بها إلى پتروشيرو لتستمع إلى خطبته . وكان پتروشيرو في أثناء ذلك يرب الخطة التي سيتبعها في مغازلة الفتاة فقال : « سأغازلها بشيء من الكبرياء حين تجيء ؛ فإذا سخرت مني قلت لها إنها تغني بصوت شجي كصوت البلبل ، فإذا عبست قلت إنها أصفى لونا من الورد بلله القطر ، فإذا لم تنطق بكلمة أثنت على فصاحتها ، وإذا أمرتني بالخروج من حضرتها شكرت ذلك لها كأنها قد أمرتني بالبقاء معها أسبوعا » . وفي ذلك الوقت دخلت كثرين في عظمة وخيلاء فابتدرها پتروشيرو بقوله : « عمى صباحا يا كيت ، فقد قيل لي إن ذلك اسمك » . ولم تعجب كثرين هذه التحية الخالية من الاحترام فقالت في ازدراء « إن الذين يخاطبونني يسمونني كثرين » ، فأجابه المحب بقوله : « إنك تكذبن ، فهم يسمونك باسم كيت مجردا من كل وصف ، ويسمونك أحيانا كيت الظريفة ، وأحيانا السليطة ، ولكنك يا كيت أجمل كيت في العالم ، ولذلك فإني يا كيت لما سمعت الناس في كل بلد يثنون على رقتك وظرفك جئت لأخطبك وأأخذك لي زوجة » .

وكانت خطبة بالغة منتهى الغرابة ، فقد كانت هي بضجيجها وغضبها تشهد على نفسها بأنها أجدر الناس باسم السليطة ، وكان هو لا يفتأ يثني على ألفاظها العذبة الرقيقة ، ولما سمع وقع أقدام أبيها أراد أن يفرغ من خطبته بأسرع ما يستطيع فقال :

«عزيتي كترين، دعينا من هذا الحديث الذي لا خير فيه، فقد رضى أبوك أن تكوني لى زوجة، واتفقنا على مهرك وسأتزوج بك رضيت أو لم ترضى» .

ودخل يتمتة فقال له پتروشيوف إن ابنته قد أحسنت لقاءه، وإلها اتفقت معه على الزواج فى يوم الأحد المقبل، وأنكرت كترين ذلك وقالت إنها تود أن يساق إلى المشنقة يوم الأحد، وأخذت تعنف أبها لأنه رضى أن يزوجهها بجلف فظ مخبول مثل پتروشيوف. وطلب پتروشيوف إلى أبيها ألا يعبأ بألفاظها الغضبية لأنهما قد اتفقا على أن تتظاهر بالرفض فى حضرته، ولكنها كانت من وراءه حبيبة وديدة، ثم قال لها «مدى إلى يدك يا كيت، سأذهب إلى البندقية لأبتاع لك أجمل الملابس استعداداً ليوم زفافك، فاستعد للوليمة يا أبت وادع الأضياف فى يوم الزفاف، وسأتيكم بالخواتم وأعلى الملابس وأجمل أدوات الزينة لأجل بها حبيبتي كترين، فقيليني يا كيت؛ إننا نتزوج يوم الأحد» .

وفى يوم الأحد المحدد اجتمع المدعوون لحفلة الزفاف، وطال انتظارهم لپتروشيوف، وبكت كترين حزناً لأنها ظنت أن پتروشيوف كان يسخر منها. ثم جاء أخيراً ولكنه لم يكن معه شيء من لوازم الزفاف التى وعد بها كترين، ولم يرتد هو نفسه ثياب العرس بل كانت عليه ملابس غريبة غير منتظمة كأنما هو يريد أن يهزأ بهذا العمل الجدى الذى جاء لينجزه، وكان على خدمه وعلى الخيل التى يركبونها أردية حقيرة غريبة.

ولم يستطع أحد أن يحمل پتروشيوف على تغيير ملبسه، وقال حين خوطب فى ذلك إن كترين ستتزوج به هو لا بملابسه. ولما رأى القوم أن لا فائدة ترجى من الإلحاح عليه ذهبوا به إلى الكنيسة، وظل هو يسلك مسلك البلهاء، ولما سأله القسيس هل يرضى بكترين زوجة له أقسم بأعلى صوت أنها ستكون زوجته. وارتاع القسيس من ذلك فسقط الكتاب من يده، ولما هم بالتقاطه ضربه هذا العريس الأرض ضربة سقط منها هو وكتابه على الأرض، وظل فى أثناء مراسم الزواج نائراً يضرب الأرض برجليه، حتى ارتاعت كترين رغم جرأتها.

ولما انتهت حفلة الزفاف وكان الناس لا يزالون فى الكنيسة، طلب أن

يحضروا له نبيذاً ، وشرب نخب الجماعة معلناً ذلك بأعلى صوته ، وألقى بقطعة من الخبز كانت في قاع الإناء في وجه خادم الكنيسة ، ولم يبرر عمله هذا بأكثر من أن لحيته كانت رفيعة ضئيلة ، حتى بداله وهو يشرب النبيذ أنها تسأله قطعة الخبز . والحق أن الناس لم يروا قبل هذا زواجا أحاط به مثل هذا الجنون ، ولكن پتروشيو إنما تكلف هذا المهرج كله ليكون أقدر على النجاح في تنفيذ الخطة التي وضعها لتذليل زوجته السليطة .

وكان يتستنه قد أعد للزواج حفلة فخمة ، ولكنهم عندما عادوا من الكنيسة أخذ پتروشيو بيد كترين وأعلن أنه يعتزم أخذ زوجته إلى داره من فوره . ولم يفلح الوالد باحتجاجه ، ولا الزوجة الغاضبة بصخبها ، في أن يثنيه عن عزمه ، بل قال لهم إن من حق الزوج أن يتصرف في زوجته كما يشاء ، وخرج بها في الحال وأظهر من العناد والجرأة ما لم يستطع أحد معهما أن يقف في سبيله . وأركب پتروشيو زوجته حصانا بأئساً ضامراً هزلياً ، اختاره لهذا الغرض خاصة ، ولم يكن فرسه وفرس خادمه خيراً من هذا الحصان نفسه . وساروا جميعاً في طرق وعرة وحلة ، وكان إذا عثر حصان كترين ثار پتروشيو وغضب وسب البهيم النهوك الذي لم يكن يقوى على المسير بحمله ، وكأنما كان پتروشيو في هذه الساعة أشد خلق الله غضباً وأحدهم طبعاً .

ووصل الركب أخيراً إلى بيت پتروشيو بعد سفر طويل شاق ، لم تسمع كترين في أثناءه إلا صخباً ولعناً يصبه پتروشيو على الخادم وعلى الخيل . ورحب پتروشيو بزوجته عندما دخلت داره ولكنه اعتزم ألا يسمح لها في تلك الليلة بشيء من الطعام أو الراحة . وهيئت المائدة ووضع عليها العشاء ، ولكن پتروشيو ادعى أنه وجد عيباً في كل صنف من الطعام ، فألقى باللحم على الأرض وأمر الخدم أن يخرجوا به ، وقال إنه يفعل هذا كله حبا في كترين ، لأنه لا يريد أن يطعمها لحماً لم يحسنوا إعداده ، ولما آوت كترين آخر الأمر إلى فراشها متعبة طاوية ، وجد زوجها أن الفراش لم يعد إعداداً حسناً ، فأخذ يلقى بالوسائد وأغطية الفراش في أرض الحجرة ، حتى اضطرت أن تقضى الليلة جالسة على كرسي . وكانت إذا هفا النعاس بجفניה استيقظت

مدعوة على صراخ زوجها وهو يعنف الخدم لأنهم لم يحسنوا إعداد فراش زوجته في يوم زفافها .

وسار پتروشيرو على هذه الخطة نفسها في اليوم التالي ، فظل يخاطب كترين بأرق الألفاظ وأحسنها ، حتى إذا ما همت بتناول الطعام رأى عيباً في كل ما يقدمه لها ، وقذف بطعام الإفطار كما قذف بطعام العشاء ، واضطرت كترين — كترين المتغطرة — أن تسأل الخدم أن يأتوها خلسة بشيء منه ، ولكنهم أجابوها بأمر من سيدهم أنهم لا يستطيعون أن يقدموا لها شيئاً من غير علمه . فلما سمعت ذلك قالت : « ويلي ! هل تزوج بي لميتني جوعاً ؟ إن من يفد على بيت أبي من المتسولين يجد الطعام ، أما أنا التي لم أعرف في حياتي معنى الرجاء ، فإنني أكاد أهلك من الجوع ، وأجن من السهر ، وأحرم الرقاد من كثرة الصراخ ، ولا أطعم إلا بالصخب والضجيج . وأشد ما يؤلني في هذا كله أنه يفعل ما يفعل باسم الحب ، ويدعى أنني إذا نمت أو طعمت كان في ذلك موتي على الفور » .

وفي تلك اللحظة قطع عليها حديثها لنفسها دخول پتروشيرو عليها ، فقد جاء لها بقطعة صغيرة من اللحم لأنه لم يكن يريد أن تقضى حياتها جوعاً ، وقدمها لها وهو يقول : « هاك يا كيت شيئاً من الطعام . أنظري ما أكثر جدى ونشاطي ، فقد أعددت لك بنفسى ، ولا شك عندي في أن هذا اللطف من جانبي يستحق منك الشكر . ما هذا ، ألا تنطقين بكلمة ؟ إذن فلست تحبين اللحم ، وقد ضاع على كل ما بذلته من جهد في إعداده » ؛ ثم أمر الخادم أن يخرج باللحم . وكان الجوع الشديد قد كسر من زهوها فقالت وهي مغضبة محنقة : « أرجو أن تسمح ببقائه » . ولكن ذلك لم يكن كل ما يريد پتروشيرو أن يلجأ إليه فأجابها : « إن أحقر الخدمات يجازى عليها صاحبها بالحمد ، وستشكرين لى ما فعلت قبل أن تمس يدك اللحم » . ونطقت كترين على الرغم منها بقولها « شكراً لك يا سيدى » ؛ فسمح لها أن تتناول شيئاً من الطعام وقال لها « قد يفيد هذا سيجيتك السمحة فائدة كبيرة ، أطمعنى سريعاً ، وستعودين يا حبيبتي إلى بيت أبيك لنمرح هناك ونلعب ، ونلبس ثياباً وقبعات من الخبز على أجسامنا وفوق رؤوسنا ، وخواتم من الذهب في أيدينا ، وأطواقاً

من الريش الناعم والطيلسان على أكتافنا ، وسنمسك بالمرآوح في أيدينا ، وسيكون لكل منا مجموعتان من الملابس غير التي نلبسها . « وأراد أن يقنعها بأنه حقيقة يرغب في أن يمتعها بهذا كله ، فدعا إليه تاجراً وخياطاً جاء معه بملابس لها كان قد أمره بإحضارها . ثم رفع الطبق الذي أمامها وأعطاه للخادم قبل أن تنال نصف كفايتها من الطعام وقال « ما هذا ، هل فرغت من الأكل ؟ » وأخرج التاجر قبعته وقال « هذه القبعة التي أمرتم سيادتكم بإحضارها » . وعندئذ بدأ پتروشيو يصخب من جديد ، وقال إن القبعة صنعت على شكل قصعة ، وإنها لا تزيد في حجمها على قشرة جوزة ، وأمر التاجر أن يذهب بها ويأتي بأخرى أكبر منها ؛ وقالت كترين « إني أريدها فكل السيدات المهدبات يلبسن قبعات من هذا النوع » . وأجابها پتروشيو بقوله « وستلبسين أنت مثلها عندما تكونين مهيبة ، أما قبل ذلك فلا » . وكان اللحم الذي أكلته كترين قد أعاد إليها شيئاً من قوتها الخائرة فقالت له : « سيدى ، لا شك في أنك تأذن لى بالكلام ، على أننى سأتكلم أذنت أو لم تأذن فلست طفلة ، وقد رضى من هم خير منك أن أقول لهم ما فى ضميرى ، فإذا لم تكن تستطيع سماعه فأصم أذنيك » . ولم يشأ پتروشيو أن يصنى لهذه الألفاظ المضطربة لأنه عرف لحسن حظه وسيلة أخرى يعاملها بها أفضل من الجدل والخصام ، فلم يجبها إلا بقوله « نعم إن ما تزعميه صحيح ، فالقبعة حقيرة غير صالحة ، ويزيد حبي لك أنك لا ترضين بها » . فردت عليه كترين بقولها « سواء على أحببتنى أم لم تحبني ، ولكنى أرغب فى هذه القبعة وسأخذها أولاً آخذ قبعات قط » . وقال پتروشيو وهو لا يزال يظهر أنه قد أساء فهم أقوالها . « أتقولين إنك تريدان أن ترى المزرى ؟ » وجاء الخياط وعرض عليهما مزراً جميلاً قال إنه صنعه لها . ولم يكن پتروشيو فى الحقيقة يريد أن يشتري لها قبعة ولا مزراً ، فوجد فيه كثيراً من العيوب وقال : « رباه ! رحمة بنا أيتها السماء ! أى رداء هذا ؟ أتسمى هذا كما ؟ ما أشبهه بنصف مدفع ، وقد قطع من أعلاه ومن أسفله كما تقطع الفطائر » . فقال له الخياط « لقد أمرتنى أن أصنعه على طراز هذه الأيام » . وقالت كترين إنها لم ترفى حياتها خيراً من طراز هذا المزرى . واكتفى پتروشيو بهذا ، وكان فى سريرة نفسه

يود أن ينال التاجر والخياط ثمن بضاعتهما ، وأن يعتذر لهما عما لقياه من معاملة غريبة في ظاهرها ، ولكنه مع ذلك أمرهما بالخروج من حجرته بعبارات شديدة ، وإشارات محنقة مغيبة ، ثم التفت إلى كترين وقال لها : « تعالى يا عزيزتي كيت ، سنذهب إلى بيت أبيك في هذه الملابس الحقيمة التي نلبسها الآن » .

ثم أمر أن تسرج الخيل ، وأكد أن لا بد من الوصول إلى دار بيتسته قبل موعد الغداء لأن الساعة كانت وقتئذ الساعة صباحاً . وكان الوقت ساعتئذ هو الظهر لا الصباح الباكر ، ولذلك سمحت كترين لنفسها أن تقول في تواضع شديد ، لأنه قد غلبها بحدة طبعه « أوكد لك ياسيدي أن الساعة الآن الثانية بعد الظهر ، وأنا لن نصل إلى هنالك قبل موعد العشاء » . ولكن پتروشيو كان قد اعتزم أن يخضعها لإرادته قبل أن يذهب إلى بيت أبيها خضوعاً لا تستطيع معه أن تعارضه في أى شيء ينطق به ، ولذلك قال إنه لن يبرح مكانه إلا إذا وافقت على أن الوقت هو ما يريده أن يكون ، كأنما هو المتصرف في الشمس ، وصاحب السيطرة على ساعات النهار والليل ، ثم قال : « ومالك لا تفتئين تعارضينني في كل ما أقوله أو أفعله ؟ لن أسافر اليوم ، وعند ما أعتزم السفر ستكون الساعة كما أنطق بها أنا » . واضطرت كترين إلى البقاء يوماً آخر تمارس فيه هذا النوع الجديد من الخضوع ، ولم يسمح لها بالذهاب إلى بيت أبيها إلا بعد أن خضعت له خضوعاً لا تجرؤ معه على أن تسمح للفظ المعارضة أن يدور في خلدها ، أو يتحرك به لسانها . وكادت وهي سائرة في طريقها أن ترد إلى دارها لأنها لاحظت أن الشمس طالعة ، حين أكد هو أن القمر ساطع في وقت الظهيرة .

وقال لها مغضباً : « أقسم بأبي أمي ، أي بنفسي ، أنني لن أبرح هذا المكان إلى دار أبيك حتى يكون هو القمر أو النجوم أو ما أريد أن يكون » . ثم تظاهر بأنه قد اعتزم العودة ، ولكن كترين ، التي لم تبق الآن كترين السليطة بل الزوجة المطيعة ، قالت له « أرجو أن نواصل السير بعد أن قطعنا هذه المرحلة ، وليكن هذا هو القمر أو الشمس أو ما تريد أنت أن يكون ، وإذا شئت أن تسميه من الآن شمعة ، فإني أقسم لك أنه سيكون كذلك بالنسبة لي » . واعتزم هو أن يتثبت من هذا

فقال مرة أخرى « أقول إنه القمر » ، فأجابته كترين : « وأنا أعرف أنه القمر » ، فقال لها : « إنك كاذبة ، تلك هي الشمس المباركة » ، فأجابته : « إذن فهي الشمس المباركة ، ولكنها لن تكون الشمس إذا قلت إنها ليست شمساً ، فهي ما تريد أن تسميها وستكون كذلك على الدوام بالنسبة لكترين » . ثم سمح لها أن تواصل سفرها ، ولكنه أراد أن يمتحنها مرة أخرى ليرى هل يدوم هذا الخضوع ، فخطب رجلاً مسناً قابلاًه في الطريق كما تخطب الفتيات وقال له : « عمى صباحاً أيتها الفتاة الطريفة » . ثم سأل كترين هل رأت في حياتها فتاة أبهى منها طلعة ؟ وأخذ يثنى على توردها هذا الشيخ وبياضهما ، ويشبه عينيها بنجمين ساطعين ، وخاطبه من جديد بقوله : « أيتها الفتاة الحسنة عمى صباحاً مرة أخرى » ، ثم وجه الخطاب إلى زوجته قائلاً : « عزيزتي كترين ، عانقها إكراماً لجمالها » . وكانت كترين قد ذلت في هذا الوقت إلى أقصى حد ، فبادرت بتنفيذ رغبة زوجها ، وخاطبت الشيخ بنفس النغمة التي خاطبه بها ، فقالت له : « أيتها العذراء الناشئة ، إنك جميلة نضرة حلوة ، إلى أين تذهبين وأين تسكنين ؟ . ما أسعد الأبوين اللذين ينجبان فتاة في هذا الجمال ! » ثم قال لها پتروشيرو : « ما هذا يا كيت ؟ أرجو ألا تكوني قد أصبت بخبل في عقلك . إن هذا رجل طاعن في السن مجعد الوجه ذهبت نضرتة وذبل جسمه ، وليس فتاة كما تدعين » . وعندئذ قالت كترين « عفواً أيها الشيخ ، لقد بهر عيني ضياء الشمس الساطع فبدأ لي كل شيء غصاً . والآن تبين لي أنك أب مبجل ، فأرجو منك أن تغفو عما وقعت فيه من خطأ » . وقال پتروشيرو : « اعف عنها أيها السيد الكريم ، وقل لنا أين تذهب ؟ إنا ليسرنا أن ترافقنا إذا كنت سائراً في طريقنا » . وقال لهما الشيخ : « أيها السيد الأنيق ، وأنت أيتها السيدة الطريفة ، إن هذا اللقاء العجيب قد أدهشني كثيراً ، أما اسمي فهو قنسنتيو Vincentio وأنا ذاهب لزيارة ابن لي يقيم في مدينة پدوا » . وعندئذ عرف پتروشيرو أن هذا الشيخ والد لوسنتيو Lucentio ، وهو شاب سيتزوج بينكا صغرى ابنتي پيتسته ، فأخذ يحدثه عن ثراء الفتاة التي سيتزوجها ولده ، فسر ذلك سروراً كثيراً . وظلوا كلهم سائرين حتى وصلوا إلى بيت پيتسته ،

وهناك وجدوا جمعاً حاشداً واستعداداً للاحتفال بزفاف بينكا ولوسنتيو ، وكان بيتسته قد رضى فى سرور أن يزوج بينكا بعد أن نفى يديه من أختها كترين . ولما دخلوا الدار حياهم بيتسته ودعاهم إلى وليمة العرس ، وكان من الحاضرين أيضاً فتى وفتاة تزوجا من عهد قريب .

ولم يستطع لوسنتيو زوج بينكا وهرتنسيو Hortensio الزوج الآخر الجديد أن يمسكا لسانهما عن المزاح والإشارة من طرف خفى إلى طباع زوجة پتروشيو الشكسة السليطة . ولأح أن هذين الزوجين المحبين مغتبطان رقة طباع الفتاتين اللتين وقع عليهما اختيارهما ، وأخذا يسخران من پتروشيو ويرثيان لحاله لأنه لم يوفق مثلهما فى اختياره . ولم يعبأ پتروشيو بمزاحهما وصبر حتى انفردت النساء بأنفسهن بعد الغداء ، ولا حظ عندئذ أن بيتسته قد انضم إليهما فى استهزأتهما به ، لأنه حين أكد أن زوجته ستكون أطوع من زوجتيهما قال له والد كترين : « إني ليحزنى يا ولدى پتروشيو أن أقول لك إنك اخترت أكثر الفتيات شكاسة وسلطنة » . وقال پتروشيو : « إني أنكر هذا ، ولكنى تثقون أنى لا أقول إلا الحق أرى أن يستدعى كل منا زوجته ، ومن تكن منهن أطوع لأمر زوجها وأسرع فى تلبية دعوته يكسب رهاناً نتفق عليه » . ورضى الزوجان الآخران بهذا الرهان مسرورين ، وسرا به لثقتهم بأن زوجتيهما رقيقتى الطباع ستكونان أطوع من كترين العنيدة . وعرضاً أن يكون الرهان عشرين ريالاً ، ولكن پتروشيو قال ضاحكاً إنه يراهن بهذا القدر على صقره أو كلبه ، أما زوجته فلن يراهن عليها إلا بقدر هذا المبلغ عشرين مرة . ورفع لوسنتيو وهرتنسيو الرهان إلى مائة ريال ، وأرسل لوسنتيو أولاً خادمه يدعو بينكا أن تحضر إليه ، ولكن الخادم رجع إليه يقول : « إن سيدتى تخبرك أنها مشغولة لا تستطيع الحضور » . وقال پتروشيو : « حسن ، أتقول إنها مشغولة لا تستطيع الحضور ؟ هل هذا جواب يصح أن تنطق به زوجة ؟ » لكنهم سخروا منه وقالوا إنهم يسرهم ألا تبعث كترين برد أسوأ من هذا . ثم جاء دور هرتنسيو فأرسل يستدعى زوجته وقال لخادمه : « إذهب وارج زوجتى أن تحضر إلى » . وقال پتروشيو : « أترجوها ؟ إذن فهي حاضرة لا محالة » . وأجابه

هرتسيو بقوله : « إني أخشى ياسيدي أن ترجو أنت زوجتك فلا تجيب الرجاء » .
وسرعان ما دهش هذا الزوج المؤدب حين عاد الخادم من غير سيدته ، فناداه : « أين زوجتي ؟ » فأجابه الخادم : « مولاي ، إن سيدتي تقول إنكم تمزحون ، ولذلك فإنها لن تحضر إليك ، وهي تأمرك أن تذهب أنت إليها » . وقال پتروشيرو :
« هذا جواب أسوأ من سابقه » . ثم نادى خادمه وقال له : « يا غلام اذهب إلى سيدتك وقل لها إني أمرها أن تأتي إلى » . وقبل أن يفكر الجماعة في أنها ستعصى أمره صاح بيتسته مندهشاً : « قسما إن كترين حاضرة » . ثم دخلت كترين وقالت لپتروشيرو في رقة ووداعة : « بماذا تأمر ياسيدي ؟ وما الذي دعوتني لأعمله ؟ » فقال لها : « أين أختك وأين زوجة هرتسيو ؟ » فأجابه قائلة : « إنهما جالستان يتحدثان إلى جانب النار في حجرة الاستقبال » ، فقال لها : « اذهبي وأحضريهما إلى هنا » .
وخرجت كترين دون أن تجيب بكلمة لتنفذ أمر زوجها ، وقال لوسنتيو : « تلك أعجوبة إذا كان في الدنيا عجائب » . وقال هرتسيو : « إنها لعجبية حقا ، ولست أدري ما وراء هذا ؟ » ، فقال پتروشيرو : « إن وراءه الوثام والحب والحياة الهادئة ، وقوامه الرجال الحقة على النساء ، وجملة القول إن وراءه كل ما تتطلبه الهناء والسعادة » . وسر والد كترين أن يرى هذا التحسن في أخلاق ابنته فقال : « ولدي پتروشيرو ، جوزيت كل خير ، لقد كسبت الرهان ، وسأضيف إلى مهرها عشرين ألف ريال ، كأنما هي ابنة أخرى لي ، فقد تبدل طبعها حتى كأنها ليست كترين » . ورد عليه پتروشيرو بقوله : « لن آخذ الرهان حتى أثبت فوق ما أثبته أنني جدير به ، وحتى أظهر لكم من الشواهد على فضائلها وطاعتها غير ما أظهرت » . ودخلت كترين في ذلك الوقت ومعها الفتاتان فواصل حديثه قائلاً : « ها هي ذى قد حضرت ومعها زوجتا كما العنيدتان ، وقد سيطرت عليهما بقوة حجتها » ، ثم وجه إليها الخطاب قائلاً : « كترين ، إن هذه القبعة لا تلائمك فاخلعي هذا الشيء الحقير وألقيه تحت قدميك » . وخلعت كترين قبعتها على الفور وألقت بها على الأرض ، فقالت زوجة هرتسيو : « أرجو ألا يصيبني مكروه أحزن منه قبل أن يصل أمرى إلى هذا السخف » . وقالت بينكا : « ما أسخف هذا العمل ، أئسمون هذا السخف

طاعة ؟ » وقال زوج بينكما لها : « ليت طاعتك قد بلغت بك هذا السخف نفسه .
 إن رأيك فيما يجب أن تكون الطاعة قد كلفني مائة ريال بين وقت الغداء وهذه
 الساعة » . فردت عليه بينكما قائلة : « وإن في رهانك على طاعتي لدليلا آخر على قلة
 عقلك » . فقال پتروشيرو : « إني آمرُك يا كترين أن تفهمي هاتين الفتاتين العنيدتين
 ما عليهما من واجبات نحو سيديهما وزوجيهما » . وما كان أشد دهشة الحاضرين
 حين أخذت الفتاة السليطة ، بعد أن صلح حالها ، تتحدث بلسان طلق فصيح عن
 فضيلة الطاعة التي هي أليق الفضائل بالزوجات ، بعد أن مارستها بنفسها ، ووضعت
 نفسها تحت سيطرة زوجها ، تخضع له وتطيعه طاعة عمياء . واشتهرت كترين مرة
 أخرى في يدوا وذاع صيتها ، ولكنها لم تشتهر باسم كترين السليطة كما كانت من
 قبل ، بل اشتهرت باسم كترين أطوع الزوجات في يدوا وأعرفهن بما عليهن
 من واجبات .



ملهاة الأخطاء

كان بين مدينتي سرقوسة Syracuse وإفسوس Ephesus عداوة ، ولذلك سنت إفسوس قانونا صارما يقضى بقتل كل من يرى من تجار سرقوسة في إفسوس إلا إذا افتدى حياته بألف مارك Mark .

ووجد إجيون Egeon ، وهو تاجر كبير السن من سرقوسة ، في شوارع إفسوس ، وجيء به أمام الدوق ليؤدى هذه الغرامة الثقيلة أو يحكم عليه بالإعدام . ولم يكن مع إجيون من المال ما يفتدى به حياته ، وأراد الدوق قبل أن يقضى بإعدامه أن يعرف قصته ، وكيف جرؤ على أن يأتي إلى مدينة إفسوس ، حيث يقضى القانون بقتل من يفد إليها من سرقوسة .

وقال إجيون إنه لا يهرب الموت لأن الحزن قد بغض إليه الحياة ، ولكنه لا يرى واجبا أثقل عليه من أن يقص تاريخ حياته البائسة ، ثم أخذ يقص هذا التاريخ قائلا :

ولدت في مدينة سرقوسة ، ونشأت فيها وتعلمت التجارة ، وتزوجت بسيدة عشت معها سعيداً كل السعادة ، ولكن أعمالي اضطرتني إلى السفر إلى إيدمنم Epidamnum والبقاء فيها ستة أشهر . ولما رأيت أن مقامى فيها سيطول ، استدعيت إليها زوجتي فجاءت ، ولم تكد تصل إليها حتى وضعت ولدين . ومن عجب أنهما كانا متشابهين حتى لا يستطيع من يراها أن يميز أحدهما من الآخر . وفي الساعة التي وضعت فيها زوجتي هذين التوأمين وضعت امرأة فقيرة في الفندق الذى كانت تقيم فيه ولدين لا يقلان تشابها عن طفلى . وكان والد الطفلين ووالدتهما في فقر مدقع فابتعت منهما طفليهما وربيتهما ليخدما ولدى .

وكان ولداى جميلي الطلعة ، وكانت أمهما شديدة الإعجاب بهما ، وأخذت في كل يوم تلح علىّ في العودة إلى بلدنا ، فرضيت بذلك مكرها ، وفي ساعة منحوسة ركبنا السفينة عائدين إليها . ولم نكد نبتعد عن مدينة إيدمنم أكثر من فرسخ

واحد حتى عصفت الريح واشتد عصفها ، وأيقن الملاحون أن لا أمل لهم في إنقاذ السفينة ، فتجمعوا في قارب النجاة لينجوا بأنفسهم ، وتركوا وحدنا على ظهر المركب ننتظر في كل لحظة أن تحطمها العاصفة . ولم أكن ممن يرهبون الموت ، ولكنني تملكني الرعب حين رأيت زوجتي تبكي بكاء مراراً . ورأيت طفليّ الوسيمين يميكان أيضاً ، وإن كانا لا يدركان ما يخيفهما ، بل كان بكاؤهما تقليداً لوالدتهما . وحصرت تفكيري كله في البحث عن وسيلة أنجيهم بها من الغرق ، فهداني تفكيري إلى أن أشد أصغر ولديّ إلى طرف سارية من الساريات الزائدة التي يدخرها الملاحون ليستخدموها أثناء العواصف ، وأن أشد أصغر العبدین إلى طرفها الثاني . وعلمت زوجتي في الوقت نفسه أن تشد الولدين الآخرين إلى سارية أخرى بنفس الطريقة السابقة ، فكان عليها أن تعني بالولدين الكبيرين وكان عليّ أنا أن أعني بالصغيرين . ثم شد كل منا نفسه إلى ساريته مع الطفلين ، ولولا هذه الحيلة لهلكنا عن آخرنا ، لأن السفينة اصطدمت بصخرة كبيرة وتحطمت . وتعلقنا نحن بالساريتين الرقيقتين وحملتنا المياه ، ولم يكن في طاقتي أن أقدم أية معونة إلى زوجتي لأن همتي كان منصرفاً إلى العناية بالطفلين . ولم تلبث أن بعدت عني هي والطفلان الآخران ، ولكنهم قبل أن يختفوا عن عيني التقطتهم قارب لبعض الصيادين من مدينة كرنث Corinth على ما أظن . ولما اطمأنت عنهم لم يبق لي ما أهتم به إلا أن أكافح الأمواج الغضبي لأنقاذ حياة طفلي العزيز وأصغر العبدین . وفي آخر الأمر التقطتنا نحن أيضاً سفينة عرفني بحارتها ، فرحبوا بي وقدموا لي كل ما استطاعوا من معونة ، ثم أنزلونا سالمين في سرقوسة . ولكنني منذ افترقت من زوجتي وأكبر ولديّ لم أعرف من أمرهما شيئاً ، وبذلك لم يبق لي من أرحاه إلا ولدي الصغير . ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره ، أخذ يكثر من السؤال عن أمه وأخيه ، وكثيراً ما كان يلح عليّ أن يأخذ عبيده الصغير الذي فقد هو أيضاً أخاه ليجثا عن أمه ومن معها . ورضيت آخر الأمر على الرغم مني ، لأنني وإن كنت شديد الرغبة في أن أعرف ما جرى لزوجتي وولدي الأكبر ، لم أكن أجهل أنني حين أرسل أصغر ولديّ للبحث عنهما قد أعرضه هو الآخر للضياع . وقد مضى

الآن على فراق ولدى سبع سنوات ، قضيت منها خمساً أضرب في الأرض باحثاً عنه ،
 وذهبت فيها إلى أقصى حدود بلاد اليونان ، واخترقت حدود آسية . وبينما أنا راجع
 إلى بلدى نزلت بهذه المدينة لأنى لا أريد أن يبقى فى العالم مكان يستطيع الناس أن
 يأووا إليه إلا بحثت عن ولدى وزوجتى فيه . وستنتهى قصة حياتى فى هذا اليوم ،
 ولو أنى عرفت أن ابنى وزوجتى على قيد الحياة لمت سعيداً ناعم البال .

وهكذا ختم إحيون البائس حديث أحزانه ، وأخذت الدوق الرأفة بهذا الأب
 السىء الحظ الذى جلب الشقاء على نفسه بحبه لولده المفقود ، وقال إنه كان يود أن
 يمفو عنه ويطلق سراحه لولا ما فى ذلك من خرق لقوانين بلده ، التى لا تسمح
 بمخالفتها كرامته ولا يمينه التى أقسمها بالمحافظة عليها . ثم قال إنه لن يحكم عليه
 بال موت فوراً كما تقضى بذلك حرفية القانون ، بل سيؤجل الحكم يوماً واحداً لعله
 يستطيع أن يستجدى الناس المال الذى يفتدى به حياته أو يقترضه منهم .

ولم ير إحيون فى هذا اليوم الذى أمهله له الدوق منة كبرى له ، لأنه لم يكن
 يعرف أحداً فى إفسوس ، وبدا له أنه لن يعثر على أحد فى تلك المدينة يستجديه أو
 يقترض منه ألف مراك يفتدى بها نفسه ، وخرج من حضرة الدوق فى خراصة أحد
 السجناء عاجزاً بائساً لا أمل له فى النجاة .

كان إحيون يظن أنه لا يعرف أحداً فى إفسوس ، ولكنه فى الوقت الذى
 أوشك فيه أن يلقى حتفه بسبب ما يبذله من الجهد فى البحث عن ابنه الأصغر ، كان
 هذا الابن نفسه وأخوه الأكبر كلاهما فى مدينة إفسوس .

ولم يكن ولدا إحيون متشابهين فى ملامحهما وجسميهما فحسب ، بل كانا إلى
 ذلك يسميان باسم واحد ، فكان يطلق على كليهما اسم أنتفلس Antipholus ،
 وكذلك كان كلا التوأمين الخادمين يسمى درميو Dromio .

واتفق أن وصل إلى إفسوس ، فى نفس اليوم الذى وصل فيه إليها إحيون ،
 ابنه الأصغر أنتفلس السرقوسى ، الذى كان والده الشيخ يبحث عنه ، ومعه عبده
 درميو . وإذ كان هذا الابن أيضاً تاجراً سرقوسياً ، فقد كان معرضاً لنفس الخطر
 الذى تعرض له أبوه ، ولكنه الحظ واتاه فلقى صديقاً له أخبره بالنكبة التى توشك

أن تحل بشيخ تاجر من أبناء سرقوسة ، وأشار عليه بأن يدعى أنه تاجر من إيدمنم . وعمل أنتفلس بهذه النصيحة ، ولكنه أسف حين سمع أن أحد مواطنيه كان معرضاً للخطر ، ولم يكن يدور بخلد أن هذا التاجر الشيخ هو أبوه نفسه . وكان ابن إحيون الأكبر (وسنسّميه من الآن أنتفلس الإفسوسى تمييزاً له من أنتفلس السرقوسى) يقيم فى إفسوس من عشرين عاماً ؛ وكان تاجراً مثيراً فى مقدوره أن يبدل المال المطلوب لاقتداء أبيه ، ولكن أنتفلس لم يكن يعرف شيئاً عن أبيه ، فقد كان صغير السن حين أخرجه الصيادون هو وأمه من البحر ، فلم يذكر إلا أنه قد نجا من الموت بهذه الطريقة ، ولا يعرف شيئاً عن أبيه أو عن أمه ، لأن الصيادين الذين أخرجوه هو وأمه والعبد الصغير درميو قد انتزعوا منها الطفلين ليبيعهما بيع الرقيق ؛ وأشدّ ما أحن ذلك هذه السيدة البائسة .

وباع الصيادون أنتفلس ودرميو إلى دوق منفون Menaphon ، وكان محارباً ذائع الصيت وعمّاً لدوق إفسوس . وجاء العم ومعه الولدان إلى إفسوس فى زيارة لابن أخيه . وأعجب دوق إفسوس بالشاب أنتفلس فعينه حين كبر ضابطاً فى جيشه ، وأظهر هذا الضابط فى الحرب شجاعة عظيمة فأنجى مرة حياة الدوق ولى نعمته ، فكافأه على ذلك بأن زوجه بفتاة من سراة إفسوس تدعى أدريانا Adriana . وكان أنتفلس لا يزال يعيش معها ، وعنده درميو ما زال فى خدمته ، حين جاء والده إلى تلك المدينة . ولما فارق أنتفلس السرقوسى صديقه الذى أشار عليه بأنه يقول إنه قادم من إيدمنم ، أعطى عبده درميو بعض المال ليذهب به إلى الفندق الذى اعتزم أن يتغدى فيه ، وأنبأه أنه سيقضى بعض الوقت فى الطواف بأحياء المدينة ليعرف شيئاً عن أخلاق أهلها .

وكان درميو شخصاً مرحاً ، فكان إذا أصاب أنتفلس غم أو حزن سرى عنه عبده غمه وحزنه بفكاهته المضحكة اللطيفة ، ولذلك كان سيده يسمح له فى حديثه معه بنصيب من الحرية أكثر مما يسمح به السادة لخدمهم .

ولما أرسل أنتفلس السرقوسى خادمه درميو إلى الفندق ، وقف برهة يفكر فى تجواله بمفرده للبحث عن أمه وأخيه اللذين لم يسمع عنهما شيئاً فى كل مكان نزل

فيه فاستولى عليه الحزن وقال فى نفسه : « إننى كقطرة من الماء فى المحيط ، تريد أن تعثر على أخواتها فتفقد نفسها فى هذا البحر اللجى . وتلك هى حالتى المحزنة بعيها ، فقد خرجت لأبحث عن أخى وأمى ففقدت نفسى » .

وبينا هو يفكر فى تجواله المتعب الذى لم يجن منه حتى ذلك الوقت نفعاً ، عاد درميو (كما ظن هو) ، وعجب أنتفلس من سرعة عودته فسأله أين ترك المال ؟ ولم يكن هذا الذى يكلمه هو درميو خادمه ، بل كان التوأم الثانى الذى يعيش مع أنتفلس الإفسوسى . وكان درميو وأخوه لا يزالان كما وصفهما إحيون فى صغرهما لا يفترق أحدهما عن الآخر فى شىء ، كما كان أنتفلس وأخوه ، ولذلك لم يكن عجباً أن يظن أنتفلس أن الذى يحدثه هو خادمه قد عاد من الفندق ، فأخذ يستفسر عن سبب إصراره فى العودة . وأجابه درميو بقوله « قد أرسلتنى سيدتى لأدعوك للغداء ، إن الديك يحترق ، والشواء من لحم الخنزير يساقط من السفود^(١) ، وسيبرد اللحم كله إذا لم تعد مسرعاً إلى البيت » . فأجابه أنتفلس بقوله : « ليس هذا أوان المزاح . إنى أسألك أين تركت المال ؟ » . ولما كرر درميو قوله إن سيدته قد أرسلته ليستدعى أنتفلس للغداء قال له أنتفلس « أى سيدة تعنى ؟ » فأجابه درميو : « زوجتك يا مولاي » . ولما لم تكن لأنتفلس زوجة فقد غضب من درميو وقال له : « أمن أجل أنى أتحدث إليك أحياناً فى غير كلفة تجرؤ على المزاح معى على هذا النحو الخالى من الاحتشام ؟ لست أرغب فى المزاح الآن ، فقل لى ماذا فعلت بالمال ؟ وكيف تجرؤ ونحن غريبان هنا على أن تضيع هذا القدر من المال الذى عهدت به إليك ؟ » . وسمع درميو سيده يقول إنهما غريبان فظن أنه يمزح ، وأجابه هو الآخر فى صرح : « أرجو يا سيدى أن تبقى المزاح حتى تجلس إلى المائدة ، إنى لم يعهد إلى بشىء إلا أن أعود بك إلى البيت لتتغدى مع سيدتى وأختها » . وعندئذ عميل صبر أنتفلس فطم درميو ، وعاد هذا إلى المنزل وأخبر سيدته أن مولاه يأبى أن يعود إلى الدار لتناول الغداء ، وإنه يقول إنه ليست له زوجة » .

(١) جاء فى قاموس المحيط . سفود كتشور حديدة يشوى بها . وتسفيد اللحم نظمه

فيها للاشتواء .

ولما سمعت أدريانا زوج أنتفلس الإفسوسى قول زوجها المزعوم إنه لا يعرف له زوجة غضبت أشد الغضب ، لأنها كانت حادة المزاج غيورة ، وقالت إن الذى يعنيه زوجها بهذا القول هو أنه يحب سيدة أخرى خيراً منها ؛ وأحفظها ذلك ، فأخذت تنطق بألفاظ الغيرة والعيب فى زوجها ، وحاولت أختها لسيانا Luciana التى كانت تقيم معها أن تبعد عنها هذا الظن السيئ الذى لم يكن له ما يبرره ، ولكنها لم تفجح . وعاد أنتفلس السرقوسى إلى الفندق فوجد درميو والمال آمنين لم يمسهما سوء ، ولما وقعت عينه على خادمه درميوهم أن يؤنبه على مزاحه وعدم احتشامه فى حديثه معه ، ولكن أدريانا جاءت فى تلك اللحظة ، ولم يدر بخلدائها أن الذى أمامها غير زوجها ، فأخذت تعيب عليه نظراته الغريبة إليها ، وحق له أن ينظر إليها هذه النظرات لأنه لم ير هذه السيدة الغضبية من قبل . وكان مما قالت له إنه كان شديد الحب لها قبل أن يتزوج بها ، أما الآن فإنه يحب سيدة أخرى غيرها . ثم قالت : « وماذا جنيت الآن يا زوجى ؟ ماذا جنيت حتى فقدت حبك ؟ » وقال أنتفلس فى دهشة شديدة : « أتحدثين إلى أيتها السيدة الحسنة ؟ » وحاول عبثاً أن يفهمها أنه ليس زوجها ، وأنه لم يقم فى إفسوس أكثر من ساعتين ، وأصرت هى على أن يذهب معها إلى المنزل . ولم يفلح أنتفلس فى التخلص منها فذهب معها إلى دار أخيه . وتغدى مع أدريانا وأختها ، وكانت إحداها تدعوه زوجاً والثانية أختاً . ودهش هو أشد الدهشة وظن أنه بين اثنين : إما أن يكون قد تزوجها فى نومه وإما أنه نائم فى تلك الساعة ، ولا ثالث لهما . ولم يكن درميو الذى ذهب معه أقل دهشة منه لأن خادمة المطبخ زوجة أخيه ادعت أيضاً أنه زوجها .

وبينا كان أنتفلس السرقوسى يتغدى مع زوجة أخيه ، عاد هذا الأخ زوجها الحقيقى ومعه عبده درميو لتناول الغداء ، ولكن الخدم أغلقوا دونهما الباب لأن سيدتهم قد أمرتهم ألا يسمحوا لأحد بالدخول ؛ ولما أخذ يدقان الباب ويقولان إنهما أنتفلس ودرميو ، سخرت منهما الخادمت وقلن لهما إن أنتفلس يتغدى مع سيدتهما ، وإن درميو فى المطبخ ؛ ومع أنهما كادا يكسران الباب من شدة الضرب

فإنهما لم يسمح لهما بالدخول ؛ فعاد أنتفلس آخر الأمر من حيث أتى ، وهو غاضب مندهش حين سمع أن رجلا يتغدى مع زوجته .

ولما فرغ أنتفلس السرقوسى من تناول الطعام تحير فى أمره حين رأى السيدة تصر على أن تدعوه زوجها ، وسمع أن خادمة المطبخ تدعو درميو أيضاً زوجها ، فلم يكذب حجة يتذرع بها للخروج من المنزل حتى غادره من فوره ؛ فهو وإن أعجب بلسيانا قد غضب أشد الغضب من غيرة أختها أدريانا ؛ ولم يكن درميو أقل من سيده كرهاً لزوجته الظريفة خادمة المطبخ ؛ ولذلك سر السيد وخادمه حين خرجا من الدار بأسرع ما يستطيعان .

وما كاد أنتفلس السرقوسى يغادر الدار حتى قابله صائغ ظنه أنتفلس الإفسوسى كما ظنته أدريانا ؛ فناداه باسمه وأعطاه سلسلة ذهبية ؛ ولما هم أنتفلس أن يرفض السلسلة ويقول إنه ليس صاحبها ، أجابه الصائغ أنه قد صنعها طوعاً لأمره ، وسار فى طريقه بعد أن ترك السلسلة فى يد أنتفلس ، فلم يكن منه إلا أن أمر خادمه درميو بأن يحزم أمتعته وينقلها إلى السفينة لأنه لا يريد أن يطيل المكث فى هذا المكان الذى لقي فيه تلك العجائب كلها ؛ ولم يشك قط فى أن السحر كان مصدر هذا كله .

وقبض بعد ذلك بقليل على الصائغ الذى أعطى السلسلة لغير صاحبها ؛ لأنه لم يوف بدين كان عليه ؛ واتفق أن مر بذلك المكان أنتفلس الإفسوسى المتزوج ، وظن الصائغ أنه هو الذى أعطاه السلسلة من زمن قليل ، فلما رآه طلب إليه أن يؤدى ثمنها ، وكان هذا الثمن يعادل بالتقريب المبلغ الذى قبض عليه من أجله . وأنكر أنتفلس أنه أخذ السلسلة ، وأصر الصائغ على قوله إنه أعطاه إياها من دقائق معدودة ، وظلا يتناقشان فى هذا زمناً طويلاً ، وكلاهما يظن أنه صادق فى قوله ، لأن أنتفلس كان يعلم أن الصائغ لم يعطه السلسلة ، وكان الأخوان متشابهين لدرجة لم يشك معها الصائغ فى أنه أعطاه إياها ؛ وبقياً على ذلك حتى ساق الضابط الصائغ إلى السجن جزاء له على عدم وفائه بالدين . وقبض فى نفس الوقت على أنتفلس بناء على

طلب الصائغ لأنه لم يؤد ثمن السلسلة ؛ وبذلك انتهى نقاشهما بأن سيقا معاً إلى السجن .

ولقي أنتفلس وهو في طريقه إلى السجن درميو السرقوسى عبد أخيه ، وظنه عبده فأمره أن يذهب إلى زوجته أدريانا ويخبرها أن تحضر له المال الذى قبض عليه من أجله . وعجب درميو أن يرسله سيده مرة أخرى إلى ذلك البيت العجيب الذى طعم فيه ، والذى أسرع فى الخروج منه من زمن قليل ، ولم يرد عليه بكلمة مع أنه جاء ليخبر سيده بأن السفينة توشك أن تغادر الميناء ؛ وذلك لأنه رأى أنتفلس فى حالة لا يصح معها أن يمزح معه . ثم تركه وهو غاضب متذمر من رجوعه على الرغم منه إلى بيت أدريانا حيث « تصر دوزبل Dowsable على أننى زوجها ، ولكن على أن أذهب لأن من واجب الخدم أن يطيعوا أمر سادتهم » .

وأعطته أدريانا المال ، وبينما هو فى طريقه إذ به يقابل أنتفلس السرقوسى ؛ وكان لا يزال فى أشد الدهشة مما لقيه فى إفسوس ، فقد كان أخوه من أهلها المعروفين فيها ، ولذلك فإنه لم يكن أحد منهم يراه فى طرقاتها حتى يحبيه كما يحبى الناس من يعرفونهم من قديم الزمن .

وكان بعضهم يعرض عليه مالا يقول إنه مدين له به ، وبعضهم يدعوهم إلى زيارته ، وبعضهم يشكر له نعمة أولاده إياها ، وكلهم يظنه أخاه . وعرض عليه أحد الخياطين حريراً قال إنه اشتراه له ، وأصر على أن يقيس طول له ليصنع منه ملابس له .

وبدأ أنتفلس يظن نفسه بين أمة من السحرة والساحرات ، ولم يكن درميو لينقذ سيده من حيرته ودهشته حين سأله كيف نجا من يد الضابط الذى كان يسوقه إلى السجن ، وأعطاه كيس النقود الذى بعثت به أدريانا إليه ليوفى به دينه . فلما سمع أنتفلس حديث درميو عن القبض عليه ، وعن السجن ، وعن المال الذى جاء به من أدريانا ؛ سقط فى يده وقال : « إن الفتى درميو قد جن من غير شك ، ونحن نطوف هنا فى جو من الأوهام » . وارتاع هو نفسه من أفكاره المضطربة فصاح قائلاً : « لعل قوة تعمل لخير البشر تنجيننا من هذا المكان العجيب » .

وجاء وقتئذ شخص آخر غريب ، وكان هذا الشخص سيدة نادية هي الأخرى باسمه ، وادعت أنه قد تغدى معها في ذلك اليوم ، وطلبت إليه أن يعطيها سلسلة ذهبية قالت أنه وعدها بها . فعيل صبر أنتفلس وقال إنها ساحرة ، وأنكر أنه وعدها بسلسلة أو أنه تغدى معها أو رأى وجهها قبل تلك الساعة . وأصرت السيدة على قولها إنه تغدى معها وإنه وعدها بسلسلة ؛ وأصر أنتفلس على إنكاره ، فقالت إنها قد أعطته فوق ذلك خاتماً ثميناً ، فإذا لم يأتها بالسلسلة فعليه أن يرد إليها خاتمها . وجن جنون أنتفلس في هذه الساعة ، وسماها عرافة ساحرة ، وأنكر أنه يعرفها أو يعرف شيئاً عن خاتمها ؛ وانتزع نفسه منها وتركها مندهشة من ألفاظه ومنظره المضطرب العجيب ، لأنها لم تكن تثق بشيء وثوقها بأنه قد تغدى معها وأنها أعطته خاتماً حين وعدها أن يهدي إليها سلسلة ذهبية . ولكن الحقيقة أن هذه السيدة قد وقعت في نفس الخطأ الذي وقع فيه غيرها من أهل المدينة ، وظنته أخاه . ذلك أن أنتفلس المتزوج هو الذي فعل كل ما عزته إلى أنتفلس هذا .

وجلية الأمر أن أنتفلس المتزوج لما حيل بينه وبين الدخول في بيته ، لأن من كان في البيت قد ظنوا خطأ أنه في داخله ، ذهب مغضباً وظن أن الأمر لا يعدو أن يكون نوبة من نوبات الغيرة التي تنتاب زوجته في كثير من الأحيان ، وذكر أنها كثيراً ما اتهمته بأنه يزور غيرها من النساء . وأراد أن ينتقم منها لأنها منعتهم الدخول في داره ، فصمم على أن يذهب ويتغدى مع هذه السيدة . فلما ذهب إليها وأحسن استقباله ، مع أن زوجته قد أساءت إليه ، وعد أن يعطيها سلسلة ذهبية كان قد اعتزم أن يهديها إلى زوجته ، وكانت هي السلسلة التي أعطاها الصائع خطأ إلى أخيه . وسر هذه السيدة سروراً كثيراً أن تعطى سلسلة ذهبية جميلة فأهدت إلى أنتفلس المتزوج خاتماً ذهبياً . فلما حسبت أنه أنكر هذا (لأنها ظنته أخاه) ، وقال إنه لا يعرفها ، وفر منها بهذه الطريقة المضطربة التي رأتها ، ظنت أن بعقله خبالاً ، واعتزمت أن تذهب إلى أدريانا وتخبرها أن زوجها قد جن . وبينما هي تقص الخبر على أدريانا جرى به في صحبة السجان ، وقد أذن له أن يأتي بيته ويأخذ منه المال ليؤدي ما عليه من الدين ، لأن كيس النقود الذي أرسلته أدريانا مع درميو قد وصل إلى يد أنتفلس الثاني .

وصدقت أدريانا ما قصته عليها السيدة من نبال جنون زوجها حين أخذ يعنفها على إغلاق بيته دونه ، وذكرت ما كان يردده أثناء الغداء من أنه ليس زوجها ، وأنه لم يأت إلى إفسوس إلا في ذلك اليوم ، فلم يبق لديها شك في أن موازين عقله قد اختلت ، ولذلك أدت المال إلى السجن ، ولما انصرف من عندها أمرت الخدم أن يوثقوا زوجها بالحبال وينقلوه إلى حجرة مظلمة ، وأرسلت تستدعي طبيباً ليعالجه من جنونه . وكان أنتفلس في أثناء هذا كله يحتج بأعلى صوته على هذه التهمة الباطلة التي لصقت به لما بينه وبين أخيه من شبه تام ، ولكن احتجاجه لم يكن له من أثر إلا أن يقوى اعتقادهم بجنونه . ولما كان درميو قد بقى هو أيضاً مصراً على نفس القصة التي قصها سيده ، فقد أوثقوه هو أيضاً وألقوه في الحجرة المظلمة .

ولم يمض وقت طويل على حجز أنتفلس ودرميو ، حتى جاء أدريانا خادم يقول لها إن أنتفلس ودرميو قد فرا من حراسهما ، وإنيهما يسيران في الطريق المجاور للدار . فلما سمعت ذلك أسرع لتعيده إلى البيت ، واستصحبت بعض الناس لتكون أقدر على الإمساك بزوجها ، وذهبت معها أيضاً أختها . ولما وصلوا إلى باب دير مجاور للبيت شاهدوا أنتفلس ودرميو ، وخدعوا مرة أخرى بما كان بين التوأمين من تماثل تام .

وكان أنتفلس السرقوسي لا يزال يعاني أثر المتاعب التي جرّها عليه هذا التشابه ، فقد كانت السلسلة الذهبية حول عنقه ، وكان الصائع يعنفه على إنكارها ورفضه أداء ثمنها ، وكان أنتفلس يحتج على ذلك ، ويقول إن الصائع قد أعطاه السلسلة في الصباح ولم يطالبه بثمنها ، وإنه لم يره من ذلك الوقت إلا في هذه الساعة .

ثم جاءت أدريانا تقول إنه زوجها المجنون الذي فر من حراسه ، وهم الرجال الذين جاءت بهم معها أن يقبضوا عليه هو ودرميو بالعنف ، ولكنهما دخلا الدير مسرعين ، وطلب أنتفلس إلى رئيسه أن تأويه فيه .

وخرجت الرئيسة نفسها إلى القوم تسألهم عن سبب هذا الضجيج ؛ وكانت سيدة وقورة رزينة ، صادقة الحكم على ما تقع عليه عينها ، ولم تتسرع في تسليم الرجل الذي جاء إلى بيتها يطلب حمايتها ، ووجهت إلى الزوجة أسئلة دقيقة عن قصة

جنون زوجها ، وقالت لها : « ما سبب هذا التغير الفجائي في طباع زوجك ؟ . هل خسر ثروته في البحار ؟ أو هل مات له صديق عزيز فاضطرب لموته عقله ؟ » . وأجابت أدريانا بأن اضطرابه لا يرجع إلى شيء من هذا ، فقالت رئيسة الدير : « لعله قد أحب سيدة غير زوجته فساقه الحب إلى هذه الحال التي نراها ؟ » وأجابت أدريانا أنها كانت تظن من زمن بعيد أن سبب غيابه الكثير عن البيت يرجع إلى حب سيدة أخرى غيرها . والحق أن الذي كان يضطر أنتفلس إلى ترك بيته هو أنه كان يضيق ذرعا بغيرة زوجته ، ولم يكن سبب ذلك أنه يحب غيرها من النساء . وحذرت رئيسة الدير هذا حين شاهدت ما في أخلاق أدريانا من عنف وحدة ، ولكنها شاءت أن تثبت منه فقالت لها : « كان عليك أن تزجره على هذا » . فأجبتها أدريانا : « لقد فعلت ذلك » . فقالت رئيسة الدير . « لعنك لم تزجره زجراً كافياً » . وأرادت أدريانا أن تقنع رئيسة الدير بأن ما قالت له لانتفلس كان كافياً له فردت عليها قائلة : « لقد كان هذا موضوع حديثنا في كل آن : فإذا آوينا إلى الفراش منعت عنه النوم بحديثي عنه ، وإذا جلسنا إلى المائدة لم يذق للأكل طعاماً لما كنت أسمع من الكلام في هذا الموضوع ، وإذا خلوت إليه لم أحدثه في شيء غيره ، وإذا كان معنا غيرنا أشرت إليه إشارات خفية عارضة ، وكان كل حديثي ينحصر في أن من النذالة والخسة أن يحب غيرة أكثر مني » .

ولما استدرجت ربة الدير أدريانا إلى الاعتراف بهذا كله قالت لها : « ومن أجل هذا جن زوجك . إن في حاجة المرأة الغيور لسما أشد فتكا من ناب الكلب السَّعِر ، ويلوح أن سخريتك قد حرمته طعم النوم ، فلا عجب أن ينحف رأسه ، وقد امتزج طعامه بتأنيبك ، والغضب وقت الطعام يفسد الهضم ، ولهذا حرم زوجك . وتقولين إنك أفسدت عليه رياضته بتعنيفك ، فإذا كنت قد حرمت عليه التمتع بمجالسة الرفاق والرياضة والألعاب ، فلا مفر من أن يؤدي به هذا إلى الكآبة والحزن واليأس الكريب ، فغيرتك إذن هي التي ذهبت بعقل زوجك » .

وأرادت لسيانا أن تدافع عن أختها فقالت إن تعنيفها لزوجها كان دائماً في

رفق ، ثم قالت لأختها : « ما بالك تسمعين هذا التأنيب ثم لا تجيبين عنه ؟ »
ولكن رئيسة الدير كانت قد كشفت لها عن خطئها فلم تجب عن سؤال أسيانا
بأكثر من قولها : « لقد استدرجتني حتى أقررت بذنبي » .

وأقرت أدريانا بسوء سلوكها ، ولكنها ظلت مصرة على أن يُسَلَّم إليها
زوجها ؛ غير أن رئيسة الدير لم تسمح لأحد بأن يدخل بيتها ، وأبت أن تسلم هذا
الرجل البائس إلى زوجته الغيور ، واعتزمت أن تستعين على شفائه بالرقعة واللين ،
ثم دخلت دارها وأمرت بإغلاق الأبواب .

وفي أثناء هذا النهار المليء بالأحداث ، والذي وقعت فيه كل هذه الأعلاط لما
كان بين الأخوين التوأمين من تماثل تام ، كان اليوم الذي أمهله الشيخ إحيون
يمر حتى أشرفت شمس على المغيب ، وكان مغيب الشمس هو الموعد المحدد لتنفيذ
حكم الإعدام إذا لم يؤد الفداء . وكان موضع تنفيذ الحكم بجوار الدير ، وجرى
به إلى هذا المكان في الوقت الذي دخلت فيه رئيسة الدير إلى بيتها ، وجاء الدوق
أيضاً بنفسه ليستطيع أن يعفو عن الشيخ إذا ما تقدم أحد بأداء الفدية عنه .

واعترضت أدريانا هذا الموكب الحزين وصاحت طالبة من الدوق تنفيذ العدالة ،
وقالت له إن رئيسة الدير تأبى أن تسلمها زوجها المعتوه لتعني به . وبينما هي في حديثها
إذ أقبل زوجها الحقيقي ومعه خادمه درميو ، بعد أن انطلق الزوج من سجنه ،
وطلب إلى الدوق أن ينصفه من زوجته ، لأنها قد سجنته واتهمته بأنه معتوه ،
وقص عليه كيف حل وثاقه وفر من حراسه ، ودهشت أدريانا حين رأت زوجها
الذي كانت تظنه في داخل الدير .

ورأى إحيون ولده فأيقن أنه هو ابنه الذي فارقه لبحث عن أمه وأخيه ، ولم
يخامرهم شك في أن هذا الابن العزيز سيؤدي من فوره المال اللازم لفدائه ، ولذلك
خاطب أنتفلس بألفاظ العطف الأبوى ، وهو مبتهج يرجو أن يطلق سراحه . وما
كان أشد دهشة إحيون حين أنكر ولده معرفته به ، ولم يكن عليه في ذلك حرج
لأن أنتفلس هذا لم ير أباه من اليوم الذي افترقا فيه وهو طفل حين ثارت العاصفة .
وبينا كان هذا الرجل البائس يحاول عبثاً أن يحمل ابنه على أن يعترف بأنه أبوه ،

وتحدثه نفسه بأن أحزانه وما صادفه من قلق واضطراب قد بدلته حتى لم يعرفه ولده ، أو أن هذا الولد استنكف أن يعترف بأبيه لما كان يبدو عليه من بؤس وشقاء ، بينما هو في هذه الحيرة إذا برية الدير تخرج ومعها أنتفلس الثاني ودرميو ، ورأت أدريانا في دهشة وحيرة زوجين وخادمين يقفون أمامها .

واتضح لهم الآن كل هذه الأغلاط والألغاز التي حيرتهم . ذلك أن الدوق حين رأى أنتفلس وأخاه ، ورأى ما بينهما من تماثل ، هداه عقله إلى سبب هذه الألغاز التي بدت له محيرة عجيبة ، وذكر القصة التي رواها له إچيون في صباح ذلك اليوم ، فقال إن أولئك الرجال هم من غير شك ولدا إچيون وخادماها التوأمان ، وانتهت هذه الحوادث كلها بسرور آخر لم يكن منتظراً ؛ ذلك أنه قبل أن تغرب شمس ذلك اليوم اختتمت القصة التي رواها في الصباح وهو حزين بائس ينتظر الحكم عليه بالإعدام بخاتمة سعيدة ، فقد كشفت ربة الدير الوقورة عن حقيقة أمرها ، فإذا هي زوجة إچيون التي طال غيابها ، وأم أنتفلس وأخيه .

ذلك أنه لما أخذ الصيادون منها أنتفلس وخادمه دخلت الدير ، ورفعها رأيها السيد وخلقها الكريم حتى صارت رئيسته ، ولم تكن وهي تقوم بواجب الضيافة للرجل الغريب البائس تعرف أنها إنما تحمي ولدها .

وأخذ الأبوان والولدان يتبادلون عبارات التهنئة والتحية ، بعد أن دام فراقهم زمناً طويلاً ، فنسوا في غمرة الأفراح أن إچيون لم يرفع عنه حكم الإعدام ؛ فلما هدأت سورة عواطفهما بعض الشيء عرض أنتفلس الإفسوسى على الدوق المال اللازم لافتناء أبيه ، ولكن الدوق عفا عن إچيون ورد الفداء . ودخل الدوق الدير ومعه رئيسته وولداها اللذان عثرت عليهما في تلك الساعة ليستمع إلى أفراد هذه الأسرة البائسة ، وهم يتحدثون على مهل عن هذه الخاتمة السعيدة التي احتتم بها شقاؤهم . وجدير بنا ألا ننسى اغتباط درميو وأخيه على قلة شأنهما ، فقد تبادلوا أيضاً عبارات التحية والتهنئة ، وأخذ كل منهما يثنى على ما يمتاز به أخوه من وسامة ، وقد سرَّ كلا منهما أن يرى صورته الجميلة في وجه أخيه كأنه يراها في مرآة .

وأفادت أدريانا فائدة كبيرة من نصائح والدته زوجها وآرائها السديدة ، فلم يبق
 في قلبها من تلك الساعة أثر للرؤية الخاطئة من زوجها أو الفيرة عليه .
 وتزوج أنتفلس السرقوسي بلسيانا الحسنة أخت زوجة أخيه ، وعاش الشيخ
 إحيون الطيب القلب مع زوجته وأولاده سنين طويلة في إفسوس .
 على أن هذه الأغلاط الماضية التي كشف سرها بهذه الطريقة لم تحل دون
 وقوع أغلاط أخرى من نوعها في الأيام المقبلة ؛ فقد كانت تحدث أغلاط أخرى
 يضحكون منها ويذكرون بها ما أصابهم في أيامهم الماضية ، فكان الناس
 يخطئون في التعرف على أنتفلس هذا أو ذاك ، وعلى درميو وأخيه . واجتمع من
 هذه الأخطاء ملهامة من الأغلاط سارة ومسلية .

دقة بدقة

كان يحكم مدينة ويانة Vienna في غابر الأزمان دوق بلغ من حلمه ودمائه أخلاقه إن كان يسمح لرعاياه ألا يراعوا شريعة البلاد دون أن يخشوا عقاباً . وكان من قوانين الدولة قانون كاد ينسى الناس وجوده بنوع خاص ، لأن الدوق لم ينفذه قط في أثناء حكمه كله . وكان هذا القانون يقضى بالإعدام على كل شخص يعيش مع امرأة غير زوجته ؛ وأغفل الناس هذا القانون وتجاهلوه بسبب لين الدوق وتساهله ، حتى أهملت سنة الزواج المقدسة ، وتتابع الشكاوى في كل يوم على الدوق من آباء الفتيات في ويانة يقولون فيها إن بناتهم قد أغرين بالخروج عن طاعتهم والمعيشة في صحبة الرجال الأغراب .

وشاهد الدوق في حزن هذا الشر يستفحل بين رعاياه ، ولكنه خشى أن يتحول شعبه عن حبه ويصمه بالظلم والاستبداد إذا بدل طبعه وخرج فجأة عن تسامحه ولينه إلى الشدة التي تتطلبها حكم هذا الداء . ولذلك عول على أن يخرج من دوقيته وقتاماً وينزل لغيره عن سلطانه كله ، ليستطيع من يتولى الأمر عنه أن ينفذ القانون في هؤلاء المحبين الأدنياء ، من غير أن يسيء هو إلى الناس ويلجأ بنفسه إلى هذه الشدة غير المعتادة .

واختار الدوق للاضطلاع بهذا الواجب الخطير رجلاً عرف في ويانة بأنه من الأتقياء الصالحين ، لما كان يلتزمه في حياته من التقشف والاستمساك بحميد الأخلاق . وكان هذا الرجل يسمى أنجلو Angelo ، ولما أسر الدوق هذه النية إلى لورد إسكس Escalus كبير مستشاريه ، قال له : « إذا كان في ويانة رجل جدير بأن يعهد إليه بهذا الشرف الرفيع فهو لورد أنجلو » . وخرج الدوق من ويانة زاعماً أنه ذاهب في زيارة إلى بولندة Poland وأتاب أنجلو عنه في حكم المدينة ، ولكن الدوق لم يغب في الحقيقة عن ويانة ، بل عاد إليها سراً في لباس راهب ليراق خفية مسلك أنجلو الذي يظنه الناس قديساً .

وحدث في الوقت الذي خلع فيه السلطان على أنجلو أن أغرى رجل يدعى كلوديو Claudio فتاة من أهل المدينة بالفرار من بيت أبويها ، وقبض على هذا الرجل بأمر نائب الحاكم وزج في غيابة السجن ، ثم حكم عليه بالإعدام تنفيذاً لهذا القانون القديم الذي طالما أغفل . وبذلت جهود عظيمة لاستصدار العفو عن الشاب كلوديو ، وتدخل في الأمر ذلك الرجل الطيب لورد إسكس نفسه ، وكان مما قاله « أسفى عليه ! لقد كان لهذا الفتى الذي أسعى للعفو عنه أب شريف ، وإني لأرجو أن تغفر له ذنبه إكراماً لأبيه » ، فأجابه أنجلو بقوله : « يجب ألا نعبث بالقانون ونستهزئ به ، فنجعله أشبه بالنصب الذي يقام لتخويف الطير ، حتى إذا اعتادت ألا ترى منه ضرراً لم تعد ترهبه ، واتخذته لها مجماً ، إذن فلا بد أن يموت » .

وزار كلوديو في السجن صديق له يدعى لوسيو Lucio وقال له كلوديو : « أرجو أن تصنع معي هذا الجليل ، اذهب إلى أختي إزبل Isabel التي اعتزمت أن تدخل اليوم دير القديس كلار Saint Clare ، وأطلعها على الخطر المحقق بي ، وتوصل إليها أن تتصل بنائب الدوق المتشدد ، وقل لها أن تذهب بنفسها إلى أنجلو . إن أُملي في نجاحها كبير ، فهي تجيد فن الحديث ، وهي قادرة على الإقناع ، وفوق هذا فإن لحزن الشباب قوة صامتة تفعل فعلها في قلوب الرجال » .

وكانت إزبل أخت كلوديو قد دخلت الدير في ذلك اليوم كما قال أخوها لتقضى فيه مدة التمرين على الرهينة ؛ وكانت نيتها منصرفه إلى لبس ثياب الراهبات بعد أن تقضى في الدير مدة التمرين . وبينما هي تسأل إحدى الراهبات عن قوانين الدير إذا بهما تسمعان صوت لوسيو يقول وهو يدخل هذا البيت من بيوت الله : « سلام على هذا المكان » ، وقالت إزبل : « منذا الذي يتكلم ؟ » . وقالت الراهبة : « إن ذلك صوت رجل ، فاذهي إليه يا إزبل واسأليه ماذا يريد ؟ إن لك أن تفعل هذا ، أما أنا فلا أستطيع . فاذا لبست النقاب وجب عليك ألا تخاطبي الرجال إلا في حضرة كبيرة الراهبات ، فاذا خاطبتهم فعليك ألا تظهرى لهم وجهك ، وإذا أظهرت وجهك لهم وجب عليك ألا تخاطبهم » . وسألتها إزبل « أليس لكن أيتها الراهبات

بعد ذلك حقوق لا يتمتع بها غير كن من الناس ؟ » ، فأجابتها الراهبة بقولها : « أليس في هذه ما يكفيك ؟ » ، وقالت إزبل « بلى إنه يكفيننا حقاً ، فأنا لا أتكلم لأطلب المزيد من الحقوق بل لأظهر رغبتى فى أن تفرض على الراهبات المتعبدات فى دير القديس كلار قيود أشد من هذه القيود » . وسمع صوت لوسيو مرة أخرى فقالت الراهبة : « إنه ينادينا من جديد فأرجو أن تجيبه » . وخرجت إزبل للقاء لوسيو ، ولما سلم عليها ردت عليه السلام بقولها : « سلام ورخاء ، منذا الذى ينادينا ؟ » ثم تقدم إليها لوسيو فى أدب واحترام وقال : « تحية أيتها العذراء ، إذا كنت حقاً عذراء ، كما تدل على ذلك وجنتاك الورديتان . هل فى وسعك أن تأخذينى إلى حيث أرى إزبل الفتاة التى تقضى مدة التمرين فى هذا المكان ؟ وهذه الحسنة أخت لأخيها البائس كلوديو » . وقالت إزبل : « ولم تقول لأخيها البائس ؟ نبئنى فأنا إزبل وأنا أخته . » وأجابها لوسيو « أيتها السيدة الحسنة للظريفة ، إن أخاك يقرئك على لسانى السلام ، وهو فى السجن » . فقالت إزبل : « ويل لى ، وبأى ذنب سجن ؟ » وأخبرها لوسيو أنه فى السجن جزاء له على إغرائه فتاة من بنات المدينة ، فردت عليه قائلة ! « أسفى عليه ، إننى أخشى أن تكون هى ابنة عمى چوليت Juliet » . ولم تكن إزبل وچوليت من الأقارب ولكن كليهما كانت تقول للآخرى يا ابنة العم تذكاراً للصدقة التى نشأت بينهما فى عهد الدراسة . وكانت إزبل تعرف أن چوليت تحب كلوديو فخشيت أن يكون حبها له قد أوقعها فى هذا الزلل . وأجاب لوسيو « إنها هى » . وقالت إزبل : « إذن فليتزوجها أخى » ، فرد عليها بقوله إن كلوديو يسره أن يتزوج بها ، ولكن نائب الدوق قد حكم عليه بالإعدام جزاء له على جرمه « إلا إذا استطعت أن ترقى قلبه بلطفك وجميل رجائك . وهذه هى الرسالة التى جئت بها إليك من عند أخيك » . وقالت إزبل : واأسفاه ! أى خير أستطيع أنا العاجزة أن أفعله ؟ إنى لأشك فى قدرتى على التأثير فى أنجلو » . وأجابها لوسيو « إن الشكوك تغدر بنا وتذهب بالخير الذى فى وسعنا أن نناله بما تدخله فى نفوسنا من خشية الإقدام عليه . اذهبي إلى لورد أنجلو . إن الفتيات إذا تشفعن وجثون وبكين ، أجزل الرجال العطاء كأنهم أرباب » . وقالت

إزبل : « سأنظر ماذا أستطيع أن أفعل . ولن أنتظر إلا ريثما أبلغ الأمر لرئيسة الدير ، ثم أذهب من فوري إلى أنجلو . بلغ تحياتي لأخي وسأبعث إليه في هذه الليلة نبأ نجاحي في مهمتي » .

وذهبت إزبل إلى القصر وجشت على ركبتيها أمام أنجلو وقالت له : « إني فتاة حزينة ألجأ إلى مكارمك إذ سمح كرمك بالإصغاء إلى » ؛ ورد عليها أنجلو بقوله : « وماذا تطلبين ؟ » فشرحت له مطلبها بألفاظ تلين الجماد ، وسألته أن يعفو عن أخيها . فقال لها أنجلو : « أيتها الفتاة لا رجوع فيما قضيت ، فقد صدر الحكم على أخيك ولا بد من موته » . فقالت إزبل : ما أعدل هذا القانون ، ولكن ما أشده ، إذاً فقد كان لي أخ ، والله يحفظك » . وهمت بالخروج ولكن لوسيو ، وقد جاء معها ، قال لها : « لا تيأسى بهذه السرعة ، بل عودي إليه ، وتضرعي إليه ، واركي أمامه ، وتعلقى بأذياله ، إنك فاترة في رجائك فوق ما ينبغي ، ولو أنك كنت في حاجة إلى أقل الأشياء قيمة لما طلبتها منه بأكثر مما طلبت ثقباً في اللسان وكلاله » . وعندئذ جشت إزبل على ركبتيها وتضرعت إليه أن يرحم أخيها . فقال لها أنجلو : « لقد قضى الأمر وفات الأوان » . فأجابته إزبل : « أقول فات الأوان ؟ إنه لم يفت . إن في طائفتي أنا التي أنطق بالكلمة أن أستردها . ثق أيها السيد العظيم أن التاج على رأس الملك ، والسيوف في قبضة الحاكم ، والعصا في يد القائد العظيم ، والوشاح على جسم القاضي ، أن شيئاً من هذا لا يزين صاحبه كما تزينه الرحمة » . فرد عليها أنجلو بقوله : « أرجو أن تذهبي من هذا المكان » . ولكن إزبل ظلت ترجو وتتوسل وقالت : « لو كان أخي مكانك وكنت أنت مكانه لوقعت فيما وقع فيه ، ولما قسا عليك مثل قسوتك عليه ؛ ولو كان لي مالك من سلطان ، وكنت أنت إزبل أفتظن أن الأمر يكون كما هو الآن ؟ كلا ! لو كان الأمر كذلك لعلمتك كيف يكون القاضي وكيف يكون السجين » . فرد عليها أنجلو بقوله : « أرجو أن تثقي أيتها الفتاة الحسنة أنني لم أقض بالموت على أخيك ، وإنما قضى عليه بذلك القانون ؛ ولو كان هو من أقاربي ، بل لو كان أخي أو ولدي ، لما لقي مني غير هذا . ولا بد أن يموت غداً » . فقالت إزبل : « غدا ؟ ما هذه العجلة ؟

أمهله ، إنه لم يستعد بعد للموت . إن الدجاجة التي نذبحها لطعامنا لا نذبحها في غير الأوان ، فهل يصح أن يكون إجلالنا لله أقل من إجلالنا لأنفسنا الخبيثة ؟ . أيها السيد الكريم ، ترو في الأمر ولا تعجل . إن إحداً لم يمت بسبب هذا الحرم الذي ارتكبه أخى ، وإن كان كثيرون غيره قد ارتكبوه ؛ فإذا قضيت بقتله كنت أول من قضى بهذا القتل ، وكان هو أول من قضى عليه به . ارجع إلى قلبك وسله هل طاف به ما يشبه الذنب الذي ارتكبه أخى ؟ فإذا أقر لك بأنه قد ارتكب هذا الذنب الذي هو من طبيعة البشر ، فلا تترك له مجالاً للتفكير في موت أخى . وكان وقع عبارتها الأخيرة أشد من وقع كل ما قالته قبل ، وذلك لأن جمال أزيل البارع قد أثار عاطفة أثيمة في قلبه ، وأخذت تجيش في صدره أفكار من الحب الدنى ومن نوع الجريمة التي ارتكبتها كلوديو . وثار في قلبه صراع عنيف لم ير معه إلا أن يدير وجهه عن أزيل ؛ فنادته قائلة : « عد أيها السيد الرحيم ، واستمع لما أرشوك به ، عد أيها السيد الكريم » . وصاح أنجلو مندهشاً من جرأتها على التفكير في رشوه ، وواصلت أزيل حديثها قائلة : « نعم أرشوك رشاً تشترك معي فيها السماء ، ولست أرشوك بالذهب أو الحجارة المتلألئة التي يعلو ثمنها أو ينخفض كما تشاء أو هام الناس ، بل أرشوك بالدعوات الصالحة ترتفع إلى السماء قبل مطلع الشمس ، وهي دعوات صادرة من نفوس معصومة من الزلل ، من عذارى صائمات لا تفكر عقولهن في شيء من متاع الدنيا » . وقال لها أنجلو : « إذاً فاحضرى إلى غداً » . وخرجت أزيل من حضرته وقد بعثت هذه المهلة القصيرة وسماحه لها أن تعود إليه لتحديثه في الأمر مرة أخرى ، بعثت فيها هذه المهلة وهذه المنحة ، أملاً ساراً بأن تتغلب آخر الأمر على طبعه القاسى ، وقالت وهى تهم بالانصراف من عنده : « أسأل الله أن يحفظ عليك شرفك ، أسأل الله أن يسلم شرفك » . فلما سمع أنجلو هذا الدعاء قال في نفسه : « آمين ، لعل الله ينجيني منك ومن سحر فضائك » . وروعته في ذلك الوقت أفكاره الخبيثة فقال : « ما هذا ؟ هل أحببتها فبعث هذا الحب في نفسى الرغبة في سماعها والتمتع بجمال عينيها ؟ في أى شيء أفكر ؟ إن الشيطان الماكر ، عدو الإنسان الألد ، إذا أراد أن يغوى أولياء الله

أَتخِذُ الْأَوْلِيَاءَ سَبِيلًا إِلَى هَذِهِ الْغَوَايَةِ . إِنَّ امْرَأَةً مِنَ النِّسَاءِ الْمُتَبَرِّجَاتِ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَغْوِيَنِي ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ الْعَفِيفَةُ قَدْ سَيَّطَرَتْ عَلَيَّ وَأَخْضَعْتَنِي لِأَمْرِهَا ، وَلَقَدْ كُنْتُ حَتَّى هَذِهِ السَّاعَةِ أُسَخَّرُ مِنَ الْمُحِبِّينَ وَأَعْجَبُ مِنْ أَمْرِهِمْ . »

وَقَضَى أَنْجَلُو تِلْكَ اللَّيْلَةَ يَصَارِعُ هَذِهِ الْعَاطِفَةُ الْأَجْرَامِيَّةَ الَّتِي ثَارَتْ فِي قَلْبِهِ ، وَكَانَ مَا قَاسَاهُ مِنَ الْأَلَمِ فِي هَذَا الصَّرَاعِ أَشَدَّ مِمَّا قَاسَاهُ السَّجِينُ الَّذِي قَضَى هُوَ بِإِعْدَامِهِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الدُّوقَ الرَّحِيمَ قَدْ زَارَ كَلُودِيُو فِي سَجْنِهِ وَهُوَ فِي ثِيَابِ الرَّهْبَانِ ، وَأَخَذَ يَرْشُدُهُ إِلَى سَبِيلِ رِضَاءِ اللَّهِ ، وَيُعَلِّمُهُ عِبَارَاتِ التَّوْبَةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ . أَمَّا أَنْجَلُو فَقَدْ كَانَ طَوَالَ اللَّيْلِ يَكْبِدُ الْآلَامَ الَّتِي يَكْبِدُهَا الْمَجْرِمُ الْمُتَرَدِّدُ ، فَهُوَ آتَاً يَفْكَرُ فِي أَنْ يَغْوَى إِزْبِلَ وَيُضِلُّهَا عَنْ طَرِيقِ الطَّهَرِ وَالشَّرَفِ ، وَآتَاً يَرْتَاعُ وَيُؤْنِبُهُ ضَمِيرُهُ عَلَى الْجَرِيمَةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ قَدْ خَرَجْتَ بَعْدَ مِنْ طُورِ التَّفَكِيرِ إِلَى طُورِ الْعَمَلِ ، وَفِي آخِرِ الْأَمْرِ ضَلَّ وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ شَقْوَتُهُ ، وَاعْتَزَمَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي ارْتَاعَ مِنْ زَمَنِ قَصِيرٍ مِنْ سَمَاعِ لَفْظِ الرِّشْوَةِ أَنْ يَغْوَى هَذِهِ الْفَتَاةَ الْعِذْرَاءَ بِرِشْوَةٍ غَالِيَةٍ لَا تَقْوَى عَلَى رَدِّهَا ، وَهِيَ حَيَاةُ أَخِيهَا الْعَزِيزِ .

وَلَمَّا جَاءَتْ إِزْبِلُ فِي الصَّبَاحِ طَلَبَ إِلَيْهَا أَنْجَلُو أَنْ تَدْخُلَ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ قَالَ لَهَا إِنَّهَا إِذَا أَسْلَمْتَ شَرَفَهَا إِلَيْهِ ، وَزَلْتَ كَمَا زَلْتَ چُولِيَتَ مَعَ كَلُودِيُو ، وَهَبَ لَهَا حَيَاةَ أَخِيهَا ، وَأَضَافَ إِلَى ذَلِكَ قَوْلَهُ : « وَذَلِكَ لِأَنِّي أَحْبَبْتُ يَا إِزْبِلُ » ، فَدَبَّتْ عَلَيْهِ إِزْبِلُ بِقَوْلِهَا : « وَهَكَذَا كَانَ أَخِي يُحِبُّ چُولِيَتَ ، وَمَعَ ذَلِكَ تَقُولُ لِي إِنَّهُ سَيَقْتُلُ بِسَبَبِ هَذَا الْحُبِّ » . وَقَالَ أَنْجَلُو « وَلَكِنْ كَلُودِيُو سَيَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ إِذَا رَضِيتُ أَنْ تَأْتِيَ إِلَيَّ خَلْسَةً فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ كَمَا خَرَجْتَ چُولِيَتَ مِنْ بَيْتِ أَبِيهَا فِي اللَّيْلِ لِتَأْتِيَ إِلَيَّ كَلُودِيُو » . وَدَهَشَتْ إِزْبِلُ مِنْ قَوْلِهِ هَذَا وَمِنْ إِغْرَائِهِ لَهَا عَلَى أَنْ تَرْتَكِبَ نَفْسَ الْإِثْمِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ قَضَى بِإِعْدَامِ أَخِيهَا ، فَقَالَتْ لَهُ : « إِنِّي لَا أَتَرَدَّدُ فِي أَنْ أَفْعَلَ مِنْ أَجْلِ أَخِي الْبَائِسِ مَا أَفْعَلُهُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِي ، وَلَكِنِّي لَوْ خَيْرْتُ بَيْنَ هَذَا الْفِعْلِ الذَّمِّمِ وَبَيْنَ أَنْ يَلْهَبَ جَسَدِي بِالسِّيَاطِ ، وَيَقْضَى عَلَيَّ بِالْإِعْدَامِ ، لَفَضَلْتُ أَنْ تَمْرُقَ السِّيَاطُ جِلْدِي حَتَّى يَنْزِفَ مِنْهَا الدَّمُ فَيَكُونُ كَالْيَوَاقِيتِ أَرْيَسَ بَهَا ، وَلَذَهَبْتُ إِلَى لِقَاءِ الْمَوْتِ كَأَنَّمَا أَذْهَبُ إِلَى فَرَّاشِ وَثِيرٍ طَالَمَا تَأَقَّتْ نَفْسِي إِلَيْهِ » . وَلَمَّا أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا تَرْجُو أَلَّا يَكُونَ كَلَامُهُ هَذَا إِلَّا وَسِيلَةً

يختبر بها طهرها وعفتها قال لها : « صدقيني وأقسم لك أن الفاظي لا تعبر إلا عن غرضي » . واغتاضت إزبل حين سمعت كلمة الشرف تستخدم للتعبير عن هذا الغرض غير الشريف فقالت : « ما أقل هذا الشرف الذي يراد أن تؤمن به ، وما أحقر هذا الغرض الذي ترمي إليه ! لأفضحك يا أنجلو ، فتدبر في أمرك وأنفذ الآن أمراً بالعفو عن أخي ، وإلا أذعت بأعلى صوتي في طول البلاد وعرضها أي رجل أنت » . فأجابها أنجلو بقوله : « ومنذا الذي يصدق قولك يا إزبل ؟ إن حسن سمعتي ، وحياة الزهد التي أحياها ، وأقوالى التي أدحض بها فريتك ، كل هذا يجعل كفتي هي الراجحة ، ويسقط عني تهمتك ، فأنتقذ أخاك بالخضوع لإرادتي وإلا أعدم غداً . أما أنت فقولي للناس كل ما تشائين ، فإن قصتي الكاذبة سترجح قصتك الصحيحة ، وسأمهلك في الجواب إلى غد » .

وخرجت إزبل متجهة إلى السجن الرهيب الذي زج فيه أخوها ، وقالت وهي في طريقها إليه : « لمن أشكو يا إلهي ؟ إذا قلت هذا فمنذا الذي يصدقني ؟ » ولما وصلت إلى السجن كان الدوق وأخوها يتناجيان ، وكان الدوق قد زار أيضاً جوليت وهو في ثياب راهب وأشعر هذين المحبين الآثمين بحقيقة إثمهما ، وأقرت جوليت التعسة والدموع تهمر من عينيها ، والندم باد في أقوالها ، بأن الذنب يقع معظمه عليها لا على كلوديو ، لأنها استجابت لرجائه الآثيم .

ولما دخلت إزبل الحجرة التي كان فيها أخوها قالت : « السلام على من هنا ، مغفرة وحسن رفقة » . وقال الدوق المنتكر : « من الطارق ؟ ادخل ، إن هذا الدعاء جدير بحسن الاستقبال » . وقالت إزبل : « إنني أريد أن أقول كلمة أو كلمتين لكلوديو » . وعندئذ تركهما الدوق وحدهما وطلب إلى محافظ السجن أن يرشده إلى مكان يسمع فيه حديثهما ولا يريانه فيه .

وقال كلوديو : « أي أختي ! ماذا جئت به لتريحيني وتطمئني بالي ؟ » وأجابته إزبل قائلة إنه يجب عليه أن يستعد للموت غداً . وسألها كلوديو : « هل من سبيل إلى الخلاص ؟ » . فأجابته إزبل : « نعم ، نعم إن للخلاص سبيلاً ، ولكنها سبيل إذا رضيت بها جردتك من الشرف وجللتك العار » . وسألها كلوديو :

« خبريني بها » ، فأجابته أخته بقولها : « إني أخشاك يا كلوديو ، وإني لترعد فرائصي خوفاً من أن تكون راغياً في الحياة ، فتشترى بشرفك الدائم فترة صغيرة من الزمان ، هي ست سنين أو سبع تضيفها إلى أجلك . هل تقوى على احتمال الموت ؟ إن الناس يخشون الموت أشد خشية ، ولكن الخنفسة الحقيرة التي نطوؤها بالأقدام لتشعر بألمه كما يشعر به أقوى الرجال » . وأجابها كلوديو قائلاً : « ولماذا تجليني هذا العار ؟ هل تظنين أني أستمد عزيمتي من قلب رقيق كالزهر النضير ؟ إذا كان لا بد أن أموت فسأستقبل ظلام القبر كأني أستقبل عروسي ، فأعانقه وأضمه إلى صدري » . فأجابته إزبل : « إنك أخى بحق ، وإن هذا الصوت لصوت أبي قد شق قبره . أجل لا بد أن تموت ، ولكن هل تصدق يا كلوديو أن هذا الذى يتظاهر بالصلاح والتقى يرضى بأن يهب لك الحياة إذا رضيتُ بأن يدنس شرفي ؟ سيما لو أنه طلب حياتي لقدمتها راضية كما تقدم أحقر الأشياء لأنجيحك بها من الموت » . وقال لها كلوديو « شكراً لك يا عزيزتى إزبل » . وأجابته إزبل : « استعد للموت غداً » . فقال كلوديو : « إن الموت رهيب » ، فأجابته أخته : « والمعرة شيء كريه » . وتغلب خوف الموت على عزيمة كلوديو ، وتملكه رعب لا يعرفه إلا المجرمون فى ساعة احتضارهم ، فصاح قائلاً : « أختى العزيزة ، دعيني أعيش ؛ إن الله ليغفو عن الذنب الذى ترتكبينه لتتقضى به حياة أخيك ، حتى ليصبح هذا الذنب فضيلة » . فأجابته إزبل : « وياك أيها الغادر الجبان ، النذل التعس ، أتشتري حياتك بتدنيس شرف أختك ؟ تبا لك ! تبا لك ! تبا لك ! لقد كنت أظن أيها الأخ أنك لو كانت لك عشرون رأساً لقدمتها كلها إلى الجلاد قبل أن ترضى لأختك هذا العار » . وقال لها كلوديو ونار الألم تلتهم فؤاده : « إصنع إلى يا إزبل » . ومهما تكن تلك الألفاظ التى أراد كلوديو أن ينطق بها دفاعاً عن خور عزمته وشرائه الحياة بشرف أخته الطاهرة ، فقد قطعها دخول الدوق وقوله له : « لقد سمعت يا كلوديو ما دار بينك وبين أختك من حديث ؛ إن أنجلو لم يفكر قط فى تلويث شرفها ، ولقد قال ما قال ليختبر به عفتها ، ولقد وجدها عفيفة شريفة حين نطقت بهذا الرفض الجميل الذى تقبله بأحسن قبول ،

ولا أمل لك في أن يعفو عنك ، فاقض ما بقي من ساعات لك في هذه الدنيا في الصلاة والعبادة واستعد للموت » . ولما سمع كلوديو ذلك ندم على ما أظهر من ضعف وقال : « دعوني أطلب العفو من أختي ، لقد كرهت الحياة كرهاً يدفعني إلى طلب الخروج منها » . وانتحى كلوديو ناحية ، وقد غلب عليه الغضب والأسف على ما وقع فيه من خطأ .

ولما خلا الدوق إلى إزبل أخذ يثنى على طهرها وقوة عزيمتها ، وقال لها : « إن اليد التي أبدعت جمالك قد صاغته من العفة والظهر » ، وقالت إزبل : « ما أشد ما خدع الدوق الكريم في أنجلو ، ولو قدر أن يعود الدوق ، واستطعت أن أتحدث إليه ، لأطلعته على ما خفي عليه في حكومته » . ولم تكن إزبل تدرك أنها في هذه اللحظة نفسها تطلع الدوق على تلك الأسرار التي تهدد بإفشائها ، وأجابه الدوق قائلاً : « لا بأس من أن تفعل هذا ، ولكن الظروف الحاضرة تجعل أنجلو قادراً على أن يرد عن نفسه التهمة ، ولذلك أطلب إليك أن تستمعي إلى نصيحتي . إني أعتقد أن في وسعك أن تحسني الإحسان كله إلى سيده مظلومة خليقة بهذا الإحسان ، وأن تنقذي حياة أخيك من سطوة القانون ، ولا تسيئي إلى شرفك أية إساءة ، وأن تسري الدوق الغائب كل السرور ، إذا ما عاد من منفاه ووصل هذا إلى علمه » . وأجابه إزبل بقولها إنها ترضى أن تفعل كل ما يطلبه إليها ما لم يكن فيه شر ، فقال الدوق : « إن النفوس الطاهرة جريئة ولا تخاف قط » . ثم سأله هل سمعت شيئاً عن مريانا Mariana أخت فردريك Frederick الجندي الباسل الذي مات غرقاً في البحر ؟ فأجابه إزبل : « إني سمعت عن هذه السيدة وسمعت الناس يذكرونها بالخير » . فقال الدوق : « إن هذه السيدة زوجة أنجلو ، ولكن مهرها كان على ظهر السفينة التي هلك فيها أخوها ، وما كان أشد وقع هذا على الفتاة المسكينة ، فقد فقدت أخاً كريماً ذائع الصيت ، كان في حبه لها مثال البر والرحمة ، وخسرت إلى ذلك ثروتها فخسرت أيضاً حب زوجها أنجلو هذا الذي يتظاهر بالورع والتقوى ؟ فقد ادعى أنه عرف عن هذه السيدة الطاهرة ما يشين سمعتها ، فتدخل عنها في أحزانها ، ولم يواسها في محنتها ، وكان السبب الحقيقي هو أنها فقدت

مهرها . وكان خليقا بهذه القسوة الظالمة أن تذهب بما كان في قلب مريانا من حب
 لزوجها ، ولكنها زادت نار الحب ضراماً ، كما تزيد الحواجز السيل قوة على قوته ،
 وظلت مريانا تحب زوجها القاسى كما كانت تحبه من قبل . ثم كشف الدوق عن
 قصده فطلب إلى إزبل أن تذهب إلى لورد أنجلو وتظاهر بأنها ستجيبه إلى طلبه
 وتأتى إليه في منتصف الليل ، فتحصل منه بذلك على العفو الموعود ، ثم تذهب
 مريانا بدلا منها في الموعد المحدد ، وتظاهر أمام أنجلو بأنها إزبل . وقال الراهب
 الزائف « ولا تخشى يا ابنتى شيئا إذا فعلت هذا ، فإن أنجلو زوجها وليس في
 الجمع بينهما خطيئة » . وأعجبت إزبل بهذه الخطة فخرجت لتفعل ما أشار عليها به ،
 وذهب هو ليليل مريانا ما اتفقا عليه . وكان قد زار مريانا من قبل وهو في زى
 الرهبان ، ولقنها بعض التعاليم الدينية وواساها مواساة الأصدقاء ، وعرف منها
 قصتها في تلك الزيارات ، وكانت هى الآن تنظر إليه نظرتها إلى الرجال الأتقياء
 الصالحين ، فلم تتردد قط فى أن تهتدى فى هذا العمل برأيه .

وبعد أن فرغت إزبل من حديثها مع أنجلو عادت إلى بيت مريانا ، وكان الدوق
 قد وعدها أن يلتقى بها هناك ، فقال لها : « نعم اللقاء ، وفى أحسن الأوقات ، ماذا
 لديك من أخبار عن نائبنا الكريم ؟ » وأفضت إليه إزبل بالطريقة التى سويت بها
 الأمور فقالت : « إن لأنجلو حديقة لها سور من الحجارة ، وفى الجهة الغربية منها
 كرمه ذات باب » ثم أظهرت للدوق ومريانا مفتاحين أعطاها إياها الدوق ، وقالت
 لهما : « فأما المفتاح الكبير فمفتاح باب الكرمه ، وأما هذا المفتاح الثانى فيفتح به
 باب صغير يوصل الكرمه بالحديقة ، وقد وعدته أن أجيئه هنا فى منتصف الليل ،
 وحصلت منه على وعد أكيد بأن يعفو عن أخى . ولقد حرصت الحرس كله على
 أن أعرف أمارات المكان ، وأرانى هو الطريق مرتين ووصفه لى بصوت خافت
 ودلنى عليه بمجد إجرامى » . وسألها الدوق : « ألم تتفقا على أمارات وأشياء يتحتم
 على مريانا أن تعرفها ؟ » فأجابته إزبل بقولها : « كلاً لم تتفق على شيء ، اللهم إلا أن
 أذهب إليه فى ظلمة الليل ، وقد أخبرته أن الوقت لا يسمح لى بالبقاء معه طويلا ،
 وأدخلت فى روعه أن خادما سيأتى معى ، وأن هذا الخادم يعتقد أنى آتية لأمر يتعلق

بأخي . وأثنى الدوق على حسن تدبيرها ، والتفتت هي إلى مريانا وقالت لها :
« ليس لك أن تقولى شيئاً إلى أنجلو حين تخرجين من عنده إلا قولك في صوت
خافت رقيق : لا تنسى الله أُمِّي » .

وأخذت إزبل مريانا في تلك الليلة إلى المكان الموعود ، وقد سرها أنها
استطاعت بحسن تدبيرها ، حسب اعتقادها ، أن تحتفظ بشرفها وبحياة أخيها ؛
ولكن الدوق لم يكن واثقاً بأن أختها قد نجا من الموت ، ولذلك عاد إلى السجن
في منتصف الليل ؛ وكان من حسن حظ كلوديو أن فعل الدوق ذلك ، ولولا هذا
لقطع رأسه في تلك الليلة نفسها . ذلك أن الدوق لم يكذب يصل إلى السجن حتى جاء
أمر من النائب القاسى بأن يقتل كلوديو ويرسل رأسه إليه قبل الساعة الخامسة
صباحاً . ولكن الدوق حمل محافظ السجن على أن يؤجل قتل كلوديو ويخدع أنجلو
بإرسال رأس سجين آخر مات داخل السجن في صباح ذلك اليوم . وأراد الدوق
أن يقنع المحافظ بأجابة طلبه هذا — وكان المحافظ لا يزال يظنه راهباً لا أكثر من
ذلك ولا أقل — فأبرز له خطاباً بخط الدوق نفسه وعليه خاتمه ، فلما رآه أيقن أن
الراهب يحمل أمراً سرياً من الدوق ، فرضى ألا يقتل كلوديو ، وقطع رأس الرجل
الميت وحمله إلى أنجلو .

ثم كتب الدوق إلى أنجلو كتاباً وقع به باسمه ، يقول فيه إن حوادث مفاجئة
اضطرته إلى اختصار رحلته ، وإنه سيكون في ويانة في صباح الغد ، وطلب إلى أنجلو
أن يقابله عند باب المدينة ليرد إليه سلطانه ، وأمر الدوق كذلك أن يذاع في الناس
أنه إذا كان لأحد منهم ظلامة فعليه أن يتقدم بها في الطريق العام عندما
يدخل المدينة .

وجاءت إزبل إلى السجن في الصباح الباكر حيث كان الدوق في انتظارها ،
فرأى الحاجة في نفسه لم يشأ أن يعلنها وقتئذ أن يخبرها أن كلوديو قد قتل . فلما
سأله هل أرسل أنجلو أمره بالعفو عن أخيها ؟ قال الدوق : « لقد أنقذ أنجلو أخاك
من هذا العالم . لقد قطع رأسه وأرسل إلى نائب الدوق » ، وصاحت إزبل من
فرط حزنها : « ما أشقاك يا كلوديو ، وما أتعس حظك يا إزبل ، وما أشد ظلمك

أيتها الدنيا ، وما أخبتك يا أنجلو . وأمرها الراهب ألا تبتئس ؛ وبعد أن هدأ روعها قليلاً نبأها بقرب رجوع الدوق ، وأرشدتها إلى الطريقة التي يجب عليها أن تتبعها في عرض شكواها من أنجلو ، وأمرها ألا ترتاع إذا رأت الأمور تسير على غير ما تشتهي وقتاً ما . وبعد أن قدم لإزبل من النصائح ما فيه الكفاية ، ذهب إلى مريانا وأشار عليها هي أيضاً بما يجب عليها أن تفعله .

ثم خلع الدوق ملابس الرهبنة ودخل مدينة ويانة في ثيابه الملكية يحيط به جمع حاشد من رعاياه المخلصين وقد اجتمعوا كلهم ليحيوه ، واستقبله أنجلو وأسلمه حقوقه بالطرق الرسمية ، وتقدمت إزبل تلتئمس الإنصاف ، وقالت له : « العدالة أيها الدوق العظيم ، إنى شقيقة فتى يدعى كلوديو حكم عليه بالإعدام لأنه أغوى فتاة من بنات المدينة ، وطلبت أنا إلى لورد أنجلو أن يعفو عن أخى . ولا حاجة لى بأن أصف لفخامتكم كيف ركعت ورجوت ، وكيف ردنى وكيف أجبته ، فذلك أمر يطول ، وحسبى أن أخبر مولاي بالنتيجة المزرية التى أحدثت عنها فى حسرة وخجل ، فقد أبى أنجلو أن يطلق سراح أخى إلا إذا خضعت لحبه الشائن ، وفرطت له فى عفتى . وبعد صراع طويل بين عفتى وحزنى على أخى ، تغلبت عاطفة الحب على العفة وأسلمته نفسى . وفى صباح اليوم التالى أخلف أنجلو وعده وأمر بقتل أخى » . وتظاهر الدوق بعدم تصديق قصتها ، وقال أنجلو إن حزنها على أخيها الذى نفذ فيه حكم القانون قد أثر فيها فذهب بعقلها . ثم تقدم شخص آخر يلتئمس العدالة ، وكان ذلك الشخص مريانا فقالت : « أيها الأمير النبيل ! إنى أنا زوجة هذا الرجل ، لا شك فى هذا كما لا شك فى أن النور يأتى من السماء ، والصدق يخرج مع الأنفاس ، والحق تدركه العقول ، وهو والفضيلة متلازمان . إن الذى تقوله إزبل هو الكذب بعينه ، لأنى قضيت تلك الليلة معه فى بيته الذى فى الحقيقة ، فإذا كان هذا صحيحاً — وهو صحيح لا شك فيه — فاسمح لى بالنهوض ، وإذا لم يكن فلا يقين هنا على الدوام كأننى تمثال من الرخام » . واستشهدت إزبل على صدق قولها بالراهب لدوك Lodowick ، وهو الاسم الذى تسمى به الدوق وهو متسكر ، حين كانت إزبل ومريانا تعملان بأمره وحين قالت كلتاها ما قالته . وكان

يقصد من وراء هذا أن تظهر براءة إزبل بهذه الطريقة العلنية أمام أهل ويانة كلهم . ولم يكن أنجلو يعرف أن هذه الرغبة هي منشأ الخلاف بين قصتيهما ، ولذلك كان يرجو أن يبرئه هذا التناقض الظاهر في شهادتيهما مما اتهمته به إزبل . وتظاهر الرجل بأنه قد مست كرامته وقال مغضباً : « لقد كان كل ما فعلته حتى هذه الساعة أن تبسمت وصبرت ، أما الآن يا سيدى الدوق فلم يعد في قوس الصبر منزع ، وتبين لى أن هاتين المرأتين البائستين اللتين ذهب عقلهما تسخرهما يد قوية تأتمران بأمرها . فليسمح لى مولاي أن أكشف سر هذه المؤامرة » .

فأجابه الدوق بقوله : « لك ذلك وأنا راض به كل الرضا ، ولك أن تعاقبهما العقاب الذى ترتضيه . وأنت أيا لورد إسكس Escalus اجلس إلى جانب لورد أنجلو وأعنه على كشف سر هذه الفرية الدنيئة ، وقد بعثت أستاذى الراهب الذى حرضهما عليها ، فاذا جاء فانظرا فى هذه التهم وعاقبا المفترين بما تريانه من أنواع العقاب . أما أنا فساتركما إلى حين ، ولا تبرح يا لورد أنجلو هذا المكان حتى تفصل فى هذه الفرية » .

وخرج الدوق وترك أنجلو مغتبطاً أشد الاغبتاوط إذ اختير لأن يكون قاضياً ومحكماً فى قضيته . ولكن الدوق لم يغيب إلا ريثما خلع ملابسه ولبس ثياب الرهبان ، ثم عاد فى هذه الثياب ومثل أمام أنجلو وإسكس . وظن الشيخ إسكس الطيب القلب أن أنجلو قد ألصقت به تهمة باطلة فقال للراهب المزعوم : « تقدم يا سيدى ، هل حرضت هاتين المرأتين على أن تفتريا عليه هذا الافتراء ؟ » فأجابه الراهب بقوله : « أين الدوق ؟ إنه هو الذى يجب أن يسمعنى » . فقال إسكس : « إننا نمثل الدوق ، وسنستمع إليك فقل الحق » ، وأجابه الراهب : « سأكون على الأقل جريئاً » . ثم أخذ يعيب على الدوق تركه قضية إزبل فى يد الرجل الذى اتهمته ويفصح عن كثير من الشرور التى رآها وهو فى ويانة يرقب أحوالها ، حتى أنذره إسكس بأشد أنواع العقاب لأنه أهان الدولة وطعن فى أعمال الدوق ، ثم أمر أن يساق إلى السجن . وما كان أشد دهشة الحاضرين جميعاً وحيرة أنجلو حين خلع الراهب المزعوم ملابسه ، ورأى الناس أنه هو الدوق بعينه .

ووجه الدوق خطابه أولاً إلى إزبل فقال : « تقدمي هنا يا إزبل ، إن الراهب الذي كان يحدثك هو الآن أميرك ، ولكنني وإن بدلت ملابسى لم أبدل قلبي نحوك ، بل إننى لا أزال كما كنت وفيما لك راعباً فى خدمتك » . وأجابته إزبل بقولها : « عفواً يا مولاي ، فقد استعنت بك وأتعبتك وأنا لا أعرف نقامتك » . ورد عليها بقوله إنه فى أشد الحاجة إلى عفوها لأنه لم ينبج أخاها من الموت — ولم يشأ أن يخبرها فى ذلك الوقت أن أخاها حى يرزق ، يريد بذلك أن يمتحنها امتحاناً جديداً . وعرف أنجلو وقتئذ أن الدوق كان يطلع سرا على سوء تصرفه فقال له « مولاي الرهيب ، لو أننى ظننت الآن أن جريمتى ستظل مستترة لكان ذلك جرماً أشد من كل جرائمى الأخرى ، لأنى أراك يا مولاي قد اطلعت على أعمالى كما يطلع عليها الإله القدير . إذن فلا تطل أجل فضيحتى أيها الأمير الكريم ، ولتنته محامتى باعترافى ؛ وكل الذى أرجوه من نقامتك أن تصدر حكمك على الفور ، وأن يكون هذا الحكم بإعدامى » . وأجابه الدوق بقوله « إن ذنوبك يا أنجلو غير خافية ، إنا نحكم عليك بأن تموت حيث مات كلوديو ، نخذوه ولا تهملوه كما لم يمهمل هو كلوديو ، أما أملاكه فإنا نهبها لك يا مريانا لتشتري به زوجاً خيراً منه » .

وردت عليه مريانا قائلة « مولاي ، ليس لى مأرب فى غيره أحسن منه » ؛ ثم جثت على ركبتيهما كما جثت من قبل إزبل وهى ترجو العفو عن كلوديو ، جثت هذه الزوجة الرحيمة تطلب العفو عن أنجلو زوجها الذى جهل قدرها وقالت : « سيدى الرحيم ، ومولاي الطيب الكريم ، أعينينى يا إزبل واركنى أمامه ، وسأكون فى خدمتك ما حييت » .

فأجابها الدوق بقوله « إنك تطالبين إليها المحال ، ولو ركعت إزبل أمامنا ترجو له الرحمة ، لحطمت روح أخيها جدران قبره وخرجت منه مرتاعة ، واختطفقتها من هذا المكان » . ولكن مريانا ظلت تقول « عزيزتى إزبل ، حسبك أن تركنى إلى جانبى ، وأن ترفعى يدك ولا تقولى شيئاً فساتولى أنا القول كله . يقولون إن خير الناس قد خلقوا من الذنوب ، وما أكثر ما يصلح القليل من الشر أحوالهم ، وقد يكون زوجى من هؤلاء الناس . إزبل ألا تركعين من أجلى ؟ » .

وقال الدوق « إنه يموت جزاء ما فعل بكلوديو ». ولشد ما أثلج قلب الدوق الكريم أن يرى إزبل نفسها ، التي لم يكن ينتظر منها إلا كل فعل كريم ، تركع أمامه وتقول : « سيدى يا أكرم الناس طرّاً ، انظر إلى هذا الرجل القضى عليه كما لو كنت تنظر إلى أخى حياً . إني لأظن أن شيئاً من الإخلاص كان رائده فى أعماله ، حتى وقعت عينه علىّ . فإذا كان ذلك حقاً فلا تدعه يموت . إن أخى لم يلق إلا الجزاء الحق ، فقد ارتكب الذنب الذى قتل من أجله » .

وكان خير ما يستطيع الدوق أن يجيب به رجاء هذه السيدة الكريمة التى تطلب العفو عن عدوها ، أن يأتى لها بأخيها الذى تندبه ، وكان قد أرسل رسولا ليحضر كلوديو من السجن حيث كان ملقى فى غيابه لا يعرف ما قدر له . وقال بعد ذلك لإزبل « مدى إلى يدك يا إزبل ، إني أعفو عن كلوديو إكراما لك ؛ قولى إنك ستكونين لى ، وإنه هو سيكون أخى » . وكان لورد أنجلو قد عرف فى ذلك الوقت أنه نجا من الموت ، ورأى الدوق عينيه تبرقان قليلا فقال : « احرص على حب زوجتك ، إن نبيل خلاها هو الذى أنجأك . فليدم لك السرور يا مريانا ، ولتحبها يا أنجلو . لقد خبرتها وعرفتُ كريم طباعها » . وعاد إلى ذاكرة أنجلو ما أظهره من القسوة حين تولى الأمر برهة قصيرة وشعر الآن بلذة الرحمة .

وأمر الدوق كلوديو أن يتزوج جوليت ، وتقدم هو إلى إزبل مرة أخرى يطلب يدها بعد أن تملك قلبه بعفتها وكريم فعالها . ولم تسكن إزبل قد لبست ثياب الرهبان ، فلم يكن عليها من حرج فى الزواج ، فقبلت هذا العرض الكريم الذى عرضه عليها الدوق متأثرة بما أدى لها من خدمات صادقة وهو رجل متواضع متنكر فى زى الرهبان . ولما أصبحت إزبل دوقة ويانة ، كان المثل الطيب الذى ضربته لفتيات المدينة فى الطهر والعفة عظيم الأثر فى تقويم أخلاقهن وإصلاح شأنهن ، فلم تقع إحداهن بعدئذ فيما وقعت فيه جوليت ، التى ندمت على فعلتها وصلاح حالها وأصبحت زوجا لكلوديو . ودام حكم الدوق الرحيم هو وزوجته المحبوبة إزبل زمنا طويلا وكان أسعد الأزواج والأمراء .

الليلة الثانية عشرة

أو

ما تريد

كان سبستيان Sebastian أحد سادة مسلين Messaline وقيولا Viola إحدى سيداتها توأمين . وكان من أغرب الأشياء في ظن الناس أن كان بين الأخ وأخته من الشبه ما يعجزون معه عن أن يميزوا هذه من ذاك إذا افترقا لولا اختلاف لباسهما . ولقد ولدا في ساعة واحدة ومرت بهما ساعة كادا يهلكان فيها ، فقد تحطمت سفينتهما على شاطئ إيريا Illyria في سفرة لهما هناك ، على أثر اصطدامها بصخرة في عاصفة هوجاء ، ولم ينبج من ركبها إلا عدد قليل . ونزل قائد السفينة وقليل ممن كان معه من الملاحين في قارب صغير وصلوا به إلى البر سالمين ، وأخذوا معهم قيولا . ولكن هذه الفتاة البائسة لم تغتبط بنجاتها بل أخذت تندب ما أصابها بفقد أخيها ، وأخذ قائد السفينة يواسيها ويطمئنها عنه ، ويؤكد لها أنه قد أبصره حين تحطمت السفينة يشد نفسه إلى سارية قوية ، وأنه ظل يراه فوق الماء حتى اختفى عن الأنظار . وخفف الأمل الذي بعثه هذا القول في نفسها ما كان يساورها من خوف على أخيها ، وأخذت تفكر فيما تفعله في هذا البلد الغريب ، وهي بعيدة عن وطنها . وسألت قائد السفينة هل يعرف شيئا عن إيريا ، فأجابها القائد بقوله : « نعم ياسيدي إنني أعرفها حق المعرفة ، فقد ولدت على مسيرة ثلاث ساعات من هذا المكان . وسألته قيولا « ومن الذي يحكم هذا البلد ؟ » فأجابها القائد بأن إيريا يحكمها أرسينو Orsino وهو دوق جليل القدر كريم الطباع . وقالت قيولا إنها سمعت أباهما يتحدث عن هذا الدوق ، ويقول إنه لم يكن وقتئذ قد تزوج ، وأجابها القائد بقوله « نعم ، وهو لا يزال كذلك إلى الآن ، أو أنه كان كذلك من عهد قريب ، لأنني لم أبرح هذا البلد إلا من شهر واحد ، وكان الناس كلهم عند خروجي يتحدثون بأن أرسينو يسعى للزواج بألفيا Olivio ، وأنت تعملين أن ما يفعله العظماء

يتحدث به الدهماء . وألقيا هذه فتاة عفيفة وابنة أحد النبلاء ، مات أبوها من عام واحد وتركها في رعاية أخيها ، ومات هذا الأخ أيضا بعد ذلك بقليل ، وقد بلغ من حبه لها وحزنها عليه أن اعتزمت بعد موته أن تمتنع عن رؤية الرجال وصحبة الرجال . وكانت قيولا في مثل هذه الحال من الحزن والألم لفقد أخيها فتمنت لو تستطيع أن تعيش مع هذه الفتاة التي حزنت على أخيها هذا الحزن كله ، وسألت القائد هل في وسعه أن يقدمها لألقيا ، لأنها تحب أن تكون خادمة لهذه السيدة ، فأجابها بأن هذا من أشق الأمور لأن ألقيا من يوم أن مات أخوها لا تسمح لإنسان بالدخول إلى بيتها ولو كان ذلك الإنسان هو الدوق نفسه . وعندئذ فكرت في وسيلة أخرى وهي أن تتزيا بزي الفتیان وتدخل في خدمة الدوق أرسينو . وكان غريباً أن تفكر فتاة في ارتداء ملابس الرجال لتوهم الناس بأنها شاب ، ولكن الذي يبرر هذا العمل أن قيولا كانت فتاة بأئسة لا ناصر لها ، وهي إلى ذلك صغيرة السن بارعة الجمال تعيش بمفردها في بلد غريب .

ورأت في أخلاق قائد السفينة كرماً ، وتبينت فيه عطفاً عليها واهتماماً بخيرها ، فأفضت إليه بخطتها ، ووعدتها من فوره بتقديم المعونة لها . وأعطته قيولا بعض المال ، وطلبت إليه أن يأتي لها بما يناسبها من اللباس ، وأصررت أن تصنع ملابسها على طراز الملابس التي كان يرتديها أخوها سبستيان ، وألا تختلف عنها في اللون . فلما ارتدت ملابس الرجال لم يكن ثمة فرق بينها وبين أخيها ، حتى لقد حدثت بعض أخطاء عجيبية كان منشؤها عدم قدرة الناس على تمييزها منه ، وذلك لأن سبستيان كان أيضاً قد نجما كما سيظهر فيما بعد .

وكان لصديقها القائد عملاً في بلاط الدوق ، فأخذ قيولا معه بعد أن أحال الفتاة الحسنة إلى شاب وسيم ، وقدمها لأرسينو باسم سيزاريو Cesario . وسر الدوق غاية السرور من خطاب هذا الفتى ومظهره الجميل ، فأخذ خادماً خاصاً له ، وهذا هو العمل الذي كانت قيولا تتبغيه . وأحسن الفتاة أداء واجبها الجديد ، وأظهرت من الإخلاص لسيدها والتعلق به ما جعلها أحب أتباعه إليه . وأفضى أرسينو إلى سيزاريو بقصة حبه لألقيا من أولها إلى آخرها ، فحدثه عن خطبته الطويلة غير

الموفقة لتلك الفتاة التي رفضته واحتقرته ولم تسمح له بلقائها . وقد بلغ من حب الدوق النبيل للفتاة التي عاملته هذه العاملة القاسية أن ترك ألعاب الفروسية وجميع أنواع الرياضة التي كان مولعاً بها ، وجعل يمضي وقته كله في الخمول الذي لا يليق به ، يستمع إلى النغمات الموسيقية المختلفة ، والأصوات الرقيقة ، وأغاني الغرام ، وأعرض عن صحبة أعيان البلاد العالمين المحنكين الذين كانوا من قبل رفقاءه وخلانه ، وأصبح لا عمل له طول النهار إلا التحدث إلى الشاب سيزاريو . ولم يكن هؤلاء النبلاء الوقورون يرتاحون بطبيعة الحال إلى مصاحبة هذا الفتى للدوق أرسينو أميرهم العظيم ، الذي كان من قبل أميراً خطيراً كريماً .

على أن من الخطر الكبير أن تكون الفتيات موضع ثقة الشبان ذوى الرونق والبهاء ، يفضون إليهن بما في قلوبهم من وجد وهيام . وقد حاق هذا الخطر بقيولا فأحزنها وأمر عيشها ، ذلك أنها أخذت تحس بعد قليل بأنها تقاسى من حب الدوق كل ما حدثها به عما يقاسيه من حبه لأثيا ؛ وعجبت كيف لا تكترث هذه الفتاة بسيدها العظيم الذي لا نظير له بين الأمراء ، والذي لا يستطيع أحد في ظنها أن ينظر إليه بغير أن يعجب به أشد الإعجاب . وقد تجرأت في أحد الأيام فلهجت إليه في لطف أنها تأسف إذ ترى الدوق يشغف بحب فتاة تعمى عن رؤية ما يتحلى به من خلال كريمة ، وقالت له : « إذا أحبتك يا سيدي فتاة كما تحب أنت أثيا (ولا يبعد أن يكون في الفتيات من تحبك هذا الحب) ، وإذا لم يكن في مقدورك أن تبادلها حباً بحب ، ألا تقول لها في صراحة إنك لا تستطيع أن تحب ؟ ثم ألا يجب عليها في هذه الحال أن تقنع بهذا الجواب ؟ » ولكن أرسينو لم يعجبه هذا المنطق ، وأنكر أن في النساء من تستطيع أن تحبه كما يحب هو ، وأن المرأة التي يتسع قلبها لهذا الحب كله لم تخلق بعد ، ولذلك فإن من الظلم أن يشبه حب أية فتاة له بحبه لأثيا .

وكانت قيولا تجل الدوق وتحترم آراءه الاحترام كله ، ولكنها لم يسعها في هذا الوقت إلا أن تعتقد أنه مخطئ فيما يقول ، وأن ما ينطوى عليه قلبها من الحب له لا يقل عما ينطوى عليه قلبه هو ؛ وقالت له : « آه ! ولكنني أعلم يا مولاي .. »

وسألها أرسينو : « ما ذا تعلم ياسيزاريو ؟ » فأجابته قيولا بقولها : « إنني أعلم حق العلم أى حب للرجال تنطوى عليه قلوب النساء . إن في قلوبهن من خالص الحب مثل ما في قلوبنا . لقد كان لأبي بنت أحبت رجلا بقدر ما أحبك يا مولاي لو كنت امرأة » . وسألها أرسينو : « وما هي قصتها ؟ » . فأجابته قيولا : « ليست لها قصة يا مولاي . إنها لم تبح قط بحبها ، بل كتمته وتركته يحرق فؤادها حتى ذبلت وجنتها الورديتان ، وتقسمتها الهموم ، وتوزعتها الفكر ، ولكنها صبرت على بلواها ولم تجزع حتى لكانها تمثال للصبر يسخر من الجزع » . وسأل الدوق هل قضت الفتاة نحبها من شدة الوجد ؟ ولكن قيولا لم تجبه عن هذا السؤال جواباً صريحاً ، ولعلها قد اخترعت هذه القصة لتتطرق في خلالها ببضع كلمات تعبر بها عما يكنه فؤادها من حب صامت للدوق ، وما تقاسيه بسبب هذا الحب من آلام خفية .

وبيناهما في حديثهما إذا برجل يدخل عليهما ، وكان الدوق قد بعث معه رسالة إلى ألقيا ، ويقول للدوق : « أرجو أن يسمح لي مولاي أن أقول إنني لم يؤذن لي بالدخول عند السيدة ، ولكنها بعثت إليك مع خادمة لها هذا الرد الذي تقول فيه إن السماء والأرض لن تريا وجهها إلا بعد سبع سنين ، تظل في خلالها كالراهبات مقنعة الوجه ، تروى أرض حجرتها بدموعها حزناً على أخيها » . ولما سمع الدوق هذا القول صاح قائلاً : « ترى ماذا يكون شأن هذه الفتاة عند ما تمس قلبها سهام الحب الذهبية ، إذا كان لها هذا القلب الرقيق وكان هذا مبلغ حبها لأخيها الميت ؟ » ثم قال لقيولا : « لقد كشفت لك ياسيزاريو عن مكنون قلبي ، ولهذا أرجوك أيها الفتى الكريم أن تذهب إلى بيت ألقيا ، ولا يمنعك شيء من الدخول عليها ، بل قف عند بابها ونبئها أنك ستظل قائماً لا تبرح مكانك حتى تتحدث إليها . » وسأله قيولا : « وإذا تحدثت إليها يا مولاي فماذا أقول ؟ » فأجابها أرسينو : « إذن فاكشف لها عما في قلبي من حب ، وأسهب في وصف إخلاصي ووفائي ، وأنت خير من يصف آلامي ، ويقيني أنها ستصني إليك أكثر مما تصغي لغيرك من ذوى الوجوه الوقورة » .

وسارت ثيولا في طريقها تحمل رسائل الحب وهي غير راضية عن هذه المهمة ، وكيف ترضى أن تكون رسولاً يخاطب فتاة لرجل تريد هي أن تتزوجه ؟ ولكنها وقد قبلت أداء هذا الواجب لم تبدأ من أن تؤديه بأمانة وإخلاص . وعرفت ألقيا بعد قليل أن الباب شابا يصصر على مقابلتها ، وقال لها الخادم : « ولقد أخبرته أنك مريضة فأجاب بأنه يعرف ذلك ، وأنه من أجل هذا جاء ليتحدث إليك . وقلت له إنك نائمة ، فكأنه كان يعرف ذلك أيضاً من قبل ، وقال إنه لهذا يجب أن يتكلم معك ، فإذا أقول له ياسيدي وهو يأبى أن يُردَّ ويصر على أن يتحدث إليك أردت ذلك أو لم تريديه ؟ » . وتاقت نفس ألقيا إلى أن تعرف من يكون هذا الرسول العنيد فأذنت له بالدخول ، وغطت وجهها بنقابها ، وقالت إنها ستستمع مرة أخرى إلى رسالة أرسينيو ، لأن لاجاة الرسول لم تترك لها مجالا للشك في أنه مؤمن من قبل الدوق . ودخلت ثيولا الدار وحرصت على أن تظهر بمظهر الرجال بأحسن ما تستطيع ، وتسكفت ما في لغة بطانة أصحاب السلطان وحاشية العطاء من رقة ، وخاطبت هذه السيدة المقنعة بقولها : « يا ذات الجمال الرائع ، والنور الساطع ، والسناء المتألق ، الذي ليس نظير ! أرجو أن أعرف هل أنت ربة الدار فإني ليسوءني أن ألقى بمحدثي على غير مسمعها ، فهو حديث أجيد تحبيره وأجهدت نفسي في حفظه » .

وسألها ألقيا : « من أين جئت ياسيدي ؟ » . فأجابتها ثيولا : « ليس في مقدوري أن أقول غير ما تعلمت ، وليس هذا السؤال مما حفظت » . وسألها ألقيا : « أنت ممثل ؟ » . فأجابتها ثيولا : « كلا ! ومع ذلك فلست أنا ما أمثله ^(١) » وكانت تقصد بهذا القول أنها وهي امرأة تظهر بمظهر الرجال . ثم سألت ألقيا مرة أخرى هل هي ربة الدار ؟ وأجابتها ألقيا أنها هي ، ولكن رغبة ثيولا في أن ترى وجه خصيمتها كانت أشد من حرصها على أن تسرع بالإفضاء برسالة سيدها فقالت : « أيتها السيدة الكريمة ، دعيني أنظر إلى وجهك » . ولم تر ألقيا ما يمنعها من إجابة هذا الطالب الجري لأن هذه الغانية المعجبة بنفسها التي

(١) وهذا الغموض أيضاً مقصود .

ردت الدوق خائباً هذا الزمن الطويل قد أحبت خادمه المزعوم الفتى سيزاريو الصغير الشأن عند ما وقعت عينها على عينه .

ولما سألتها ثيولا أن تكشف عن وجهها قالت لها : « هل لديك مهمة من عند سيدك تتفاوضين فيها مع وجهي ؟ » ونسيت تصميمها على أن تظل مقنعة سبع سنين طوالاً ، فرفعت النقاب عن وجهها وهي تقول : « ولكنني سأرفع الستار وأكشف عن الصورة ، فهل تظن أنها قد أحسن تصويرها ؟ » فأجابها ثيولا : « لقد مزجت عناصر الجمال فيها خير مزج . إن حمرة خديك قد أبدعتها يد الطبيعة البارة ، وإنك لتكونين أقصى من خلق من النساء لو أنك سمحت لهذا الجمال أن ينحدر إلى القبر دون أن يترك للعالم صورة منه » . فأجابها ثيولا قائلة : « كلا يا سيدي ، لن أكون قاسية إلى هذا الحد ، بل سأترك للعالم سجلاً بهذه الصفات كتب فيه مثلاً : أولاً : شفتان فيهما بعض الحمرة ، ثانياً . عينان سنجابيتان ذواتا حاجبين . ورقبة واحدة ، وذقن واحد وهلم جرا . فهل جئت هنا لتثني عليّ ؟ » وأجابت ثيولا بقولها : « لقد عرفت حقيقة أمرك ؛ إنك صليفة تياهة ، ولكنك جميلة . إن مولاي وسيدى يحبك وإن حبه لجدير بأن يقابل بمثله ولو كنت ملكة الجمال ، لأن أرسينو يحبك » . وأجابها ألقيا قائلة : « إن رأيي غير خاف على سيدك ، فليس في وسعي أن أحبه وإن كنت لا أشك في عفقه وفضائله ، أو أجهل أنه رجل نبيل شريف القدر رفيع المنزلة ، ذو شباب نضير برىء من العيوب ، اشتهر بين الناس بعلمه وظرفه وبسالته ، ولكنني مع ذلك لا أستطيع أن أحبه ، وقد كان خليقاً به أن يعرف ذلك من زمن بعيد » .

وقالت لها ثيولا : « لو أنني كنت أحبك كما يحبك سيدى لأنشأت لنفسى بيتاً من الصفصاف^(١) عند باب قصرك وأقمت فيه ، وأنشأت القصائد في شكواك ، وأنشدتها في ظلام الليل حتى تتجاوب الجبال باسمك ، ولا ينفك الهواء الثرثار ينادي يا ألقيا ، فلا يقر لك ما حييت قرار بين الأرض والسماء حتى تشفق على وترحميني » : وأجابها ألقيا بقولها : « إنك لأجدر من يفعل هذا ولكن قل

(١) كان شجر الصفصاف يعد رمز الحب غير الموفق . (المترجم)

لى من أبواك؟ « فردت عليها قيولا قائلة : « إننى أرقى من حالى هذه وإن كانت هذه الحال طيبة ، فأنا سيد مذهب » . ثم صرفت ألقيا قيولا على كره منها وقالت لها « اذهب إلى مولاك ونبئه أننى لا أستطيع أن أحبه ، ولتكن هذه آخر رسائله إلا إذا جئت أنت مرة أخرى لتخبرنى كيف تلقى هذا الرد » . وخرجت قيولا بعد أن ودعت هذه السيدة وسمتها « القاسية الحسناء » . ولما ذهبت أخذت ألقيا تردد لنفسها قول الرسول : « أرقى من حالى هذه وإن كانت هذه الحال طيبة ، فأنا سيد مذهب » ؛ ثم قالت بصوت عال : « قسما إنه لكذلك ، وإن لسانه ووجهه ، وجسمه ، وروحه ، وأفعاله لتتطابق كلها بأنه سيد مذهب » وتمنت لو أن سيزاريو كان هو الدوق . ثم تنبّهت إلى أن هذا الفتى قد ملك عليها قلبها من أول لقاء فأخذت تلوم نفسها على هذا الحب المفاجئ ؛ ولكن اللوم اللطيف الذى يوجهه الناس لأنفسهم على ما يرتكبونه من أغلاط لا تتأثر به قلوبهم . ولم تلبث ألقيا هذه السيدة العظيمة الشأن أن غفلت عما بينها وبين الخادم المزعوم من فارق عظيم كما غفلت أيضاً عن حياء العذارى الذى هو خير ما تزيّن به الفتيات ، واعتزمت أن تخطب ود الشاب سيزاريو فأرسلت وراءه خادما لها ومعه خاتم من ماس ، قالت إنه تركه عندها على أنه هدية من أرسينو ؛ وكانت ترجو أنها إذا احتالت على إهداء الخاتم إلى سيزاريو بهذه الطريقة استطاعت أن توحى إليه بمقصدها . وقد حذرت قيولا ذلك بالفعل ، لأنها تعرف أن أرسينو لم يرسل معها خاتماً ، وشرعت تنبّه إلى أن نظرات ألقيا وحركاتها كانت كلها تفصح عن إعجابها بها ، فشعرت من فورها أن حبيبة سيدها قد أصبحت أسيرة حبها ، وقالت لنفسها : « أسقى عليها ! أولى لهذه السيدة المسكينة أن تحب حلاماً من الأحلام . إن التنكر أمر كره فقد جعل قلب ألقيا يكتوى بحبي كما يكتوى قلبى بحب أرسينو ، وما أضيع هذا الحب وما أقل جدواه » .

وعادت قيولا إلى قصر أرسينو ونبأته بخيبة مسعاها ، وأعادت على مسامعه أمر ألقيا بأن يمتنع عن مضايقتها برسائله ، ولكن الدوق ظل يرجو أن يفلاح الفتى الظريف سيزاريو آخر الأمر فى إقناع ألقيا بأن تشفق بعض الشفقة عليه ،

وأمره أن يعود إليها في اليوم الثاني . وأراد أن يسلي نفسه في تلك الفترة القصيرة حتى يحى ذلك الوقت ، فأمر أن تغنى له أغنية يحبها ، وقال لألقيا : « إني ياسيزاريو لما سمعت هذه الأغنية في الليلة الماضية خيل إلى أنها قد خفت كثيراً من لواعج هواي . استمع إليها ياسيزاريو ، إنها أغنية قديمة ساذجة ، يغنيها النساء وهن جالسات في الشمس يغزلن الخيوط أو يصنعن الجوارب ، ويترنم بهن الفتيات وهن ينسجن غزلهن بأبر من العظام ؛ ولا شك في أنها أغنية ساذجة صادقة^(١) وأنا أحبها لأنها تحدث عن الهوى العذري في الأيام الخالية » :
أقبل أيها الموت أقبل ،

وفي تابوت من السرو^(٢) ضعوني ،

ولتخرجن أنفاسي ،

فقد قتلتني فتاة قاسية القلب حسناء .

وأعدوا إلى أ كفاني البيضاء ،

وغطوها بأغصان الشجر ،

فلم يلق إنسان وفي

ذلك الموت الذي لقيت .

ولا تنثروا على تابوتي الأسود

شيئاً من الزهر النضير ،

ولا يشيعن أحد هذا الجسم النحيل

إلى حيث تلقى عظامي .

وادفنوني حيث لا يعرف الحزونون من المحبين الأفياء ،

موضع قبري ليبكوا عليّ ،

فتنجمهم من آلاف الحشرات .

ولم تفت قيولا كلمة واحدة من هذه الأغنية القديمة التي تصف عذاب المحبين

(١) هذا هو معنى كلمة Silly في هذا الموضع وليس معناها أنها سخيقة كما قد يتبادر إلى الظن .

(٢) أو في تابوت مغطى بأغصان السرو . وكان السرو من شارات الحداد وكانت

أشجاره تزرع في المقابر .

البائسين هذا الوصف الصادق الساذج ، وكانت تفصح بملامحتها عن المشاعر التي يختلج بها فؤادها . ولا حظ أرسينو ما بدا عليها من كآبة فقال لها : « أقسم بحياتي ياسيناريو أنك على صغر سنك قد وقعت عينك على وجه تحبه ، أليس كذلك يا ولدي؟ » فأجابته قيولا بقولها : « نعم إلى حد ما إن أذنت لي بذلك » . وسألها أرسينو « أي فتاة هذه ؟ وما هي سنها ؟ » وأجابته قيولا « إنها في سنك يا مولاي وفي لون وجهك » . وتبسم الدوق حين سمع هذا الفتى الوسيم يقول إنه يحب فتاة أكبر منه ولها وجه أسمر كوجه الرجال ، ولكن قيولا كانت تعنى بقولها هذا أرسينو نفسه ، ولم تكن تقصد أنها تحب امرأة شبيهة به .

ولما ذهبت قيولا في زيارتها الثانية لأثيا لم تلق صعوبة في الدخول عليها ؛ ذلك أن الخدم لا يلبثون أن يعرفوا من تلقاء أنفسهم متى ترغب سيداتهم في أن يتحدثن إلى الرسل الشبان الحسان .

ولذلك فإن قيولا لم تكد تصل إلى القصر حتى فتحت لها الأبواب ، وأدخل رسول الدوق إلى جناح أثيا ، ولقي من الخدم أعظم مظاهر الأدب والإجلال ، ولما قالت قيولا إنها جاءت مرة أخرى لترجوها أن تعطف على سيدها قالت لها « لقد طلبت إليك من قبل ألا تحدثني في شأنه ، أما إذا كان لك مطلب آخر فإني يسرنى أن أستمع إليك أكثر من سرورى بسماع موسيقى الأفلاك ^(١) » . وكان هذا قولاً صريحاً لا لبس فيه ولا غموض ، ولكن أثيا لم تكتف به بل أفصحت من فورها عن غرضها بعبارات أكثر من هذه وضوحاً ، وجهرت بحبها لرسول الدوق . ولما رأت الدهشة والحيرة باديتين في وجه قيولا قالت « ألا ما أجمل هذه السخرية الشديدة التي تبدو على شفثيه إذا غضب أو احتقر ! أقسم ياسيناريو بورد الربيع ، وبعفة العذارى ، وبالشرف والصدق ، أنني أحبك ، وأنت قد سلبتني عقلي فلم أستطع رغم كبريائك أن أكرم هذا الحب » . ولكن أثيا لم يجد هذا كله نفعاً ، وخرجت قيولا من عندها وهي تنذرها بأنها لن تعود بعد اليوم لتحدثها

(١) يشير إلى ما كان يعتقد فيثاغورث ومن يتبعونه من القدماء وهو أن النجوم في حركاتها تحدث أصواتاً موسيقية سماوية ، وفي رواية تاجر البندقية إشارة أخرى إلى هذه العقيدة (المترجم)

عن حب أرسينو ، وكل ما أجابت به عن توسل أثينا أن أعلنت أنها قد عقدت نيتها على « ألا تحب امرأة قط » .

ولم تكذ قيولا تخرج من عندها حتى امتحنت شجاعتها امتحانا قاسيا . ذلك أن رجلا ممن خطبوا أثينا وردتهم خائبين علم أنها أحسنت لقاء رسول الدوق ، فدعا هذا الرسول إلى المبارزة . وماذا تفعل قيولا المسكينة وهي التي لها قلب كقلب النساء وإن ظهرت بمظهر الرجال ، والتي لا تقوى على النظر إلى سيفها ؟

ولما رأت عدوها القوى يتقدم نحوها وسيفه مسلول في يده بدأت تفكر في الاعتراف بأنها امرأة ، ولكن رجلا غريباً مر بها في ذلك الوقت فأذهب عنها روعها وأنجأها من ذلة هذا الاعتراف ؛ فقد جاءها هذا الرجل الغريب ، وكأنه يعرفها من زمن طويل ، وكأنهما صديقان من أعز الأصدقاء ، وقال لخصيمها : « إذا كان هذا الشاب قد أساء إليك فأنا أحمل تبعه هذه الإساءة ، وإذا كنت تريد أن تؤذيه فأني من أجله أتحداك » ؛ وقبل أن تهم قيولا بأن تشكر له دفاعه عنها ، أو تسأله عن سبب عطفه عليها ، لقي صديقها الجديد خصما لم تجده شجاعته معه نفعاً ، وذلك أن رجال الشرطة أقبلوا في تلك اللحظة وقبضوا بأمر الدوق على هذا الرجل الغريب ليحققوا معه في ذنب ارتكبه من بضع سنين . وقال الرجل لقيولا : « هذا ما جناه على بحث عنك » . ثم طلب إليها كيساً من النقود وهو يقول : « إنني الآن مضطر إلى طلب هذا الكيس ، وإني ليؤلمني عجزى عن الدفاع عنك أكثر مما يؤلمني ما سوف ألقاه أنا نفسي ؛ إني أرى علائهم الدهشة بادية عليك ولكنني أنصحك ألا تنزعج » . والحق أن قوله هذا قد أدهش قيولا فأقسمت أنها لا تعرفه ، وأنها لم تأخذ منه كيساً ، وعرضت عليه مبلغاً صغيراً من المال هو كل ما كان معها تقريباً جزاء ما أظهره من عطف عليها ، فما كان من هذا الرجل الغريب إلا أن فاه بأشد الألفاظ ، واتهمها بالقسوة ونكران الجميل ، وقال لمن حوله : « إنني قد اختطفت هذا الفتى الذي ترويه هنا من بين أنياب الموت ، ومن أجله وحده قد جئت إلى إيليريا Illyria وحق بي هذا الخطر » . ولكن رجال الشرطة لم يهتموا قط بشكوى هذا السجين وساقوه أمامهم وهم

يقولون : « وما شأننا نحن وهذا ؟ » . فلما استأقوه أمامهم نادى قيولا وسماها باسم سبستيان وعاب على هذا الفتى المزعوم إنكاره صداقته ، وأخذ يردد هذا القول طالما كان على مسمع من قيولا .

وسمعت قيولا هذا الرجل الغريب يناديها باسم سبستيان ، ولكن رجال الشرطة أسرعوا به فلم تستطع أن تسأله عن جلية الأمر ؛ غير أنها بدا لها أن هذا اللغز الخفى فى ظاهره قد يكون منشؤه أن الرجل حسبها أخاها . وبدأت تأمل أن يكون أخوها هو الذى بقول عنه هذا الرجل إنه أنجاه من الموت . ولقد كان الأمر كذلك حقا ، فقد كان هذا الرجل الغريب — واسمه أنطنيو — ضابطاً بحرباً ، وكان قد انتشل سبستيان من البحر ، وأخذه فى سفينته بعد أن أعياه التعب وهو يطفو فوق الماء ملتصقاً بالسارية التى شد إليها نفسه فى أثناء العاصفة . وأحب أنطنيو سبستيان حباً لم يقو معه على فراقه ، فاعزم أن يلازمه أينما ذهب ؛ ولما تأقت نفس الشاب لزيارة بلاط أرسينو جاء معه إلى إريا ، وآثر ذلك على فراقه وإن كان يدرك أنه إذا عُرف فى هذا البلد عرض حياته للخطر ، لأنه أصاب ابن أخى الدوق بجرح خطير فى معركة بحرية ، وكان هذا هو الذنب الذى قبض عليه من أجله .

وكان أنطنيو وسبستيان قد نزلا إلى البر من بضع ساعات قبل أن يلتقى أنطنيو بقيولا ، وأعطى سبستيان كيس نقوده لينفق منه ما يشاء إذا رأى شيئاً يرغب فى شرائه ، وأخبره أنه سيبقى بالفندق حتى يعود سبستيان من تجواله فى المدينة . ولم يعد سبستيان إلى الفندق فى الموعد المحدد ، فجازف أنطنيو بالخروج منه ليجث عنه ، ورأى قيولا فى ثياب كشياب أخيها ، وكانت مثله فى ملاحمها ، فاستل سيفه للدفاع عن الشاب الذى حسب أنه هو الذى أنجاه من الموت . فلما ظن أن سبستيان أنكره وأنكر أيضاً كيس نقوده ، اتهمه بالجحود ولم يكن عليه فى هذا الاتهام حرج . وخشيت قيولا حين غادرها أنطنيو أن يدعوها شخص آخر للبراز فتسللت إلى الدار بأسرع ما تستطيع ، ولكنها لم تتبعد إلا قليلاً حتى ظن خصمها أنه يراها عائدة إليه ، والحقيقة أنه فى هذه المرة كان يرى أخاها سبستيان ، وقد اتفق أن جاء فى تلك اللحظة إلى ذلك المكان ، فخاطبه بقوله : « والآن ياسيدى

هل أراك مرة أخرى ؟ فليكن هذا من نصيبك » ، قالها ولطم سبستيان . ولم يكن سبستيان بالرجل الجبان فرد اللطمة مضاعفة واستل سيفه . وجاءت في تلك الساعة سيدة فمتعت هذا ؛ وكانت هذه السيدة هي ألقيا خرجت من بيتها وقتئذ وحسبت أن سبستيان هو سيزاريو فدعته إلى دارها ، وأظهرت أسفها الشديد على هذا الهجوم الوقح . ولم يكن عجب سبستيان من حسن المعاملة التي لقيها من هذه السيدة أقل من عجبه من سفاهة عدوه المجهول ، ولكنه مع ذلك سره أن يدخل معها دارها ، ولشد ما اغتبطت ألقيا حين رأت سيزاريو حسب ظنهما يستجيب لعواطفها ، وذلك لأنها لم ترف في وجه هذا الفتى ما كان يبدو في وجه سيزاريو من احتقار وغضب ، كانا موضع شكواها حين أظهرت له حبها ، على الرغم من تشابههما في كل ما عدا ذلك .

ولم ير سبستيان بأساً فيما كانت تفيضه عليه هذه السيدة من عطف شديد ، ولم يبد عليه ما يدل على أنه يسيء الظن بهذه العواطف وإن عجب منها أشد العجب ؛ ولعله كان يميل إلى الظن أن بعقل ألقيا خبالاً ، ولكنه رآها ربة بيت جميل ، تحسن تدبير أمورها والإشراف على بيتها ، وتتصرف في كل شؤونها تصرف العقلاء اللهم إلا في حبها المفاجئ له ، رآها كذلك فلم يعارضها في حبها وتوددها إليه . ووجدت ألقيا سيزاريو في هذه الحالة النفسية الطيبة ، وخشيت أن يغير رأيه بعد حين ، فعرضت عليه أن تتزوج به على الفور ، لأن القسيس كان في ذلك الوقت حاضراً في دارها .

ووافق سبستيان على طلبها ، ولما انتهت حفلة الزفاف انصرف من عند زوجته ليغيب عنها وقتاً قصيراً يذهب فيه إلى صديقه أنطنيو ويخبره بما صادفه من حظ سعيد .

وجاء أرسينو وقتئذ في زيارة لألقيا ، فلما وصل إلى دارها وجد عندها رجال الشرطة ومعهم أنطنيو السجين . وكانت قيولا في ذلك الوقت مع سيدها أرسينو ، فلما رآها أنطنيو ، وكان لا يزال يظنها سبستيان ، أخذ يقص على الدوق كيف أنجى هذا الفتى من أخطار البحر ، ويحدثه عما له عليه من يد — كانت له في الحقيقة على

سبستيان — وخم شكواه بقوله إن هذا الفتى الجحود قد بقي معه ثلاثة شهور طوال لم يفارقه لا ليلا ولا نهارا . وفي هذه الساعة خرجت أثلثيا ، فلم يعد في وسع الدوق أن يصنى إلى قصة أنطينو ، وقال حين رآها « ها هي ذى الكنتنة مقبلة ، كأن ملكا من السماء يمشى على الأرض . ولكنى أقول لك أيها الرجل إن حديثك هذا هو الجنون بعينه ، لأن هذا الفتى في خدمتى منذ ثلاثة أشهر » ، وأمر أن يبعد أنطينو عنه . ولكن الكنتنة — ملاك أرسينو — قدمت للدوق من الأسباب ما جعله يتهم سيزاريو بالجحود كما اتهمه أنطينو من قبل . وذلك لأنه لم يسمع من أثلثيا إلا ألفاظ العطف على سيزاريو ؛ ورأى أن خادمه قد أصبحت له في نفس أثلثيا هذه المكانة العالية فأندره بأنه سوف يحل به غضبه وانتقامه العادل . ولما هم بالانصراف أمر قيولا أن تتبعه ، وقال لها « سر معى أيها الغلام فإن ساعة نقتى قد دنت » . ولاح أن أرسينو سيقضى من فوره على قيولا في سورة غضبه ، غير أن حبها له قوى قلبها وأذهب عنها خور عزيمتها ، فقالت إنها يسرها أن تلقى الموت إذا كان في هذا ما يريح قلب سيدها . ولم تكن أثلثيا تريد أن تفقد زوجها فنادت بأعلى صوتها « أين يذهب عزيزى سيزاريو ؟ » وأجابتها قيولا بقولها « إني ذاهب وراء من أحبه أكثر مما أحب حياتى » . ومنعتها أثلثيا من الذهاب حين أعلنت جهرة أن سيزاريو زوجها واستدعت القسيس فشهد أنه من ساعتين لا أكثر قد زوج أثلثيا بهذا الفتى . ولم يفد قيولا احتجاجها وقولها إنها لم تزوج أثلثيا ، وكانت شهادة أثلثيا وشهادة القسيس كافتين لإقناع أرسينو أن خادمه قد سلبه هذا الكنز الثمين الذى كان يحرص عليه أكثر من حرصه على حياته . ولكنه ظن أن ماضى لا مرد له فأخذ يودع حبيبته الغادرة وزوجها الذى سماه الفتى المرائى ، ويحذره من أن يريه وجهه بعد ذلك الوقت . وبينما هو يفعل ذلك إذا بأعجوبة — فى ظن الحاضرين — تحدث أمامهم . فقد أقبل فى ذلك الوقت سيزاريو آخر وخاطب أثلثيا بقوله « يا زوجتى » . وكان سيزاريو هذا هو الفتى سبستيان زوج أثلثيا الحقيقى . ولما ذهب عنهم بعض دهشتهم حين رأوا شخصين لا يفترقان فى الوجه والصوت واللباس ، أخذ الأخ وأخته يتبادلان السؤال والجواب ، وذلك لأن قيولا لم تكن تعتقد أن أخاها حى يرزق ، ولأن سبستيان لم يدر كيف يفسر وجود أخته التى

ظنها قد غرقت ويراها في ثياب الشبان ؛ ولكن قيولا بادرت إلا الاعتراف بأنها أخته حقاً متذكراً في ثياب الرجال .

ولما كشفت كل هذه الأخطاء التي نشأت مما كان بين التوأمين الأخ وأخته من تشابه تام ، أخذوا يضحكون من الخطأ الذي وقعت فيه ألقيا حين أحبت فتاة مثلها ، ولم تغضب هذه السيدة حين تبينت أنها قد تزوجت بالأخ بدل أن تزوج بالأخت . وقضى زواج ألقيا على آمال أرسينو قضاء لا مرد له ، ولاح أن حبه قد ذهب بذهاب آماله ، وانحصرت أفكاره كلها في كيفية انقلاب سيزاريو فتاة المحبوب إلى سيدة حسنة ، فأخذ يوجه التفاته إلى قيولا ، وعاد إلى ذاكرته أنه كان على الدوام يظن سيزاريو فتى وسيماً ، ولم يلبث أن اقتنع بأنها ستبدو بارعة الجمال إذا لبست ملابس النساء . وذكر بعد ذلك أنها كانت على الدوام تقول إنها تحبه ، وهو قول لم يفهم منه في ذلك الوقت إلا أنه يعبر عما يجب على الخادم الوفي لسيدته . ولكن نفسه أخذت تحدّثه الآن بأن لهذه الألفاظ من المعاني أكثر مما كان يفهمه منها ، وعاد إلى ذاكرته كثير من الأقوال الظريفة التي كانت تبدو له غامضة محيرة . ولم تكذب هذه الأشياء تجول في ضميره حتى عزم على أن يتخذ قيولا زوجة له ، فقال لها : (ولم يكن في وسعه أن يناديها إلا باسم سيزاريو والغلام) « أيها الغلام لقد طالما قلت لي إنك لن تحب أحداً من النساء بقدر ما تحبني ، وقد كنت مخلصاً وفيما فيما أدت لي من خدمات ليست جديرة بنشاطك الرقيقة المنعمة ، ولطالما دعوتني سيدك ، ومن أجل هذا وذاك ستكون سيدة سيدك وتصبح دوقة أرسينو الحققة » .

وتبينت ألقيا أن أرسينو يصارح قيولا بذلك الحب الذي لم تكترث هي به ولم تتجمل في رفضه ؛ فدعتها إلى الدخول إلى دارها وعرضت عليها أن تدعو القسيس الذي زوجها بسبستيان في صباح ذلك اليوم ليعقد لها على أرسينو فيما بقي من ساعات النهار . وبذلك تزوج التوأمين الأخ وأخته في يوم واحد ، وكانت العاصفة التي حطمت سفينتهما وفرقتهما هي التي جمعت شملهما وأتلتهما منتهى السعادة ، فقد أصبحت قيولا زوجة لأرسينو دوق إريا ، وأصبح سبستيان زوج ألقيا الكنتية الشريفة النبيلة .

تيمون الأثيني

كان تيمون Timon شريفاً من أشرف أثينة ، ذا ثروة طائلة ، ولكنه كان طلق اليدين ، لا يقف جوده عند حد ، ولا يكاد إirاده الضخم يصل إلى يده حتى ينفقه على كل من هب ودب . كان مخلصاً متلفاً ، لا يقصر نواله على الفقراء ، بل إن أشرف الناس كانوا لا يستنكفون أن يكونوا من خدمه وتبعه . وكانت مائدته ملتقى المترفين المولعين بلذيذ الطعام والشراب ، وداره مفتحة الأبواب لكل قادم على أثينة أو نازح عنها . وكانت ثروته الطائلة عوناً لطبيعته الكريمة السمحة على كسب القلوب وجمعها على حبه ، فكانوا على اختلاف طباعهم ومراتبهم يعرضون عليه خدماتهم ، لا فرق في ذلك بين الرأى المتعلق الذى تنعكس على وجهه أهواء سيده ونصيره ، وبين الرجل النكد الناقم على الحياة الذى يتظاهر بازدراء الناس وعدم المبالاة بأمر الدنيا ، ولكنه تأسره رقة طباع لورد تيمون وظرفه ، فيأتى إليه مرغماً لينال قسطه من كرمه الفياض ، ويعود وقد كبر فى عين نفسه إذا أسعده الحظ بتحية أو إيماءة من تيمون .

وإذا أنشأ شاعر قصيدة وأراد أن يصدرها بكلمة يقدمها بها إلى العالم ، لم يجد خيراً من أن يهديها إلى لورد تيمون ، فيضمن لها بذلك الزواج ، فضلاً عما ينفحه به اللورد من المال ، وعن دعوته إياه للتردد على بيته فى كل يوم والجلوس إلى مائدته . وإذا كان عند رسام صورة يبنى التخلص منها فما عليه إلا أن يذهب بها إلى لورد تيمون ويتظاهر بأنه يريد أن يستأنس برأيه فى قيمتها ، فإذا فعل ذلك كان هذا كافياً لإغراء اللورد السمح الكريم بابتيعائها . وإذا كان عند صائغ حجر كريم ، أو عند بزاز ثوب من نسيج ثمين ، ولم يعثر كلاهما على من يشتري بضاعته لارتفاع ثمنها ، وجد فى بيت تيمون سوقاً دائماً يبيع فيها جوهرة أو ثيابه بالثمن الذى يشتهيه . وكان اللورد الطيب القلب يشكر لهم حسن صنيعهم ، كأنهم هم قد أحسنوا إليه إذ عرضوا عليه بضاعتهم الثمينة . وبذلك

نُصَّ بيته بالسلع التي تزيد على حاجته ، والتي لم تكن لها فائدة أكثر من أن تزيد في أمهته الكاذبة المتعبة . وكان يضايقه أكثر من ذلك طوائف من الزائرين المتعطلين الذين لا يعملون عملاً ، كالشعراء الكاذبين ، والمصورين ، والتجار المحتالين ، وأعيان البلاد وسيداتهما ، ورجال البلاط المعسرين ، والطلاب عطاءه الذين تزدحم بهم في كل حين ردهات قصره ليلقوا على مسامحه عبارات الملق والدّهان ، يتذللون له ويطرونه بألفاظ لا يوصف بها إلا الخلاق العظيم ، ويقدمون كل شيء فيه ، حتى الركاب الذي يستعين به على امتطاء جواده ؛ وكأن الهواء الطليق الذي يتنفسونه هبة منه لا تصل إليهم إلا بإذنه .

وكان من أولئك الصنائع المرتزقين الذين يفدون إليه في كل يوم طائفة من الشبان أبناء الأسر الكريمة ، بسطوا أيديهم في الإنفاق حتى لم تكفهم مواردهم ، فاستدانوا ولم يوفوا بدينهم ، فزجوا في أعماق السجون ، ثم أخرجوا منها بعد أن أدى عنهم تيمن دينهم ، فتعلق هؤلاء المبذرون بأذياله ، كأن الإسراف رابطة وثيقة تؤلف بينه وبينهم ، وتجعله صديقاً عزيزاً لهؤلاء المفسرين الذين لم يكن في وسعهم أن يضارعوه في ثروته ، ولكنهم رأوا أن من السهل عليهم أن يقلدوه في بذخه ، وفي الإنفاق مما لا يملكون . وكان من هؤلاء الطفيليين رجل يدعى فنتيديس Ventidius ، أدى عنه تيمن من زمن قصير ديناً باهظاً تورط فيه ، يزيد مقداره على خمس تالنتات من المال^(١) .

وكان أظهر الناس في هذا السيل الجارف من الزوار أولئك الذين يتقدمون إلى الشريف بالهدايا والهبات . وكان السعيد الموفق منهم من يعجب تيمن بكلب له أو فرس أو قطعة رخيصة من أثاث . فكان هذا الشيء الذي يعجب به تيمن أياً كان شأنه يهدي إليه حتماً في صباح اليوم التالي مصحوباً بتحيات المهدى واعتذاره عن حقارة الهدية . وما من مرة إلا رد تيمن في نظير الكلب أو الحصان عشرين كلباً أو حصاناً ، أو هدية أعظم منهما قيمة ، لأنه لم يكن في الناس كلهم من هو أندى من تيمن يدا . وكان هؤلاء المهدون المراءون يعرفون هذا منه ،

(١) التالنت وزن قديم يتراوح مقداره بين : ٢١٣، ٢١٥ جنيهاً ذهباً .

فلم تكن هداياهم المزعومة إلا استثماراً لأموالهم تُردُّ إليهم رباً فاحش عاجل .
وعلى هذا النحو أرسل لورد لوسيس Lord Lucius إلى تيمن من وقت قريب
هدية من أربعة جياذ ناصعة البياض وعليها سروج من فضة ، وكان تيمن قد
أثنى عليها مرة من قبل ، ولاحظ ذلك هذا الشريف الماكر ؛ وكذلك أهدى
إليه شريف آخر يدعى لورد لكاس Lord Lucallas بهذه الطريقة الباطلة عينها
كلبي صيد سمع تيمن مرة يثنى على شكلهما ويعجب بسرعة عدوهما . وقبل تيمن الرجل
السمح الطيب القلب هاتين الهديتين دون أن يسيء الظن بمقاصد صاحبيهما ، وكان
أصحاب الهدايا يجزون بطبيعة الحال بهدايا أخرى قيمة كقطعة من الماس أو حلية
ثمينة تربي قيمتها على هديتهم الزائفة ، أو تجارتهم إن شئت الحقيقة ، عشرين ضعفاً .
وكانت هذه الخلائق تعمل أحياناً سافرة وتلجأ في احتيالها إلى أساليب
ظاهرة السماجة ، ولكن تيمن لم يكن يراها لسذاجته وغفلته ، فكانوا يتظاهرون
بالإعجاب بشيء مما يملكه أو بمدح شيء مما اشتراه أخيراً ، فكان هذا الإعجاب وهذا
المدح ينتزعان من ذلك السيد الرقيق القلب هذا الشيء المدوح . وكل ما كان
يؤديه هؤلاء من خدمات له نظير هذه الهدايا القيمة هو ذلك الملق السهل الرخيص
الذي لم يكن يخفى على أحد . وعلى هذا النحو أهدى تيمن من وقت قريب إلى أحد
هؤلاء السادة الأندال جواده الكميث ، وهو ركوبته الخاصة ، لأن هذا السيد قد
سره أن يثنى على الجواد وعلى حسن خطوه ، وكان تيمن يعلم أن الناس لا يثنون
قط على شيء لا يريدونه لأنفسهم ، لأنه كان يقيس عواطف الناس بعواطفه ، وقد
تعود بسط الكف حتى لم يكن يصعب عليه أن يهب هؤلاء المتظاهرين بصداقته
ممالك ودولا دون أن يمل العطاء .

ولكن ثروة تيمن لم تذهب كلها لإشباع هؤلاء المتماقين الآثمين ؛ فقد كان في
وسعه أن يعمل أعمالاً طيبة محمودة . مثال ذلك أن خادماً قد أحب مرة ابنة أثنين
ثرى ، ولم يكن ثمة أمل لهذا الخادم في الزواج بهذه الفتاة ، لأنها كانت أعظم منه
ثروة وأرفع درجة ، فما كان من تيمن إلا أن منح خادمه ثلاثة تالنتات ليستطيع
أداء المهر الذي طلبه والد الفتاة . لكن الكثرة الغالبة ممن كانوا ينالون

عطاءه كانوا هم السفلة المتطفلين والأصدقاء الكاذبين الذين لم يكن يعرف كذبهم وخداعهم ، بل كان يظن أنهم يحبونه حتماً لأنهم يلزمونه ويلتفنون حوله . ورأى هؤلاء القوم يتملقونه ويسمون له ، فلم يشك في أن خيار الناس وعقلاءهم على بكرة أيهم يعجبون به ويرضون عن عمله . وبينما هو يولم الولاة هؤلاء المرائين والأصدقاء الكاذبين ، وبينما كانت موارد في طريق النضوب لما كان يقدم هؤلاء وأولئك من طعام وشراب ، كان هو عاجزاً عن أن يميز الصديق الوفي من المتملق المرائي كأن على بصره غشاوة ، — لأن كثرة هؤلاء الصحاب قد أضلته وأعمت بصيرته — فبدا له أن السعادة في أن يرى هذا العدد الجم من الأصدقاء يتصرف كل منهم في مال أخيه (وإن كان ماله في الحقيقة هو الذي يتصرفون كلهم فيه) ، ويبادرون في غبطة إلى الاجتماع بعضهم ببعض في بهجة وإخاء كما كان يبدو له في ذلك الحين .

وبينما كان هذا الرجل المتلاف ينفق ماله بلا حساب ، ويبدد ثروته ذات اليمين وذات الشمال كأن بلوتوس إله الذهب كان خازنه ، ويندفع في هذا الطريق لا يعوقه فيه عائق من عناية ، لا يفكر فيما ينفق ولا في الوسيلة التي تمكنه من المضي في إنفاقه ، ولا ينقطع في يوم من الأيام عن إسرافه وبذخه ، بينما هو يفعل هذا كله كان معين ثروته آخذاً في النضوب من جراء هذا الإسراف الذي لا آخر له . ولكن منذ الذي يستطيع أن ينهبه إلى هذا ؟ أينبهه إليه متملقوه ومصالحهم تقضى عليهم أن يخفوا ذلك عنه حتى لا يرى عاقبة أمره ؟

وعبثاً حاول فلاقيس Flavius أستاذ داره الأمين أن يبين له حقيقة أمره ، ويطلعه على حساب دخله وخرجه ، ويرجوه ، ويتوسل إليه ، ويلج عليه إلحاحاً لم يكن في غير هذه الأحوال يليق أن يصدر من خادم إلى سيده ، ويتضرع إليه والدموع تنهمر من عينيه ، أن يفكر في عاقبة أمره . ولكن تيمّن كان يصرفه عن هذا ويحول مجرى الحديث إلى غير هذه الشؤون ، لأن الغنى إذا افتقر كان أقل الناس قبولاً للنصح ، وأكثرهم مضياً في عمايته ، وأشدّهم بغضاً للاعتراف بحقيقة حاله ، وأبعدهم عن الإقرار ببؤسه . وبينما كانت حجرات قصر تيمّن العظيم غاصة

بالضيوف يصخبون فيها ويطعمون على نفقته ، وانحمر تجرى على أرضها جريان الماء ، والأنوار تتلألأ في سماءها فتبدل ليلاً نهاراً ، والقصر كله يردد صدى الأنغام الموسيقية وأصوات القصف والمرح ، بينما كان هذا كله يحدث في قصر تيمن كان أستاذ داره الأمين وخادمه الطيب الكريم كثيراً ما يأوى بمفرده إلى مكان بعيد ويفكر في أمر سيده الأخرق المتلاف ، وفي أنه إذا ذهب المال الذي يشتري به ثناء هؤلاء الناس انقطعت الأنفاس التي يخرج معها ، لأن الثناء الذي يشتري بالطعام يذهب به الصيام ويختفى المادحون عند أول سهم يرمى به الزمان ، كما يختفى الذباب عندما تسقط في الشتاء أول مطرة من السماء .

ثم جاء الوقت الذي لم يستطع فيه تيمن أن يصم أذنيه عن سماع نصيح هذا الخادم الأمين ؛ فقد احتاج يوماً إلى المال وأمر فلاقيس أن يحصل عليه ببيع جزء من أرضه ، فأخبره فلاقيس بما كان قد حاول مراراً من قبل أن يحذره منه ، وهو أن أرضه كلها قد بيعت أو استولى عليها الدائنون ، وأن كل ما يملكه في ذلك الوقت لا يفي بنصف ديونه .

وذهل تيمن عند ما سمع هذا النبأ فأجاب من فوره : « إن أملاكي تمتد من أثينة إلى لسايدمون Lacaedemon » ، فرد عليه فلاقيس بقوله : « إن ذلك لا يغير من طبيعة العالم فهو وله حدود ، ولو أنك ملكته كله ثم وهبته للناس بكامة لما بقي لك إلا ريثما تنطق بهذه الكلمة » .

وأخذ تيمن يعزى نفسه بأنه لم يعط من ماله شيئاً لغرض ذميم ، وأنه إذا كان قد أخطأ في إنفاق ماله فإنه لم ينفقه في شهواته ، بل بذله في تأليف قلوب الصحاب ؛ وأمر أستاذ داره الكريم الذي كان يبكي من فرط حزنه أن يطيب نفساً ، وأن يطمئن إلى أن سيده لن يعدم المال وله هذا العدد الجم من الأصدقاء الأوفياء . وظن هذا السيد المفتون أن ليس عليه إلا أن يرسل إلى الأصدقاء فيستدين منهم المال ، وأن ينفق في هذه الشدة من مال أولئك الذين نالوا عطاءه كأنما هو ماله الخاص . ثم انبسط أسارير وجهه كأنما كان واثقاً من نتيجة هذه المحاولة الجديدة وأرسل من فوره رسولا إلى كل من النبلاء لوسييس ولوكلس وسيمرونيس ، وهم

أولئك الذين أفاض عليهم من ماله وغمرهم بنعمته فيما مضى من الأيام . وأرسل أيضاً رسولا إلى قنتديس Ventidius الذى أخرجه من السجن من وقت قريب ، بعد أن أدى عنه جميع ديونه ، ثم مات أبوه أخيراً فورث عنه أموالاً طائلة ، وأصبح فى وسعه أن يكافئ تيمن على حسن صنيعه . وطلب تيمن إلى قنتديس أن يرد له خمسة الآلاف تالت التى أداها عنه ، وإلى كل من النبلاء الآخرين أن يقرضه خمسين ألف تالت . ولم يكن يشك فى أن ما أسداه إليهم من جميل سيحملهم على أن يفرجوا كربته ويقرضوه من مالهم أضعاف ما طلبه إليهم خمسمائة مرة ، إذا احتاج الأمر إلى ذلك .

وكان لوكلس أول من لجأ إليه تيمن ، وكان هذا السرى الدنى قد رأى فى منامه كأساً وآنية من فضة ، فلما أخبروه بقدوم رسول تيمن صور إليه طمعه أن رؤياه قد تحققت ، وأن تيمن قد أرسل إليه هذه الهدية التى كان يحلم بها ؛ فلما تبين جليلة الخبر وعرف أن تيمن إنما أرسل إليه يطلب المال ، ظهرت حقيقة صداقته الواهية ، وأقسم جهد أيمانه أنه قد رأى بثاقب بصره من زمن بعيد ما سيحل بتيمن من الخراب ، وأنه كثيراً ما لبى دعوته للغداء ليطلع على رأيه ، وجاءه وقت العشاء ليحاول أن يقنعه بالاعتدال فى الإنفاق ، ولكن تيمن أصم أذنه عن سماع نصحه ولم ينفعه تحذيره . فأما أن لوكلس كان كما قال هو نفسه ضعيفاً مستديماً يطعم على موائد تيمن ، وأنه قد نال من عطائه ما هو أهم من الطعام وأعظم ، فذلك حق لا مرء فيه ؛ وأما أنه كان يتردد عليه لهذا الغرض ، أو أنه قد أسدى إليه نصحاً أو تحذيراً فذلك كذب دنى . وقد أتبعه بعمل يماثله فى الخسة والدناءة ، فحاول أن يرشو الرسول ليغيره على أن يعود إلى مولاه وينبئه أنه لم يجد لوكلس فى داره .

ولم يلق الرسول الذى ذهب إلى لورد لوسيس خيراً مما لقي هذا الرسول . ذلك أن هذا الشريف الذى أفاض عليه تيمن من نعمته ، وغمره بهداياه الثمينة ، لما وجد أن الدهر قد تقلب ، وأن معين هذه الهدايا قد نضب فجأة ، لم يصدق هذا النبأ أول الأمر ، فلما أن أكد الرسول صدقه ، تظاهر بالأسف الشديد لعدم

قدرته على تقديم المعونة إلى لورد تيمن ، فقد كان من سوء حظه أنه تورط بالأمس في شراء صفقة كبيرة استغرقت كل ما كان حاضراً لديه من المال — وقد كان هذا القول كذباً دينياً — وزاد على ذلك قوله إنه مما يزيد في حقارته أنه بعمله هذا عجز عن خدمة صديقه الكريم ، وأن أشد ما يؤله ويجز في نفسه أن يعجز هذا العجز عن تفريج كرب هذا السيد الشريف .

ومنذا الذي يسمى ذلك الشخص الذي يتناول معه الطعام في صفحة واحدة صديقاً له ؟ لو سمي هذا صديقاً لكان المرءون المتملقون كلهم أصدقاء . لقد كان الناس كلهم يذكرون أن تيمن كان أباً للويسيس ، يرد عنه بماله كل ما يسيء إلى سمعته ، ويؤدي له من ماله رواتب خدمه ، وأجور العمال الذين كانوا يكدحون في بناء البيوت الجميلة التي تتطلبها كبرياؤه . ولكنه كفر بنعمته ، والكفران بالنعمة يفقد المرء إنسانيته ، وقد عثر على لويسيس أن يمد تيمن بمبلغ من المال إذا قيس بما أفاضه عليه تيمن كان أقل مما يجود به المحسنون على السائلين .

وكذلك فعل سمپرونييس وغيره من النبلاء الذين مدَّ إليهم تيمن يده ، والذين كانوا يبيعون صداقتهم بالمال ، فردوا عليه بمثل هذا الرد المراءوغ أو بالرفض الصريح ؛ وحتى قننديس نفسه الذي أخرجه تيمن من سجنه ، والذي أصبح الآن من المثرين النعميين ، لم يكن خيراً من أولئك كلهم ، فقد أبى أن يعينه بالخمسة التالنتات التي أداها عنه تيمن ، والتي لم يقرضها له إقراضاً ، بل وهبها له هبة خالصة ليفرج بها كربته .

وتفرق الناس من حول تيمن في أيام فقره بأسرع مما كانوا يتجمعون حوله في أيام غناه ، وأخذت تلك الألسنة التي كانت تلهج بالثناء عليه وتصف جوده وسخاءه وبسط يده تسمى جوده خرقاً ، وكرمه سفاهة ، وبسط يده تبذيراً ؛ ولم تر في هذا عاراً عليها ولا مذمة ، وإن كان خرقه لم يبد في شيء أكثر مما بدا في اصطناعه هذه الخلائق الدنيئة . وهجر الناس قصر تيمن الفخم حتى أصبح مكاناً كريهاً يعمرون به سراعا ، بعد أن كان من قبل ملتقى كل عابر سبيل ينزل فيه فيجد الطعام والشراب وحسن اللقاء ؛ وبعد أن كان هذا القصر غاصاً بالأضياف

يقصفون فيه ويصخبون ، أصبح الآن يعج بالدائنين الملحين المتذمرين ، والمرابين
والسالبين المقتصين ، يتقدمون بمطالبهم في عنف وقسوة لا تطاق ، ليوفى لهم
بديونهم وأرباح أموالهم ورهونهم ، وكلهم عاتون لا تلين لهم قناة ، لا يقبلون
عذراً ولا يرضون بتأجيل يوم الوفاء ، حتى صار القصر سجناً لتيمن لا يجرؤ على
الخروج منه أو الدخول فيه ؛ فمنهم من كان يطالب بخمسين ألف تالنت ، ومنهم
من بيده صك بخمسة آلاف كرون لو أن تيمن استطاع أن يعد دمه قطرة قطرة
ليؤدى بها هذه الآلاف لما وجد في جسمه من الدم ما يفي بها .

وبينا هو في هذه الحال من الشقاء التي لا يرجى لها صلاح ، إذا بالناس
يدهشون حين يرون هذه الشمس الكاسفة يشع منها على حين غفلة بريق جديد
يكاد سناه يذهب بعقولهم ، فلا يدرون أحق هو أم وهم صورته لهم الخيال . فقد
أولم لورد تيمن مرة أخرى وليمة دعا إليها ضيوفه الأولين من النبلاء والنبيلات ،
وكل من كان في مدينة أثينة ذا شأن ومقام . ولبى الدعوة لورد لوسيس ولوكلس
وثنديس وسيمبرونيس وغيرهم من وجوه القوم . ولم يكن أحداً أكثر أسفاً من
هؤلاء الأندال الأشقياء حين حسبوا أن فقر لورد تيمن كان كله تصنعاً ادعاء
ليبتليهم به ويعرف مقدار جبههم له ، وتمنوا لو أنهم أدركوا الحقيقة وقتئذ ، فكان لهم
عليه ذلك الفضل الرخيص . ومع ذلك فلم يكن أحد أشد منهم سروراً حين رأوا أن
ذلك المورد العذب الذي ظنوه قد نصب لا يزال يفيض كما كان يفيض من قبل ،
وجاءوا هم وغيرهم يراءون وينافقون وقيمون الحجة على جبههم وإخلاصهم ،
ويعلمون شديد أسفهم وخجلهم ، لأنهم حين دعاهم تيمن لمعنته لم يكن لديهم
لسوء حظهم من المال ما يجيبون به طلب هذا الصديق الكريم . ولكن تيمن
رجاهم ألا يفكروا في هذه الأمور التافهة ، لأن هذا الحادث لم يبق له أثر في
ذاكرته . ولم ير هؤلاء السادة الأندال الأندال ، الذين أبوا أن يعينوه في أيام
محنته ، حرجاً عليهم في أن يلتفتوا حوله حين رأوا نجمه يتلألأ من جديد ، وذلك
لأن من كانت هذه طباعهم يتهافون سرا على دور العطاء ، إذا بسم لهم الحظ

ورأوا فيها مغما لهم ، حتى إذا ما عبست الأيام لهم ذابوا من حولهم أسرع مما تذيب حرارة الشمس الجليد .

ومدت الموائد ووضعت عليها الصحف ، وكان الدخان يخرج منها والموسيقى تصدح بشجي ألحانها ، وقضى الأضياف وقتاً قصيراً وهم في حيرة لا يدرون كيف استطاع تيمن المملق أن يجد المال الذي ينفق منه على هذه المائدة الفخمة ؛ وبلغت الدهشة من بعضهم أنه لم يصدق ما كانت تراه عيناه ، بل كان يظن نفسه وإهما أو حالماً . ثم أمر تيمن فرفعت الأغطية عن الصحف وظهر الغرض الذي كان يرمى إليه ؛ فلم يجد المدعوون ما كانوا يتوقعون إليه من أصناف نادرة شهية ، كانت تنوء بها موائده فيما مضى من الأيام ، بل رأوا تحت الأغطية استعداداً أليق منها بفقر تيمن ، رأوا قليلا من الدخان والماء الفاتر ، وهو خير ما يليق من الطعام لهذه الطغمة من أصدقاء البطون ، أصحاب الدعاوى الباطلة التي تتطاير كال دخان ، والقلوب الفاترة القلقة كالماء الذي حيا به هؤلاء الأضياف . وقال لهم تيمن وهم في حيرتهم : « ارفعوا الأغطية أيها الكلاب والعقوا ما في الصحف » ؛ وقبل أن يذهب عنهم روعهم قذف الماء في وجوههم حتى ينالوا منه كفايتهم ، ثم قذف الصحف وأدوات المائدة في ظهورهم ، وهم يهرولون رجلا ونساء ، بعد أن اختطفوا قبعاتهم على عجل . وما كان أغرب منظرهم في حيرتهم واضطرابهم ، وتيمن من ورائهم يدعوهم بأسمائهم الحقة : الطفيليين الباسمين ، الناعمين ، المتلفين تحت ستار الجمالة ، والذئاب الباشة ، والديبة الوديعه ، الما جنين أتباع الموسرين ، أصدقاء البطون ، التهافتين على الطعام تهافت الذباب على الأقدار .

وتزاحموا كلهم كيلا تقع أعينهم عليه ، وخرجوا من الدار أسرع مما دخلوها ، فمن الرجال من ترك معطفه وقبعته ، ومن النساء من تركت حليها ؛ ولم يكن لأحد منهم هم إلا الفرار من وجه هذا السيد الأحمق ، وتجنب سخريته اللاذعة ، وولم يمتد المزورة الهزلية .

وكانت هذه آخر ولية أولمها تيمن ، وفيها ودع أثينة وودع صحبة الناس ، ولجأ بعدها إلى الغابات ، واعتزل المدينة والناس أجمعين ، وتمنى أن تدك جدران

هذه المدينة المقنونة وتنهار بيوتها على أهلها ، وأن تسلط على سكانها جميع المصائب التي تحمل بالبشر ، من حرب طاحنة ، وانتهاك حرمة ، وفقر ووباء ؛ ودعا الآلهة العدول أن تصب جام غضبها ونقمتها على الاثنينين طرا ، صغيرهم وكبيرهم ، عظيمهم ووضيعهم ؛ ثم غادر المدينة وآوى إلى الغابات ، لأن الوحوش الضارية — على حد قوله — أرحم بالإنسان من الإنسان . وجرّد تيمن نفسه من ملابسه حتى يقطع كل صلة بينه وبين الإنسانية ، واحتفر لنفسه كهفاً يسكنه ، وعاش فيه وحيداً كما يعيش الحيوان الأبكم ، يطعم الجذور البرية ، ويشرب الماء الجارى ، ويفر من وجوه بنى جنسه ، ويفضل صحبة الوحوش الكاسرة لأنها أقل من الإنسان أذى وأكثر منه مودة .

وما كان أكبر الفرق بين لورد تيمن الموسر صاحب المال الكثير ، مصدر البهجة للخلائق أجمعين ، وبين تيمن العارى الجسد ، الحاقد على البشر . فأن الآن كل أولئك الذين كانوا يتملقونه ويتدللون له ؟ فهل تكون الريح العاتية خادمه الذى يدفى له قميصه ؟ وهل تستحيل الأشجار الجامدة المعمرة إلى شبان يقومون بخدمته ، ويقضون له حوائجه ، وينفذون أوامره ؟ وهل يقف فى خدمته جدول الماء الذى تجمد فى الشتاء ، فيقدم له حساء وشرابه الدفىء إذا أصابته تخمة بالليل ؟ أو هل تأتية الخلائق التى تسكن هذه الغابات الموحشة فتمسح بلسانها كفه وتملقه ؟

وبينا هو يحفر الأرض فى يوم من الأيام ليخرج منها ما يقتات به من الجذور ، إذا بفأسه تصطدم بجسم صلب ثقيل ، فلما أخرجه رآه كومة من الذهب ، لعل إنساناً بخيلاً دفنها فى ساعة رعب ، وفى نيته أن يعود إليها ليستخرجها من مخبئها ، ولكنه مات قبل أن تتاح له فرصة الرجوع إليها ، ومن غير أن يطاع أحداً من الناس على سرها . وهكذا بقى الذهب فى باطن أمه الأرض لا ينفع الناس ولا يضرهم ، وكأنه لم يخرج منها قط ، حتى أصابه معول تيمن مصادفة فأراه ضوء النهار .

وهكذا عثر تيمن على كنز كان فى وسعه أن يبتاع به مرة أخرى الصحاب

مرتاعا . فلما ذهب عنه الروح واستطاع النطق ، غص بريقه وفاضت دموعه حتى
تعذر على تيمن أن يتبينه ويعرف من هذا الإنسان الذى خرج عن طبيعة البشر
فجاء إليه فى بؤسه يعرض عليه خدمته . ورآه فى صورة البشر فارتاب فى أمره ،
وظنه خائناً يتصنع البكاء لغرض فى نفسه ، غير أن هذا الخادم الأمين أثبت بالقول
والعمل أنه صادق وفى ، وأظهر أنه لم يأت به إلى هذا المكان إلا حبه لسيده
القديم وحرصه على أداء واجبه إليه . واضطر تيمن آخر الأمر أن يعترف أن فى
العالم كله رجلا وفيا شريفاً ؛ ولكنه رآه فى صورة البشر ، فلم يستطع أن ينظر إلى
وجهه من غير أن تعاف منظره عيناه ، وأن يستمع إليه من غير أن تستك من
ألفاظه أذناه ، واضطر هذا الرجل الذى تفرد بالوفاء بين الرجال أن يرجع أدراجه ،
لا لشيء إلا لأنه رجل ، ولأن له هيئة الرجال المقوتة وملاحمهم الكريهة ، وإن
أوتى من الرحمة والحنان ما لم يؤت الكثيرون من الناس .

لكن زواراً أعظم شأنًا من الخادم المسكين كانوا يتأهبون للمجيء إلى هذه
الغابة ليقطعوا على تيمن هدوءه الموحش فى وحدته ، فقد حل اليوم الذى ندم فيه
وجهاء أثينة الجاحدون على ما أساءوا إلى تيمن الكريم . ذلك أن السيديس كان
فى ذلك الوقت يزجر عند أسوار المدينة كما يزجر الوحش المهتاج ، وكانت جيوشه
المحيطة بأثينة الجميلة تهددها بالدمار والحراب . فلما جد الجد عادت ذكرى تيمن
إلى عقول هؤلاء الناس بعد أن غفلوا عنه زمناً طويلاً ، وذكروا بأسه وشجاعته
فى القتال ، فقد كان تيمن قائدهم فيما مضى من الأيام ، وكان جندياً مقداماً خبيراً
بفنون الحرب ، فلم يأنسوا فى غيره القدرة على لقاء هذا الجيش اللجب الذى كان
يحاصر المدينة ويهددها بالتدمير ، وصد هجوم السيديس العنيف .

وأرسل إليه أهل المدينة فى محنتهم وفداً من شيوخها ليعرضوا عليه أمرهم ،
وجاء قومه يهرعون إليه فى هذه المحنة ، وهم الذين تخلوا عنه فى بؤسه ولم يمدوا إليه
يدا ، كأنهم كانوا يطلبون إليه أن يشكر لهم ما قدموا له من إساءة ، وكأنهم
كانوا أهلاً لمعرفه وفضله لما عاملوه به من القسوة والفضاعة .

فقد جاءوه الآن متذللين متضرعين يدعونه والدموع تنهمر من عيونهم أن

يعود إليهم ويرد العدو عن مدينتهم ، وقد أخرجه منها جحودهم من وقت قريب ؛ جاءوا يعرضون عليه المال والسلطان والجاه والشرف الرفيع ، ليعوضوه بهذا كله عما لحقه من الأذى في أيامه الماضية ؛ ويؤكدون له أن قلوب أهل المدينة ملتفة حوله ، ويمنحونه ألقاب الشرف ، ويضعون أرواحهم وأموالهم وكل ما ملكت أيماهم بين يديه إذا عاد إليهم ونجاهم من عدوهم . ولكن تيمن العارى الجسد ، الكاره للبشر ، لم يعد هو لورد تيمن الجواد المعطاء ، والبطل المقدام ، حاميه في الحرب ، وزينتهم في السلم ؛ فإذا أهلك السيديس بنى وطنه فذلك ما لا يعنيه ، وإذا دك أبنية أثينة الجميلة دكا ، حتى كانت هباء منبثا ، وقتل شيوخها وأطفالها ، قرت بذلك عينه وطابت به نفسه . ذلك ما قاله لهم وزاد عليه أن ليس في يد أحد من الجند المهاجمين خنجر إلا وهو في نظره أعظم قيمة من أشرف رأس في أثينة .

هذا هو كل ما أجاب به عن توسل الشيوخ الباكين النادمين ، ولم يزد عليه حين ردهم خاسرين إلا أن أمرهم أن يذكروه بخير لمواطنيه ، ويبلغوهم أنهم قد بقيت لهم وسيلة تخفف عنهم آلامهم ، وتذهب عنهم مخاوفهم ، وتنجيهم من عواقب غضب السيديس ووحشيته ، وأنه لا يضمن عليهم بوصفها لهم ، لأن قلبه لا يزال فيه بقية من حبه لمواطنيه الأعداء ، تغريه بالإحسان إليهم مرة قبل أن يوافيه أجله المحتوم . وسمع الشيوخ هذا الكلام فانتعشت نفوسهم بعض الانتعاش ، وظنوا أن الرحمة قد وجدت سبيلا إلى قلبه ، ثم أخبرهم أن بالقرب من كهفه شجرة سيقطعها لبعض أغراضه عما قليل ، ودعا كل من أراد أن ينجو من العذاب من أصدقائه الأثينيين على بكرة أبيهم ، عظيمهم وحقيرهم ، أن يذوقوا طعم هذه الشجرة قبل قطعها . وكان يريد بقوله هذا أن عليهم أن يشفقوا أنفسهم على أغصانها لينجوا من العذاب .

وكانت هذه آخر يد يسديها تيمن لبني الإنسان ويختتم بها جوده ونبله ، كما كانت آخر مرة يراه فيها مواطنوه ؛ فقد مر أحد الجنود البائسين بعد أيام قليلة بشاطئ البحر غير بعيد من الغابة التي كان يأوى إليها تيمن ، فوجد عنده قبراً

وعليه من النقوش ما يدل على أنه قبر تيمن الحاقد على بني جنسه ، « الذي كان في حياته يمقت الناس أجمعين ، والذي تمنى عند وفاته أن يرسل عليهم وباء يذهب بكل من بقي من أولئك الأندال » .

وليس يدري أحد هل قضى تيمن على نفسه بيده ، أو أن كره الحياة ومقت بني الإنسان هما اللذان أوصلاه إلى هذه الخاتمة ؟ ولكن ما من أحد إلا أعجب بهذا النقش الذي خطه على قبره ، وبجرصه على ما أخذ به نفسه بعد خروجه من بلده ، وبأنه مات كما عاش حاقداً على بني جنسه . ومن الناس من رأى معنى آخر في اختياره شاطئ البحر موضعاً لقبره ، حتى يبكي عليه البحر إلى الأبد ؛ كأنه بذلك يعلن ازدراءه ومقتته للدموع المصطنعة السريعة الجفاف ، دموع الناققين من بني الإنسان .

رميو وجليت

كان أكبر الأسر التي تسكن فيرونا أسرة كپيلت Capulet الثرية وأسرة منتجيو Montague ؛ وكان بين الأسرتين نزاع قديم ، واشتدت العداوة بينهما حتى وصلت إلى أقاربهما الأبعدين ، بل إنها امتدت إلى الخدم والأتباع ، فإذا تقابل فرد من أسرة كپيلت بآخر من أسرة منتجيو ، أو التقى بطريق الصدفة خادم لهذه الأسرة بخادم لتلك ، تبادل الإثنان قوارص الكلام وجرت الدماء بينهما أحيانا ؛ وكثيراً ماثار النزاع في طرقات المدينة الهادئة السعيدة إذا التقى الفريقان فيها مصادفة فأزعج ذلك أهلها وأقلق بالهم .

وأولم لورد كپيلت الكبير ذات مرة وليمة عشاء فخمة ، دعا إليها كثيرات من السيدات الحسان وكثيراً من النبلاء العظام ، ولبى الدعوة كل من كان في المدينة من الغانيات ذوات الجمال البارع الفتان ؛ ورحب رب البيت وأهله بالدعويين جميعا إذا لم يكونوا من أسرة منتجيو . وكان من الفتيات اللاتي حضرن الوليمة روزلين Rosaline حبيبة رميو Romeo ابن لورد منتجيو الكبير ؛ ومع أن وجود أحد من بيت منتجيو في هذه الوليمة يعرضه لأشد الأخطار فإن بنقليو Benvolio صديق رميو أقنعه بالذهاب إليها لينظر بعينه حبيبته روزلين ، ويرى الفارق العظيم بينها وبين غانيات فيرونا ، ويدرك إن قطاته ليست إلا حذاء . ولم يكن رميو ليصدق شيئاً من أقوال بنقليو ، ولكنه وافق على الذهاب إلى الوليمة ليشاهد روزلين ، لأنه كان يحبها حباً صادقاً قوياً أرقه وأطار الرقاد من عينه ، واعتزل من أجله الناس لينفرد بنفسه ويفكر في روزلين . ولكن هذه الفتاة كانت تزدريه ولا تأبه بحبه ، ولم تظهر نحوه شيئاً من العطف أو المجاملة ؛ وكان الغرض الذي يرمى إليه بنقليو أن يزج بصديقه بين الصحاب والفتيات لعل ذلك يشفيه من حبه .

وجاء رميو إلى وليمة آل كپيلت ومعه بنقليو وصديقهما مركاتيو Mercutio وكانوا كلهم متخفين مقنعين . وحياتهم لورد كپيلت الكبير وأبلغهم أنهم يراقصون

المتصرف في أمرها ، وسارت معه أينما سار . ونادتها مرييتها أكثر من مرة في أثناء هذا الحديث ، وطلبت إليها أن تأوى إلى فراشها ، فكانت تذهب إليها ثم لا تبث أن ترجع إلى مكانها من النافذة ، لأنها كانت تحرص على قرب رميو منها حرص الطفلة الصغيرة على عصفور بيدها ، تتركه يقفز قليلا أمام عينيها ثم تعود فتجذبه إليها بخيط من حرير . وكان رميو لا يقل عنها بغضاً لفراقها لأن أعذب النفقات وأشجاءها لمحبين صوت أحبائهم في سكون الليل . ثم افترقا آخر الأمر وكلاهما يرجو لحبيبه اطمئنانا ونوما هاءئنا في تلك الليلة .

وكان ستر الليل وقتئذ قد تمزق ، وكانت صورة چليت لا تبرح ماثلة أمام عيني رميو ، وذكري تلك الليلة جائلة في ضميره تؤرقه وتطيل ليله ، فتوجه تلقاء دير قريب يطلب الراهب لورنس Lawrence . وكان هذا الراهب قد استيقظ من نومه وعكف على صلواته ، ولكنه حين رأى رميو في ذلك الوقت المبكر ظن أن عواطف قوية كانت تحيش في صدره ، فبات منها مسهدا . وأصاب الأب حين ظن أن الحب هو الذي أرقه ، ولكنه أخطأ حين خال أن حب روزلين هو الذي أطار الرقاد من عينيهِ ؛ فلما أطلعه رميو على حبه لچليت وطلب إليه أن يساعده على الزواج بها في ذلك اليوم نفسه ، دهش الرجل من هذا التحول المفاجيء في عواطفه ، لأنه كان مطلعاً على سره وعلى حبه لروزلين وألمه من رفضها واحتقارها له ، وقال لرميو إن حب الشبان لا يستكن في قلوبهم بل في أعينهم . ولكن رميو أجاب الراهب بأنه هو نفسه كثيراً ما لامه على هيامه بروزلين التي لم تكن تحبه ، في حين أن چليت تبادله حباً بحب ، فوافقه إلى حد ما على رأيه وبدا له أن زواج چليت ورميو قد يساعد على إزالة أسباب العداوة بين آل كپيلت وآل منتجيو بعد أن غلت مرآجلها في قلوبهم زمنا طويلا . ولم يكن أحد يألم لهذه الحال أكثر مما يألم لها هذا الراهب الصالح ، فقد كان صديقا لكلتا الأسرتين وكثيراً ما حاول التوفيق بينهما من غير طائل . ورضى هذا الرجل بأن يجمع بين هذين المحبين مدفوعاً إلى ذلك بحس السياسة والعطف على رميو ولم يكن في وسعه أن يرفض له رجاء .

وشعر رميو بأن الدهر قد صفا له ، وعرفت چليت من رسول أرسلته إلى رميو وفاء بوعدا له ما اتفق عليه مع الراهب لورنس ، فجاءت إلى الدير في الصباح الباكر وتم زواجهما في تلك الساعة ، ودعا الراهب الصالح ربه أن يبارك هذا الزواج ، وأن يحسم به أسباب الشقاق والبغضاء التي طال عليها الأمد بين أسرتهما .

ولما تمت مراسم الزواج أسرعت چليت إلى دارها وانتظرت حلول الليل وهي على أحر من الجمر ؛ وكان رميو قد وعدا أن يقابلها في الحديقة التي تلاقيا فيها في الليلة السابقة ؛ وبدت لها تلك الفترة طويلة مملة كما تبدو الليلة السابقة ليوم العيد طويلة مملة للطفل الذي جرى إليه بملايس جسدية وحرم عليه أن يلبسها إلا في الصباح .

واتفق أن كان بنقليو ومرتوتيو صديقا رميو يسيران في هذا اليوم نفسه في شوارع فيرونا ، فالتقيا بجماعة من آل كپيلت على رأسهم تيبليت الشار العنيف . وكان هو الذي هم بقتال رميو في دار لورد كپيلت الكبير في يوم وليمته ، فلما رأى مرتوتيو أنهم في غير أدب بأن له صلة برميو أحد أفراد أسرة منتجيو . وكان مرتوتيو يغلي في عروقه دم الشباب ولا يقل مزاجه حدة عن مزاج تيبليت ، فرد عليه ردا عنيفا ، وحاول بنقليو أن يهدى من ثورة غضبهما فلم يفلح ، وأخذ الشابان يقتتلان . واتفق أن مرتوميو نفسه بهذا المكان فترك تيبليت قتال مرتوتيو واتجه إلى رميو وسماه « ندلا » . وأراد رميو أن يتجنب أسباب النزاع مع تيبليت بنوع خاص ، لأنه قريب چليت ، ولأنها شديدة الحب له ، ولأن رميو نفسه كان شابا عاقلا رزينا لا يتدخل كثيراً في النزاع القائم بين الأسرتين ؛ وفوق هذا وذاك فإن اسم كپيلت ، وهو الاسم الذي تحمله حبيبته چليت ، قد أصبح بلسا يأسو جراح صدور الأسرتين الوغرة ، وكان من قبل يستثير غلها الدفين ؛ فتقدم إلى تيبليت يريد أن يجادله بالحسنى ، وحياء ببشاشة ، ودعاه باسم كپيلت الكريم كأنه وهو من أسرة منتجيو يجد لذة خفية في النطق بذلك الاسم . ولكن تيبليت كان يبغض هذا الاسم الأخير ولا يطيق سماعه ، فلم يصغ إلى شيء من أقوال رميو ، بل استل سيفه . ولم يكن مرتوتيو يعلم السبب الخفي الذي يبعث

في نفس رميو الرغبة في مصافاة تيبيلت ، بل كان يعد إمتناعه عن القتال خضوعاً منه واستسلاماً مزوريا ، فأخذ يستثيره بشتى الألفاظ القبيحة ، ويدكره بما جرى بينهما قبل ذلك من نزاع . وتقاتل تيبيلت ومرتوتيو حتى جرح ثانيهما جرحاً مميتاً خر على أثره صريعاً ، بعد أن حاول رميو وبنقليو عبثاً أن يفرقا بينهما . فلما قتل مرتوتيو لم يستطع رميو أن يكظم غيظه ، ورد على قول تيبيلت بأنه « نذل » رداً مماثله ، ثم تقاتلا حتى قتل تيبيلت بطعنة من يد رميو . حدث هذا القتال العنيف في وسط المدينة وفي رابعة النهار ، فاجتمع حول المتقاتلين جم غفير من أهلها ، ومن بينهم زعيماً أسرتي كيبيلت ومنتجيو وزوجتهما . وجاء الأمير بعد ذلك بقليل وكان يمت بصلة القرابة إلى مرتوتيو الذي قتله تيبيلت ، ووجد أن هذه المنازعات بين آل كيبيلت وآل منتجيو طالما أقلقته بال حكومته ، فصمم على أن ينفذ القانون بصرامة ويأخذ من تثبت منهم إدانته بأشد أنواع العقاب . وكان بنقليو قد شاهد الواقعة بعينه ، فدعاه الأمير لأن يقص عليه سببها ، فأجابه إلى ما طلب وحاول أن يكون قريباً من الحقيقة بقدر ما يستطيع ، دون أن يسيء بشيء إلى رميو ، وأخذ يلطف من نصيب صديقه في هذا الشجار . وحزنت زوجة لورد كيبيلت أشد الحزن على ما أصاب قريبها تيبيلت وأرادت أن تقتص له من قاتليه ، فأخذت تحرض الأمير على أن يقسو على القاتل ، وألا يلتفت إلى شهادة بنقليو الذي كان يميل إلى رميو لما بين الاثنين من الصداقة وصلة القرابة . ثم شرعت توغر قلب الأمير على زوج ابنتها الجديد ، دون أن تعرف أنه قد أصبح زوجها لچليت . ووقفت كذلك زوجة لورد منتجيو تدافع عن ولدها وتقول ، ولها بعض الحق في قولها ، إن رميو حين قتل تيبيلت لم يرتكب جرماً يستحق عليه العقاب ، لأن تيبيلت قد خرج على القانون بقتله مرتوتيو . ولكن الأمير لم تؤثر فيه أقوال السيدتين المهاتجتين وأخذ يقلب الأمر على جميع وجوهه ثم قضى بنفى رميو من مدينة فيرونا .

ووقع هذا الخبر وقوع الصاعقة على قلب چليت التي لم يمض على زواجها إلا بضعة ساعات ، والتي خيل إليها الآن أنها قد طلقت من زوجها طلاقاً أبدياً ، وغضبت أول الأمر من رميو أشد الغضب ، وثار تأثرها عليه لأنه قتل ابن عم لها

عزيز عليها ، وأخذت تدعوه ظالماً جميلاً ، وملاكا شيطانياً ، وقطاة جارحة ،
وحملا له طبيعة ذئب ، وقلباً كالأفعى بوجه كالزهر ، وما إلى ذلك من الأضداد التي
تكشف عن الثورة القائمة في نفسها بين عاطفتي الحب والغضب . ثم تغلبت عاطفة
الحب في آخر الأمر واستحالت الدموع التي أذرفتها حزناً على مقتل ابن عمها على
يد رميو دموع فرح لنجاة زوجها من القتل الذي كان يريد له تبيلت . ثم انهمرت
من عينيها دموع أخرى حزناً على نفى رميو ، وكان هذا النفي أشد وقعاً عليها من
موت تبيلت وكثير من أمثاله .

ولجأ رميو بعد الشجار إلى صومعة الراهب لورنس ، وهناك بُلِّغ نص الحكم
الذي أصدره عليه الأمير ؛ وبدا له هذا الحكم أشد هولاً من الموت ، ولاح له أن
لا عالم خارج أسوار ثيروننا ، ولا حياة بعيداً عن چليت ، فحيثما تكن تكن الجنة ،
وحيث لا تكون تكون الجحيم والعذاب الأليم . وكان الراهب الصالح يود لو
يستطيع أن يخفف بفلسفته حزنه ولوعته ، ولكن هذا الشاب الهاج الذي لم يكن
ليستمع نصحاً أخذ يقتلع بيديه شعره كمن به جنة ، ثم ألقي بنفسه على الأرض
ليقيس على حد قوله سعة قبره .

وأفاق من هذه الحالة المؤسفة على صوت رسول جاءه من قبل زوجته العزيزة ،
فبعث فيه شيئاً من الحياة ، وانتهز الراهب هذه الفرصة السانحة ليمين له ما في عمله
هذا من ضعف لا يليق بالرجال ، فقال له إنه قد قتل تبيلت ويريد الآن أن يقتل
نفسه ويقتل الفتاة التي لا تحيا إلا بحياته ، وإن هذه الصورة البشرية النبيلة يصبح
شأنها كشأن دمية من الشمع إذا أعوزتها شجاعة الرجال . لقد كان القانون
رحيماً به فلم يقض عليه بالموت الذي يستحقه ، بل قضى ، على لسان الأمير ، بنفيه
من البلاد . لقد قتل تبيلت وكان من الجائز أن يقتل هو بيد تبيلت نفسه ،
وفي هذا ما فيه من السعادة . ثم إن چليت لا تزال حية وهي الآن زوجة له ، وكان
هذا مطلباً عزيز المنال ، وتلك سعادة ليس بعدها زيادة لمستزيد . هذه هي النعم
— كما يقول الراهب — التي يريد رميو أن يحرمها على نفسه كما تفعل الفتاة
النكدية السيئة السلوك ، ثم حذر من الاستسلام لليأس لأن اليائسين يموتون

أشقياء بأئسين . فلما هدا رميو قليلا أشار عليه أن يذهب في تلك الليلة ويودع
 چليت سراً ثم يسافر من فوره إلى منتوا Mantua وقيم فيها حتى تسنح الفرصة
 للراهب فيعلن زواجه بچليت ، ولعل هذا الزواج يكون وسيلة للتوفيق بين
 الأسرتين وإزالة ما بينهما من شقاق . وقال إنه لا يشك في أن الأمير سيشفق
 عليه وقتئذ ويعفو عنه ، فيعود إلى بلده وفي قلبه من الغبطة أضعاف ما كان فيه
 من الحزن حين خرج منه منفياً طريداً . واقتنع رميو بهذه النصائح السديدة
 واستأذن الراهب في الذهاب إلى زوجته ، واعترم أن يقيم معها تلك الليلة ثم يخرج
 من عندها في مطلع الفجر ويسافر وحده إلى منتوا ؛ ووعد الراهب الرحيم أن
 يبعث إليه من حين إلى حين برسائل يبليبه فيها ما يحدث في موطنه .

وقضى رميو تلك الليلة مع زوجته المحبوبة بعد أن وصل إلى حجرتها خفية
 من الحديقة التي سمع فيها حديث الحب في الليلة الماضية . لقد كانت تلك الليلة مفعمة
 بالسرور الخالص الذي لا يشوبه ما يكدر صفوه ، أما سرور هذه الليلة واغتياب
 الحبيين بهذا اللقاء فقد كان يعكر صفوها تفكيرهما في الفراق ، وما وقع في اليوم
 السابق من حوادث أليمة . وأحزنهما طلوع الفجر الذي ظناه قد لاح قبل الأوان ؛
 ولما سمعت چليت سجع القبرة في الصباح حاولت أن تقنع نفسها أنها تسمع شدة
 العنديل الذي لا يغني إلا في الليل ، ولكنها كانت تخدع نفسها ، فقد كان هذا
 صوت القبرة ، وقد بدت لها نغماتها متنافرة كثيبة ، ولاحت تباشير الصباح في
 الشرق تنذر الحبيين بأن قد آن وقت الفراق .

وودع رميو زوجته العزيزة وهو مكتئب حزين ، ووعدا أن يكتب إليها من
 منتوا في كل ساعة من ساعات النهار ، ولما نزل من نافذة غرفتها ووقف من تحتها
 على الأرض بدا لها في حزنها كأنه ميت في قبره . ولم يكن رميو نفسه أقل منها
 جزعاً ، ولكنه اضطر وقتئذ إلى مغادرة المكان ، فقد كان الموت جزاءه إذا وجد
 داخل أسوار المدينة بعد مطلع الفجر .

على أن هذا لم يكن إلا بداية مأساة هذين المحبين المنحوسى الطالع . ذلك أنه
 لم يمض على نفي رميو إلا بضعة أيام حتى عرض لورد كيملت الزواج على چليت ،

وكان الزوج الذي اختاره لها أبوها هو الكنت بريس ، وهو شاب مهذب شهم كريم ، جدير بأن يكون زوجاً لها لو أنها لم تكن قد رأت رميو من قبل . ولم يكن يدور بخلد هذا الشاب أن چليت قد تزوجت بغيره .

وتحيرت چليت في أمرها حيرة ممزوجة بالحزن والأسى حين عرض أبوها الزواج عليها ، فاحتجت أولاً بصغر سنها ثم بمقتل تبيلت الذي لم يمض عليه إلا القليل ، والذي أحزنها وآلم قلبها ، وتركها عاجزة عن أن تقابل زوجاً لها بوجه باش وثغر باسم ، ثم قالت إنه لا يليق بآل كپيلت أن يحتفلوا بالزفاف وهم لم يفرغوا بعد من الحداد على فتى من فتيان أسرهم ؛ وجملة القول أنها أبدت كل ما تستطيع أن تبديه من الأعذار إلا العذر الصحيح ، وهو أنها قد تزوجت من قبل . ولكن لورد كپيلت أصم أذنيه عن سماع هذه المعاذير كلها ، وأمرها أمراً لا رجوع فيه أن تستعد للزواج بالكنت بريس في يوم الخميس الآتى . وكان مما قاله إنه وقد وجد لها زوجاً شاباً ثرياً نبيلاً ، يسر أعز فتيات فيرونا نفساً وأكثرهن شمماً أن تتخذها لها زوجاً ، فإنه لا يرضي منها أن تقيم العراقيل في سبيل هئاءتها بسبب حياتها المتصنع ، وهو ما حسبته هذا الأب سبباً لا ممتناعها عن الزواج .

ولجأت چليت في هذه المحنة إلى صديقها الراهب ، الذي كانت ترجع إليه كلما ألت بها ملة ، فسألها هل أوتيت من قوة العزيمة ما تستطيع معه أن تلجأ في موقفها هذا إلى علاج المستيئسين ؟ فأجابته بأنها تفضل أن تدفن نفسها حية على أن تزوج بباريس وزوجها العزيز على قيد الحياة . فأشار عليها أن تعود إلى بيتها وتظاهري بالبشر والسرور ، وتجب أبها إلى رغبته في الزواج بباريس ؛ ثم أعطاها زجاجة وطلب إليها أن تشرب ما فيها في الليلة التالية ، وهى الليلة السابقة ليوم الزفاف ، وقال إنها إذا شربته برد جسمها وبدأت كأنها قد فارقت الحياة ، وظلت كذلك اثنتين وأربعين ساعة كاملة ، فإذا جاء الزوج ليأخذها إلى داره في الصباح ظن أنها قد ماتت ، فيحملونها عارية في نعشها كما جرت بذلك عادة هذا البلد ليدفنوها في مدافن أسرهما . وإعاد عليها قوله إنها إذا اطرحت ضعف النساء وقبلت أن تجرب هذه التجربة الرهيبة ، فإنها تصحو من نومها لا محالة بعد اثنتين وأربعين

ساعة من شرب الدواء الذى له هذا الأثر الأكيد . ووعدتها فوق ذلك أن يطلع زوجها على هذا السر قبل أن تصحو من نومها ، ليأتى إليها فى ظلام الليل ويحملها إلى منتوا . ووافقت چليت على هذا رأى ، وكان حبها لرميو وخوفها من زواج باريس كافيين لأن يبعثا فى قلبها من الشجاعة ما تستطيع به أن تجازف هذه المجازفة الرهيبة . وأخذت زجاجة الدواء من الراهب وعاهدته على أن تفعل ما أمرها به . ثم خرجت من الدير ، وقابلت الكنت باريس ، ووعدته فى حياء متكلف أن تكون زوجة له . وسر ذلك النبأ لورد كپيلت وزوجته ، وكأنه قد أعاد إلى هذا الشيخ شبابه أيضا ، وما من شك فى أنه أعاد حب چليت إلى قلبه ، لأنها وعدته أن تطيع أمره بعد أن آلمته من قبل أشد الألم برفضها الزواج بالكنت . وأصبح القصر كله فى هرج ومرج استعداداً للزفاف القريب ، وبذل المال عن سعة ليكون الاحتفال أنخم ما شهدته فيرونا فى تاريخها كله .

وفى ليلة الأربعاء شربت چليت الدواء جميعه ، وكانت تخشى أن يكون الراهب قد أعطاها سماً لينجو مما عساه أن يصيبه من اللوم لأنه زوجها برميو ، وإن كان قد عُرف بين الناس طول حياته بالتقى والورع . وماذا يكون أمرها لو أنها أفاقت قبل أن يجيء رميو لأخذها ؟ ألا يحتمل أن يذهب بعقلها هول المكان ، ذلك القباء الذى تكدست فيه عظام آل كپيلت ، ورقد فيه تيبلت متضرجاً بدمه ، وقد أخذ جسمه يتحلل فى كفنه ؟ ثم تذكرت كل ما سمعته من القصص عن الأرواح ، وما قيل من أنها تأوى إلى المكان الذى دفنت فيه أجسامها ، لكن حب رميو وكره باريس عادا إليها فابتلعت الجرعة وغابت عن الوجود .

ولما عاد باريس فى الصباح الباكر ليوظ عروسه من نومها بأنغام الموسيقى الشجية ، رأى فى حجرتها منظرأ رهيباً ، رأى جثة هامدة لا حراك فيها ، وعرف أن چليت قد قضت نحبها وقضى معها على آماله . وساد الاضطراب القصر كله ، وأخذ باريس يندب سوء حظهِ ويبكي عروسه التى اختطفها الموت الممقوت وطلقها منه قبل أن تزف إليه . وكان أشد من هذا وقعاً وأكثر منه إيلاماً ، أن تسمع بكاء لورد كپيلت الكبير وبكاء زوجته ، وهما اللذان لم يكن لهما إلا هذه الفتاة المسكينه

العزيزة ، التي كانت قرّة أعينهما وبهجة حياتهما ، فإذا بالموت الغادر يختطفها من بين أيديهما ، بعد أن بذلا عنايتهما في تربيتهما ، وبعد أن حسبنا أن الحظ قد بدأ يسم لها بهذا الزواج الموفق السعيد . وحيء بكل ما كان قد أعد لحفلة الزفاف واستخدم في موكب الجنازة الأسود ، فانقلبت فرحة العرس ترحة مآتم ، وبُدلت أناشيد الزواج السارة بمراثي الموت الحزينة ، ودقت الأجراس المحزنة بدلا من الآلات الموسيقية المطربة ، ووضعت على جثتها الأزهار التي أعدت لتنثر في طريق موكب الزفاف ، وحيء بالقسيس ليضعها في لحدها لا ليعقد لها على زوجها ، وحملت إلى الكنيسة لتزيد في عدد سكان القبور لا لتبعث الأمل قويا في قلوب الأحياء .

ووصل النبا المحزن ، نبأ موت چليت ، إلى رميو في منتوا قبل أن يصل إليها رسول الراهب لورنس ليلفغه أن ما حدث فيها من مراسم المآتم والدفن مراسم صورية ، ليست إلا ظلا من الحقيقة ، وأن زوجته العزيزة لن تظل في قبرها إلا زمنا قصيرا ، تترقب فيه قدومه ليخرجها من مثواها الرهيب ، حدث هذا لأن النذر المحزنة أسرع انتشارا على الدوام من البشائر السارة . وكان رميو قبل وصول النبا فرحا مستبشرا فوق عادته ، فقد رأى في منامه تلك الليلة أنه قد مات — وما أغرب هذه الرؤيا التي حملت هذا الرجل الميت على التفكير في أمره — وأن زوجته العزيزة قد جاءت ورائته على هذه الحال فبعثت فيه الحياة بتقبيل شفتيه ، فانتعش وأصبح ملكا كبيرا . فلما جاءه رسول من فيرونا لم يخامرهم شك في أنه جاء يزف إليه بشرى تحقق ما رآه من قبل في حلمه . فلما أخبره بما يناقض هذه البشري ، وبأن زوجته هي التي ماتت ، وأن ليس في مقدوره أن يعيد إليها الحياة بقبلاته ، أمر أن تسرج له الخيل ، وقرر أن يسافر إلى فيرونا في تلك الليلة ، ويمتّع نظره برؤية زوجته في قبرها . وسرعان ما وجدت أفكار السوء سبيلها إلى عقله ، لأن أفكار السوء أسرع الأفكار إلى البائسين ، فتذكر أنه رأى في منتوا من زمن قريب صيدليا فقيرا تبدو عليه علامّ الذلة والفاقة ، وعلى حانوته مظاهر البؤس الشديد ، فلم يكن فيه إلا صناديق فارغة على رفوف قدرة ؛ ولعله قد دار بخله في تلك الساعة أن حياته البائسة قد تصل إلى حال من الذلة شبيهة بحال هذا الرجل

المسكين ، فقال في نفسه : « إذا احتاج إنسان إلى سم ، وهو ما يحرم قانون منتوا بيعه ويقضى بالإعدام على بائعه ، فإن هذا الرجل البائس قد يبيعه من هو في حاجة إليه » . وعادت هذه الألفاظ وقتئذ إلى ذاكرته ، فذهب يطلب الصيدلى ، وعرض عليه طلبته . وتظاهر الرجل بالرفض أول الأمر ، فعرض عليه رميو مقداراً من الذهب لم يقو على رده لشدة فقره ، وباعه سماً قال إنه إذا تجرعه قضى عليه لساعته ، ولو كانت له قوة عشرين رجلاً .

وأخذ رميو السم معه وتوجه نحو فيرونا ليلقى نظرة على زوجته في قبرها ، حتى إذا ما متع عينه برؤيتها تجرع السم ودفن إلى جوارها . ودخل المدينة في منتصف الليل ، وجاء إلى المقابر التي كان يقوم في وسطها قبر آل كپيلت من عهد بعيد ، وجاء معه بفأس وإزميل من حديد ، وهم أن يفتح بهما القبر ، وإذا بصوت يقطع عليه عمله ويدعوه باسم « المنتجيو النذل » ويأمره أن يمتنع عن إجرامه . وكان هذا الصوت صوت باریس ، جاء إلى قبر چلیت في هذا الوقت من الليل ، الذى لم يكن مجيئه فيه يخطر ببال ، لينثر عليه الزهر ويبلل بدموعه قبر الفتاة التي كان يود أن تكون له زوجة . ولم يكن يدرى سبب اهتمام رميو بهؤلاء الموتي ، ولكنه هو يعرف أنه من بيت منتجيو ، وأنه في ظنه من الد أعداء آل كپيلت كلهم ، أيقن أنه قد جاء في ظلمة الليل ليفعل بجث الموتي فعلاً ذمياً أثماً ، ولذلك ناداه في غضب أن يمتنع عن فعله ، وهم أن يقبض عليه لأنه مجرم أباحت شريعة فيرونا دمه إذا وجد في داخل أسوارها . وألح عليه رميو أن يتركه وشأنه ، وذكره بما أصاب تپيلت وحذره أن يثير غضبه أو أن يضطره إلى قتله ، فيكسب بذلك إثماً فوق إثمه ؛ ولكن باریس سخر منه ولم يستمع إلى تحذيره ، وأخذ بتلابيبه بحجة أنه مجرم ، وقاومه رميو وتقاتلا وخر باریس صريعاً . واستعان رميو بمصباحه ليتبين شخصية القتيل ، فلما عرف أنه باریس الذى أريد أن يكون زوجاً لچلیت — وكان النبأ قد بلغه وهو عائد من منتوا — أمسك بيد الشاب ، وكان البؤس قد جمع بينهما ، وقال إنه سيدفنه في مقبرة النصر ، يقصد بذلك في قبر چلیت . وفتح باب القبر فرأى فيه زوجته ، وكان الموت لم يقو على تغيير شيء من ملامحها ، أو

التأثير في جمالها البارع المنقطع النظير ، أو كأن القدر الرهيب عاشق شغف بها ، فاحتفظ به ليمتع نفسه بمرآها .

لقد وجدها رميو مشرقة الوجه ناضرة كما كانت حين غشيها النوم بعد أن تناولت الجرعة المخدرة . وكان تيبلت إلى جانبها في كفنه المضرج بالدماء ، فلما رآه رميو أخذ يعتذر له ويطلب إليه المغفرة ، ودعاه ابن عمه إكراما لچليت ، وقال إنه سيحسن إليه الآن بقتل عدوه .

وودع رميو چليت الوداع الأخير ، وقبلها من شفيتها ، ثم ألقى عن كاهله المهووك عبء حياته التعسة المشؤومة ، وتجرع السم الذي ابتاعه من الصيدلى ، وكان سما زعافا لا كالدواء الخادع الذى شريته چليت ، والذى كان أثره فى هذه الساعة قد زال أو كاد يزول ، وأوشكت چليت أن تصحو من نومها لتعيب على رميو تأخره عن مواعده أو تعجله .

وحلت الساعة التى قال الراهب إنها ستفيق فيها ، وكان هو قد عرف أن الرسول الذى بعث معه رسائله إلى منتوا قد عاقه عائق فى الطريق فلم يوصل رسائله إلى رميو ، فجاء بنفسه ومعه فأس ومصباح ليخرج چليت من قبرها . ولشد ما كانت دهشته حين أبصر ضوءا فى مقبرة آل كپيلت ، ورأى إلى جانب القبر سيفين وجثتين هامدتين هما جثتا رميو وباريس .

وقبل أن يجول بخاطره سبب من أسباب هذه الحوادث المشؤومة استيقظت چليت من سباتها ، ورأت الراهب إلى جانبها ، فذكرت مكانها وسبب وجودها فيه ، وسألت عن رميو . ولكن الراهب سمع أصواتا مقبلة فأمرها أن تخرج من ذلك المكان مكان الموت والنوم المخالف لسنن الخلق ، وقال إن قوة كبرى لا يستطيع أحد أن يقف فى وجهها قد حالت بينهم وبين أمانهم . واقتربت الأصوات وخشى الراهب عاقبة الأمر فولى هارباً . ورأت چليت الكأس فى يد حبيبها فلاح لها أن السم هو الذى قضى عليه ، وودت لو كانت فى الكأس شمالة تتجرعها . ولكنها بحثته فلم تجد فيه شيئا ؛ ولم تكن شفتا رميو قد ذهبت حرارتهما ، فأخذت تقبلهما لعل بقية من السم لا تزال عالقة بهما . ثم اقترب القادمون وعلت

أصواتهم ، فاستلت من فورها خنجراً كان معها ، وطعنت به نفسها فحرت صريعة بجوار رميو حبيبها . وكان الحراس وقتئذ قد جاءوا إلى المكان ؛ وذلك أن خادماً من خدم الكنت باريس شاهد القتال الذي وقع بين رميو وبين سيده فنقل الخبر إلى المدينة ؛ وسرعان ما انتشر بين أهلها فأهرعوا من بيوتهم مذعورين ينادون : « باريس ، ورميو ، وچليت » ؛ لأنهم لم يكونوا يعرفون إلا طرفاً مما حدث . وأيقظ ضحيجهم وصخبهم لورد منتجيو ولورد كيملت ، فخرجا ومعهما أمير المدينة ليتبينوا سبب هذا الذعر . وكان بعض الحراس قد شاهدوا الراهب وهو خارج من المقبرة يرتعد ويبكي ويتأوه ، فارتأوا في أمره وقبضوا عليه ، واجتمع حول آل كيملت جم غفير من الناس ، وطلب الأمير إلى الراهب أن يفضي إليه بما يعلمه عن هذه الحادثات المروعة الغريبة .

ووقف الراهب أمام الشيخين لورد منتجيو ولورد كيملت ، وسئل عما يعلم ، فقص عليهما قصة حب رميو وچليت ، وما كان له من يد في زواجهما ، وأمل في أن يقضى هذا الزواج على ما بين الأسرتين من شقاق قديم ، وبين لهم كيف كان رميو هذا الذي يرويه جثة هامدة زوجاً لچليت ، وكيف كانت چليت هذه الفتاة المنتحرة زوج رميو الأمانة ، وكيف أن زواجاً آخر قد دبر لچليت قبل أن تتاح لها الفرصة لإعلان زواجها الأول ، وكيف أرادت چليت أن تتجنب جريمة الزواج برجلين فشربت الدواء المنيم عملاً بنصيحته ، فظن الناس كلهم أنها ماتت ، وكيف كتب هو إلى رميو يطلب إليه أن يحضر ويأخذ زوجته عند ما ينتهي مفعول الدواء ، ولكن سوء الحظ صادف الرسول فمنعه من توصيل الرسائل إلى رميو .

ولم يستطع الراهب أن يقص عليهم ما جرى بعد ذلك ، فقد كان كل ما يعرفه بعده أنه جاء ليخرج چليت من قبرها ، فوجد فيه الكنت باريس ورميو قتيلين . أما بقية القصة فقد رواها الخادم الذي شاهد باريس ورميو يقتتلان ، والخادم الذي جاء مع رميو من فيرونا ، والذي حمّله الحب الوفي رسائل إلى أبيه يوصلها إليه إذا أصابه الموت ، وفيها ما يؤيد أقوال الراهب . فقد اعترف فيها رميو بزواجه

چليت ، وطلب إلى أبيه أن يصفح عنه ، وأقر أنه ابتاع السم من الصيدلى المسكين وأنه جاء إلى المقبرة ليموت ويرقد إلى جانب چليت . وهذه الظروف مجتمعة نفت عن الراهب مظنة الاشتراك في هذه الحوادث المفجعة المحيرة ، وأكدت أن كل ما كان له من يد فيها هو أنها جاءت نتيجة غير مقصودة لتدييره المفرط في الحذر والتكلف ، والذي لم يرد به مع ذلك إلا الخير .

والتفت الأمير وقتئذ إلى الشيخين لورد منتجيو ولورد كپيلت ، وعاب عليهما ما بينهما من عداوة وحشية ينكرها كل عاقل ، وأخبرهما بما أعد لهذه الجرائم من عقاب ، وبأن العدالة قد اتخذت حب وليهما سبيلا إلى عقابهما على هذه الضغائن التي لا تليق بينى الإنسان . وتعاهد العدوان القديمان بعد أن زال ما بينهما من أحقاد على أن يدفنا عداهما القديم في قبر وليهما . ومد لورد كپيلت يده إلى لورد منتجيو ودعاه أخاه ، كأنه يريد أن يعترف بأن زواج رميو وچليت قد ألف بين قلوب الأسرتين ، وقال إنه يكفيه مهراً لا بنته أن يعدله لورد منتجيو يده دليلاً على صفاء قلبه ، فأجابه لورد منتجيو بأنه يعطيه أكثر مما طلب ، وأنه سيقم لابنته چليت الصادقة الوفية تمثالا من الذهب الخالص لا يضارعه في قيمته ولا دقة صنعه تمثال آخر في فيرونا ما بقيت هذه المدينة قائمة . ورد عليه لورد كپيلت بأنه سيقم تمثالا مثله لرميو ؛ وهكذا أخذ هذان الشريفان يتباريان في التلطف والمجاملة بعد فوات الأوان ، وبعد أن استعرت نيران العداوة والبغضاء في قلوبهما وقلوب سائر أفراد الأسرتين الشريفتين ، حتى لم يقو شئ على إطفائها ونزع سخائم قلوبهما إلا هذه الفاجعة المروعة التي أصابتها في وليهما فجعلت منهما ضحيتين بريئتين لهذه المنازعات والأحقاد .

هملت امير دنگرك

أصبحت جرتروود Gertrude ملكة دنگرك أرملة بعد أن توفي زوجها الملك هملت فجأة، ولكنها لم تلبث أرملة بعد وفاته إلا أقل من شهرين ثم تزوجت بأخيه. وعد الناس كلهم وقتئذ هذا الزواج أمراً غريباً ينطوى على الطيش وبلادة الحس، أو على ما هو شر منهما. ذلك أن كلوديس هذا لم يكن يشبه زوجها الأول في خلقه أو خلقه، بل كان دميماً في مظهره، وحقيقاً دنيئاً في مخبره. وارتاب بعض الناس في أمره فقالوا إنه قد عمل في الخفاء على التخلص من أخيه الملك السابق، لفتح له فرصة الزواج بأرملته، والجلوس على عرش دنگرك مكان وارثه الشرعي الأمير الصغير ابن الملك السابق.

ولم يؤثر هذا العمل الطائش الذي أقدمت عليه الملكة في أحد تأثيره في الأمير الشاب، الذي كان يحب أباه الميت ويحل ذكراه إجلالاً يكاد يبلغ حد العبادة. وكان هذا الشاب مرهف الحس، دقيق الشعور بالشرف، جم الأدب، كثير التجميل والظرف في سلوكه، فألمه وحز في قلبه مسلك أمه جرتروود الشائن. وأثر فيه حزنه على أبيه وما لحقه من المهانة بزواج أمه، فاستسلم للهم والكآبة، وفقد بشره ومرحه وجمال منظره، ولم يبق له شيء من ولعه السابق بكتبه؛ وكره كل ما يلائم شبابه من ضروب الرياضة والألعاب، وسئم العالم الذي خال أن الشر قد طغى عليه حتى لم يبق فيه موضع للخير.

ولم يكن ذلك الذي أحزنه وأمر عيشه أنه سيحرم حقه الموروث في الجلوس على العرش، وإن كان هذا الحرمان في ذاته مما يفت في عضد أمير شاب عزيز النفس ويسقط منزلته. ولكن الذي ألم قلبه، وأكسف باله، وقضى على ما كان له من مرح وبهجة، هو ما أظهرته أمه من استخفاف بذكرى أبيه، ذلك الأب الذي كان لها زوجاً محباً، لين الجانب، دمث الأخلاق، مع أنها كانت تبدو دائماً زوجة محبة مطيعة، تتعلق به كأن عواطفها قد نبتت عليه. والآن بعد شهرين

من وفاته ، أو بعد أقل من شهرين كما بدا للأمير الشاب ، تزوجت من جديد ، وكان زوجها عمه أخا زوجها المتوفى ، وهو زواج تأباه الكرامة ولا تجيزه الشرائع لما بين الزوجين من قربى ؛ ويزيده بعداً عن الكرامة تلك السرعة المعيبة التي تم بها ، وما يتصف به الرجل الذي اختارته زوجاً لها وشريكاً في ملكها من أخلاق هي أبعد ما تكون عن أخلاق الملوك . هذا هو الذي فت في عضد هذا الأمير الشاب النبيل وحطم قلبه أكثر مما لو كان قد خسر عشر ممالك لا مملكة واحدة . وحاولت أمه جر ترود وحاول الملك دون جدوى أن يسلياه ويذهبها عنه الحزن ، وظل لا يرى في القصر إلا في ثياب حالكه السواد حزناً على موت أبيه الملك ، ولم يبدل هذا اللون في يوم من الأيام حتى ولا في اليوم الذي تزوجت فيه والدته بجمالة لها ، ولم يستطع أحد أن يقنعه بالاشتراك في حفلات ذلك اليوم الشائن في نظره ولا في مسراته .

وكان أشد ما يكرهه ما خامره من الشك في موت أبيه ، وقد قال كلوديس إنه مات من لدغة أفعى ، ولكن هملت الشاب الفطن كان يظن أن هذه الأفعى لم تكن إلا كلوديس نفسه ، وأن عمه قد قتله ليرث ملكه ، وأن الأفعى التي لدغت أباه تتربع الآن على عرشه .

وتحير هملت في أمره فلم يدر ما هو نصيب هذا الظن من الصواب أو الخطأ ، أو ما يقول في أمر والدته . فهل كانت مطلعة على سر هذا القتل ؟ وهل حدث برضاها أو علمها أو بعدم رضاها وعلمها ؟ هذه هي الظنون التي ما فتئت تقلق بال هملت وتنغص عليه حياته .

وترامت إلى هملت إشاعة فخواها أن بعض الجنود قد شاهدوا في أثناء حراستهم في منتصف الليل طيفاً شبيهاً كل الشبه بأبيه الملك المتوفى واقفاً على الطوار أمام القصر ليلتين متواليتين أو ثلاث ليال متوالية . وقالوا إن الطيف كان في كل مرة يأتي مدرعاً من قبة رأسه إلى أخمص قدميه كما كان يفعل الملك ، ولم يختلف أحد ممن رأوه ، ومن بينهم هراشيو Horatio صديق هملت الحميم ، عن سائر زملائه في وصف هيئته أو ساعة مجيئه ، فقالوا إنه كان يقبل عليهم عندما تدق الساعة

الثانية عشرة ، وإنه كان يبدو صاحب اللون ينم وجهه عن الحزن أكثر مما ينم عن الغضب ، وكانت لحيته مربدة سوداء تتخللها شعرات فضية كما كانوا يرونها في حياته ؛ وقالوا إنهم لما خاطبوا الطيف لم يرد عليهم ، وخيل إليهم مرة أنه رفع رأسه وتحرك حركة كأنه يريد أن يخاطبهم ، ولكن ديك الصباح صاح في تلك اللحظة فترجع الطيف مسرعاً واختفى عن أنظارهم .

ودهش الأمير الشاب من هذه القصة التي لم يكن فيها شيء من التناقض يحمله على إنكارها ، واعتقد أن الطيف الذي رآوه طيف أبيه ، واعتزم أن يشترك مع الجند في الحراسة في تلك الليلة حتى تتاح له فرصة رؤيته ، وقال في نفسه إن الطيف لم يحىء عبثاً وإنما جاء لأن لديه سرّاً يريد أن يفضى به ، وإنه سوف يتحدث به إليه وإن ظل صامتاً حتى ذلك الوقت ، وأخذ يتربح محيى الليل وهو على أحر من الجمر .

فلما جن الليل وقف مع هراشيو وحارس آخر يدعى مرسلوس Mercellus على الطوار الذي اعتاد الطيف أن يمشى عليه ؛ وكانت الليلة قرة وكان الهواء قارس البرد فوق عادته ، وشرع هملت وهراشيو وزميلهما الثالث يتحدثون عن بردها حتى قطع عليهم هراشيو حديثهم بقوله إن الطيف مقبل عليهم .

فلما رأى هملت روح أبيه ارتاع ودهش لرؤيته ، ثم أهاب بالملائكة وأهل السموات أن يقوه الشر هو ومن معه ، لأنه لم يك يعرف هل هذا الروح طيب أو خبيث ؟ وهل جاء يبغى خيراً أو شراً ؟ ثم سكن روعه شيئاً فشيئاً ، وخيل إليه أن أباه ينظر إليه نظرة الحزن والأسى ، وكأنه يريد أن يتحدث إليه . وبدا له أن الطيف لا يختلف في شيء عما كان عليه والده قبل موته ، فلم يستطع هملت أن يظل صامتاً بل تقدم إليه وناداه باسمه قائلاً : « هملت ! مليكي ! أبى ! » واستحلفه أن ينبئه عن سبب خروجه من قبره ، وقد رآوه يوارى مطمئناً فيه ، وعودته إلى هذا العالم مرة أخرى ليرى الأرض ونور القمر . وتوسل إليه أن يخبره هل يستطيع هو ومن معه أن يفعلوا شيئاً يريحه ويهدى روحه المضطرب . وأشار الطيف إلى هملت أن يصحبه إلى مكان منعزل لا يراها فيه أحد ؛ وحاول هراشيو ومرسلوس

أن يقنعا الأمير الشاب بالأسير وراءه لئلا يكون من الأرواح الخبيثة ، فيذهب به إلى البحر القريب ، أو إلى قمة صخرة عالية ، ثم ينقلب شبحاً مرعباً يرتاع منه الأمير ويفقد صوابه . ولكن نصحبهما ورجاءهما لم يثنيا من عزم الأمير ، فقد كانت الحياة لديه هينة رخيصة ، لا يعابأ بها ولا يخشى فقدها ، أما روحه فماذا يستطيع الطيف أن يفعل به وهو شيء خالد أبدي كالطيف نفسه ؟ وأحس هملت بأنه قد أوتى شجاعة الأسود ، فانتزع نفسه من صاحبيه وهما يبذلان جهدهما في أن يمسك به ، وأخذ يتبع الطيف حيث أراد .

ولما انفرد الطيف به نطق وقال له إنه طيف أبيه هملت الذي اغتيل ظمأً وغدراً ، ووصف له طريقة اغتياله ، فقال إن الذي فعل به ذلك هو أخوه كلوديس ، عم هملت الصغير ، الذي حامت حوله ظنونه من قبل ، لكي يجلس على عرشه وينام في فراشه ؛ فبينما هو نائم في حديقته ، كما كان يفعل دائماً وقت الظهيرة ، إذ تسلل إليه هذا الأخ الغادر وصب في أذنيه عصير الشيكران السام ، وهو نبات بينه وبين الحياة عداً ، فإذا وصل شيء منه إلى جسم الإنسان انساب في عروقه انسياب الزئبق ، وجهد دمه ونشر على جلده كله طبقة شبيهة بالجذام . وهكذا جاء هذا الأخ وهو مطمئن في نومه وانتزعه في غمضة عين من تاجه وملكه وحياته . ثم استحلف الطيف هملت ، إن كان في قلبه حب لأبيه ، أن يثأر به ويقتص من قاتله الأثيم . وأظهر الأب شديد أسفه لولده لأن أمه حادت عن سبيل الفضيلة ، فلم تستمسك بحبها لبعليها الأول وتزوجت بقاتله ؛ ولكنه حذره من أن يسلك سبيل العنف مع والدته ، مهما كانت الوسائل التي يتخذها للقصاص من عمه الشرير ، وطلب إليه أن يترك هذه الأم للعدالة الإلهية ولعذاب الضمير ؛ ووعد هملت أن يطيع الطيف في كل ما أمره به ، ثم اختفى الطيف عن الأنظار .

ولما خلا هملت إلى نفسه أقسم أن ينسى لساعته كل ما انطبع في ذاكرته ، وكل ما عرفه من كتبه أو مشاهداته ، وألا يحتفظ في عقله إلا بما نبأ به الروح وما أمره بتنفيذه . ولم يفض هملت بتفاصيل ما دار بينه وبين روح أبيه إلا لصديقه

العزیز هراشیو ، وحذرہ هو ومرسلس من أن ییوحا بشیء مما شاهداه فی تلك اللیلة .
 وكان من أثر الرعب الذی استولى علی مشاعر هملت من مرأى الطیف أن کاد
 یجن لهول ما رأى وتختل موازین عقله ، وذلك لأنه کان من قبل ضعیفاً منهوئک
 القوى مشتت البال . وخشى أن یمىق هذا الأثر فی نفسه فیلقت إلیه الأنظار ،
 ویأخذ عمه منه حذرہ إذا ظن أنه یدبر له شراً ، أو أنه یعرف عن موت أبیه
 أكثر مما یتظاهر به ، فاتخذ فی تلك الساعة ذلك القرار العجیب وهو أن یتصنع
 الجنون لاعتقاده أن عمه إذا رآه علی هذه الحال أیقن أنه عاجز کل العجز عن أن
 یفکر فی أى أمر جدی ، فضلاً عن أن هذا الجنون المتصنع هو خیر ما یخفى به
 اضطرابه الحقیقی .

وبدا هملت من ذلك الحین غریباً فی زیه وحديثه وتصرفه ، وأتقن تصنع
 الجنون إتقاناً خدع به الملك والملکة ، وكانا یظنان أن حزنه علی أبیه لا یکفى
 لاضطراب عقله — لأنهما لا یعرفان ظهور الطیف — فلم یشکا فی أن الحب هو
 منشأه ، وخلا أنهما قد عرفا الفتاة التى تعلق بها قلبه .

وذلك أن هملت کان قبل أن یستکین للحزن الذی سلف ذکره قد أحب فتاة
 حسناء تدعى أوفلیا Ophelia ابنة پلونیس Polonius کبیر مستشاری الملك فی
 شئون الدولة ، وكان قد أرسل إلیها رسائل وخواتم وأظهر لها صرارا تعلقه بها ،
 وطلب إلیها بالحاح وبوسائل طاهرة شریفة أن تعطف علیه وتحبه . وصدقت هی
 توسله وأیمانہ ، ولكن الکآبة التى استولت علیه أخيراً قد صرفته عنها . ولما
 اعترم أن یتصنع الجنون تکلف أيضاً بعض القسوة والخشونة فی معاملتها ، ولكن
 هذه الفتاة الطیبة لم تهتمه بالعدو وعدم الوفاء ، بل أقنعت نفسها بأن الذی صرفه
 عنها وجعله أقل اکتراثا بها هو اضطراب عقله لا قسوة علیها متأصلة فی قلبه .
 وشبهت ما کان له من مواهب شریفة وذکاء مفرط أفسدهما طغى علیهما من حزن
 شدید ، شبهت هذه المواهب وهذا الذکاء بالأجراس الموسیقیة التى ترسل أعذب
 النغمات وأشجأها ، ولكنها إذا عبثت بها الأیدی أو دقت بغير ید صناع أحدثت
 نشازا وأصواتا منكرة تؤذى السمع .

ولم يكن العمل الصعب الذى هو مقدم عليه ، وهو القصاص من قاتل أبيه ، مما يتفق مع الغزل وما فيه من عبث ، أو مما يسمح له بأن تجيش فى صدره عاطفة الحب التى بدت له الآن غاية فى السخف ، ولكن هذا العمل نفسه لم يكن ليمحو من عقله كل تفكير فى أفليا ، بل ظلت ذكرها تعاوده الفينة بعد الفينة ؛ وفى ساعة من هذه الساعات ظن أنه قد قسا على هذه الفتاة الحسنة لغير سبب معقول ، فكتب إليها رسالة وصف فيها عواطف الحب التى كانت تجيش فى صدره بعبارات شاذة غريبة تتفق مع ما يدعيه من جنون ، ولكنها مع ذلك كان يمتزج بها شيء من العواطف الحقة ، تبينت منها هذه الفتاة النبيلة أنه لا يزال يكن لها فى أعماق قلبه حبا خالصا قويا . وقد أمرها فى هذه الرسالة أن تشك فى أن النجوم من نار ، وأن الشمس تجرى فى فلكها ، وأن تشك فى الصدق نفسه وترميه بالكذب ، ولكن عليها ألا تشك قط فى أنه يحبها ، إلى غير ذلك من العبارات الشاذة الغريبة . ورأت أفليا أن من حق أبيها عليها أن تطلعه على هذا الخطاب ، ورأى الشيخ أن من واجبه أن يطلع عليه الملك والملكة ، وظن الاثنان من ذلك الحين أن الحب هو الذى سلب عقله ، وتمنت الملكة أن يكون جمال أفليا البارع هو الذى يدفعه إلى هذه الأطوار الغريبة ، لأن هذا يقوى أملها فى أن جمالها وفضائلها قد يرجعان به إلى سابق عهده ، فتعود له ولها كرامتهما الأولى .

ولكنها قدرت فأخطأت التقدير ، فلقد كان مرض هملت أعمق مما تظن ، وأشد من أن يشفيه هذا العلاج . لقد ظل طيف أبيه الذى شاهده من قبل ينتاب خياله ، ولم يكن ليطمئن له بال حتى ينفذ ما أمره به من الانتقام لوالده القتيل . وكان يرى أن كل ساعة تمر به إثم لا يغتفر له وعصيان لأمر والده ؛ ولكن قتل الملك ومن حوله حراسه وجنده لم يكن بالأمر الهين ، ووجود أمه مع الملك فى معظم الأوقات عقبه فى سبيله لا يستطيع التغلب عليها . وفوق هذا وذاك فإن هذا المغتصب زوج أمه وهذا فى حد ذاته يقلق باله بعض القلق ويوهن من عزيمته ، فضلا عن هذا كله فإن اعتداء الإنسان على حياة أخيه الإنسان جرم شنيع بغض لا يطيقه شخص أوتى من رقة الطبع ودماثة الخلق ما أوتى هملت . وقد مر عليه زمن

طويل وهو حزين مكتئب منقبض الصدر ، فأوهن ذلك عزمه ومنعه أن يحزم أمره ويسير في قصده إلى غايته ؛ وكان لا يزال يخامره بعض الشك في أن هذا الطيف الذى رآه هو روح أبيه حقاً ، وليس هو الشيطان الذى قيل له إن في استطاعته أن يتخذ لنفسه أية صورة يريد ، فاتخذ صورة أبيه ليستفيد من ضعفه وحزنه عليه ، ويدفعه إلى التورط في هذا العمل الجرىء العنيف ، وهو الفتك بعمه . ولهذا كله اعتزم أن يترث في الأمر حتى تتجمع لديه أسباب أقوى من حديث الطيف الذى ربما كان الوهم هو الذى صور له .

وبينا هو في هذه الحال من التردد إذ وفد إلى بلاط الملك جماعة من الممثلين كان هملت فيما مضى يسر بتمثيلهم ؛ وكان يعجبه بنوع خاص أن يسمع أحدهم يلقي خطاباً محزوناً يصف فيه موت الشيخ Priam ملك طروادة وحزن الملكة هكيبا Hecuba عليه . واحتفى هملت بالممثلين أصدقائه الأقدمين ، وتذكر أن هذا الخطاب كان يطربه من قبل فطلب إلى ملقيه أن يعيده على مسامعه ، فألقاه هذا الممثل إلقاء بارعاً أظهر فيه ما ارتكب من القسوة في قتل الملك الشيخ الضعيف ، وما حل بشعبه وبلده من كوارث حين التهمت النار المدينة ، وما أصاب الملكة العجوز من حزن ذهب بعقلها ، فأخذت تعدو في القصر عارية القدمين ، وفي مكان التاج من رأسها خرقة بالية ، وعليها بدل الملابس الملكية قطعة من لحاف حول وسطها اختطفها على عجل . وقد أجاد الممثل تمثيل هذا الدور وأتقنه إتقاناً أثر في جميع الحاضرين ، فبكوا أسى وحسرة حتى أن الممثل نفسه قد أثر فيه الموقف فألقى خطابه بصوت أجش ودمع منهمر .

ورأى هملت هذا فقال في نفسه إنه إذا كان في وسع هذا الممثل أن يظهر هذا الانفعال الشديد وهو يلقي خطاباً موضوعاً ، فيبكي من فرط حزنه على سيدة لم تقع عليها عينه — على هكيبا التى مضى على موتها مئات السنين — إذا كان في وسع الممثل أن يفعل هذا فما باله هو يبقى حاملاً بليداً ، ولديه من الأسباب الحققة ما يثيره ويلهب نفسه ؟ لديه ملك حق وأب عزيز قد قتل غيلة ولم يتأثر هو بذلك إلا قليلاً ، وقد ظل غله حامداً ونسى ثأر أبيه حتى ليكاد دمه يذهب هدرا .

وبينا هو يفكر فى التمثيل والممثلين والأثر الذى تتركه فى النظارة رواية جيدة
الوضع متقنة التمثيل ، تذكر قصة قاتل رأى فى يوم من الأيام مقتلاً يمثل على المسرح
فتأثر من إتقان التمثيل وانطباعه على الحقيقة ، فلم يسعه إلا أن يقر من فوره بجرمه .
واعترزم هملت أن يدعو الممثلين أن يمثلوا أمام عمه رواية شبيهة بمقتل أبيه ، وأن
يراقب هو عمه عن كذب ليرى ما يحدثه التمثيل من الأثر فى نفسه ، فيعرف عن
يقين من ملامح وجهه أكان هو قاتل أبيه أم لم يكن ؟ وأمر أن توضع لذلك رواية
دعا إلى مشاهدة تمثيلها الملك والملكة .

وكان موضوع الرواية جريمة قتل ارتكبت فى ويانة ، وذهب ضحيتها الدوق .
وكان اسم هذا الدوق جنزاجو Gonzago واسم زوجته بيتستة Baptista ، وقد
اغتيل الدوق فى حديقته مسموماً بيد أحد أقربائه الأدينين المسمى لسيانس Lucianus
طمعاً فى أملاكه ، وبعد زمن قليل من موته أحبت القاتل زوجة الدوق جنزاجو .
وشهد الملك تمثيل الرواية وهو لا يعلم بالشرك الذى نصب له ، وشهدتها معه
الملكة وحاشية القصر كلها ؛ وجلس هملت إلى جانب الملك ليرقب منظره .
وبدأت الرواية بحديث بين جنزاجو وزوجته أعربت فيه الزوجة عما تكنه لزوجها
من حب خالص ، وعن اعتزامها ألا تتخذ لها زوجاً غيره إذا عاشت بعده ،
واستنزلت على نفسها اللعنات إذا ما فعلت غير هذا ، وقالت إن اللاتى يتزوجن
بعد موت أزواجهن هن اللاتى يقتلن بعولتهن الأولين . وشاهد هملت عمه الملك
يتمتع لونه عندما سمع هذه العبارة ، ورأى أنها كان لها أسوأ الوقع فى نفسه ونفس
الملكة ؛ فلما أن هم لسيانس أن يسم جنزاجو وهو نائم فى حديقة قصره ، رأى
الملك شياً شديداً بين هذا العمل وبين الجرم الذى ارتكبه هو حين سم أخاه الملك
السابق فى حديقته ، فألم ذلك ضميره ولم يقو على البقاء إلى آخر الرواية ، بل طلب
على حين غفلة أن تضاء الأنوار ، وتظاهر بأنه قد أصابته فجأة نوبة من المرض ،
أو لعله قد شعر ببعض المرض حقيقة ، فترك التمثيل مسرعاً . ولما غادر الملك
المكان لم يتم المثلون الرواية ؛ وكان فيما رآه هملت بعينه ما يكفى لإقناعه بأن
ما حدث به الطيف حقيقة لا وهم ، وابتهج كما يبتهج الرجل إذا رفع عنه وزر كان

ينقض ظهره ، أو أيقن من أمر كان يشك فيه ، وأقسم لصديقه هراشيو أنه يراهن بألف جنيه على أن ما حدث به الطيف حق لا مرأ فيه . ولكنه قبل أن يضع الخطة التي يتبعها للأخذ بثأره بعد أن ثبت له أن عمه هو الذى قتل أباه ، بعثت إليه والدته تدعوه لتتحدث إليه حديثاً خاصاً فى مخدعها .

وكان طلبها له إجابة لرغبة الملك ، فقد أراد أن تنبه الأم ولدها إلى أن تصرفه الأخير قد أغضبهما جميعاً ؛ وأراد الملك أن يعرف كل ما يدور بينهما من الحديث ، وظن أن عاطفة الأمومة قد تغرى الملكة بالتحيز لولدها فتخفى عن الملك بعض ما يهيمه أن يعرفه من أقوال هملت ، فأمر پلونيس مستشار الدولة الكبير أن يقف خلف الستائر فى مخدع الملكة لسمع ما يدور بينهما من غير أن يراه أحد . وكان هذا الاحتيال مما يلائم طبع پلونيس كل الملاءمة ، فقد قضى هذا الرجل عمره منغمساً فى أساليب السياسة ومبادئها المتلوية ، وكان يسره أن يعرف الأشياء بطريق الاحتيال المعوج البعيد .

وجاء هملت إلى والدته فشرعت تعنفه بأقسى الألفاظ على تصرفاته وأعماله ، وقالت له إنه قد أغضب أباه كثيراً — تريد بذلك أنه أغضب عمه الملك الذى سمته أباه لأنه تزوج بها . واغتاز هملت أشد الغيظ حين سمع أمه تدعو هذا النذل ، الذى لا يعرف عنه أكثر من أنه قاتل أبيه الحق ، بهذا الاسم الكريم المحب إليه ، فأجابها فى شيء من الحدة : « أمى ، لقد أسأت أنت كثيراً إلى أبى » ؛ فقالت له أمه : « إن هذا رد سخيف » ؛ فأجابها بقوله : « إنه خير رد يستحقه السؤال » . وسألته أمه هل نسي من هى التى يحدثها ؟ فأجابها بقوله : « ليتنى أستطيع أن أنسى أنك الملكة التى تزوجت بأخى زوجها ، وأنت أمى . ألا ليتك كنت غير ما أنت » ؛ فقالت له : « إذا كان هذا مبلغ احترامك لى فسأدعو من يستطيعون أن يتحدثوا إليك » ، وهمت أن ترسل فى طلب الملك أو پلونيس .

ولكن هملت وقد سنحت له فرصة الاجتماع بها منفردة لم ير أن يتركها تفلت من يده حتى يحاول أن يشعرها بما فى حياتها من إثم ، فقبض على معصمها قبضة قوية وأرغمها على الجلوس . وارتاعت الملكة لما شاهدته عليه من مظاهر الجد ،

وخشيت أن يدفعه جنونه إلى إيذاها ، فصرخت صرخة عالية ، وسمع من وراء الستار صوت ينادى : « وأغوثاه ! أدركوا الملكة » . وسمع هملت الصوت فظنه صوت الملك نفسه مختبئاً وراء الستار ، فاستل سيفه وأخذ يطعن به المكان الذى جاء منه كأنه يطعن فأراً يجرى فيه ، وما زال يوالى الطعن حتى انقطع الصوت وظن أن صاحبه قد مات . فلما أخذ بعدئذ يقرب قلب جسم القتيل لم يجد الملك بل وجد الشيخ پلونيس المستشار المتطفل الذى وقف يتجسس عليه من وراء الستار . وصرخت الملكة قائلة : « وا حسرتاه ! أى جرم شنيع قد ارتكبته بطيشك » ؛ فأجابها هملت : « حقاً ، إنه لجرم شنيع يا أماء ، ولكنه لم يبلغ ما بلغه جرمك أنت التى قتلت ملكاً وتزوجت بأخيه ! »

وكان هملت قد قطع فى طريقه إلى غرضه شوطاً لا يستطيع معه أن يقف عند ما وصل إليه ، وكان الآن فى حالة عقلية يستطيع فيها أن يفصح عما فى قلبه لوالدته ، فواصل حديثه إلى غايته . نعم إن الأبناء يجب ألا يغفلوا القول لآبائهم إذا ما حدثوهم عن أخطائهم ، لكنه لا حرج على الابن أن يخاطب أمه نفسها بشيء من الغلظة إذا ما ارتكبت جريمة شنيعة ، وكان غرضه من هذه الغلظة إصلاح حالها لا مجرد تأنيبها . ولذلك أخذ هذا الأمير الطاهر يصف لأمه بعبارات قوية مؤثرة ما ارتكبته من جرم شنيع بنسيانها ذكرى أبيه المليك الميت ، وزواجها بعد موته بقليل بأخيه الذى اشتهر بين الناس بأنه قاتله ، وقال إن هذه الفعلة التى فعلتها بعد الأيمان المغلظة التى أقسمتها بأن تكون وفية لزوجها الأول تكفى وحدها لأن ترزع ثقة الناس فى أيمان جميع النساء ، وتحملهم على أن يعدوا الفضائل كلها كذباً ونفاقاً ، وعقود الزواج أقل شأناً من أيمان اللاعبين ، والدين نفسه لهواً ولعباً وألفاظاً تلو كها الألسنة . وكان مما قاله لها إنها قد فعلت فعلة تنفطر منها السموات وتنشق الأرض ؛ ثم أخرج لها صورتين إحداها للملك المتوفى زوجها الأول والأخرى لزوجها الثانى الملك الحالى وطلب إليها أن تتأمل ما بين الصورتين من فوارق . لقد كان لأبيه وجه سمح جميل كوجه الملائكة الأبرار ، وكانت له غداً كغداً أپولو Apollo وجهة كجبهة جيت Jupiter ، وعينان كعيني المريح

Mars ؛ وكان إذا جلس كأنه عطارد نزل حديثا على جبل شامخ يناطح السماء ، وقال لها إن هذا هو الرجل الذى كان لها زوجا . ثم أراها صورة الرجل الذى تزوجت به بعده وقال إنه رجل سقيم ، بل هو السقام مجسم لأنه أصاب أخاه السليم . وخجلت الملكة أشد الخجل حين كشف لها عن خبيثة نفسها ، وأدركت ما هى عليه من ضلال وفساد ، وسألها كيف تستطيع أن تعيش بعد الآن مع هذا الرجل وتكون زوجة لمن قتل بيده زوجها الأول وأخذ منه التاج أخذ اللصوص ؟ وبينما هو فى حديثه إذ دخل الحجرة طيف أبيه فى صورته التى كان عليها أيام حياته والتى رآه عليها من قبل ، وسأله هملت فى رعب شديد ماذا يريد ؟ وقال الطيف إنه جاء لينذركه بالثأر الذى عاهد عليه ، والذى يلوح أنه نسيه ، وطلب إليه أن يحدث أمه لئلا يقضى الحزن والرعب على حياتها . ثم اختفى ولم يره أحد غير هملت ، وإن كان قد أشار لأمه إلى موضعه ووصفه لها ، ولكنها لم تره وظنت أن هملت يحدث نفسه ، فاستولى عليها الرعب وعزت ما تشاهده منه إلى اضطراب عقله . ولكنها هملت طلب إليها ألا تحسن الظن بنفسها الخبيثة ، فتحسب أن السبب الذى جاء بروح أبيه إلى هذه الأرض هو جنون ولدها لا شناعة جرمها ، ورغب إليها أن تجس نبضه لتعرف أن قلبه يدق دقا منتظما لا كما تدق قلوب المجانين . ثم رجاها والدمع يفيض من عينيه أن تستغفر لذنبها وتندم على ما فات ، وأن تتجنب فى مستقبل أيامها صحبة الملك فلا تكون له كما تكون الأزواج ؛ فإذا ما فعلت ذلك وحفظت عهد أبيه وأظهرت أنها أم له حقاً ، طلب إليها عندئذ أن تدعو له بخير كما يطلب الأبناء دعاء أمهاتهم لهم ؛ وعاهدته أمه على أن تطيع أمره وانتهى اجتماعها به .

وكان فى وسع هملت وقتئذ أن يتبين من هو الشخص الذى قضى على حياته باندفاعه وتهوره المشعوم ؛ فلما رأى أنه قد قتل پلونيس والد محبوبته أفليا نقل الجثة من مكانها ، وكانت نفسه قد هدأت قليلا فأخذ يبكى حسرة على ما فعل .

واتخذ الملك هذا الحادث المشعوم ، وهو مقتل پلونيس ، حجة تدرع بها لإخراج هملت من المملكة ، وكان يود لو استطاع أن يقتله لأنه يرى فى وجوده

خطراً عليه ، ولكنه كان يخشى الشعب الذى يحب هملت ، ويخشى الملكة التى كانت رغم أخطائها مولعة بولدها الأمير ، ولذلك أمر هذا الملك الماكر أن يحمل هملت على ظهر سفينة مسافرة إلى إنجلترا بحجة إنقاذه من تبعة قتل بلونيس ، وعهد بحراسته إلى رجلين من حاشيته ، وأرسل معهما رسائل إلى بلاط إنجلترا التى كانت فى ذلك الوقت خاضعة لملكة دنمرك تؤدى لها الجزية ، وطلب فى هذه الرسائل أن يقتل هملت عندما تظاً قدماء أرض تلك البلاد لأسباب خاصة مختلقة ادعاهها فى رسائله . وارتاب هملت فى الأمر وظن فيه غدرًا ، فحصل على الرسائل فى أثناء الليل بطريقة خفية ، واستطاع بمهارته أن يمحو منها اسمه ويضع بدله اسمى الرجلين اللذين كانا يرافقانه فى رحلته ، ثم ختم الرسائل كما كانت وأعادها إلى موضعها . وبعد أن سارت السفينة قليلاً هجم عليها جماعة من لصوص البحار ، ونشبت بينها وبينهم معركة بحرية ، أراد هملت أن يبرهن فيها على شجاعته وشدة بأسه فهجم بمفرده على سفينة الأعداء وترك سفينته تفر من القتال فرار الجبان . وتركه الحارسان تتصرف فيه الأقدار واتخذا طريقهما فى البحر إلى إنجلترا ، سالكين إليها خير سبيل يستطيعان سلوكه ، ومعهما الرسائل التى بدل هملت معناها فأوقعهما فى شر أعمالهما . ووقع هملت أسيراً فى يد اللصوص ولكنهم كانوا أعداء راحمين ، وعرفوا أسيرهم فأنزلوه إلى البر عند أقرب ثغر من ثغور دنمرك ، لعل الأمير يستطيع أن يجزيهم على حسن صنيعهم بأن يشفع لهم عند الملك . وكتب هملت من مكانه رسالة إلى الملك ، قص عليه فيها ما وقع له من الحوادث الغريبة التى عاد بسببها إلى بلاده ، وأبلغه أنه يمثل بين يدي جلالته غداً ، فلما جاء وقعت عينه أول ما وقعت على منظر أحزنه أشد الحزن .

وكان المنظر الذى رآه جنازة أفلية الفتاة الحسنة التى كان من قبل يهيم بحبها ، وكان سبب موت هذه الفتاة أن موازين عقلها بدأت تختل بعد موت أبيها ، فقد أثر فى قلب هذه الفتاة الرقيق أن يُغتال أبوها وأن يغتاله الأمير الذى تحبه ، فلم يعض على موته إلا القليل من الوقت حتى ذهب عقلها كله ، وأخذت تطوف الطرقات تقدم الأزهار إلى سيدات البلاط ، وتقول لهن إنها أعدت تلك الأزهار

لجنازة أبيها ، ثم تنشد أناشيد الحب تارة وألحان الموت أخرى ، ومنها ما ليس له معنى على الإطلاق ، كأنها لا تذكر شيئاً مما أصابها . وكانت صفصافة تنمو مائلة على ضفة غدير ، وتنعكس صورة أوراقها على صفحة الماء ، فجاءت يوماً إلى هذا الغدير حين غفلت عنها أعين الرقباء تحمل تيجاناً صنعتها بيدها من الأقحوان والقريص والزهر والعشب مختلطاً ببعضه ببعض ، وتسلفت الصفصافة لتعلق تاجها على أغصانها ، فانكسر الغصن وهوت الفتاة الحسنة هي والتاج وكل ما جمعته من الأزهار في مياه الغدير . وحملتها ملابسها فوق الماء برهة من الزمن أخذت تغنى في أثنائها قطعاً من ألحان قديمة كأنها لا تعلم ما حل بها ، أو كأنها من الخلائق التي تعيش في الماء . ولكنها لم تلبث إلا قليلاً حتى امتلأت ملابسها ماء فتقلت وجذبته إلى قاع الغدير ، فقطعت عليها غناءها وماتت في الطين أشنع ميتة . وكانت جنازة هذه الفتاة الحسنة هي التي يشيعها أخوها ليرتس Laertes ويحضرها الملك والملكة وحاشيتهما حين أقبل هملت على المدينة .

ولم يدر هملت شيئاً مما حدث ، فوقف على جانب الطريق حتى لا يقطع على المحتفلين احتفالهم . ورأى الأزهار تنثر على القبر كما يفعل الناس عندما يدفنون الغنيات الأبنكار ، ونثرت الملكة هذه الأزهار بيدها وقالت وهي تنثرها : « إن الحسان تهدي إليهن أحسن الأشياء ؛ لقد كنت أظن أيتها الغانية أنى سأزين سرير عرسك ، فإذا بي أنثر الأزهار على قبرك أنت يا من كنت أرجو أن تكوني زوجة لولدى هملت » . وسمع هملت أخاها يدعو ربه أن ينبت البنفسج على قبرها ، ورآه يقفز مهتاجاً إلى القبر وقد ذهب الحزن بعقله ، ويأمر الخدم أن يهيلوا عليه جبلاً من الترى حتى يدفن معها . وعاد حب الفتاة الحسنة إلى قلبه ولم يطق أن يرى أخاً يظهر من الحزن ما أظهره هذا الأخ ، لأنه كان يظن أن حبه لأفليا يعدل حب أربعين ألفاً من الأخوة . وعندئذ أظهر هملت نفسه وقفز إلى القبر وراء ليرتس ؛ وكأنه مجنون مثله أو أشد منه جنوناً . وعرف ليرتس أنه هملت الذي يحمل وزر قتل أبيه وأخته ، فقبض قبضة العدو الألد على عنقه ، ولم يتركه حتى فرق بينهما الخدم . ولما فرغوا من تشييع الجنازة اعتذر هملت عن طيشه وتسرعته في إلقاء

نفسه في القبر ، كأنه يريد قتال ليرتس ، وقال إنه لم يطق أن يرى أحداً من الخلق أشد منه حزناً على أفلها . وظن الناس حيناً من الدهر أن العداوة قد زالت من قلب هذين الشاين النبيلين .

ولكن الملك الأثيم عم هملت أراد أن يتخذ من غضب ليرتس وحزنه على أبيه وأخته سبباً يستعين به على هلاك الأمير ؛ وأخذ يحرض ليرتس على أن يتذرع بما تم بينهما من صلح فيدعوهم إلى مباراة حبية يظهران فيها براعتهم في البراز بالسيف . وقبل هملت الدعوة ، وحدد يوم المباراة ، وشهده جميع رجال البلاط . وأعد ليرتس بأمر الملك سيفاً مسموماً ، وتراهن رجال الحاشية بمبالغ طائلة لأنهم كانوا يعرفون براعة هملت وليرتس في البراز ؛ وأخذ هملت السيوف القلفاء واختار واحداً منها دون أن يرتاب في أمر ليرتس أو يعنى بتفقد سيفه الذي لم يكن أقلف مثلها كما تقضى بذلك شريعة البراز ، يل كان حاداً مسموماً .

وأخذ ليرتس أول الأمر يداعب هملت ، وسمح له أن يتفوق عليه ؛ وبالحق الملك المنافق في هذا الفوز وأخذ يطنب في مدحه ، وشرب نخب هملت وفوزه ، وراهن على نتيجة المباراة رهاناً كبيراً . ثم ازداد ليرتس حماسة بعد بضعة جولات ، وهجم على هملت هجمة عنيفة وطعنه طعنة قاتلة بحد سيفه المسموم . واحتاج هملت ، ولم يكن يعرف كل ما دبره له ليرتس من غدر ، واستبدل بسيفه العادي سيف ليرتس المسموم ، وهجم به على خصمه وطعنه طعنة نجلاء ذاق بها وبال أمره . وصرخت الملكة في هذه اللحظة وقالت إنها سميت ، وذلك أنها شربت وهي غافلة من إناء أعده الملك ليشرب منه هملت إذا ما خرج من البراز حران في حاجة إلى الماء . وكان هذا الملك الغادر قد دس في هذا الماء سمّاً زعافاً ليضمن به القضاء على هملت إذا ما نجا من سيف ليرتس ، ونسى أن ينبه الملكة إلى حقيقة ما في الماء فشربته وماتت لساعتها ، ونادت وهي تلفظ آخر أنفاسها أنها قضت نجبتها مسمومة .

وتوقع هملت أن يكون في الأمر خيانة ، فأمر أن تغلق الأبواب ، وشرع يفحص عن الحقيقة ، وطلب إليه ليرتس ألا يطيل البحث لأنه هو الخائن الغادر ، وأحس هذا الشاب بدنو أجله من أثر الجرح الذي أصابه به هملت فأقر بجرمه وبما

جناه على نفسه ، ولم يُخف عن هملت أمر السيف المسموم ، وأخبره أنه لن يعيش أكثر من نصف ساعة بعد ذلك الوقت ، لأن هذا السم لا يرجى منه شفاء . ثم سأله أن يغفر له ذنبه ، وقضى نحبه ، وقال وهو في سكرة الموت إن الملك أصل هذا البلاء كله . ورأى هملت أجله يتصرم ، ورأى في السيف بقية من السم ، فهجم به فجأة على عمه الغادر وطعنه بسنه في صدره ، وبر بما وعد به روح أبيه ، فنفذ أمره ، وانتقم له من قاتله الأثيم . وشعر هملت بدنو أجله وانقضاء أنفاسه المعدودة فالتفت إلى صديقه العزيز هراشيو الذي كان طوال الوقت يشاهد هذه المآسي المروعة ، وطلب إليه أن يبقى على نفسه ليقص على العالم قصته ، فقد بدت من هراشيو في ذلك الوقت إشارة تم عن عزمه على الانتحار ليقضى نحبه مع الأمير . وعاهده هراشيو على أن يروي هذه القصة في صدق وأمانة ، لأنه مطلع على جميع أسرارها . فلما أرضى هملت ضميره وتم له ما أراد تحطم قلبه النبيل ، وانهمر الدمع من عيني هراشيو ورفاقه الذين شاهدوا هذه المأساة ، ودعوا الملائكة الكرام أن يرفقوا بروح هذا الأمير الطيب النفس اللين العريكة . وفي الحق أن هملت كان أميراً لين العريكة ، محباً للناس ، رفيقاً بهم ، محبباً إليهم جميعاً لنبله وكرم سجاياه ؛ وما من شك في أنه لو عاش لكان أعظم من جلس من الملوك على عرش دنمرك .

عطيل

كان لشيخ من شيوخ البندقية الأثرياء يدعى برابنتو Brabanto إبنة حسناء تسمى دزدومونا Desdemona ، تقدم إلى خطبتها كثير من الشبان لما كانت تتصف به من جميل الخلال ، وما كان يرجى أن تناله من ثروة طائلة ؛ ولكنها لم تجد بين من تقدم إليها من أهل بلدها ولونها من هو جدير بحبها ، وذلك لأن هذه الفتاة النبيلة كانت تعجب بعقول الرجال أكثر من إعجابها بوجوههم ، وهي خلة امتازت بها عن بنات جنسها ، يعجب الناس بها ولكنهم لا يتخلقون بها ؛ ومن أجل ذلك اصطفت لنفسها من بين خطابها مغريباً أسود اللون ، كان أبوها يحبه ويدعوه في كثير من الأوقات لزيارته في منزله .

وليس من حقنا أن نقسو في الحكم على دزدومونا لأنها لم توفق في اختيار الشخص الذي تعلق به قلبها ؛ ذلك أننا إذا غرضنا النظر عن سواد لون عطيل ، فإن هذا الشريف المغربي لم يكن ينقصه شيء من الصفات التي تحببه إلى أكرم العقائل . فقد كان جندياً باسلاً سما على أقرانه في الحروب العوان التي دارت بين البنادقة والأتراك ، حتى بلغ مرتبة القواد في جيش البندقية ، وكان إلى ذلك موضع إجلال رجال الدولة وتقديرهم .

وكان عطيل جواب آفاق ، وكان يسر دزدومونا كما يسر جميع النساء أن تستمع إليه وهو يقص أخبار مخاطراته من أقدم ذكرياته وأبعدها عهداً ، وأخبار الحروب والحصار والوقائع التي خاض غمارها ، والأخطار التي تعرض لها براً وبحراً ، والمآزق التي نجا منها حين نفذ من ثلثة حصن أو وقف أمام فوهة مدفع ، ويصف لها كيف وقع أسيراً في يد الأعداء الطغاة فباعوه بيع الرقيق ، وكيف كان مسلكه في هذه الحال ، وكيف نجا من الرق . وكان يقص عليها هذه المغامرات كلها ، ويصف لها معها ما شاهده من عجائب البلاد البعيدة وفلواتها الشاسعة المترامية الأطراف ، وكهوفها البديعة ومقالع أحجارها وصخورها ، وجبالها الشم التي

تناطح رءوسها السحاب ، والشعوب المتوحشة وأكلة اللحوم البشرية ، وسكان
مجاهل إفريقية الذين تنمو رءوسهم تحت أكتافهم . وكان حديث هذه الأسفار
يستغرق انتباه دزدمونا ويأخذ بمجامع قلبها ، فكانت إذا دُعيت لشأن من شئون
البيت فرغت منه على عجل ، وعادت لتلتهم حديث عطيل التهاماً . وقد رآها في ساعة
الينة العريكة سلسلة القياد ، فاستدرجها حتى طلبت إليه أن يقص عليها تاريخ حياته
كلها مفصلاً ، بعد أن سمعت منه الشيء الكثير متقطعاً غير متصل الحلقات ،
ووافقها هو على ذلك وأخذ يقص هذا التاريخ . وكثيراً ما كان يستدر الدمع من
عينها وهو يصف لها كارثة من الكوارث التي حلت به في عهد صباه .

ولما فرغ من قصته جازته على جهوده بآلاف الحشرات والتهديدات ، وأقسمت
جهد أيمانها أن تاريخه يثير العجب ويبعث في القلوب الرحمة ، وقالت إنها كانت
تود لو أنها لم تسمعه ، ولكنها تتمنى لو أن الله قد خلقها من هذا الصنف من
الرجال . ثم شكرته وقالت له إنه إذا كان له صديق يحبها ، فما عليه إلا أن يعلمه
كيف يقص عليها قصته ، وحسبه هذا سبباً يوصله إلى قلبها . ولم يخف على عطيل
معنى هذه الإشارة التي كان فيها من الصراحة بقدر ما فيها من التواضع ، والتي
صحبتها نظرات ساحرة توردت لها وجنتاها من شدة الخجل ، فأفصح لها عن حبه
بعبارات أوضح وأصرح ، وفي تلك الساعة الموفقة السعيدة وعدته هذه السيدة
الكريمة أن تتزوج به سراً .

ولم يكن لون عطيل وثروته مما يبعث الأمل في قلبه بأن برابنتو يرضى به زوجاً
لابنته . نعم إنه ترك لابنته حرية الاختيار ، ولكنه كان ينتظر منها أن تفعل
ما تفعله كرائم الفتيات بنات البندقية ، فتختار لنفسها زوجاً من سراة المدينة
أعضاء مجلس الشيوخ ، أو ممن يرجى أن يكونوا أعضاء فيه . ولكنه قدر فأخطأ
التقدير ، فقد أحب دزدمونا هذا المغربي على سواد لونه فاستحوذ على قلبها وثروتها
بما كان يتصف به من جرأة وإقدام وخلال عالية كريمة ، وشغفت بحب
هذا الرجل الذي اختارته زوجاً لها وأخلصت له إخلاصاً حب إلى هذه الفتاة
النافذة البصيرة سواد لونه الذي كان يبدو لغيرها عقبة كأداء لا يمكن التغلب

عليها ، فأصبح في نظرها أجل من جميع الذين تقدموا لخطبتها من البندقية أبناء
الأسر الكريمة ، ذوى الوجوه البيضاء والبشرة الصافية . وتم زواجهما خفية ،
ولكنه لم يبق سراً مكتوماً إلى أمد طويل ، فقد تساقط إلى مسامع الشيخ
برابنتو . وحضر هذا الشيخ أمام مجلس من شيوخ الدولة واتهم عطيل المغربي
بأنه قد استطاع بسحره أن يخدع دزدمونا الحسنة ويسلب قلبها ، ويتزوج بها
من غير رضا أبيها ، ومن غير أن يرعى واجبات الضيافة .

واتفق أن كانت دولة البندقية في ذلك الوقت في أشد الحاجة إلى خدمات
عطيل ؛ فقد ترامت الأنباء بأن الأتراك أعدوا عمارة بحرية وسيروها إلى جزيرة
قبرص ليستردوا هذا الموقع الحصين من البنادقة الذين كانوا يمتلكونه وقتئذ .
ولجأت دولة البندقية في ذلك الوقت الحرج إلى عطيل لاعتقادها أنه وحده الذي
يستطيع أن يقود القوات اللازمة لصد الأتراك عن جزيرة قبرص ، وكذلك وقف
عطيل أمام مجلس الشيوخ مطالباً بمنصب من أعظم مناصب الدولة ، ومذنباً متهماً
بجرائم تجزى عليها شرائع البندقية بالإعدام .

وكان مقام الشيخ برابنتو في مجلس الشيوخ وكبر سنه مما يدعو هذا المجلس
الموقر لأن يستمع إلى دعواه بصبر ، ولكن الرجل كان محققاً مغيظاً ، فكان وهو
يعرض قضيته ثائراً محتدداً ، فلم يتقدم لإثبات دعواه بغير المزاعم والاحتمالات .
فلما أن دعى عطيل ليدافع عن نفسه لم يكن عليه إلا أن يقص على الجمع قصة حبه ،
فألقاها بفصاحة خالية من الصنعة والتكلف ، وأخبرهم بتفاصيل خطبته كما سردناها
على القارىء من قبل . وكان يتكلم بصراحة نبيلة هي في ذاتها دليل على صدقه ،
فلم يسع الدوق رئيس الجلسة إلا أن يقر بأن مثل هذه القصة كفيلة وحدها بكسب
قلب ابنته أيضاً . وتبين له أن الرقى والتعاويد التي استعان بها عطيل في خطبته
لا تخرج قط عن الوسائل الشريفة التي يستعين بها المحبون في غزلهم ، وكان كل
ما استخدمه من فنون السحر هو حذقه وقدرته على أن يقص القصة بحيث تسترعى
انتباه السيدات .

وأيدت دزدمونا نفسها أقوال عطيل ، فقد جاءت إلى المحكمة واعترفت بما

لأبيها عليها من حقوق ، لأنه ولدها ورباها ، ثم طلبت إليه أن يأذن لها أن تعترف أيضاً بما عليها لزوجها وسيدها من واجبات أعظم قيمة من واجباتها لأبيها ، وهي تلك التي من أجلها فضله أمها على أبيها .

وأدرك الشيخ عجزه عن إقامة الحجة على عطيل ، فدعا إليه واعتذر له عما فرط منه ، ورأى أن لا مفر له من أن يسلمه ابنته ، وقال إنه لو كان في وسعه أن يمنعها عنه لفعل هذا راضياً مغتبطاً ، وإنه يحمد الله على أن ليس له بنات غيرها ، وإلا لأصبح بعد هذه الخطيئة رجلاً جباراً قاسياً ، ولأبقاهن إلى جانبه لكيلا يخرجن عن طاعته كما خرجت هي .

ولما ذلت هذه الصعوبة قبل عطيل مغتبطاً أن يتولى إدارة دفعة الحرب في قبرص ، وكان قد تعود صعاب الحياة العسكرية حتى أصبحت له من الضروريات شأنها كشأن الطعام والراحة لغيره من الناس . ورأت دزدموناً أن الشرف الذي ناله زوجها ، مهما كان فيه من الخطر عليه ، خير وأبقى من حياة اللهو والملاذ التي ينفق فيها الأزواج الجدد أوقاتهم بعيد الزواج ، فوافقت وهي راضية منسرحة الصدر أن يسافر زوجها إلى ميدان القتال .

ولم يكد عطيل وزوجته ينزلان بأرض قبرص حتى تناهت إليه الأنباء بأن عاصفة هوجاء قد شتت أسطول الأتراك ، فأمنت الجزيرة بذلك شر هجوم عاجل عليها ؛ ولكن الحرب التي كان عطيل يخوض غمارها كانت في هذا الوقت في بدايتها ، وكان الأعداء الذين ألَّ بهم الحقد على زوجته الطاهرة الشريفة أعظم كيداً من جيوش الأجانب وأعداء الدين .

ولم يكن بين أصدقاء القائد أحد يشق به ويأتمنه أكثر من كاسيو . وكان ميكيل كاسيو Michael Cassio شاباً محارباً من مدينة فلرنس ، وكان مرحاً محباً ظريفاً حلو الكلام ، وكلها صفات محببة إلى النساء ؛ وكان إلى ذلك بهي الطلعة فصيح اللسان ، متصفاً بجميع الخلال التي تثير الغيرة في قلب رجل تقدمت به السن ، كما كان عطيل إلى حد ما ، إذا تزوج شابة جميلة . لكن عطيلاً كان رجلاً نبيلاً ليس للغيرة موضع في قلبه ، بعيداً عن سوء الظن بعده عن سوء الفعال ، وكان قد استعان

بكاسيو في شئون حبه لدزدمونا ، فكان هو الرسول بينه وبينها في خطبته ، وذلك لأن عطيلاً كان يخشى ألا تكون له من رقة اللفظ وعذوبة الحديث ما يستطيع به أن يملك قلوب النساء . ورأى هاتين الصفتين على أتمهما في صديقه فكان من أجل ذلك ينييه عنه — على حد قوله — في مغازلة دزدمونا . ولم تكن هذه السداجة البريئة عيباً في المغربي المقدم يستحق عليه اللوم ، بل كانت فضيلة خليقة بالثناء . فلا عجب بعد هذا أن تحب دزدمونا الحسناء كاسيو هذا وتثق به ، وأن يكون أدنى الناس منزلة إليها بعد عطيل ، وإن كان البعدين المنزلتين شاسعاً شأن الزوجات الطاهرات . ولم يتغير مسلك الزوجين نحو ميكل كاسيو بعد زواجهما فكان الرجل يتردد على دارهما ، وكان في ثروته الطلقة من التنويع ما يشرح صدر عطيل ، الذي كان بطبيعته جاداً رزيناً ، وذلك أن أصحاب هذه الطباع يسرون عادة مما يناقضها ، لأنها تروح عنهم وتخفف من وطأتها عليهم . وكان كاسيو ودزدمونا يتحادثان ويضحكان كما كانا يفعلان أيام أن كان يأتي إليها ليغازلها نائباً عن صديقه وكان عطيل من عهد قريب قد رقى كاسيو إلى رتبة مساعدته ، وهي أقرب الرتب إلى شخص القائد ، وصاحبها موضع ثقته . وأساءت هذه الترقية إياجو Iago أحد الضباط الأقدمين لأنه كان يظن أنه أحق بها من كاسيو ، وكثيراً ما كان يعير كاسيو هذا بأنه شخص لا يصلح إلا لصحبة السيدات ، ولا يعرف من فنون الحرب وحشد الجيوش للقتال أكثر مما تعرف البنات . وكان إياجو يحقد على كاسيو ، ويحقد على عطيل لأنه يعز كاسيو ، ولأنه كان يرتاب فيه بعض الريبة ، ويظن خطأ أنه يحب إملياً Emilia زوجته هو . وامتلاً قلب إياجو غيظاً لهذه الأسباب الباطلة ، وهذاه تديره إلى مكيدة يقضى بها على كاسيو والمغربي ودزدمونا جميعاً .

وكان إياجو رجلاً مخاتلاً بارعاً في حفر الحفائر ، درس الطبائع البشرية درساً عميقاً ، وعرف أن داء الغيرة أشد الأدواء وأكثرها تعذيباً للقلوب ، وأن عذاب الجسم يتضاءل بالقياس إلى عذابها . وقال في نفسه إن خير ما يستطيع أن يفعله للانتقام من كاسيو أن يوقد نيران الغيرة في قلب عطيل ، وقد يكون في ذلك هلاك

كاسيو أو عطيل أو هما معاً ، وسواء عليه أهلك أحدهما أم هلك كلاهما لأن ذلك أمر لا يعنيه .

وجاء القائد وزوجته إلى قبرص على أثر ورود الأخبار بتشتت أسطول الأعداء ، فكان يوم مجيئهما عيداً في الجزيرة ، وخرج أهلها على بكرة أبيهم يقصفون ويمرحون ، ودارت الكؤوس وأخذ الناس يشربون نخب عطيل الأسود وزوجته دزدمونا الحسناء .

وكان كاسيو يشرف على الحراسة في تلك الليلة ، وقد أمره عطيل أن يمنع الجند من الإسراف في الشراب حتى لا يحدثوا في الجزيرة شغباً يزعج أهلها أو ييغضهم في الجنود الذين نزلوا في أرضهم من عهد قريب . وفي هذه الليلة دبر إياجو تديره المحكم الخبيث ، فتظاهر بشدة حبه وإخلاصه للقائد العام ، وأخذ يغري كاسيو بالإفراط في الشراب ، وهي غلطة من أكبر الأغلاط التي يمكن أن يرتكبها ضابط يتولى الحراسة . وقاوم كاسيو إغراءه أول الأمر ، ولكن هذه المقاومة لم تطل ، وتغلب عليها إياجو بما تصنعه من حب شريف للتحرر من القيود الموضوعة . وأخذ كاسيو يتجرع الزجاجة تلو الزجاجة ، وإياجو يقدم له الشراب ويطر به بالغناء ، حتى انطلق لسانه بالثناء على دزدمونا ، فشرع يشيد بذكورها ويشرب نخبها آن بعد آن ، ويؤكد أنها سيدة كاملة رائعة الحسن . وما زال كذلك حتى ذهب عقله من كثرة ما تجرعه من الشراب عدو الإنسان الألد ؛ وحدث أن استفزه رجل أغراه به إياجو ، فاستل كل منهما سيفه ، وتقدم ضابط من خيرة الضباط يدعى منتانو Montano لحسم النزاع فجرح ؛ واتسعت دائرة الشغب واشترك فيه الحرس كله ، وكان إياجو الذي استناره أنشط عامل على نشر الذعر في الجزيرة ، فأمر بدق جرس الحصن كأنما قامت في البلاد فتنة حماء ، لا مجرد هرج ضعيف أحدثه قوم لعبت بعقولهم الخمر . واستيقظ عطيل على صلصلة جرس الخطر ، وارتدى ملابسه على عجل ، وجاء إلى مكان الحادثة وسأل كاسيو عن جلية الأمر . وكان كاسيو قد عاد إلى صوابه بعد أن ذهب عنه بعض أثر الخمر ، ولكن الخجل عقد لسانه فلم يحرج جواباً . وأظهر إياجو كثيراً من التردد في اتهام

كاسيو ، ولكنه أمام إلحاح عطيل وإصراره على معرفة الحقيقة سرد الواقعة كلها إلا نصيبه منها ، ولم يكن كاسيو منتبهاً له فيذكره به ، وتظاهر بأنه يخفف من ذنب كاسيو ولكنه كان في الحقيقة يزيد جرمه شناعة . وكان عطيل شديد الحرص على حسن النظام فجرد كاسيو من رتبته .

وهكذا نجحت المكيدة الأولى من مكائد إياجو نجاحاً تاماً ، ففضى على منافسه المقوت وأبعده عن منصبه ، ولكنه لم يكتف بهذا بل عمل على أن يستفيد فائدة أخرى من مغامرته في هذه الليلة المشؤومة .

وأفاق كاسيو من سكرته بعد هذه الكارثة التي نزلت به ، فجاء إلى صديقه المحتال أسفاً على حقه الذي انحط به إلى منزلة البهائم ، وقضى على مستقبله . وماذا يفعل الآن ؟ هل يستطيع أن يرجو القائد أن يعيده إلى مكانه الأول ؟ أيقول إنه سكر ؟ إنه لو فعل لاحتقر نفسه . وتظاهر إياجو بتهمين الأمر عليه ، وقال إنه هو وغيره من الناس يسكرون أحياناً ، وإن عليه الآن أن يعمل للخروج من هذه الورطة على خير وجه . وكان مما قاله له إن زوجة القائد هي الآن صاحبة الكلمة العليا ، وإن أمرها نافذ عليه ، وإن خير ما يفعله أن يطلب إلى دزدمونا أن تتوسط له عند زوجها ، وإنها سيدة صريحة جبلت على فعل الخير ، ويسرها أن تقوم بهذه المهمة ، فتعيد كاسيو إلى منزلته الأولى عند القائد الكبير ، ويزول ما بينهما من نفور ، وتصبح روابط الصداقة بينهما أقوى مما كانت قبل ؛ نصيحة ما أحسنها لولا أن إياجو كان يبغي بها السوء كما سيظهر للقارىء فيما بعد .

وعمل كاسيو بنصيحة إياجو ولجأ إلى دزدمونا ، وهي التي لم تكن تحيب رجاء من يسعى إليها في طلب الخير ، ووعدت كاسيو أن تشفع له عند زوجها ، وقالت إن الموت خير لها من أن تتخلى عنه . وبدأت من فورها تسعى سعياً حثيثاً ظريفاً ، لم يستطع معه عطيل أن يردّها خائبة على الرغم من سخطه الشديد على كاسيو ، فطلب إليها أول الأمر أن تترث قليلاً لأن الوقت لم يحن بعد للعفو عن مثل هذا الذنب ، ولكنها لم تقبل طلبه بل أصرت على ألا يتأخر هذا العفو عن الليلة التالية أو عن صباح اليوم الذي بعدها ، أو صباح اليوم الذي يليه على أبعد تقدير . ثم

أظهرت له ندم كاسيو وما أصابه من مذلة ، وقالت إنه لا يستحق أن يجازى على ذنبه ذلك الجزاء الشديد . ولما طال تردد عطيل قالت له : « ما هذا يا سيدى ؟ أيليق بى أن أبذل هذا الجهد كله للدفاع عن كاسيو ؟ ميكل كاسيو الذى جاء يغازل نائباً عنك ، والذى كان يثنى عليك وينحاز إلى جانبك إذا ما نطقت بكلمة نابية عنك ؟ وفى اعتقادى أن هذا الطلب هين عليك ، وأنى إذا ما أردت أن أختبر حبك لى وجب على أن أطلب إليك أمراً أصعب منه أو أعظم شأنًا . ولم يكن فى وسع عطيل أن يرد طلباً لمن يتقدم إليه بمثل هذا الدفاع القوى ، فوعدها أن يرد ميكل كاسيو إلى سابق منزلته عنده ، وكل ما طلبه إليها أن تترك أمر تحديد الوقت له وحدث أن دخل عطيل وإياجو الحجرة التى كانت فيها دزدمونا فى اللحظة التى كان فيها كاسيو يخرج من باب آخر لها ، مقابل للباب الذى دخلا منه ، بعد أن فرغ من رجائه لها بأن تشفع له عند زوجها . وكان إياجو ما كراً خبيثاً فقال فى صوت خافت كأنما كان يتحدث إلى نفسه : « هذا شيء لا أحبه » . ولم يعر عطيل هذا القول كثيراً من العناية وقتئذ ، وكان اجتماعه بعيد هذا بزوجته كفيلاً بأن ينسيه إياه كل النسيان ؛ لكنه تذكره فيما بعد ، فقد سأل إياجو عطيلاً بعد أن خرجت دزدمونا من عنده هل كان ميكل كاسيو يعرف حب عطيل لها عندما كان يخطبها لنفسه . وتظاهر إياجو وهو يلقي هذا السؤال بأنه إنما يلقيه لمجرد العلم به لا لغرض آخر سواء ؛ وأجاب القائد عن هذا السؤال بأن كاسيو كان عارفاً بهذا الحب ، وزاد عليه أنه كثيراً ما توسط بينهما فى أثناء الخطبة . وقطب إياجو جبينه كأن ضوءاً جديداً قد ألقى على أمر مهول يشغل باله ، وصاح قائلاً « حق ! » وتذكر عطيل ساعته ما نطق به إياجو من الألفاظ عند ما دخل الحجرة ورأى كاسيو مع دزدمونا ، وبدأ يظن من تلك الساعة أن لهذا كله معنى ؛ فقد كان يعتقد أن إياجو رجل عادل محب شريف ، وأن الذى يبدو فى غيره من سفلة الناس وأدنيائهم مكرراً واحتيالاً ، إذا ما بدا منه هو كان مظهرًا طبيعيًا لما يدور فى عقله النبيل من أفكار أخطر من أن ينطق به اللسان . ورجاه عطيل أن يطلععه على ما يعرف ، وأن يفصح عما يحول فى خاطره مهما بلغ من السوء .

وقال إياجو : « وماذا يكون لو أن أفكارا خبيثة قد اتخذت سبيلها إلى قلبي ؟ وهل في العالم كله صرح لا تصل إليه الخبائث والآثام ؟ » وأضاف أنه يأسف كل الأسف إذا مانعت عليه حياته ملاحظات يديها ولا تقوم على أساس متين ، وأن ليس من مصلحة عطيل أن يعرف ما يدور في فكره ليظل له هدوء وراحة باله ، وأن سمعة الناس الطيبة لا ينبغي أن تذهب بها الشبهات الواهية . وتاقت نفس عطيل لمعرفة الحقيقة بعد هذه الإشارات والعبارات المتفرقة ، واشتدت رغبته في ذلك حتى كاد يذهب عقله ، فتقدم إليه إياجو كمن يحرص على هدوء باله وحذره من عواقب الغيرة . وكذلك استطاع هذا الرجل الدنيء بدهائه أن يثير الشك في قلب عطيل وهو غافل لم يأخذ منه حذره ، وذلك بنفس الألفاظ التي ادعى أنه يحذره بها من سوء الظن . ورد عليه عطيل بقوله : « إني أعرف أن زوجتي جميلة تحب الحفلات والمجتمعات ، ولا تتخرج في الكلام ، وتحب الغناء واللعب وتجد الرقص ، ولكن هذه الصفات تعد من الفضائل إذا زانتها الفضيلة ، ولهذا فإني لا أستطيع أن أتهمها بالخيانة إلا إذا قام لدى على خيانتها الدليل القاطع . وعندئذ أعلن إياجو في صراحة أن ليس لديه على ذلك دليل ، وتظاهر بأنه قد سره من عطيل أنه لم يتسرع في سوء الظن بزوجته ، ولكنه طلب إليه أن يراقبها عندما يكون كاسيو قريبا منها وألا يكون في ذلك غيورا عليها ولا واثقا بها أكثر مما يجب ، وذلك لأنه هو (إياجو) يعرف طبائع الإيطاليات بنات وطنه أكثر مما يعرفها عطيل ، ولأن الزوجات في البندقية يطلعن السماء على كثير من ضروب العبث التي لا يجرؤون على أن يطلعهن عليها أزواجهن . ثم أشار إشارة خبيثة إلى أن دزدمونا قد خدعت أباهما بزواج عطيل ، وأنها كتمت أمر هذا الزواج عنه حتى ظن الشيخ المسكين أن عطيل قد استعان بالسحر على الوصول إلى غرضه . وأثر هذا القول في نفس عطيل لأنه جلا له الأمر ، واعتقد أن دزدمونا التي استطاعت أن تخدع أباهما ، لا يبعد عليها أن تخدع أيضا زوجها .

واعتذر إياجو لعطيل لأنه أثار غضبه ، وتكلف عطيل عدم المبالاة ولكنه كان في حقيقة أمره يمزق الحزن قلبه بعد ماسمعه من أقوال إياجو ، وطلب إليه أن

يوصل قوله . وتايح إياجو حديثه بعد ما قدم له كثيراً من المعاذير كأنه لا يريد أن ينطق بكلمة سوء عن كاسيو ، الذى وصفه بأنه صديقه . ثم ترك اللف والدوران وتكلم فى الصميم ، وذكر عطيلاً بأن دزدمونا قد رفضت كثيراً من الأزواج الخليقين بها والذين كانوا من أهل بلدها ومن لونها ، وتزوجت به وهو مغربى . وذلك زواج غير طبيعى يدل على عنادها واستبدادها برأيها ، وأكبر الظن أنها إذا ما عاد إليها صوابها تبدأ تنظر بإحدى عينيها إلى عطيل ، وبالعين الأخرى إلى الشبان الإيطاليين أبناء بلدها ذوى الوجوه البيضاء الصافية . ثم ختم حديثه بإسداء النصيح إلى عطيل أن يؤجل الصلح مع كاسيو بعض الوقت ، وأن يلاحظ فى تلك الأثناء حرص دزدمونا على الشفاعة له ، وسيتبين من هذه الشفاعة الشئ الكثير . وبهذه الطريقة الأثيمة دبر هذه الوغد الماكر مكائده ، ليتخذ من وداعة هذه السيدة الطاهرة وسيلة يقضى بها عليها ، وينصب لها من طيبة قلبها شركاً يوقعها فيه ، فقد حرص كاسيو أول الأمر على أن يطلب إليها الشفاعة له عند زوجها ، ثم اتخذ هذه الشفاعة نفسها وسيلة للكيد لها والقضاء عليها .

وانتهى الحديث برجاء تقدم به إياجو لعطيل أن يظل على اعتقاده ببراءة زوجته حتى يقوم لديه الدليل القاطع على جرمها . ووعد عطيل أن يترث فى الأمر ، ولكن هذا الرجل المخدوع لم يذق لراحة البال من هذه الساعه طعماً ، ولم يكن فى مقدور جميع المخدرات التى فى العالم أن تعيد إليه تلك الراحة اللذيذة التى كان يتمتع بها فى الأمس القريب ؛ وشعر بأن أعباء منصبه ثقيلة عليه ، ولم يعد للقتال فى نفسه تلك اللذة التى كان يجدها فيه من قبل . وبعد أن كان فى سابق أيامه يستشير مرأى الجنود والبنود ، والجيش وهى مصطفة للقتال ، ويذكرى حماسه صوت الطبول والأبواق وصهيل الجياد ، بدا وكأنه قد فقد العزة والطموح ، وهما أفضل صفات الجندى ، ولم يعد يتوق لخوض غمار الحرب أو التمتع بشئ من مسراته الأولى . وكان فى بعض الأحيان يظن زوجته شريفة ، وفى بعضها الآخر يراها خائنة ، وتارة يعتقد أن إياجو صادق ، وطوراً يراه كاذباً ، ثم يتمنى لو أن هذا السر قد بقى خافياً عليه ، لأن حبها كاسيو لا يضيره ما دام هو لا يعرفه . وأخذت

هذه الأفكار المضطربة تعذبه وتمزق قلبه ، حتى أنه قبض مرة على عنق إياجو وأنذره بأنه سيقطله لساعته لافترائه على دزدمونا إن لم يثبت له خيانتها بالدليل القاطع . وتظاهري إياجو بالغضب لأن أمانته قد أصبحت رذيلة في نظر عطيل ، وسأله ألم يري يد زوجته أحيانا منديلا منقوشاً عليه ثمر التوت الأرضي ؟ وأجاب عطيل أنه قد أعطاهما هذا المنديل ، وأنه أول ما قدمه لها من الهدايا . فرد عليه إياجو قائلاً : « إني رأيت كاسيو اليوم يمسح وجهه بهذا المنديل نفسه » . فقال له عطيل : « إذا صح هذا فإني لن أستريح حتى أنتقم منهما جميعاً شر انتقام ، وأريد منك أن تبرهن علي إخلاصك بأن تقتل كاسيو في خلال ثلاثة أيام ، أما هذا الشيطان الجميل (يريد زوجته) فدعني الآن أدبر له مبيتة سريعة » .

إن الذين تأججت نيران الغيرة في صدورهم يتخذون من الأشياء التافهة أدلة قوية كأنها آيات منزلة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . ألم تر أن منديلا لدزدمونا رآه إنسان في يد كاسيو قد كفى في نظر عطيل المخدوع لأن يدين زوجته ويحكم عليها هي وكاسيو بالموت ، ولا يرى حاجة إلى أن يعرف كيف وصل هذا المنديل إلى يده ؟ إن دزدمونا لم تهد إلى كاسيو هذا المنديل ، وليس من شيمة هذه السيدة الوفية أن تسيء إلى زوجها بهذا العمل القبيح فتقدم لغيره هداياه . ولم يقترب كاسيو ولا دزدمونا جرماً في حق عطيل ، غير أن إياجو الماكر الأثيم الذي لا تترتاح نفسه إلا إذا دبر الجرائم قد أغرى زوجته — وهي سيدة طيبة القلب لكنها ضعيفة الإرادة — بسرقة هذا المنديل من دزدمونا لتنتقل ما عليه من الزخرف في الظاهر ، ولتلقيه في الحقيقة في طريق كاسيو لعله يعثر عليه ، فيؤيد ذلك ما ادعاه إياجو من أن دزدمونا قد أهدته له .

وقابل عطيل زوجته بعد ذلك بقليل ، وادعى أنه يشكو الصداع — ولعله كان مصدوعاً حقاً — وطلب إليها أن تعيره منديلا ليربط به صدغيه . فاعطته منديلا ولكنه قال لها : « لا أريد هذا بل أريد المنديل الذي أهديته إليك . ولم يكن هذا المنديل مع دزدمونا لأنه قد سرق كما قلنا من قبل ، فقال لها عطيل : « كيف يكون هذا ؟ إنه لخطأ عظيم . إن هذا المنديل قد أهدته إلى أمي امرأة مصرية ساحرة تقرأ

أفكار الناس ، وقالت لأُمِّي إنها إذا احتفظت به مالت إليها القلوب وأحبها أبى ،
 وإنها إذا فقدته أو فرطت فيه تغير قلب والدى عليها ، وكرهها كرها يعادل فى
 شدته حبه السابق لها . وأعطته لى أُمى وهى على فراش الموت وأمرتنى أن أهديه
 إلى زوجتى إذا ما تزوجت وقد فعلت ، فاحرصى عليه وأعزّيه إعزازك لناظريك .
 وقالت دزدموننا وهى ترتعد فرقا : « أحق ما تقول ؟ » فأجابها عطيل :
 « إنه لحق ، فهو منديل مسحور نسجته عرافة عمرت مائتى عام كاملة فى نوبة من
 نوبات تنبؤاتها ، وأخرجت حريره ديدان مباركة ، وصبغ المنديل بعد صنعه فى
 قلوب العذارى المحنطة » . وسمعت دزدموننا بخواص المنديل العجيبة ، فارتاعت
 وهالها الأمر ، لعلمها أن المنديل قد فقد ، وخوفها أن تفقد بفقده حب زوجها .
 وهم عطيل بالوقوف كأنه يوشك أن يندفع إلى فعل طائش ، وكرر طلب المنديل .
 ورأت دزدموننا أنها عاجزة عن إجابة طلبه فحاولت أن تصرفه عن التفكير الجدى ،
 وقالت له فى لطف وانسراح إنها تعرف أنه لم يقصد بحديثه عن المنديل إلا أن
 يحول بينها وبين شفاعتها لميسكل كاسيو ، وأخذت تثنى عليه كما تتبأ بذلك إياجو ،
 حتى جن عطيل فاندفع من الحجرة . وعندئذ بدأت الظنون تساور دزدموننا واعتقدت
 على الرغم منها أن عقارب الغيرة تدب فى قلب عطيل .
 ولم تكن تدرى أنها فعلت ما يستثير هذه الغيرة ، فأخذت تلوم نفسها على سوء
 ظنها بزوجها الكريم ، وخيل إليها أن أبناء سيئة قد جاءته من البندقية ، أو متاعب
 خطيرة قد حدثت فيها فأقلقته باله وغيرت طبعه الحلو الرقيق ، وقالت فى نفسها :
 « إن الرجال ليسوا آلهة ولا يحق لنا أن ننتظر منهم إذا ما تزوجوا تلك الرعاية التى
 كنا نستمتع بها يوم الزفاف » . وأخذت تعنف نفسها على ارتيابها فى عطفه وحنوه .
 وتقابل عطيل ودزدموننا مرة أخرى ، وكان فى هذه المقابلة أكثر صراحة فى
 اتهامها بالخيانة وبحب رجل غيره ، وإن لم يسم لها هذا الرجل . وبكى عطيل وقالت
 دزدموننا : « ما أشقانى وما أشأم هذا اليوم ! لم تبكى ؟ » وأجابها عطيل بقوله إن
 فى وسعه أن يحتمل كل أنواع الأذى وهو صابر ، يحتمل الفقر والمرض وفقد
 المنصب والجاه ، ولكن غدرها قد حطم قلبه ؛ ثم سماها نبتة ذات رائحة عطرة قوية

تؤذى الحواس بشدتها ، وتمنى لو أنها لم تخلق . ولما غادر عطيل حجرتها ذهلت هذه السيدة الطاهرة وعجبت أشد العجب من ارتياب زوجها فيها ومن سوء ظنه الذى لا مبرر له ، فثقل جفناها وطلبت إلى خادمتها أن يهيئن لها فراشها ، وأن يضعن على سريرها ملاءة عرسها ، وقالت إن الناس إذا رغبوا فى تعليم أطفالهم علموهم بالحسنى وكلفوهم بأسهل الأعمال ، وإنه كان فى وسع عطيل أن يتبع معها هذه الطريقة نفسها ، فى أقل اللوم مردجر لها ، كما يزدجر بأقل اللوم الأطفال . وهذا كل ما شكت منه هذه السيدة الكريمة .

وأوت دزدموننا إلى فراشها وهى تنتظر أن يقبل عليها زوجها ، فغلبها النعاس لشدة ما كانت تعاني من اضطراب فكرى . ودخل عطيل مخدعها وهو ينتوى تنفيذ قصده الذى لم يعد يجول غيره فى خاطره ، وهو قتل زوجته ؛ فلما أبصرها وهى نائمة رأى ألا يريق دمها أو يشوه إهابها الناصع البياض ، ولكنه كان قد عقد النية على قتلها ، لأن نفسه كانت تحدثه بأنها إذا عاشت خانت غيره من الرجال كما خانتته هو . ثم انحى عليها ليقبلها القبلة الأخيرة على حد قوله ، وأحس لهذه القبلة بلذة أغرته بأن يقبلها مرة أخرى ، ثم بكى ، ولكنه قال إن الدموع التى يذرفها دموع قسوة لا رحمة .

وأيقظت قبلاته دزدموننا ، وتأملت وجهه فوجدته يعض على ناجذه ويقلب عينيه ، وكان هذا الفعل منه على الدوام نذيراً بالشر المستطير ؛ ثم أمرها أن تستعد للموت وأن تتلو صلواتها لأنه لا يريد أن يقتل منها روحها ؛ وتوسلت إليه هذه الزوجة الطاهرة ، وهى بين يديه وتحت رحمته ، أن يرأف بها وأن يخبرها بذنبها ، فذكر لها كاسيو وذكر المنديل الذى قال إنها أعطته إياه . ولما حاولت أن تبرئ نفسها من هذه الوصمة ، أصم أذنه فجأة عن سماع قولها ، ثم لفها فى ملاءة فراشها وأماتها خنقا .

وفى هذه اللحظة جىء بكاسيو إلى القصر مجروحاً ينزف الدم من جسمه ، لأن إياجو أغرى أحد صنائعه باغتياله ، ولكن الرجل لم يفلح فى قتله وإن كان قد أصابه بجرح غير مميت ، وقتل إياجو المعتدى حتى لا يفتضح أمره . ووجدت

مع القتييل رسائل اتضحت منها براءة كاسيو ، ولم تترك مجالاً للشك في جرم إياجو .
وجاء كاسيو يرجو الصفح من عطيل ويسأله عما ساء منه حتى يحرض إياجو على قتله
وكان هذا شديد الوقع على قلب عطيل ، وتبين له الآن أنه مجرم قاتل ، وأن
زوجته الطاهرة المسكينة كانت إلى آخر لحظة من حياتها وفية له . وآلم ذلك قلبه
فلم يطق عليه صبراً ، وكره الحياة فارتمى على حد سيفه وألقى بنفسه على جسم
زوجته العزيزة المظلومة ، وفاضت روحه لساعته .

واستولى الرعب على قلوب من شاهدوا هذه الأعمال الطائشة وأخذ منهم
العجب كل مأخذ ، فقد اشتهر عطيل بينهم بحسن السيرة ، وكان طوال حياته
زوجاً محباً لزوجته ، حتى ابتلى بدسائس ذلك الرجل الدنيء الذي كان هو لنبله
لا يرتاب في أمره . لقد ضل عطيل سبيل الرشاد في حبه ، ولكنه كان مخلصاً فيه ،
ولما تبين له خطؤه في قتل زوجته تحدرت الدموع من عينيه كالطر المنهمر ، وهو
الذي لم يتعود من قبل البكاء لصغائر الأمور . ولما مات ذكر الناس شدة بأسه
ونبل أخلاقه . ولم يبق على من تولى قيادة الجيش من بعده إلا أن يأخذ
إياجو بذنبه ، فينفذ فيه حكم القانون من غير رحمة ، ويقضى بإعدامه وتعذيبه ،
وأن يرسل بعد ذلك إلى دولة البندقية يبلغها فجيعتها في قائدتها العظيم
الذائع الصيت .

پرکلیز امیر صور

خرج پرکلیز Pericles أمير صور من ملكه منفيا باختياره ليدراً عن بلاده شر النكبات المروعة التي كان أنتيكس Antiochus عاهل الإغريق الأثيم يريد أن ينكب بها مدينة صور وأهلها انتقاماً من هذا الأمير ، لأنه كشف عن فعل قبيح فعله هذا العاهل سرا . وبذلك تحقق مرة أخرى ما كان قد ثبت مراراً من قبل وهو أن الخطر كل الخطر في أن يفحص الإنسان عن الجرائم التي يرتكبها العظماء خفية . وأبحر پرکلیز من صور وترك أزمة الحكم في يدي وزيره القدير هلكينس Helicanus ، معترفاً أن يغيب عن بلده حتى يهدأ غضب أنتيكس ذي البطش الشديد .

وكانت مدينة طرسوس أول بلد يعمه ، وكان قد سمع أن هذه المدينة حل بها وقتئذ قحط شديد ، فأخذ معه مقادير عظيمة من الطعام ليدفع عن أهلها غائلة الجوع . ولما دخلها وجد أهلها في أشد حالات البؤس والفاقة ، فكان كأنه ملك من السماء جاء لها بهذا العون الذي لم يكن في الحسبان . ورحب به كليون Cleon حاكم طرسوس وشكر له حسن صنيعه . ولم يمس على پرکلیز في هذا المكان إلا بضعة أيام قليلة حتى جاءت رسائل من وزيره الأمين يحذره فيها من الخطر الذي يهدده إذا ظل في مدينة طرسوس ، وذلك لأن أنتيكس قد عرف مكانه وأرسل إليه في الخفاء رسلاً ليقتلوه ، فلما تسلم پرکلیز هذه الرسائل عاد إلى البحر مرة أخرى تشييعه دعوات جميع الشعب الذي أسبغ عليه نعمه وأطعمه من جوع .

ولكنه لم يبعد عن البر إلا قليلاً حتى ثارت في البحر عاصفة هوجاء ، هلك فيها كل من في السفينة إلا پرکلیز ، فقد ألقته الأمواج عارى الجسد على شاطئ مجهول ، التقى عليه بعد أن جاس خلاله بعض الوقت بجماعة من الصيادين الفقراء . ودعاه أولئك القوم إلى بيوتهم ، وقدموا له الماء واللبس وأخبروه أن بلادهم تدعى پنتپولس Pentapolis ، وأن ملكهم هو سمينيدس Simonides ، ويسميه القوم سمينيدس الصالح لأن البلاد تتمتع في عهده بالسلم الشامل والحكم الرشيد .

وعرف منهم كذلك أن لملكهم هذا بنتاً حسناء في مقتبل العمر ، يوافق غداً عيد ميلادها ، وأن احتفالاً فخماً سيقام بهذه المناسبة في قصر الملك ، يحضره جم غفير من الأمراء والفرسان ، أقبلوا من جميع أنحاء البلاد ليتباروا في ألعاب الفروسية حبا في تيسا Thaisa أميرتهم الحسنة . وبينما كان الأمير يستمع إلى هذا الحديث وهو أسف كل الأسف على ضياع درعه المتين ، وحرمانه بذلك من الاشتراك مع هؤلاء الفرسان الأبطال ، إذا بصياد آخر مقبل عليهم ومعه درع كامل الأجزاء أخرجه من البحر بشبكته ، وكان هو الدرع الذي فقده بركليز ، فلما رآه قال « أحمد الأقدار التي بعثت إلى بعد متاعبي كلها شيئاً أستعين به على صلاح حالي . لقد ورثت هذا الدرع عن أبي بعد وفاته ، ومن أجل أبي أعزه وأحتفظ به معي أينما ذهبت . وقد فرق البحر الهائج بيني وبينه فلما سكن رده إليّ ، وأنا شاكر له حسن صنيعه ، وما دامت هدية أبي قد ردت إليّ فإني لا أرى في تحطيم سفينتي كارثة حلت بي » وفي اليوم التالي جاء بركليز إلى بلاط الملك سمنيدس وعليه دروع أبيه البطل الشجاع ، وأظهر في المباراة العجب العجائب ، فلم يجد أدنى صعوبة في التغلب على الأمراء البواسل والفرسان الأنجاد الذين نازلوه ليفوزوا دونه بحب تيسا . وكان من عادة تلك الأيام أنه إذا تبارى المحاربون البواسل أمام الملوك ليفوزوا بحب بناتهم ، فإن الأميرة العظيمة التي تقام تلك الحفلات تكريماً لها تخص الفائز وحده باحترامها . ولم تخرج تيسا على هذه القاعدة ، فإنها صرفت من فورها جميع الأمراء والفرسان الذين غلبهم بركليز وميزته عنهم بحبها وتقديرها ، ووضعت على جبينه إكليل النصر . فكان في ذلك اليوم السعيد صاحب الحظ الأوفر ، وهام بحب الأميرة الحسنة من ساعة أن وقعت عينه عليها .

وأعجب الملك الصالح سمنيدس بشجاعة بركليز ونبل خلاله ، فقد كان رجلاً مهذباً يحذق كل الفنون العليا التي يزدان بها الأمراء ، ولهذا فإن سمنيدس حينما رأى ابنته مشغوفة بحبه لم يستنكف أن يقبله زوجاً لها ، وإن لم يكن يعرف شيئاً عن أصل هذا الفتى الغريب ، لأن بركليز كان يحرص على أن يخفي أمره لشدة خوفه من أنتيكس ، فأذاع أنه شاب عادي من أبناء صور .

ولم يمض على زواج پر كليز بتيسا إلا أشهر قلائل حتى تناهت إليه الأخبار بأن عدوه أتيكس قد مات ، وأن رعاياه أهل صور قد ملوا طول غيابه ، فهددوا بالثورة عليه ، وأخذوا يتحدثون جهرة بخلعه وإجلاس هلكينس على عرشه الشاغر . وكان الذى بعث إليه بهذا النبأ هو هلكينس نفسه ، لأنه وهو التابع الأمين لمولاه لم يقبل هذا المنصب السامى الذى عرض عليه ، وأرسل إلى پر كليز ينبئه بنية رعاياه حتى يعود إلى بلده ويستعيد حقه المشروع . ولشد ما دُهِش سمنيدس وسر حين عرف أن الفارس المجهول الذى تزوج ابنته هو أمير صور الذائع الصيت ، ولكنه مع ذلك أسف ألا يكون هذا الزوج الذى يحله ويعجب به رجلا من عامة الشعب كما كان يظن ، وذلك لأنه يوشك الآن أن يفارقه ويفارق ابنته المحبوبة التى كان يخشى أن يسلمها إلى أهوال البحار . وكان پر كليز نفسه يرغب أن تبقى زوجته مع أبيها ، ولكن هذه الزوجة المسكينة أصرّت على أن تصحب زوجها ، فلم يسعه إلا أن يوافق على ذهابها ، وهو يرجو أن يصلا بعد قليل من الوقت إلى مدينة صور .

ولم يكن البحر الصديق المسالم للأمير التعس پر كليز ، فقد هبت عليه وهو لا يزال بعيداً عن بلده عاصفة أخرى رهيبة انخلع لها قلب تيسا فمرضت ، وجاءت مريبتها لكريدا Lychorida بعد قليل من الوقت إلى الأمير تحمل بين ذراعيها طفلة صغيرة ، وتبلغه ذلك النبأ المحزن وهو أن زوجته قد فارقت هذا العالم حين خرجت الطفلة الصغيرة إليه . وقربت الطفلة من أبيها وقالت « ذلك شئ أصغر من أن يعيش فى هذا المكان ، هذا ولد الملكة الميتة » . وليس فى مقدور الإنسان أن يصف ما قاساه پر كليز من الألم والحسرة حين نقل إليه نبأ موت زوجته . ولما ذهب عنه الروح واستطاع النطق قال « أيها الأرباب لم تبعثون فى قلوبنا حب عطاياكم ثم تحتطفونها بعد ذلك منا ؟ » وأجابته لكريدا بقولها : « صبراً يا مولاي ! دونك هذه البنية وهى كل ما بقى لك من زوجتك الميتة ، أشفق على نفسك من أجلها ، ولتكن أكثر مما أنت رجولة ، اصبر يا مولاي على بلواك من أجل هذه الوديعة الثمينة » . وأخذ پر كليز الطفلة المولودة فى يديه وقال لها : « أرجو أن تكون حياتك سهلة ، فلم يلق طفل فى مولده من الهول ما لقيت ، ولم يتجههم العالم لمولد طفل

كما تجههم لك ، فليتك تحيين حياة طيبة هينة ، وليتك تسعدين في أيامك المقبلة ، فقد لقيت في مولدك من العذاب كل ما تستطيع أن تصبه عليك النار والهواء والماء والتراب والسماء ، وإن الخسارة التي أصابتك في أول ساعة من حياتك — يريد موت أمها — لأفدح من أن تعوضها لك جميع المسرات التي سوف تجدينها في هذا العالم الذي جئت اليوم لزيارته . »

وظلت الريح تعصف بالسفينة ، وجاء البحارة يطلبون إليه أن يأذن لهم بإلقاء جثة الملكة في اليم لأن من الأوهام التي تسيطر على عقول الملاحين أن العاصفة لا تسكن ما دام في السفينة جثة ميتة ، وقالوا له : « اصبر أيها الأمير لعل الله ينجيك » فأجابهم بقلب منفطر : « إن لدى من الشجاعة ما يكفي ، ولست أرهب العواصف فقد فعلت بي شر ما تستطيع ، ولكنني أرجو أن تهدأ ثأرتها حبا في هذه الطفلة المسكينة جواة البحار » . وقال له الملاحون : « يجب أن تلقى الملكة في اليم ، إن البحر هائج والريح تعصف ، ولن يسكن الإعصار حتى تزال الجثة التي على ظهر السفينة » . وكان پر كليز يعرف أن ذلك كله حديث خرافة ، ولكنه أذعن لما طلبوه وقال لهم : « ليكن ما تريدون ، ولتلق الملكة التعمسة في اليم . »

وذهب هذا الأمير البائس ليلقى على زوجته المحبوبة نظرتة الأخيرة ، فلما وقعت عينه عليها قال « لقد مت شر ميتة أيتها الزوجة العزيزة ، وليس إلى جانبك نار ولا نور ، ونسيتك عناصر الطبيعة القاسية كل النسيان ، وليس في الوقت متسع لأحملك مكرمة إلى قبرك ، بل لا بد أن ألقىك في البحر مهلهلة الأكفان ، تجاورين الأصداف وتقيم مياه البحر دون غيرها نصبا فوق عظامك . أي لكريدا ! مرى نسطر Nestor يأتني بالعطر والورق والمداد وآيتني وجواهرى ، ومرى نكندر Nicander يأتني بالتابوت الحريرى ، هيّا ضعى الطفلة على الوسادة وافعلنى من فورك ما آمرك به ، واطر كينى أصلى على تيسا صلاة الوداع » .

وجاءوا لپر كليز بصندوق كبير وضع فيه الملكة بعد أن لفها في كفن من الحرير ، ونثر عليها توابل ذات رائحة عطرة ، ووضع إلى جانبها جواهر ثمينة وورقة ذكر فيها حقيقة أمرها وطلب إلى من عساه يعثر على الصندوق الذى يحتويها

أن يعنى بدفنها ، ثم ألقى الصندوق فى الماء بيديه . ولما سكن البحر أمر الملاحين أن يوجهوا السفينة نحو طرسوس وقال : « إن الطفلة لا تستطيع العيش حتى تصل إلى صور ، وسأتركها فى طرسوس فى يدي من يعنى بأمرها » .

وفى الصباح الباكر ، بعد الليلة التى ثارت فيها هذه العاصفة الهوجاء ، جاء إلى شاطئ البحر كرمون Cerimon ، وهو طبيب ماهر من أطباء إفسوس Ephesus ومن خيرة أبنائها وأجلهم قدراً . وبينما هو واقف هناك إذا بخدمه يأتونه بصندوق قالوا إن الأمواج ألقته على البر ، وقال له أحدهم : « إنى لم أرى حياقي موجة فى حجم الموجة التى قذفت بهذا الصندوق إلى أرضنا » . وأمر كرمون أن يحمل الصندوق إلى داره ، وما كان أشد دهشته حين فتح أمامه وأبصر فيه سيدة حسناء فى مقتبل العمر ، ورأى إلى جانبها توابل ذكية ، وآنية مملوءة بالجواهر ، فاستدل من ذلك على أن الذى وضع فى الصندوق على هذا النحو العجيب إنسان جليل القدر . ثم أخذ يبحث فى الصندوق فعثر فيه على ورقة فهم منها أن الجثة التى يراها أمامه كاليتة جثة ملكة كانت زوجة پركليز أمير صور . ودهش أيما دهشة من هذه الحادثة العجيبة وأخذته الحسرة على هذا الزوج الذى فقد زوجته المحبوبة فقال : « إذا كنت حيا يا پركليز فإن قلبك الآن يتمزق من شدة الحزن » . وأخذ ينعم النظر فى وجه تيسا فرأى فيه نضرة لا يراها فى وجوه الموتى ، فلم يصدق أنها ميتة وقال : « إن الذين ألقوا بك فى اليم قد تعجلوا » . ثم أمر أن توقد النار ، وأن يؤتى له بأدوية منعشة ، وأن تعزف بعض الأنغام الموسيقية الهادئة ، حتى إذا ما عادت إليها الحياة هدأت روعها ودهشتها ، وقال للذين تجمعوا حولها مندهشين مما رأوا : « أرجو أيها السادة ألا تمنعوا عنها الهواء ؛ إن هذه الملكة ستحيا ، وهى لم تفقد حواسها منذ أكثر من خمس ساعات . انظروا ها هى ذى قد أخذت تنتعش فهى حية من غير شك . إن جفניה يتحركان ، وستحيا هذه السيدة الجميلة لتستدر الدمع من أعيننا حين نستمع إلى مأساتها » . وحقيقة الأمر أن تيسا لم تمت ، بل أصابها نوبة شديدة بعد أن ولدت طفلتها ، وظن كل من رآها أنها ماتت ، وبفضل عناية هذا السيد الرحيم أبصرت عيناها الضوء وعادت إليها الحياة ،

وفتحت عينها وقالت : « أين أنا وأين زوجي ؟ وأى عالم هذا ؟ » وأنبأها كرمون على مهل وفي رفق وهدوء بما جرى لها ؛ ولما ظن أنها قد أفادت بالقدر الذى تقوى به على الرؤية أظهر لها الورقة التى كتبها زوجها والحلى التى كانت معها ، فتأملتها وقالت : « تلك كتابة زوجي ؛ أما أننى كنت فى البحر على ظهر سفينة فهذا ما أذكره جيداً ، وأما أن طفلى قد ولدت هناك فأقسم بالآلهة المقدسين أننى لا أذكره ؛ وبما أننى لن أرى زوجي فسألبس ثياب الكاهنات . ولن يدخل السرور قلبى بعد اليوم » . وأجابها كرمون بقوله : « سيدتى ، إذا كانت هذه نيتك حقاً ، فإن معبد ديانا غير بعيد عن هذا المكان ، وفى وسعك أن تكونى كاهنة وتقيمى فيه ، وإن شئت فإن لى ابنة أخ تقوم فيه على خدمتك » . وقبلت تيسا هذا العرض شاكرة ، ولما ذهبت عنها كل آثار النوبة أدخلها كرمون معبد ديانا فصارت من كاهنات هذه الآلهة ، وقضت فيه أيامها تنذب زوجها الذى ظنت أنها لن تراه بعدئذ ، وتقوم بأقدس الواجبات الدينية التى كان يقوم بها الكاهنات فى تلك الأيام .

وحمل تركليز طفله الصغير إلى طرسوس وسماها مرينا Marina لأنها ولدت فى البحر ، وعقد النية على أن يتركها عند كليون Cleon حاكم المدينة وزوجته دينيزيا dionysia ظنا منه أنهما سيسفقان على تلك الطفلة اليتيمة جزاء ما له عليهما من يد فى أيام القحط الذى حل بالمدينة . ولما رأى كليون الأمير تركليز وسمع بالفاجعة التى حلت به قال له : « أسفى على زوجتك العزيزة ! ليت الآلهة قدرت أن تأتى بها إلى هذه البلدة لأمتع عيني بمرآها » ؛ وأجابه تركليز : « إن علينا أن نرضى بما تحكم به آلهة السماء ، ولو أننى غضبت وثرث كما يشور البحر الذى يضم رفات تيسا لما بدل ذلك من الأمر شيئاً ، وهذه ابنتى الصغيرة مرينا أرجو أن تعنى بها وتعطف عليها ، وأتوسل إليك أن تربيها كما يربى أبناء الملوك » ؛ ثم التفت إلى دينيزيا زوجة كليون وقال لها : « أرجو أن تعنى بتربية ابنتى فتسعدنى أنا بهذه العناية » ؛ فأجابته قائلة : « إن لى أنا نفسى ابنة مثلها ، ولن تكون هذه الابنة نفسها أعز على من ابنتك هذه » ؛ وقطع كليون على نفسه مثل هذا العهد فقال :

« إني سأرد إليك يا أمير پرکلیز فی شخص ابنتک ما قدمت لی من خیر حین أطعمت شعبي کله بقمحک ، وما لك علی هذا الشعب من ید ید کرها کل یوم فی صلواته . ولو أنني أهملت ابنتک لاضطرنی إلى أداء هذا الواجب شعبي الذي أنقذته من الهلاك ، ولتنزل نقمة الآلهة علی وعلى أبنائی ، ما دام لی أبناء ، إذا احتجت إلى من یحثنی علی الوفاء بهذا الدین » .

ولما أکد کلیون وزوجته دینیزیا لپرکلیز أنهما سيعنیان بابنته ، ترکها فی کنفهما وترك معها مریبتها لکریدا . ولم تکن مرینا الصغیرة تدرك ما أصابها من خسارة حین فارقتها پرکلیز ، ولكن لکریدا بکت بکاء مرار لفراق سیدها الملك ، وقال لها پرکلیز : « لا تذرفی الدمع یا لکریدا ، لا تذرفی الدمع واعتنی بسیدتک الأميرة التي قد ترعاک فی مستقبل الأيام » .

ووصل پرکلیز سالماً إلى صور ، وجلس مرة أخرى علی عرشه آمناً مطمئناً ؛ أما زوجته التي ظن أنها ماتت فكانت تقيم فی إفسوس ، وأما ابنته الصغیرة التي لم ترها هذه الأم البائسة فكانت تنشأ علی یدی کلیون تنشئة تلیق بکرم محتدها ، فقد رباهما أحسن تربية حتی إذا ما بلغت الرابعة عشرة من عمرها لم یکن أحد من کبار العلماء أدری منها بعلوم تلك الأيام . وكانت تغنی وترقص كأنها من آلهات السماء المخلدات ، وبرعت فی أعمال التطریز براعة مکنتها من محاكاة الطبیعة فی تصویر الطیر والفاکهة والأزهار ، ولم یکن الورد الطبیعی أكثر شبهاً بعبضه بعبض منه بورد مرینا .

فلما نالت بفضل العلم هذه المزايا العظيمة ، وأصبحت موضع إعجاب الناس جميعاً ، حسدتها دینیزیا زوجة کلیون ، وأصبحت من أشد الناس عداوة لها لأن ابنتها التي كانت بليدة العقل بطیئة الفهم لم تنبغ كما نبغت مرینا ، ولأنها وجدت هذه الفتاة تستأثر وحدها ببناء الناس وابنتها مهملة بالنسبة إليها ، مع أنها قد عنيت بتربيتها عنايتها بتربية مرینا نفسها ، ولكنها لم توفق فی عملها كما وفقت فی تربية ابنة پرکلیز . ولذلك عولت علی أن تبعد مرینا من طریقها ، ظناً منها أنها إذا غابت عن أعین الناس لقيت منهم ابنتها السيئة الحظ أكثر مما كانت تلقاه وقتئذ من

الإجلال . وكانت في هذا الظن مخطئة ، ولكنها صممت على الوصول إلى غرضها فسخرت رجلا لقتل مرينا واختارت لتنفيذ جرمها الساعة التي ماتت فيها لكريدا الوفية مربية هذه الفتاة .

وأخذت دينيزيا تتحدث إلى الرجل الذي أمرته بقتل مرينا حين كانت هذه الفتاة تبكي لموت لكريدا ، ولم تفلح أول الأمر في إقناع لينين Leonine الذي اختارته لتنفيذ جرمها بالإقدام على هذه الفعلة الشنعاء ، لأن مرينا كسبت عطف الناس جميعاً وحبهم ، وقال لها هذا الرجل : « إنها مخلوقة طيبة » ، فأجابته هذه العدو التي خلا قلبها من الرحمة والحنان : « وهى لهذا أجدر بأن تكون إلى جوار الآلهة ، هاهى ذى آتية والدمع يفيض من عينيها حزنا على موت مربيها لكريدا ، فهل أنت عازم على أن تطيع أمرى ؟ » وخشى لينين عاقبة عصيانه فقال : « سأطيع أمرك » . وبهذه العبارة القصيرة قضى على تلك الفتاة التي سمت على جميع أترابها أن تموت قبل الأوان .

وأقبلت مرينا وفي يدها سلة ملئت أزهارا ، وقالت إنها ستنتشرها كل يوم على قبر لكريدا الوفية ، وتجعل من البنفسج الأرجواني والأخوان بساطا فوق هذا القبر طوال أيام الصيف ، ثم تنهدت وقالت : « واحسرتاه ! ما أشقانى من فتاة ! لقد ولدت في عاصفة هوجاء قضت على حياة أمى ، ولا يزال هذا العالم يعصف بى ويختطف منى أصدقائى » . وقالت دينيزيا المخاتلة « عجباً لك يا مرينا ! أتبكين وحدك ؟ وكيف لا تكون ابنتى معك ؟ لا تحزنى على لكريدا فساً كون أنا مربيك بعدها ؛ إن هذا الحزن الذى لاخير فيه قد أثر في جمالك ، أعطينى هذه الأزهار فإن هواء البحر يذهب بنضرتها ، وروحى عن نفسك بالسير مع لينين . إن هواء البحر عليل وسينعشك ويفيدك كثيرا . تعالى إلى » ، خذ بيدها يا لينين وسر معها » . فأجابتها مرينا : « لا ياسيديتى ، أرجو ألا أكون سبباً في إبعاد خادمك عنك » . وكان لينين من خدم دينيزيا ، وكانت هذه المرأة الحبيثة تتلمس سبباً لترك مرينا وحدها معه فقالت لها : « تعالى يا مرينا ، تعالى ! إني أحب أباك الأمير وأحبك أنت ، ونحن في كل يوم نتوقع قدومه ، فإذا ما جاء ورأى أن الحزن قد بدل جمالك الذى لا يضارعه

جمال ، والذي طالما وصفناه في رسائلنا له ، ظن أننا لم نعن بك العناية الحققة ، ولهذا أرجو أن تروحي عن نفسك وتسيري مع لينين ، وتحرصي على هذا الوجه الجميل الذي سلب عقول الناس كبيرهم وصغيرهم . وتأثرت مرينا بهذا الإلحاح فقالت « سأذهب ، وإن كنت غير راغبة في الذهاب » . وقالت دينيزيا للينين وهي تبتعد عنها : « تذكر ماقلتك لك » ، أفاظ رهيبية معناها تذكر أن تقتل مرينا .

ونظرت مرينا إلى البحر مسقط رأسها وقالت : « هل الرياح التي تهب علينا دبور^(١) » فأجابها لينين ، « بل هي نكباء^(٢) جنوبية غربية » . وقالت مرينا : « لقد كانت الريح شمالية حين ولدت » . ثم عادت إلى ذاكرتها كل العواصف والزلازل وأحزان أبيها وموت أمها وقالت : « لقد حدثتني لكريدا أن أبي لم يخف قط ، بل قال للبحارة (الشجاعة الشجاعة أيها الملاحون البواسل) ، وأن الحبال قد سحجت يديه الناعميتين ، وأنه تعلق بالسارية في هذا البحر المتلاطم الذي كاديشق السفينة شقا » . وسألها لينين « ومتى كان ذلك ؟ » فأجابته مرينا : « كان ذلك حين ولدت . ولم يكن البحر والأمواج في يوم من الأيام أشد منهما في تلك الساعة » ، ثم أخذت تصف العاصفة وأعمال البحارة وصفير الرقيب ونداء الربان « الذي ضاعف من اضطراب السفينة » . وكانت هذه الصورة ماثلة في مخيلتها على الدوام لأن لكريدا كانت لا تفقأ تقص عليها قصة مولدها المشؤوم . وهنا قطع لينين عليها حديثها بأن طلب إليها أن تتلو صلواتها . وبدأ الخوف يدب في قلب مرينا لسبب لا تعلمه ، فقالت له « وماذا تقصد بهذا ؟ » فأجابها « إذا كنت في حاجة إلى بعض الوقت تصلين فيه فإني أمنحك إياه ، على ألا تكوني في ذلك بطيئة مملّة ، لقد أقسمت أن أسارع إلى القيام بعملي وإن آذان الآلهة لمرهفة » ، وسألته مرينا : « أتريد أن تقتلني ؟ ولأى سبب ؟ » وأجابها لينين « لأرضى سيدتي » ، وسألته مرينا : « ولم تريد سيدتك أن تقتلني ولست أذكر أنني أسأت إليها مرة في حياتي ؟ إنني لم أؤذ مخلوقا قط بكامة سيئة أو فعل ذميم ، وأؤكد لك أنني لم أقتل فأرا ولم أؤذ ذبابة . لقد وطئت قدمي

(١) تهب من جهة الغرب .

(٢) النكباء كل ريح انحرفت فوقعت بين ريحين .

على الرغم منى فى يوم من الأيام دودة كانت تدب على الأرض ، ولكننى تأملت لذلك وبكى ، فأى ذنب جنيت ؟ » وأجابها الرجل المكلف بقتلها « إننى مأمور بأن أنفذ القتل لا أن أجادل فيه » . وهم أن يقتلها ولكن جماعة من لصوص البحر نزولوا إلى الأرض فى تلك اللحظة ، ورأوا مرينا فاختطفوها وذهبوا بها أسيرة إلى سفينتهم .

وأخذ أحد القرصان مرينا لنفسه ، وذهب بها إلى متلين Mitylene وباعها فيها بيع الرقيق . وسرعان ما اشتهرت فى المدينة كلها بمجملها الرائع وأخلاقها الكريمة رغم حقارة مركزها . وأثرى الرجل الذى اشتهراها مما كانت تكسبه من المال ، فقد شرعت تعلم الموسيقى والرقص والتطريز وتعطى ما تكسبه من هذه الدروس إلى سيدها وسيدتها . وتناهت أخبار علمها وجدها إلى مسامع ليسمكس Lysimachus ، وهو فتى نبيل كان يحكم المدينة فى تلك الأيام . وذهب ليسمكس بنفسه إلى المنزل الذى كانت تقيم فيه ليرى هذه الفتاة التى هى آية من خلق الله ، والتى يشيد أهل المدينة كلهم بذكورها . وسر ليسمكس من حديثها غاية السرور وكان قد سمع الشئ الكثير عن هذه الفتاة الذى يعجب الناس كلهم بها ، ولكنه لم يكن يظن أنه سيجد فيها ما وجد من رقة الشعور وطهارة الخلق وطيبة القلب . ولما هم بمغادرة الدار قال لها إنه يرجو أن تظل محتفظة بمجدها ونبل خلاها ، وإنها إذا سمعت منه شيئاً بعد هذه المرة فسيكون ذلك خيرها . وظن ليسمكس أن مرينا قد أوتيت من رقة الشعور وجميل الخلق وكمال الخلق ونبل الصفات ورائع الجمال ما لم يؤت أحد من الناس ، وتمنى أن تكون له زوجة ، وكان يرجو أن تكون كريمة المحند على الرغم من حقارة شأنها ، لأنها كانت إذا سئلت عن أبويها ظلت صامتة وذرفت عيناها الدموع .

وعاد لينين إلى دينيزيا فى طرسوس وأخبرها بخوفه منها أنه قتل مرينا ، فأعلنت هذه المرأة الخبيثة أن الفتاة قد ماتت ، وأقامت لها مأتماً وشيدت لها قبراً فخماً . وبعد قليل من ذلك الوقت سافر پركليز من صور إلى طرسوس ومعه وزيره الأمين هلكينس ليشاهد ابنته ويعود بها إلى بلده . وما كان أشد سرور هذا

الأمير الكريم وهو يفكر في أنه سيرى ابنته العزيزة التي هي قطعة من زوجته الميتة ، والتي لم يرها قط من يوم أن عهد بها إلى كليون وزوجته ليعنيا بها . فلما نبى أن مرينا ماتت ، ورأى القبر الذي شيدوه لها ، ألم الحزن قلب هذا الأب البائس وفَت في عضده ، ولم يطق رؤية هذا البلد الذي أودع فيه آخر آماله وذكري زوجته العزيزة تيسا ، فركب سفينته وغادر مدينة طرسوس . واستولى الحزن على قلب الأمير من يوم أن ركب السفينة فلم يكلم قط أحداً ، وكان كأنه لا يدرك شيئاً مما يحدث حوله .

وصرت السفينة في رحلتها من طرسوس إلى صور بمدينة متلين ، حيث كانت مرينا . ورأى ليسمكس حاكم المدينة هذه السفينة الملكية مقبلة وأراد أن يعرف من بها ، فجاء إليها في زورق . وأحسن هلكينس استقباله ، وأخبره أن السفينة آتية من صور وأن على ظهرها أميرهم پركليز ، وزاد على ذلك أن هذا الأمير لم يكلم أحداً من ثلاثة أشهر ، ولم يذق طعاماً إلا بالقدر الذي يمسك عليه حياته ليطول أحزانه ، وأن قصة هذا الحزن طويلة مملة ، ولكن أهم أسبابه أنه فقد ابنة له عزيزة وزوجة . ورجا ليسمكس أن يرى هذا الأمير الحزون ، فلما وقعت عينه على پركليز أدرك أنه كان من قبل رجلاً وسيماً وقال له : « مرحباً بك أيها الملك ولترعك الآلهة ، مرحباً بك أيها الملك مرحباً » . ولكن پركليز ظل صامتاً ولم يرد على ليسمكس بكلمة ، كأنه لا يرى أحداً مقبلاً نحوه . وفكر ليسمكس في الفتاة الحسنة مرينا ، وظن أنها تستطيع بلسانها العذب أن تنطق الأمير الصامت بكلمة . ورضى بذلك هلكينس وأرسل في طلب مرينا ، وجاءت الفتاة إلى السفينة التي جلس فيها أبوها صامتاً جامداً لا يتكلم من شدة الحزن ، فأحسنوا استقبالها كأنهم كانوا يعرفون أنها ابنة مليكهم ، وقالوا إنها فتاة رائعة الحسن . وسر ليسمكس أن يسمعهم يثنون عليها وقال : « إنها كذلك حقاً ، ولو أنني كنت موقناً بأنها من أصل طيب لما تمنيت لنفسى زوجة غيرها ، ولا اعتقدت أنني أسعد الناس بزواجها » . ثم خاطبها بأرق الألفاظ كأنه يعلم أن هذه الفتاة الوضيعة في الظاهر هي السيدة الكريمة الأصل التي يتمناها لنفسه ، وسماها مرينا الحسنة الجميلة ، وقال لها إن

اميراً جليل القدر على ظهر تلك السفينة قد استولى عليه الحزن فعقد لسانه عن الكلام ، وطلب إليها أن تشفى هذا الأمير الغريب من حزنه ، كأن في قدرتها أن تهب الناس الصحة والهناء ؛ وأجابته مرينا : « مولاي ، سأبذل كل ما أوتيت من حذق لأشفيه من علته ، على ألا يسمح لأحد بالاقتراب منه إلا أنا وخادمتي »

وكانت هذه الفتاة وهي في متلين تحرص كل الحرص على أن تحفى عن الناس نشأتها الملكية ، لأنها تستحى أن يعرف أحد أن فتاة من بنات الملوك تباع ببيع الرقيق ، ولكنها الآن شرعت تقص على پركليز ما صادفته من النوائب وصروف الأيام ، وأخبرته بالمنزلة الرفيعة التي هوت منها إلى الحضيض . وكأنها كانت تعرف أنها واقفة بين يدي أبيها الملك ، فجعلت حديثها كله يدور حول أحزانها . ولكن الحقيقة أنها لم تفعل هذا إلا لعلها أن لا شيء يسترعى انتباه البائسين أكثر من الحديث عن مصائب شبيهة بمصائبهم . ونبه صوتها العذب الأمير المحزون من غفلته فرفع عينيه اللتين ظلتا زمناً طويلاً ثابتتين لا تتحركان . وكانت مرينا صورة من أمها لا تفترق عنها في شيء ، فرأت عيناه الحائرتان في وجهها ملامح الملكة الميتة . وسمع صوت هذا الأمير الذى ظل صامتاً زمناً طويلاً يقول : « ما أشبه زوجتى العزيزة بهذه الفتاة التى قد تكون هى ابنتى ، فهى مثلها فى اتساع جبهتها ، وطولها ، واعتدال قامتها ، وصوتها العذب الرقيق ، وعينها الشبهتين بالجوهريتين ... أين تسكنين أيتها الفتاة ؟ ومن هما أبواك ؟ ألم تقولى إنك قد تقلبت بين الظلم والأذى ، وإنك تعتقدين أن أحزانك قد تكون شبيهة بأحزاني إذا ما رفع القناع عنهما ؟ » فأجابته مرينا قائلة : « لقد نطقت بما يشبه هذا ، ولم أنطق إلا بما ظننت أنه قد يكون صحيحاً » ؛ ورد عليها پركليز بقوله : « قصى على قصتك ، فإذا رأيت أنك قد قاسيت جزءاً من ألف جزء مما قاسيت ، فإنك تكونين قد صبرت على بلواك صبر الرجال ، وأكون أنا قد جزعت جزع النساء ! إن الذى يراك ليظنك تمثالاً للصبر يحقد بعينه إلى قبور الملوك ، ويسم للشدائد فيسلبها قوتها ويتركها ضعيفة عاجزة ... كيف فقدت اسمك يا أرحم من رأيت من العذارى ؟ أتوسل إليك أن تقصى على قصتك ؛ تعالى واجلسى إلى جانبي » .

وما كان أشد دهشة پركليز حين قالت إن اسمها مريينا ، فقد كان يعرف أن ليس هذا اسما عاديا بل كان اسماً اخترعه هو لابنته ليدل على أنها ولدت في البحر . وقال عند سماعه « إني لُيُستهزأُ بي ! لقد بعث بك إلى هذا المكان إله غضب ليضحك العالم على » . وردت عليه مريينا قائلة : « صبراً يا مولاي وإلا وقفت عند هذا الحد » . فقال لها پركليز : « سأصبر ، ولكنك لا تعرفين كيف تدهشينني حين تسمين نفسك مريينا » . فأجابته « لقد سماني بهذا الاسم رجل كان له بعض السلطان وهو أبي ومليكي » . فصاح پركليز مندهشاً « أنت ابنة ملك ؟ وتسمين مريينا ؟ أنت من لحم ودم ؟ ألسنت من بنات الجن ؟ واصل حديثك وقولي أين ولدت ؟ ولم سميت مريينا ؟ » .

فأجابته « لقد سميت مريينا لأنني ولدت في البحر ، وكانت أمي ابنة ملك توفيت في اللحظة التي ولدت فيها ، هكذا حدثتني مرييتي الطيبة لكريدا وهي تبكي . وقد تركني أبي الملك في طرسوس حتى سعت زوجة كليون القاسية إلى قتلي ، وجاء جماعة من لصوص البحر فأنجوني وأتوا بي هنا إلى متلين . ولكن أي شيء يبيئك أيها السيد الكريم ؟ لعلك تظنني مدعية ، ولكنني أوكد لك يا مولاي أنني ابنة الملك پركليز إذا كان الملك پركليز الصالح لا يزال حيا » . وكان پركليز قد ارتاع من سروره المفاجئ العظيم ولم يصدق أن ماسمعه حق ، فصاح بأعلى صوته مناديا خدمه . وسر هؤلاء حين سمعوا صوت مليكهم المحبوب وقال هو هلكينس « أي هلكينس ! اضر بني ، واجرحني ، واعمل من فورك على إيلاي لكيلا يكتسحنني هذا السيل الجارف من السرور فيقضي على حياتي . تعالى إلى يا من ولدت في البحر ودفنت في طرسوس ، ولقيت في البحر مرة أخرى . أي هلكينس أجت على ركبتيك شكرا للآلهة المقدسين ، هذه مريينا ، بوركت يا ابنتي . ائتني بثياب جديدة يا وزيرى هلكينس . إنها لم تمت في طرسوس كما كانت تريد دينيزيا المتوحشة ، وستخبرك هي بكل شيء حين تركع أمامها وتدعوها أميرتك » . وفي هذه اللحظة أبصر ليسمكس لأول مرة فقال « من هذا ؟ » فأجابه هلكينس « هذا حاكم متلين سمع بحزنك فجاء ليراك » . فقال پركليز « إني أضمك يا سيدي

إلى صدرى . إيتونى بملابسى ، لقد شفيت حين نظرت ولتبارك السماء ابنتى .
أنصتوا ! ماهذه الأنغام الموسيقية ؟ » قال هذا وقد خيل إليه فى تلك الساعة أنه يسمع
نغمات موسيقية عذبة قد تكون موسيقى حقة بعث بها إليه رحيم ، وقد تكون من
خلق خياله حين أفعم قلبه غبطة وسرورا . وأجابه هلكينس « مولاي ، إني
لا أسمع شيئا » ؛ فقال پركليز « ألا تسمع شيئا ؟ إنها إذن موسيقى الأفلاك » . ولم
يكونوا فى ذلك الوقت يسمعون أصواتا موسيقية ، فاعتقد ليسمكس أن سرور الملك
قد ذهب بعقله وقال : « ليس من الحكمة أن نعارضه ، فليكن ما يريد » ، ثم قالوا
له إنهم يسمعون موسيقى حقيقية . وقال الملك إن النعاس يغالبه فنصح له ليسمكس
أن يستريح على أريكة ، ووضع تحت رأسه وسادة . ونام الملك لفرط سروره نوما
عميقا ، وجلست مرينا إلى جانب أبيها وهو نائم لتغنى به .

ورأى پركليز فى منامه حلما لم يسعه معه بعد أن استيقظ إلا أن يصمم على
السفر إلى إفسوس . فقد رأى هذا الملك أن ديانا إلهة الأفسوسيين جاءت وأمرته أن
يأتى إلى معبدها فى إفسوس ويقف أمام المذبح ويقص تاريخ حياته وأحزانه عليها ،
وأقسمت بقوسها الفضية أنه اذا فعل ما تأمره به ، نال خيرا كثيرا لم يكن يتوقعه .
فلما استيقظ الملك منتعشا مسرورا أخبر من حوله بما رأى فى نومه وبغزمه على أن
يطيع أمر الإلهة .

ثم دعا ليسمكس پركليز أن ينزل إلى البر ليمتع نفسه بما يجده فى متلين من
تسليه . وقبل پركليز هذه الدعوة الكريمة ، واتفق أن يقيم معه يوما أو يومين ،
أقيمت فيهما المآدب الاحتفالات الفخمة ، ولقى فيهما من كرم الضيافة والبهجة
ما فى وسع حاكم متلين أن يقيمه للملك العظيم . ولم يمانع پركليز قط فى خطبة
ليسمكس لابنته ، حين علم ما لقيته عنده من الإكرام يوم كانت فتاة صغيرة
الشأن ، وأيقن أن مرينا نفسها لم تعارض فى هذه الخطبة . وكل ما اشترطه عليه
قبل أن يوافق على الزواج أن يحجا إلى مزار ديانا فى إفسوس . وبدأ ثلاثتهم رحلتهم
إلى هذا المعبد بعد وقت قصير ، وأرسلت الإلهة نفسها ريحا طيبة ملأت بها شراع
السفينة ، فوصلوا إلى مدينة إفسوس سالمين بعد رحلة استغرقت بضعة أسابيع .

وكان الرجل الصالح كرمون الذى أعاد الحياة إلى تيسا زوجة پركليز يقف إلى

جوار مذبح الإلهة ديانا عندما دخل المعبد پر كليز ومن معه ، وكان في هذا الوقت قد تقدمت به السن كثيراً .

وكانت تيسا إحدى كهنتات المعبد واقفة أمام المذبح ، فلما رأت پر كليز اعتقدت أنها ترى فيه ملامح زوجها ، وإن كانت السنون الطوال التي قضاها حزيناً عليها قد بدلت مظهره كثيراً . ولما قرب من المذبح وبدأ يتكلم ، تذكرت صوته وأصغت إلى حديثه في دهشة وذهول تخالطهما الغبطة الشديدة . وهذه هي الألفاظ التي فاه بها : « أي ديانا ! هاأنذا قد أتيت طوعاً لأوامرك العادلة ، وأقر أمامك أنني أنا أمير صور الذي خرج خائفاً من بلده وتزوج في پنتپلس بتيسا الحسنة ، ثم ماتت زوجته في عرض البحر ، ولكنها خلفت له طفلة أنثى تدعى مرينا ربيت في طرسوس عند دينيزيا . ولما بلغت الرابعة عشرة من عمرها دبرت هذه السيدة قتلها ، ولكن حظها الحسن ساقها إلى متلين ، ثم جاء بها بعدئذ إلى السفينة التي كنت أركبها حين مرت بهذا البلد ، واستطاعت بفضل ذاكرتها القوية الصافية أن تُعرفني بأنها ابنتي » .

ولم تستطع تيسا أن تتحمل نشوة الفرح التي تملكها حين سمعت هذه العبارات ، فصاحت قائلة : « إنك أنت ، إنك أنت مليكي پر كليز » ! ثم وقعت مغشياً عليها . وقال پر كليز : « ماذا تقصد هذه المرأة ؟ » وقال كرمون : « إنها تموت أيها السادة ، فساعدوني أعد الحياة إليها ، وإذا كنت يا سيدي صادقاً فيما حدثت به معبد ديانا فهذه زوجته » . وأجابه پر كليز : « كلا أيها السيد المبجل ، لقد ألقيتها في البحر بيدي هاتين » . وأخذ كرمون يقص عليه كيف قذفت أمواج البحر على شاطئ إفسوس بهذه السيدة في صباح أحد الأيام العاصفة ، وكيف فتح التابوت ، فوجد فيه جواهر ثمينة وورقة مكتوبة ، وكيف أسعده الحظ بإعادة الحياة إليها ووضعها في معبد ديانا » . وأفاقت تيسا من نوبتها في تلك الساعة فقالت : « سيدي ! أأنت أنت پر كليز ؟ إنك مثله في حديثك وفي هيئتك ... ألم تذكر عاصفة ومولدا ومماتا ؟ » .

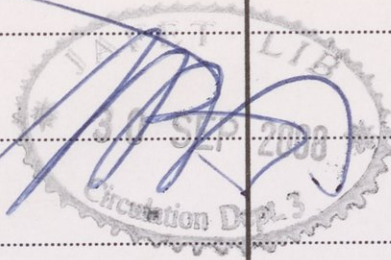
وقال پر كليز في دهشة شديدة « ذلك صوت تيسا الميتة » . وقالت هي « وأنا تيسا هذه التي ظننتموها غرقت وماتت » . وصاح پر كليز وقد تملكته نشوة من

التقى ممزوجة بالدهشة « ما أصدقك يا ديانا ! » وقالت تيسا « والآل قد زاد علمي بك ، إن هذا الخاتم الذى أراه فى إصبعك أعطاك إياه والذى الملك حين افترقنا عنه فى بنتيلس والدموع تفيض من عيوننا » ؛ وصرخ پركليز قائلاً : « حسبك هذا أيتها الآلهة ؟ إن هذه الرحمة قد ذهبت بجميع آلامى الماضية وجعلتها كلها لهواً وعبثاً ، تعالى إلى يا تيسا لأضمك إلى صدرى مرة ثانية » ... وقالت مرينا : « إن قلبى يكاد يقفز من بين جنبي شوقاً إلى أمى لتضمنى إلى صدرها » . ثم أخذ پركليز ابنته إلى أمها وهو يقول : « انظرى يا من تركعين هنا إلى فلذة كبديك ، إلى ابنتك التى ولدت على سطح الماء وسميت مرينا لأنها خرجت إلى الدنيا فى البحر » . وقالت تيسا : « سعدت يا ابنتى » . وبينما كانت هى تعانق مرينا كان پركليز راكعاً أمام المذبح يناجى ديانا بقوله : « أى ديانا الطاهرة ! إني أحمد لك رؤياك ، وسأقدم لك من أجلها النذور فى كل ليلة » . وفى هذه الساعة أعلن پركليز رسمياً زواج ابنته مرينا بليسماكس أجدر الناس بها ، ووافقت تيسا على هذا الزواج .

وهكذا يضرب پركليز وزوجته وابنته أروع الأمثال للفضيلة التى نابتها خطوط الزمن بإذن من آلهة السماء لتعلم بنى الإنسان الصبر والثبات . لقد خرجت الفضيلة آخر الأمر ظافرة بهدى هذه الآلهة نفسها فانتصرت على نوائب الدهر وصروف الزمان . ولقد كان هلكينس خير مثال للصدق والإخلاص والوفاء ، فقد كان فى وسع هذا الوزير أن يجلس على العرش ، ولكنه آثر أن يدعو إليه صاحبه الشرعى على أن يرتفع إليه بإيذاء غيره . وفى كرمون الرجل الكريم الذى أعاد الحياة إلى تيسا نرى كيف تحسن الأخلاق الكريمة إلى الناس إذا اهتمت بنور العلم فتسمو بأصحابها إلى مصاف الآلهة العظام . ولم يبق من قصتنا إلا أن نقول إن دينيزيا الأثيمه زوجة كليون قد لاقت جزاء ما جنت يداها . ذلك أن أهل طرسوس ، لما علموا بما دبرته من الشر لمرينا ، ثاروا عليها انتقاماً منها لابنة الأمير الذى أحسن إليهم ، وأضرموا النار فى قصر كليون وحرقوه هو وزوجته وأهل بيتهم جميعاً . وكأن الآلهة قد سرها أن تلقى هذه الجريمة الشنيعة ما تستحقه من العقاب الصارم ، وإن لم تخرج من دور التفكير إلى دور التنفيذ .

تصويب

ص	سطر	خطاً	صواب
٢٥	٤	تكن	يكن
٥٤	٢٥	الفتاتان	الفتاتين
٥٧	١٥		اتفقتا
٦١	١٧	فتصنعون	فتصنعوا
٨٣ ، ٩٤	٤ ، ٢٤	السرى	الثرى
٨٤	٢٢	السرية	الثرية
١٠٢	١٧	الغليظين	الغليظتين
١١٠	١٦	ينبث	ينبس
١٢٨	٧	دعيا	دعوا
١٢٨	٨	دعوه	دعوهم
١٣٧	١٢	إنه	أنه
١٤٥	٢٢	له	لها
١٧٧	١	وأقسم لك	وأقسم لك بشرفي
١٨٤	١٤	لتشتري به	لتشتري بها
٢٠٥	٥	خمسـة آلاف	خمسـة
		تالت	التالـتات
٢٠٥	٦	خمسـين ألف	خمسـين
		تالت	تالتا
٢٠٦	٦	صفحة	صفحه
٢٠٧	٥	خمسـين ألف	خمسـين
		تالت	تالتا
٢١٠	٦	وهو يحفر	وهو يحفر الأرض
٢١٤	١٥	ويدرك إن	ويدرك أن
٢١٧	٢٣	التي	اللاتي
٢٢٢	٤	أذرقها	ذرقها
٢٢٤	٢٤	وإعاد	وأعاد
٢٤٨	٢٢	وكان	وأن

[illegible]

بدراڻ، محمد

قصص من شيكسبير

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031922

